نشر مصطفى صادق الرافعي

الطبعة الاولى
1968

نثر مصطفى صادق الرافعي

تأليف

ضيف الله م. ح. م.

ماجستير في اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر

دار ومكتبة الشركة الجزائرية
للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر
لأصحابها مرازقة وبوداود وشركائهما
الجزائر - ٢٤ شارع عزون هاتف ٥٦-٧٦-٦٢

نوقشت هذه الرسالة في 1963/7/8

كلية الآداب - جامعة القاهرة، وفازت

بدرجة الماجستير بتقدير : جيّد جداً

تصدير

مجهودان فقط أخرجا هذه الرسالة على ما هي عليه :

١ ـ مجهود الدكتور شوقي ضيف ، الاستاذ المشرف على الرسالة .

٢ ـ مجهود الدكتور عبد الحميد يونس،والدكتور يوسف خليف ، اللذين شاركا الاستاذ المشرف في مناقشة الرسالة ، وأبديا من الملاحظات ما كان قد خفي عني أثناء إعداد الرسالة.

أما مجهودي الخاص ، فلا يعدو الجمع والترتيب والتنسيق والأسلوب ، وبعض الأسفار الثقيلة ، من هذا القطر الى ذلك، ثم هذه السنوات الخمس التي عشتها في البحث والدرس ، حتى تجلى لي الرافعي في بيانه وأسلوبه ومراميه البعيدة ، ثم في نزعاته النفسية والفكرية ، واتجاهاته الأدبية .

نوقشت الرسالة باسم (ابن سعد المبروك بن مسعود) وطبعت باسم (ضيف الله محمد الأخضر بن مسعود) . والاسمان لشخص واحد .

في آخر هذه الصفحات تعقيب(١) لم يكن في الأصل عند مناقشة الرسالة ، والسبب سيتجلى أثناء قراءته .

وهران 1965/3/1

---

١ ـ انظر الصفحة ٢٧٩

مقدمة

١ ـ دواعي الرسالة

٢ ـ المنهج

٣ ـ المصادر

دواعي الرسالة

حبب الى نفسي الكتابة عن الرافعي أمور عديدة : فهو أديب ممتاز بأسلوبه وبيانه ، ثم هو عربي شديد الايمان بعروبته ، ومسلم شديد الايمان بإسلامه ، وهو من أصحاب الفكر الدقيق الذين يملأون النفس اعجابا بما يكتبون . وقد مثل في الأدب العربي الحديث منزع المحافظين ، وظل يدافع عن حصون القديم دفاعا مجيدا . وشخصيته لذلك كله شخصية غنية ، خليقة بالبحث والدرس . ومن أجل ذلك أقبلت عليه أدرسه وأبحثه ، ورأيت أن جوانبه كثيرة . فقد كان شاعرا وكان ناثرا ، فاخترت نثره موضوعا لدراستي .

وبعد الاعتكاف الطويل الذي دام قرابة خمس سنوات ، وبعد المجهودات المتواصلة أشعر بأني وصلت إلى نتائج قيمة عن أدبه وخصائصه الفنية : لغوية كانت أو بيانية . وأشعر كذلك بأني قد أديت بعض الواجب نحو نفسي ونحو الأدب العربي ، ثم نحو هذه الشخصية الممتازة ، شخصية الرافعي .

والرسالة إذ تتحدث عن هذا الموضوع ، انما رائدها تحقيق عمل مثمر نزيه ، خال من كل عاطفة ، ومجرد من كل ميل .

المنهج

قسمت البحث إلى ستة فصول ، كل فصل يتناول جانبا من الجوانب التي تتصل بالموضوع ، ولم أعول كثيرا على المنهج التاريخي ، لأنه يعتمد على الترتيب الزمني ، وهذا قد يتعارض ووحدة الفكر التي هي أساس كل بحث .

وقد بحثت في الفصل الاول حياة الرافعي الخاصة من لدن نشأته الى مماته . ودرست في الفصل الثاني والثالث والرابع آثاره النثرية الثلاثة : اللغوية والأدبية والنقدية . وفي الفصل الخامس تحدثت عن مكانة الرافعي الأدبية ومنزلته بين المجددين والمقلدين . أما الفصل السادس والأخير ، فقد تحدثت فيه عن خصائص الرافعي الفنية : بيانية ولغوية ، ثم رأيت أن أختم الرسالة بخلاصة موجزة عما جاء فيها من آراء وأفكار لتكون كالمرآة لكل ما حوته .

المصادر

كل المصادر التي اعتمدت عليها عربية خالصة ، لأن الرافعي من رجالات العصر الحديث ، ولذلك لم يكتب عنه أحد باللغة الأجنبية ــ فيما أعلم ــ سوى بيراز وبروكلمان ، ولكل منهما طريقة خاصة لا تفيد الباحث في مثل هذا الموضوع . أما الاول فكان منهجه أن يترجم المؤلف ترجمة موجزة باللغة الفرنسية ، ثم ينقل بعض إنتاجه شعرا أو نثرا باللغة العربية ، ويشرح ما عسر من اللفظ باللغة الفرنسية في أسفل الصفحة .

وقد نقل للرافعي قطعة شعرية من كتاب آداب العصر ،

ومقالة نثرية من وحي القلم في الاشتراكية(١) . وأما بروكلمان فكانت طريقته كما هي معروفة ، طريقة الاستقصاء والحصر . يستقصي آثار المؤلفين ويحصرها حصراً ، ثم لايتدخل فيها لا بالشرح ولا بالنقد . ومن هذه الناحية ، بعدت عن البحث التحليلي ، والدراسة الاستنتاجية .

وهاتان الطريقتان : طريقة يبراز وطريقة بروكلمان ، حالتا بيني وبين الاستفادة مما كتبا عن الرافعي .

أهـم المصـادر

١ ـ كتب الرافعي جميعها ، ، وقد حصرتها في أربعة أنواع :

أ ـ لغوية : تاريخ آداب العرب . إعجاز القرآن .

ب ـ أدبيـة : حديث القمر ـ المسـاكين ـ رسائل الأحزان ـ السحاب الأحمر ـ أوراق الورد . ثم وحي القلم .

ج ـ نقـدية : تحت راية القرآن ـ على السفود .

د ـ شعرية : ديوان الرافعي ، ديوان النظرات(٢) .

٢ ـ حياة الرافعي : كتاب ضخـم ألفه الاستاذ محمد سعيد العريان بعد موت الرافعي بنحو سنة ، تناول فيه حياة المؤلف من لدن نشأته إلى مماته ، كما تناول بطريقة موجزة أدبه واتجاهاته الفكرية والعقلية .

٣ ـ رسائل الرافعي : مجموعة رسائل كان الرافعي قد بعث بها إلى صديقه محمود أبي رية ، فرأى هذا الصديق

---

1 — La Litterature Arabe - P 114 - 215 - IMP. Ty Lo - Lito. Alger 1955

٢ ـ ديوان الرافعي في ثلاثة اجزاء وديوان النظرات في جزء واحد هو الجزء الاول . انظر حياة الرافعي ص ٥٠ ورسائل الرافعي ص ٦١ ـ ٧٥ ـ ٢٤٨ .

أن ينشر ما هو صالح للنشر، فاختار ثماني عشرة ومائتين من خمسين وثلاثمائة رسالة ، فجاءت معبرة أصدق تعبير عن خلجات نفسه ، وما يكنه بين جوانبه ، لأنه ضمنها كل ما كان يشعر به دون مواراة أو تستر ، إذ لم يكن يتوقع أن تنشر بعد موته، وهي لذلك تعد المرآة الحقيقية لنزعاته النفسية واتجاهاته الفكرية .

٤ ـ الأدب العربي المعاصر للدكتور شوقي ضيف ، يشتمل على كثير من المتفرقات عن حياة الرافعي وأدبه وعقيدته.

٥ ـ دراسة في أدب الرافعي للباحثة نعمات أحمد فؤاد : كتاب صغير إلا أنه مفيد للباحث ، لأن المؤلفة انساقت فيه مع العاطفة وابتعدت عن منهج التأليف الجامعي ، ولذلك أصبح الكتاب عرضة للنقد والطعن .

٦ ـ المجلات والصحف : الهلال ـ المقتطف ـ الزهراء ـ العصور ـ الثريا ـ الأهرام ـ المساء . .



الفصل الأول

حياة الرافعي

نشاته : صممه المبكر – في الوظيفة
نشاطه : الأدبي – الصحفي – وفاته

نشـاتـه

ولد مصطفى صادق الرافعي في يناير سنة ١٨٨٠ ببلـدة بهتيم[١] لعالم ديني هو الشيخ عبد الرازق الرافعي الذي تقلب في مناصب القضاء إلى أن أصبح آخر الأمر رئيسا للمحكمة الشرعية بطنطا .

اشتهر أبو الرافعي بالصلاح والتقوى ، كما اشتهر أيضا بصفاء العقيدة والغيرة على الدين الحنيف . وقد أحصوا له حوادث كثيرة عن تحمسه لدينه والدفاع عنه ، وبعضها يخرج عن مألوف العادات والتقاليد ، كهذه التي تتعلق بآكل رمضان . فقد كان الشيخ عبد الرازق في عصر يوم من أيام رمضان في الطريق الرئيسي بمدينة طنطا ، فإذا هو يبصر عن مقربة منه رجلا (ينفث الدخان من فمه وبين اصبعيه دخينة ، فما إن رأى الشيخ ذلك المنظر حتى انقض على الرجل وأمسك بثيابه ، وأمر أن يساق أمامه إلى حيث تولى حده بنفسه على إفطاره في شهر رمضان في الطريق العام)[٢]

---

١ – احدى قرى القليوبية بمصر .
٢ – حياة الرافعي ص ٢٦

ومات أبو الرافعي موتة غامضة : غامضة في تاريخها ، وغامضة في نوعها ، إذ لم يتحدث عن موته أحد ممن كتبوا عن الرافعي ، بل إن الرافعي نفسه لم يذكر عن وفاة أبيه أو تاريخ وفاته شيئا ٠ والسبب في ذلك غامض كل الغموض، لأن المعهود عن الرافعي الأخلاق والاخلاص لأهله وأسرته وأبويه ٠ غير أننا نستطيع بالمقارنة والاستنتاج أن نقرر جازمين بأن موتة أبي الرافعي كانت موتة طبيعية وليدة السنين الطوال ، وأن تاريخ وفاته كان إما سنة ١٩١٨ أو ١٩١٩ ذلك أننا وجدنا حديثين للرافعي عن أبيه ، فالأول في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٨ والثاني في ٩ يوليه ١٩١٩

قال في الأول بعد أن أبدى رأيه في ترادف السجع : (هذا ما يحضرني ، وكنت راجعت أمس الكشاف للزمخشري وتفسير الطبري الكبير ، فلم أجد لأحدهما كلاما في هذا المعنى ٠ وأظن أن الفخر الرازي ربما تكلم فيها ، وتفسيره عند فضيلة الوالد)[١] ٠ فقوله : وتفسيره عند فضيلة الوالد ، كلام يفهم منه ، أن الوالد لا يزال حيا يرزق ٠ وهذا لا مجال للشك فيه ٠ وقال في الثاني (لم يبق إلا القصيدة التي سأرثي بها المرحوم أبي)[٢]

واذن فقد مات أبو الرافعي في إحدى هاتين السنتين ١٩١٨ – ١٩١٩ فيكون عمر الرافعي آنذاك إما ٣٨ أو ٣٩ سنة ، لأن الرافعي ولد كما مر بنا سنة ١٨٨٠

عرفت الأسرة الرافعية منذ عرفت بنزعتها الدينية وتشبثها بعقيدتها الاسلامية٠ ويبدو أن هذه النزعة الاسلامية انحدرت إليها من الجد الأعلى عمر بن الخطاب٠ وكان صاحبنا الرافعي يذكر هذا النسب في شيء من الاعتزاز والتعالي ، فمرة بالتصريح ، وأخرى بالتلميح ٠ فمن المثال الأول قوله : (من فضل الله على

---

١ – رسائل الرافعي ص ٤٥ ٠

٢ – رسائل الرافعي ص ٦٣

أسرتنا أن نسبنا يتصل بعمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ورضي عنا بهم)[١] .

ومن المثال الثاني قوله يخاطب صاحبته مي بأسلوب التجريد[٢] : (أما هذا الصديق فأعرفه أسلوبا من الكبر ، ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ، ولكن في نفسه ، كأنما فتحت أفواه عروقه جنبينا وملأتها الوراثة من دم ملك كان في أجداده)[٣] .

أدركت الأسرة الرافعية قيمة نسبها فتمسكت به وعملت له ، فإذا هي حيث هي علما ودينا وتقى . وكانت هذه الأسرة تلقب بلقب اليساري ، ثم حدث أن عبد القادر الرافعي المتوفى سنة ١٢٣٠ هجرية ، وهو الجد الأكبر لهذه الأسرة ، اتصل بالشيخ محمود الكردي الخلوتي في القاهرة ، فرأى فيه علما واجتهادا فلقبه بالرافعي تشبيها له بعالم ديني آخر ظهر في القرن السادس للهجرة مع المجددين مثل الفخر الرازي . وإليها أشار السيوطي في أرجوزته التي ضمنها أسماء المجددين في الاسلام في كل قرن .

السادس الفخر الامام الرازي　　والرافعي مثله يوازي[٤]

وكان الاستاذ العريان والرافعي لايجزمان هذا الجزم الذي أثبت عن تاريخ لقب الأسرة ، وإنما كانا يذكران الصلة أو السبب دون تحديدهما تحديدا نطمئن إليه .

قال العريان : (واسم الرافعي معروف في تاريخ الفقه الاسلامي منذ قرون ، وأحسب أن هناك صلة ما بين أسرة الرافعي في طرابلس الشام وبين الامام الرافعي المشهور صاحب الشافعي) .

---

١ ـ ديوان النظرات ج ١ ص ١٠٣
٢ ـ رسائل الاحزان ص ٥
٣ ـ رسائل الاحزان ص ١٥
٤ ـ المجددون في الاسلام ص ٢١٥

ويقول : (وقد سألت الرافعي مرة عن هذه الصلة ، فقال : « لا أدري ، ولكني سمعت من بعض أهلي أن أول ما عرف منها بهذا الاسم شيخ من آبائي كان من أهل الفقه ، وله حظ من الاجتهاد والنظر في مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعي تشبيها له بالامام الكبير الشيخ محمود الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية)[1] .

ها نحن نرى قوله : (لقبه أهل عصره) فهو كلام مرسل غير محدد ، ففي أي سنة ؟ ومن هو رأس هذه الأسرة الذي لقب بهذا اللقب ؟ ومن الذي لقبه ؟

كل هذه الأسئلة لم نجد لها أجوبتها عند العربان وعند الرافعي ، وهذا لايضيرهما ، لأنهما لم يقولا إلا ما سمعا . وهما من هذه الناحية راويان عن سمع لا عن عيان .

وأسرة الرافعي لبنانية الأصل ، نزحت إلى مصر في آخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وكان (أول وافد منها هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعي . قدمها في سنة ١٢٤٣ هجرية[2] ليتولى قضاء الحنفية في مصر ، بأمر من السلطان العثماني في الآستانة ... ثم توافد بعده إخوته وأبناء عمومته الى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبي حنيفة ، حتى آلى الأمر من بعد أن اجتمع منهم في زمن ما أربعون قاضيا في مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعي . وقد تنبه اللورد كرومر الى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره الى وزارة الخارجية الانجليزية)[3] .

ومناصب القضاء لها خطرها وحرمتها في نفوس المسلمين ، لأنها مناصب دينية ،

---

١ ـ حياة الرافعي ص ٢٦

٢ ـ بمقارنة السنة التي توفي فيها رأس الاسرة الذي لقب بلقب الرافعي وهي سنة ١٢٣٠ وبين رأس الأسرة القادم الى مصر سنة ١٢٤٣ نجد الفرق لا يكاد يذكر بين الفترتين .

٣ ـ حياة الرافعي ص ٢٤

وهي لذلك لاتسند إلا لمن اشتهر بالاخـلاص والعلم والورع ، وتوفرت فيه خصائص القضاء كلها ، كهذه التي عرف بها آل الرافعي ففازوا بسببها بمناصب القضاء منذ الوافد الأول إلى زمن الرافعي •

من هذه الأسرة الدينية نبت مصطفى صادق الرافعي ، وفي جوها شب وترعرع • وقد تولى أبوه أمر توجيهه منذ الصغر ، فحفظه القرآن الى أن أتقنه حفظا وتجويدا وهو في سن العاشرة[1] ولم يزل يتعهده بتعاليم الدين الحنيف إلى أن تأكد من أن الروح الاسلامي قد أخذ بمجامع قلبه ، وعندئذ اطمأن عليه وألحقه وهو في سن الثانية عشر بمدرسة دمنهور الابتدائية ، حيث كان يتولى عمله القضائي • ونقل إلى المنصورة فأتم مصطفى دراسته الابتدائية هناك ، وهو في السابعة عشرة من عمره •

وبمجرد فراغه من هذه الدراسة أصابته حمى عنيفة ــ لعلها حمى التيفويد ــ وشفي منها إلا أنها خلفت وراءها حبسة في صوته ووقرا في أذنيه ، ولم يفـد العلاج فيه شيئا ، بل لقد أخذ سمعه يضعف حتى انتهى إلى الصمم الخالص في سن الثلاثين)[2] •

وبعد هذه العلة التي أصيب بها وهو في سن مبكرة ، ولم يكن قد حصل إلا على الشهادة الابتدائية ، انقطع عن المدرسة واعتكف في بيته يطالع فيـه مختلف الكتب وخاصة ما يتصل بالأدب •

وقد كانت لأبيه (مكتبة حافلة تجمع أشتاتا من نوادر كتب الفقه والدين والعربية،فأكب عليها إكباب النهم على الطعام الذي يشتهيه ، فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل مافيها وراح يطلب المزيد)[3] •

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٣١

٢ ــ الادب العربي المعاصر ص ٢٤٢

٣ ــ حياة الرافعي ص ٣١

ولشدة اجتهاده وولوعه بالقراءة والمطالعة كان لا يرى (إلا وفي يده كتاب)[1] يقرؤه دون أن يستشعر أحدا ممن حوله • وعندما كان كاتبا بمحكمة طلخا ومقر سكنه في طنطا كان يقرأ في القطار في ذهابه وإيابه أشتاتا من فنون العلم والأدب • وفيه (استظهر كتاب نهج البلاغة في خطب الامام علي ، وكان لم يبلغ العشرين بعد)[2] •

وبقي على هذا الاجتهاد ولولوع بالقراءة طول حياته حتى مع ضيوفه • فكان إذا زاره أحد (في مكتبه جلس قليلا يجيبه ويستمع[3] لما يقوله ، ثم لا يلبث أن يتناول كتابا مما بين يديه ويقول لمحدثه : تعال نقرأ[4] وتعال نقرأ كما فسرها الأستاذ العريان معناها : أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف •

ومصدر هذا الاجتهاد رغبته الشديدة في أن يسابق الزمن حتى يحصل على ما أمكنه من العلم والمعرفة • وكان يعرف أن الغايات لا تتحقق إلا بالمثابرة والصبر ، وهو ما صرح به بعد أن تبوأ مقعده الممتاز في الأدب ، إذ قال : (إن لكل شيء ثمنه)[5] •

وفي هذا المعنى يقول محمود أبو رية ، بعد وفاة الرافعي : (لقد نشأ فقيدنا الجليل على حب الأدب العربي فأقبل على درسه ، لا كما يدرسه أهل الأدب منا ، وإنما درسه درس استيعاب وتحقيق ، فاستقصى فنونه ، وحفظ غرر نظمه ، ودرر نثره ، وملحه ، ووقف على أساليب أدباء العربية كلهم من شعراء وكتاب وأحاط بطرائفهم ومناحيهم ، حتى أصبح صدره خزانة أدب وبلاغة ، وصار لا يدانيه في معرفة أسرار اللغة وروايتها أحد • ومن ثم أمكنته اللغة من ناصيتها

---

١ ـ حياة الرافعي ص ٣١
٢ ـ حياة الرافعي ص ٣٣
٣ ـ حياة الرافعي ص ٣٣
٤ ـ حياة الرافعي ص ٣٣
٥ ـ رسائل الرافعي ص ١٥٧

وألقت إليه مقاليد يتصرف كما يشاء فيها)[1] •

وشهد له بمثل هذه الشهادة كثير من أدباء عصره المنصفين للحقيقة ، نقتصر الحديث من دون الجميع على اثنين وهما : الأستاذ أحمد حسن الزيات ، والعريان •

قال الأول : (كان الرافعي رحمه الله ، حجة في علوم اللسان ، ثقة في فنون الأدب ، عليما بأسرار اللغة ، بصيرا بمواقع اللفظ ، خبيرا بمواقع النقد ، ومحيطا بمذاهب الكلام ، وقلما تتهيأ هذه الصفات لغير المطبوعين من الأدباء ••• فكنت إذا ذاكرته في شيء من دقائق النحو ، وخواص التركيب ، وفروق اللغة ، وجدته على ظهر لسانه كأنه انصرف من مراجعته لوقته) •

وقال الثاني : إن الرافعي يشبه في علمه (مكتبة دقيقة الترتيب ، منظمة التبويب ، ما شئت من بحث هدتك إليه قبل أن تبحث عنه) •

وبمرور الايام استطاع أن يحقق الكثير في الأدب واللغة ، وأن يزاحم المؤلفين وهو صغير بعد • فقد هم وهو في سن مبكرة (أن يضع كتابا في النحو ويجعل شواهده كلها من نظمه)[2] •

إن التفكير في وضع كتاب في مثل هذه المادة وعلى الصورة التي خطرت له لدليل على عزيمة الرافعي وطموحه وعدم رضاه بما يرضى به في العادة غيره من المؤلفين الشعراء • وهذه الصفات نفسها هي التي جعلته يكتب الموضوعات التي يتناولها بطريقة غير التي كان يكتب بها الآخرون ، وخاصة ما يتعلق بالأدب الوجداني كما سنفصل ذلك عند حديثنا عن أدبه وأسلوبه •

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٢٨٠.

٢ ـ آداب العصر ص ٢٦٤

ولم يكن الرافعي يعرف من اللغات الأجنبية سوى الفرنسية ، غير أنه لم يستفد منها إلا النزر القليل ، لعدم تمكنه منها تمكنا كافيا ، إذ هجرها بعد انقطاعه عن المدرسة ، ولم يعد إليها ، (على أنه كان يأسف على هجرها ويمني نفسه بالعودة إليها في وقت الفراغ ، وهيهات أن يجد مثل الرافعي فراغا من وقته)[1] .

صممه المبكر

أصيب الرافعي بالصمم وهو في سن مبكرة ، وأثر في نفسه هذا الصمم تأثيرا شديدا ، وشعر أن كارثة حلت به ، وليس له منها مفر إلا أن يلتجىء إلى الطب وإلى يد الله . وتردد كثيرا على الأطباء في بلاده ، فلما لم يجد ذلك نفعا ، رنا ببصره إلى أطباء الغرب ، وأخذ يتسمع أخبارهم ، لعله يظفر بخبر جديد يبشره باختراع ناجح لينقذه مما هو فيه ، فيصبح رجلا كاملا في أعضائه وحواسه ، فيباهي بها المجالس والندوات ، وسائر المواقف الأدبية والخطابية والحوارية .

وفي هذا المعنى كتب إلى أحد أصدقائه يقول له : أخبرني (إذ حضرت حتى أتكلم معك في توسيط صاحبك[2] أن يطلب لنا سماعة كهربائية من ألمانيا ، فقد علمت أنهم اخترعوا أصنافا مفيدة تعين على السمع)[3] .

وكان بين حين وحين يعتريه أمر غريب فيستشعر أن سمعه رجع إليه أو كاد. لقد كان مرة جالسا هو وصديقه أبو رية في احد النوادي بطنطا وبالقرب منهما صبيان يلعبان النرد ، فالتفت الرافعي إلى صديقه وقال له : (لقد سمعت خفق فص هذا النرد)[4] .

---

١ ــ حياة الرافعي ص ٣٢
٢ ــ طالب طب بألمانيا
٣ ــ رسائل الرافعي ص ٦٥
٤ ــ رسائل الرافعي ص ٥٧

وبقي طول حياته يمني نفسه بأن يوما سيأتي فيرجع إليه سمعه ، لأن بشيرا من الغيب هتف بهذه البشرى في نفسه فهي لا بد واقعة[1] .

يقول صديقه أبو رية : كنت في زيارة الرافعي ذات يوم فاذا هو يباغتني بقوله : (أبشر يا أبا رية ! لقد اقتربت ساعة شفائي من علتي ـ ان شاء الله)[2] .

يقول أبو رية (ولما سألته عن سر هذه البشرى قال لي : لقد رأيت السيد البدوي[3] في الرؤيا وبشرني بالشفاء ، فنهضت من نومي وأنشأت فيه هذه القصيدة ، ودفعها إلي . فقلت له إن في نشر هذه القصيدة فتنة للمسلمين ، فخير لك أن تطويها حتى نرى تأويلها . فقبل رأيي ومد يده فكتب لي في ورقة هذه العبارة (أريد أن تذهب الآن إلى جامع السيد وتتوضأ وتصلي بعض ركعات ثم تقرأ ما تيسر من القرآن على نية الاجابة مع خلوص النية)[4] .

ان المرء ليتساءل عن هذا العمل الذي قام به الرافعي . لقد أخذ ورقة وقلما وكتب ما كتب . لماذا كل هذا ؟ أهو عمل رسمي كالذي يقدم للحكام بمراسيم خاصة وصيغ محددة كي يقبل قبولا حسنا ، أو على الأقل يكون موضع نظر واهتمام ؟ إن ما قام به الرافعي من عمل نحو إلهه ليدل دلالة واضحة على مدى تأثره الشديد بهذه العلة ، ويود بأي طريقة كانت أن لو رد إليه سمعه ليخرج إلى عالم الناس يخاطبهم ويخاطبونه ، ويفهم عنهم ويفهمون عنه دون إحراج أو كلفة[5] .

---

١ ــ حياة الرافعي ص ٣٣٣

٢ ــ رسائل الرافعي ص ٤٧

٣ ــ يقول العريان (كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوي ترتفع عن الجدل والمناقشة وله فيه مدائح وتوسلات شعرية كثيرة) . انظر حياة الرافعي ص ٢٥

٤ ــ رسائل الرافعي ص ٤٧

٥ ــ كان الرافعي يتلقى من اصدقائه في كثير من الاحيان كلاما مكتوبا .

ومن يدري ! لـَعلـَّهُ كان يمقت الصمم لرأي ارتآه غير الذي ذكرت ، كأن ينظر إليه نظرة السياسي ، فيرى فيه العائق الأكبر الذي حال بينه وبين المناصب السياسية العالية • إننا نظن أن هذه النظرة صحيحة إلى حد كبير ، ذلك أننا قرأنا للرافعي كثيرا من الأقوال ، يفهم منها أنه خلق للمناصب الرفيعة ، إلا أن ظروفا قاهرة جعلته يتبوأ مقعدا أقل درجة مما ينبغي أن يكون عليه • وهو في وضعه هذا غير راض عن نفسه ، أو بالأحرى غير راض عن مجتمعه •

فقد كان يتنبأ بمصائر الأمم ، في حربها وسلمها أو مناوراتها ، فتصدق في كل ذلك تنبؤاته[1] • وكان يعبِّر عما يختلج في نفوس الآخرين ويحلل كلامهم ، فيصيب في ذلك كله ولا يخطىء شعرة ، ثم هو بعد ذلك ، كثيرا ما يقحم السياسة في حديثه ويتناولها بألفاظها ومعانيها ومعاني معانيها وما تحتمله من تأويلات وتخريجات • أيكون من اتصف بهذه الصفات بعيداً عن المناصب السياسية ، ملقى أو كالملقى في طريق الأدب الذي لا يعرف له منتهى أو نتيجة ما •

إننا نشعر بهذه الخلجات تتردد في نفس الرافعي منذ عرفنا الرافعي أديبا ناشئا ، ثم ازدادت في النماء والظهور حين أخذ نجمه يتلألأ في آفاق الأدب ، واسمه يردد على ألسنة القراء وذوي الأقلام السائرة ، من رجال الصحافة والأدب • ولعل أحسن مثال يبين هـذه الخلجات النفسية التي كانت تراود صاحبنا الرافعي ، ما نقرؤه في مجلة الزهور له • فقد سألته المجلة أن يبدي رأيه في الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد ، فأجاب الرافعي إجابة موجزة ، ولكنها تنم عما كان يراود فكره من طموح وآمال ، إذ قال : (لو كان غير سياسي بطبيعته ، لما كان من الكتاب)[2] وكان ينبغي أن يقول (لو كان غير سياسي لما كان من الصحفيين) لان المتصفين عادة بالسياسة هم الصحفيون لا الكتاب ، ثم إن كلمة (بطبيعته) لها دلالتها في المعنى ، وان كانت نابية في

---

١ ـ انظر رسائل الرافعي ص ٦٥

٢ ـ مجلة الزهور ابريل ١٩١٢ ص ٩٣

اللفظ ، إذ معناها أن الكاتب سياسي بالطبع بقطع النظر عن حرفته التي يحترفها • وعلى هذا الأساس نكون قد دخلنا تحت القاعدة المنطقية الشكلية كل كاتب سياسي بطبيعته ، الرافعي كاتب ، الرافعي سياسي بطبيعته وغريزته •

إن الرافعي إلى جانب ما قدمت كان يشعر بأن النبوغ يفيض عليه من كل جانب ، وأن العلم والأدب يملآن كيانه • فهو شاعر أو ينبوع الشعر في الوصف والغزل ، وكاتب أو زعيم الكتاب في نهجه وطريقته ، ثم هو مؤرخ ولغوي وناقد ، وفوق هذه الخلال كلها ، فنسبه هو ذاك النسب العريق في الشرف والمجد وحسن الأرومة[1] •

وإذن ألا يكون الرافعي بهذه الخلال أخطر شأنا وأعلى منزلة ، وأحق بالمناصب العالية من أولئك السياسيين المحترفين ، ومنهم الشيخ علي يوسف الذي قال عنه تشارلز آدمس في كتابه الاسلام والتجديد في مصر : (لقد كان السيد علي يوسف صحفيا ماهرا وله دهاء يشبه المكر أحيانا)[2] •

وإذن فلم يتمتع كل هؤلاء بمناصب سياسية عليا وبأسماء رنانة ، بينما هو ينزوي هناك حيث لايشعر بمواهبه السياسية أحد •

أدرك الرافعي هذه الفوارق الطبقية ونتائجها ، وعرف أن سببها الرئيسي يرجع إلى شيء واحد اسمه الصمم • وأن هذا الصمم ، أو هذا البلاء ، أو هذا العائق ، لا بد من القضاء عليه بأي طريقة كانت • ومتى انتهى أمر الصمم رجعت المياه إلى مجاريها وأصبحت أبواب الحكومة مفتوحة على مصارعها ، متى شاء ولجها وتقلد أمور الدولة • ومن ثم راح يتسمع أخبار الطب ويتوسل إلى الله بلسان غيره من عباد الله كما مر بنا ، لأنه يعتقد ، أن الله يقبل دعوة الداعي إذا دعاه بلسان لم يعصه به قط كما ورد في الحديث الذي قيل أنه قدسي :

---

١ ــ تقدم هذا في نشأته
٢ ــ أدب المقالة ج ٤ ص ٤٥

(ادعوني بلسان لم تعصوني به قط)[1] .

ومات الرافعي وعلى مكتبه رسالتان في طريقة استرداد السمع ، مما يدل على شدة تأثره بهذا الصمم .

وفي هذا المعنى يقول العريان : (ولو أنني ذهبت أستقصي ما أعرف من مثل هذه الأخبار ، ما وسعني الوقت)[2] . ومن جهة أخرى فإن صممه هذا ، كان له في الناحية الأدبية ، خير حافز على العمل . فمنذ اللحظة الأولى التي شعر فيها بخطر العلة ، انكب على القراءة والدرس ، وبذل كل طاقته ليخرج عالما يشار إليه بالبنان . وسنرى ثمرة هذه العلة مجسمة في أسلوبه ، وبصفة خاصة في المعاني التي تتعلق بالوجدان والمشاعر الانسانية . وهذا أمر طبيعي نلمسه في جميع النوابغ الذين أصيبوا بعاهات جسمية ، سواء منهم المتقدمين ، أو المتأخرين ، شرقيين ، أو غربيين ، لأنهم يشعرون بعقدة النقص . وهذا الشعور كثيرا ما يدفع بصاحبه الى العمل والاجتهاد ، ليستعيض بذلك بعض ما فقده . وقد يدفعه إلى التحدي والتعالي على غيره ممن يشتم منهم رائحة التفوق[3] فهذا المعري قد تحدى غيره من الشعراء في وصف الألوان ، ثم في لزوم ما لا يلزم في القافية ، ثم انتقل من المعاني والألفاظ الى المحسوسات ، فرمى المبصرين بالعمى ، ودعاهم إلى المبارزة في الظلام الحالك إن كانوا حقا يبصرون[4] .

وسنرى للرافعي تحديا يشبه تحدي المعري من بعض الوجوه ، في خصائصه الفنية ، وفي رده على خصومه .

---

١ ـ حديث فيه مسحة مسيحية ويتنافى مع القواعد الاسلامية الصحيحة لذلك نظن انه من الاسرائيليات

٢ ـ حياة الرافعي ص ٣٣٣

٣ ـ انظر طب النفس ص ١١٤

٤ ـ وبصير الاقوام مثلي أعمى　　　فهلموا في حندس نتصادم

في الوظيفة

حصل الرافعي على وظيفة كاتب في محكمة طلخا الشرعية ، وهو في التاسعة عشرة من سنه ، وساعده على نيل الوظيفة وهو في هذه السن ، ما كان لأسرته من سابقة في القضاء والفتوى • لقد مر بنا أنه اجتمع من آل الرافعي ، في وقت ما ، أربعون قاضيا في مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة عليهم • وهذا بدون شك كان سببا رئيسيا في إزالة العقبات ، وتيسير الأمر له ، حتى حصل على وظيفة بدون تعب أو مشقة ، وهو في تلك السن المبكرة • وكان مرتبه أول الأمر أربعة جنيهات في الشهر ، ثم أخذ يرتفع سنة فسنة إلى أن أصبح آخر الأمر بضعة وعشرين جنيها •

وظل الرافعي في محكمة طلخا مدة ، موزع الجهد بين عمله في الحكومة وأدبه ، وبين هذه الأوقات التي يقضيها في القطار في غدواته وروحاته حين يذهب إلى عمله في طلخا صباحا ، ويرجع إلى داره في طنطا مساء • ثم نقل من محكمة طلخا (الى محكمة إيتاي البارود الشرعية ، ثم إلى طنطا • وفي طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى الأهلية بعد سنتين ، لأنه رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع وأرحب ، والعمل فيها أيسر جهدا وأكثر أجرا • وظل في محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير)[1] •

ورضي بالمقام في طنطا لأنها بلده ، وفيها عمله ، وكثيرا ما حاولت وزارة العدل أن تنقله إلى غير طنطا ، فكان يسعى سعيه لالغاء هذا النقل[2] حرصا على أوقاته من أن تضيع في الذهاب والاياب كما ضاعت من قبل ، حين كان حديث العهد بالوظيفة • وصور ذلك في بعض رسائله تصويرا صريحا ، وكان قد صدر أمر بنقله إلى المنصورة • فقال : (إن النقل إلى المنصورة ، كان لي هما من الهموم ، لأني لا أستطيع نقل البيت والأولاد من مدارسهم ، وقد دفعنا لهم

---

١ ــ حياة الرافعي ص ٣٤

٢ ــ حياة الرافعي ص ٢٥

الأقساط المدرسية ، فضلا عن أن مصالحي كلها هنا • ولهذا سعيت في إبطال هذا النقل ، وأرجو أن ييسر الله ذلك ، ويلغى الأمر قريبا ، وأبقى في محلي ، فإني إن انتقلت إلى المنصورة اضطررت للاشتراك في سكة الحديد والرجوع إلى طنطا كل يوم ، فيذهب الوقت ولا أستطيع أن أكتب شيئا ، ويطوى كتاب الأحزان(1) فاللهم سهل هذا الأمر ، واكفني هذا الشر) •

ثم يعقب على هذا الكلام فيقول : (وقد كان النقل في الأصل لأسيوط ، ولكن بعض الأصدقاء في الوزارة كان حاضرا فتوسط بمروءته ونفعني الله به فجعلوا النقل إلى المنصورة(2) •

وفي ختام الرسالة يتجه إلى صديقه يتوسل به إلى الله كي يبطل هذا النقل ، فيقول : (لقد فهمت يا أبارية ضرر هذا النقل ، فألح في الدعاء إلى الله تعالى في إبطاله وبقائي بمحلي هنا ، نفعنا الله بدعائك)(3) •

يحرص على البقاء هذا الحرص كله ، لأن له منهجا في الأدب والحياة ، ويود لو يوفق إلى إنجازه كما ينبغي • وهذا الانجاز لا يتأتى له على الصورة المرضية ، إلا بالاستقرار الكامل ، ولذلك يعتبر كل محاولة ترمي إلى نقله من مكانه إلى مكان آخر ، نعيقا يقلق مضجعه ويفسد عليه خطته • هذا سبب ، وهناك سبب آخر ، وهو أنه يحس بالنضج والتفوق في الميدان الثقافي ، وخاصة الأدب والنقد ، فقد قارن بين نفسه وبين أدباء عصره في البحث والدرس واللغة والأسلوب ، فرأى الفرق بينه وبينهم شاسعا ، فهو وحده في جانب ، وهم مجتمعون في جانب ، وقد يفوقهم مجتمعين ، إن تيسرت له السبل • بل قد يفوقهم وأمثالهم في أجيال كثيرة إن هو استغنى عن الوظيفة ووجد مصدرا طيبا

---

١ ـ كتاب رسائل الاحزان نشره في سنة ١٩٢٤ وتاريخ هذه الرسالة ٢٤ يناير ١٩٢٢

٢ ـ رسائل الرافعي ص ٢١٨

٣ ـ رسائل الرافعي ص ٢١٨

ينقذه من الجوع والفاقة • وأين يكون هذا المصدر غير الوظيفة ؟ أيكون في الأدب ؟ فالبلاد ميتة • (مصيبة هذا العصر في الأدب ، أنه مفلس من ناقد متفرغ للنقد ، مستجمع أسبابه ، بصير بمذاهبه ، متحقق بكل وسائله • فلو وجد مثل هذا ، وأمكنه أن يجد عيشه من عمله الأدبي لهدم وبنى في بضع سنين ما لا يفعل مثله مجموع كبير من الأدباء في عصور كثيرة ، ولكن البلاد ميتة، فليست فيها الحياة التي تخرج مثل هذا الامام وتكفيه وتقوم به)[1] •

وينمو هذا الشعور في نفس الرافعي ، ويدركه أحد أصدقائه ، فيدير كلاما على لسان محام خيالي ، ويبعث به إلى الرافعي كالمستنهض له ، فيصدق الرافعي كلام صاحبه الذي جعله على لسان المحامي ، وسرعان ما يرد عليه بهذه الجمل (المحامي الذي تمنى أن أفرغ للنقد ، أصاب الحقيقة ، فإن كل ما أتمناه من زمن بعيد ، هو أن أتفرغ لمقالات في النقد ، نحو سنتين أو ثلاث ، تهدم العصر كله من جميع نواحيه الضعيفة ، وتبني عليه أدبا جديدا • فإنهذا العمل ينشىء جيلا قويا جدا ، ويقضي على التدجيل الصحافي المتفشي الآن ، ويحدث في الأدب واللغة نهضة تنبعث بالحياة)[2] •

وما يكاد يصل إلى آخر هذه الجملة حتى يتذكر العقبة المجسمة ، عقبة الوظيفة فيقول : (ولكن هذا العمل ، لايمكن إلا إذا تركت الوظيفة ، وتفرغت له وحده) •

كتب الرافعي مرة مقالا رائعا في مجلة المقتطف ، ثم تلقى إثر ذلك خطابا من أديب ناشىء يقول له فيه : إنها جريمة أن يشتغل كاتب هذا المقال في الحكومة ، وينصرف بذلك عما ينتظر منه • فاغتبط الرافعي بهذا الخطاب وأثبته في إحدى رسائله • وكان كثيرا ما يغتبط بمثل هذه الخطابات المشجعة ، لأنه

---

١ – رسائل الرافعي ص ١٨٦

٢ – رسائل الرافعي ص ٢١٩

يجد فيها الاعتراف بالجميل ، وهو ما يسعى إليه • وقد أدرك بعض أصدقائه هذه الظاهرة فراحوا يخترعون له أنماطا من الأقاويل ، ليشجعوه على كثرة الانتاج • فمنهم من كتم ما في نفسه ، ومنهم من صرح بها بعد أن فات أوان الكتمان ، مثل صاحب قصة المحامي المفتعلة وقد مرت بنا •

وكان الرافعي يعتقد صحة هذه الأقاويل المفتعلة ، وذلك لسببين : أولهما : أن في الرافعي غفلة تبلغ إلى حد السذاجة في بعض الأحيان • وقد فطن لهـا كثير من معاصريه ، وأثبتها بعضهم فيما كتب ، مثل أحمد الزيات في كتابه وحي الرسالة[1] • والسبب الثاني ، أنه ــ لغفلتـه ــ يشعر بأن له عشاقا وأتبـاعا يشايعونه في نهجه وأسلوبه ، وأنه إمامهم في الأدب الحي • وهذا ما جعله يسعى كل السعي إلى تحقيق ما يقترحون أوما يخترعون من الموضوعات • ولكن عقبة كأداء تقف في طريقه : عقبة الوقت الضيق • وهذه العقبة هي التي تدعوه مرة بعد أخرى أن يطلقها صرخة مدوية في عنان السماء ، كما يتضح هذا في رده على رسالة أحد أصدقائه ، وكان قد اقترح على الرافعي أن ينشيء قصيدة تقيم الدنيا وتقعدها ، فأجابه الرافعي بأن هذه البضاعة ليست في دكانه ، وأن الأمـة التي تريد أن يكون لها شعراء يذكرون مناقبها وأمجادها ، كان يجب عليها أن توليهم رعايتها ، فلا تتركهم أجراء يعملون من أجل عيشهم •

ويبدو تأثره الشديد من الوضع الذي هو فيه من هذه الكلمات التي رد بها على صاحب الاقتراح إذ قال : (إني موجز في الكتابة إليك • لقد اقترحت ما شاء لك الظن بالحوادث وما يستخلص منها ، وكأنك تكتب إلى رجل يقيم في السماء ، لا إلى رجل يقيم في محكمة طنطا • إنك تريد قصيدة تقيم البـلاد وتقعدها ، وهذه البضاعة ليست في دكاني • والأمة التي تريد أن يكون لها شعراء ، لا يلزم أن تدع الشعراء في أيدي غيرها أجراء)[2] •

---

١ ــ انظر وحي الرسالة ج ١ ص ٤٥١ وما بعدها .
٢ ــ رسائل الرافعي ص ٦٤ .

هذه مشاعر الرافعي نحو وظيفته ، وهذه أمانيه نحو أدبه ، وهي مشاعر متضاربة مع الأماني ، فالحاجة تحتم عليه أن يقتل أطيب أوقاته في الوظيفة ، وعبقريته تدفع به إلى خلق المعجزات في الأدب ، فلما أعجزته السبل استسلم للواقع ، ولكنه استسلام تحته أنـات حارة ، وزفرات متصاعدة ، ما فتىء يرددها في مرارة وتبرم لبعض أصدقائه •

يقول أبو رية (كان ـ رحمه الله ـ كثيرا ما يشكو إليّ في زياراتي له ، أن وقت الصباح الذي هو وقت النشاط والراحة والجد يذهب كله للحكومة ، ولا تدع له الحياة إلا وقت التعب والخمود والملل) • ونشأ عن هذا التضارب بين أوقاته في الوظيفة ، وأوقاته في التأليف ، أن ضاق ذرعا بظروفه والحالة التي هو فيها ، فمرة يفكر في ترك الوظيفة ليتفرغ للأدب[1] • وأخـرى يهم بترك الأدب ويقتصر العمل على وظيفته ، لأن جسمه أصبح عرضة لكل جهد يفوق طاقته •

وكم حاول أن يختلس من أوقات راحته بعض الوقت لأدبه ، ولكنه سرعان ما يصاب بمرض قد يلزمه الفراش أياما وليالي ، وقد ينذره بأسوإ العواقب • ولقد صور لنا هذا الجهد وما نتج عنه ، فقال : (أردت أن أكتب كلمة في صدر أوراق الورد أثبت فيها أن الأدب العربي في كل تاريخه ليست فيه رسالة غرامية ذات قيمة ، فقضيت يوم الجمعة في المراجعة ، وراجعت في الليـل الى الساعة الثالثة صباحا ، ثم يوم السبت كتبت المقدمة التاريخية ، ففرغت منها الساعة الحادية عشرة ليلا ، وطمعت في أن أنقحها وأبيضها في نفس الليلة ، وقد خرجت طويلة ، فمضيت في العمل وفرغت منه الساعة الثالثة صباحا ، ولكن بعد ذلك بقليل ، شعرت بضعف شديد ، وألم في القلب ، استمر يوم الأحد أيضا ، ففزعت وأشار علي الطبيب بالراحة التامة يومين)•

ثم يقول : فهذه نتيجة الاجهاد ، وهذا هـو السبب الذي يجعلني دائما

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٢٤ .

ساخطا متبرما محاولا الانصراف عن هذه الاعمال ، جهـد طاقتي ، ما دمت أعيش من عمل آخر يستغرق النصف الأطيب من النهار)[1] .

ونلاحظ أن الرافعي كلما هم بترك الأدب أو الوظيفة من أجل صحته ، أو حاول أن يجهد نفسه أكثر مما تتحمل ، اعتراه ضيق وضجر ، وعاش في صراع نفسي مفعم بالقلق والسأم ، قد يسبب له صداعا ، أو نزلة شعبية[2] . فيكون هذا الصراع الذي يعيشه مع نفسه ، أشد فتكا به ، وأكبر عائق يحول بينه وبين إنجاز أعماله الأدبية والتأليفية .

ولقد هم يوما أن يترك الوظيفة ويتفرغ للأدب ، وسعى في الحصول على وعد من الوزارة ليحال إلى المعاش ، على أسس قانونية خاصة شبه استثنائية ، وكاد يتم له ما أراد ، فإذا القانون الاستثنائي يلغى ، وإذا هو يضطر أن يبقى في وظيفته مكرها . وذكر لنا هذا الأمل في احدى رسائله فقال : (كنت على عزم ترك الوظيفة لو بقيت الأحوال على استقامتها ، ولكن انخفاض الايراد ، جعل الفرق بين المعاش والمرتب مضاعفا ... ولو كان قد بقي قانون التشريع الموقت لنفعني منفعة كبيرة ، ولكني ما كدت أسعى فيه ، وأنال مـن الوزارة وعدا بمعاملتي به وتفضيلي على غيري ، حتى طرأت الأزمة ، وألغي المشروع)[3] .

وعلى هذا النحو اشتد به الصراع النفسي حول هاتين الحرفتين المتضاربتين: حرفة الأدب ، وحرفة الوظيفة . أيتهما يتبع ؟ وأيتهما يدع ؟ فالحاجة تدعوه لأن يبقى موظفا ، والرغبة تدفع به إلى الأعمال الأدبية والتأليف ، وهو بين الحاجة والرغبة يتأرجح والأيام تمر ، وهكذا إلى أن قضى وما حقق من أمانيه العظام إلا القليل . لقد كانت أمانيه أكبر من أن يقوم بها كاتب في محكمة لايجد من

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ١٨٦
٢ ـ انظر جريدة الاخبار القاهرية ١٩٦٣/٢/١٦ فيما يتعلق بسبب المرض النفسي للزكام .
٣ ـ رسائل الرافعي ص ٢٢١

وقته الطيب في الصباح دقيقة واحدة يستغلها لأدبه • إن (الأعمال في المحكمة كالطاحونة)[1] •

فكم مرة تهيأ لتأليف كتاب أو بحث ، ولكنه لم يجد من الوقت ما يساعده على تحقيق ذلك • وهذا ما نراه في بعض ما نقرأ له مثل (سنفرد كتابا خاصا بالقول في شعراء هذا الزمن وكتابه ، ومراتبهم على أقدارهم من الصناعة وتاريخها ، ثم الموازنة بينهم على أقدارهم كذلك)[2] •

ومثل هذه الأماني التي اندثرت ولم تخرج إلى الوجود كثيرة ، وسوف نذكر بعضها عند حديثنا عن وفاته • وهذه الأماني التي يسعى إلى تحقيقها ثم يعجز عنها لتضاربها مع عمله في الحكومة ، جعلته يصيح بملء فيه : (كيف نؤدي الرسالة يا ترى ؟ أرسول وموظف)[3] •

إن الرافعي يشعر بأنه لم يخلق للوظيفة وإنما للبحث والتأليف ، فلما أرغمته الظروف على العمل في الحكومة أخذ يتمرد على النظم الادارية ، فيذهب الى عمله بعد مضي ساعة أو أكثر من الوقت ، ثم (لا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذي يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته فيجلس في هذا المتجر وقتا ما ، وعند هذا الصديق وقتا آخر ، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل في غيبته ، وقد لايعود)[4] •

وإزاء موقف الرافعي من عمله، وحيرته الكبرى التي تجعله مرة يعود إلى عمله ، ومرة لا يعود ، نشعر بأن الرافعي كان يقدر المسؤولية الادارية ويدرك معنى الواجب الوطني والحكومي ، ولكنه في نفس الوقت يرى أنه لم يخلق للوظيفة ، وإنما لعمل أجل وأعظم ، هو العمل الأدبي ، وهذا ما جعله قلقا غير

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٢٠٢
٢ ـ رسائل الرافعي ص ٥٠
٣ ـ رسائل الرافعي ص ١٩٢
٤ ـ حياة الرافعي ص ٣٩

راض عن الحالة التي هو عليها ، فهو ينفر من الوظيفة لأنه لم يخلق لها ، ويتعاطاها على كره منه لأنها مصدر رزقه • وفي هذا المعنى يقول الاستاذالعريان (لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئا يعينه على العيش ليفرغ لنفسه ويعدها لما تهيأت له ، فما انقطع عن المطالعة يوما واحدا ، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته)[1] •

نشاطه الأدبي والصحفي

— ١ —

لم تكن وجهة الرافعي فيبادىء الأمر هي النثر إنما كانت الشعر • والسبب أن البلاد كانت تزخر بالشعراء الفطاحل ، أمثال البارودي وحافظ وصبري ومطران ، فتاقت نفسه إلى أن يشاركهم في هذا الفن ، علّه يصيب فيه بعد حين إمارة كالتي كانت للبارودي في ذلك الوقت • فكان أول عمل قام به ليحقق هذه الأمنية ، أن أكب على حفظ الجيدمن الشعر ، لأنه كما أخبرنا[2] يعلم أن الحفظ وقراءة دواوين فحول الشعراء ، من أهم الوسائل في تنمية ملكة الشعر ، والبلوغ فيه أقصى مراميه •

وكان إلى جانب انكبابه على الحفظ ، منكبا أيضا على نظم الشعر ، فما هي إلا مدة قصيرة ، حتى ظهر الجزء الأول من ديوانه في أيدي القراء ، يتناولونه بالثناء والتقريض ، وعمره إذ ذاك ثلاثة وعشرون سنة •

وقد دبج الرافعي هذا الجزء (بمقدمة بارعة ، فصل فيها معنى الشعر ، وفنونه ومذاهبه وأولويته[3] • وذهب فيها مذهبا عزيزا في البلاغة ، وتبسط

---

١ — حياة الرافعي ص ٣٤

٢ — وحي القلم ج٣ ص ٣٢٠ — ٣٥٢ وانظر تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ١٠٧٤ وعيار الشعر ص ٤

٣ — حياة الرافعي ص ٤٨

ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه ، وبيان مزيته في كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه)[1] .

وكان لهذه المقدمة سبب ، هو أن حافظ إبراهيم نشر في تلك السنة (ديوانه) وقدم له بمقدمة بليغة ، كانت حديث الأدباء في حينها ، وطال حولها الجدل ، حتى نسبها بعضهم إلى المويلحي ، واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالا رائعا ، وعقدوا له أكاليل الثناء . والرافعي غيور شموس ، فما رأى ذلك حتى عقد العزم على إصدار ديوانه . وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة التي أحدثت كل هذا الدوي ، فإن على الرافعي أن يبذل جهده ليبلغ بديوانه ما بلغ حافظ ، وعليه أن يحمل الأدباء أن ينسوا بمقدمته مقدمة حافظ)[2] .

والغريب أن الرافعي لما عزم على كتابة هذه المقدمة لم يكتبها إلا أمام صديق له ، ذهب إليه في محله وكتبها أمام عينيه . وما العلة في ذلك ؟ يخيل إليّ ، أنه شعر وهو في بداية الطريق ، أن شكوكا ستحوم حول كاتبها ، فعمد إلى هذه الطريقة ليحتاط بها لما قد يحدث . وفعلا حدثت شكوك حول كاتب المقدمة ، ولم يبددها إلا ذاك الصديق الذي كتب الرافعي أمامه المقدمة .

لقد كان الرافعي ينتظر كلمة عن شعره من اليازجي (إذ كان كل ما يكتب الأدباء في النقد ، لايغني عن كلمة يقولها اليازجي)[3] .

وطال انتظار الرافعي ، ولم يكتب اليازجي شيئا ، لأنه شك في أن يكون كاتب هذه المقدمة شيخا معاصرا على حد تعبيره (واغتم الرافعي لذلك غما شديدا)[4] إلى أن جاء دور الصديق ليقول لليازجي : إنه (كتبها بعيني ما أشك

---

١ ـ مجلة الضياء يونيو ١٩٠٣

٢ ـ حياة الرافعي ص ٤٨

٣ ـ حياة الرافعي ص ٤٨

٤ ـ حياة الرافعي ص ٤٩

في ذلك)[1] . فيرد عليه اليازجي قائلا (وأنا ما أبطأت في الكتابة عن الديوان إلا من الشك في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة . فأنا منذ أسبوعين أبحث في مظانها من كتب العربية)[2] ..

وكتب اليازجي بعد ذلك كلمة في مجلة الضياء يثني على الديوان ومقدمته ، ثم انتقد بعض الألفاظ النابية انتقادا نزيها ، لاينال من الشاعر بقدر ما يلهمه ، وعقب على ذلك بقوله : (على أن هذا لاينزل من قدر الديوان ، وإن كان يستحب أن يخلو منه ، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب . وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضنا بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ... فإن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه . ولا ريب أن من أدرك هذه السن سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر ، ومن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر)[3] .

وكتب الشيخ محمد عبده رسالة إلى الرافعي إثر صدور هذا الجزء جاء فيها : (أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل ، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل)[4] .

ويستبشر الرافعي بهذه الرسالة فيقول كالمعلق عليها : وهل كان يطاول مقام حسان في الأوائل مقام ، وهو المؤيَّدُ بروح القدس[5] ؟

ونشط الرافعي في نظم الشعر نشاطا كبيرا ، فلم يمض على ظهور الجزء الأول إلا سنة أو أقل حتى أتم الجزء الثاني ، ودبجه بمقدمة مثل المقدمة الأولى

---

١ ــ حياة الرافعي ص ٤٩
٢ ــ حياة الرافعي ص ٤٩
٣ ــ مجلة الضياء يونيو ١٩٠٣
٤ ــ ديوان الرافعي ج ٢ ص ١٢
٥ ــ ديوان الرافعي ج ٢ ص ١٣

بلاغة وفصاحة . وجاء في المقدمة الشارحة قوله على لسان محمد كامل الرافعي[1] (طلع ذلك الجزء الأول على الناس ، فجاء وله تلك المقدمة التي لم يمتر أحد في أنها فصل الخطاب في الشعر ، فانتبه أدباء العربية لأمر سيكون ، وانتظروا من شاعرنا روحا عالية تنطق المتقدمين بلسان قلمه ، وتحيي أنفاسهم في روائع كلمه ، ولكن أكثرهم مع ذلك ممن لا يعرف الشاعر أنكر على ابن ثلاث وعشرين تلك الحكمة الكهلة وذلك الديوان النفيس)[2] .

وبعد هذا الجزء بنحو سنة أو أكثر قليلا أتم الجزء الثالث والأخير ، وقدم لـه بمثل المقدمتين السابقتين . وقال في المقدمة الشارحة على لسان محمد كامل الرافعي : (هذا هو الجزء الثالث وهو تمام الديوان ، وإنما كان هذا الديوان نوعا من أنواع الشعر ، تمثلت فيه أفكار صاحبه وعواطفه في زمن عمره ، فلا نستطيع أن نقول إلا أن هذا النوع مع شهرته النادرة كالثمرة ، متى جاء وقتها وحان قطافها ، انفصلت عن غصنها ، وتم بذلك عامها . ولا يكون انفصالها ، إلا لتعود فتظهر للناس أنضج ما كانت بما يبذل في نشأتها الثانية من العناية .

ويقول ، ودائما على لسان محمد كامل الرافعي : (وهكذا صح عزم شاعرنا على أن يضع ديوان النظرات ، وأن ينحو فيه منحى جديدا ، وينزع إلى مقصد من المعاني بديع ، ويجري على نمط من الشعر رفيع)[3] .

وفي سنة ١٩٠٨ نشر الجزء الأول من ديوان النظرات ، ووضع له مقدمة مثل المقدمات الثلاث السابقة ، إلا أنه في هذه المرة لم يعززها بمقدمة شارحة على لسان محمد كامل الرافعي كما فعل في مقدمات الأجزاء الثلاثة من ديوانه كما مر بنا . والسبب كما يبدو لي أن جمهور القراء ، قد أدرك من تلقاء نفسه

---

١ ـ راجع حياة الرافعي ص ٤٨ ـ ٣٤٩

٢ ـ ديوان الرافعي ج ٢ ص ١٢

٣ ـ ديوان الرافعي ج ٣ ص ١٣

أن المقدمات الثلاث السابقة ، هي جميعها من إنشائه هو ، لا من إنشاء محمد كامل كما زعم صاحبنا الرافعي ، وإنما عزاها إلى محمد كامل الرافعي ، لتكون أكثر تأثيرا في النفوس ، لأن من يتحدث عن غيره ، يكون أدنى إلى الصدق والتأثير في النفس ممن يتحدث عن نفسه في مثل هذا الموضوع .

وقد اعترف في تعليق له على مقدمة ديوان النظرات بأن المقدمات الثلاث السابقة هي من إنشائه هو ، لا من إنشاء محمد كامل الرافعي ، إذ قال : (المقدمات الثلاث التي كتبناها لثلاثة أجزاء ديواننا الأول المعروف بديوان الرافعي ، وقد جئنا في كل مقدمة بما ليس في الأخرى ، وجئنا في هذه بما ليس في جميعها)[1] .

وبعد أن مضى دهر طويل على هذه المقدمات ، فكر الرافعي في أن ينشرها كلها في مجموعة أدبية خاصة ، فقال : (فقد كنت في حيرة من أمر هذه المقدمات ، إذا أعيد طبع الديوان ، لأنه لابد من حذفها ونشرها الآن في المجموعة لحفظها . ولا أعرف ما هي هذه المقدمات ، لأني لم أعد قراءتها ، فإن رأيتها جيدة نشرتها وإلا اخترت منها ما يكون جيدا فيها .

ويقول وفي قوله ما يدل على النشاط الأدبي والمعنوي (ومن عجيب أمر هذه المقدمات أن المقدمة الأولى حين نشرت في المؤيد كان لها تأثير كبير ، وغطت على مقدمة حافظ ، وذهل لها المنفلوطي كما أخبرني الذي رآه وهو يقرؤها . والمقدمة الثانية دهش لها اليازجي وقرأها أمامي . ومقدمة النظرات قرأها الدكتور شبلي شميل الشهير أمامي ، وقال لا بد أن تكون هذه المقالة مترجمة)[2] .

اتسمت الفترة الأولى من حياة الرافعي بالنشاط الأدبي والنقدي ، فقد كان

---

1 — ديوان النظرات ج 1 ص ٤

٢ — رسائل الرافعي ص ٢١٣

يكتب مقالات نثرية ومقطوعات شعرية في مختلف الصحف والمجلات ، وأخذ اسمه يتلألأ شيئا فشيئا إلى أن كتب مقالا لاذعا ينتقد فيه شعراء عصره ، وخاصة شوقي ، فإذا المقال يحدث ضجة كبرى في الطبقة المثقفة . وتساءل القراء عن كاتبه ، لأن الرافعي قد أخفى اسمه ، واكتفى بأن رمز له بنجمة ليبلغ به ما يريد .

قسم الرافعي في هذا المقال شعراء عصره إلى ثلاث طبقات ، وجعل الطبقة الأولى على هذا الترتيب : الكاظمي – البارودي – حافظ – الرافعي – بينما شوقي جعله ثاني الطبقة الثانية ، إذ وضعه بعد صبري . وقدم لهذا المقال بمقدمة بليغة تدل على نشاطه ، وكثرة آماله ، ومسابقته الزمن ، فهو يريد أن يختصر السنين ويقرب البعيد منها ، حتى يسمع صوته ، ويتلألأ نجمه . قال في هذه المقدمة التي بعث بها إلى صاحب الثريا (دونك مقالة بكرا لم ينسج على منوالها بعد في العربية ، حرية بأن تصدر بها مجلتك الغراء ، ولا يروعنك شدة لهجتها ، فكلها حقائق ثابتة ، وإن آلمت البعض ، فإن الحق أكبر من الجميع . وإني لبالمرصاد لكل من ينبري للرد عليها ، وأنا كفء للجميع ، وما إخال أحدا يستطيع أن ينقص حرفا مما كتبته ، وان هم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقرارا بأني أنزلت كل شاعر في المنزلة التي يستحقها ، ولا يعنيك معرفة اسمي ، فأنا ابن جلا وطلاع الثنايا ، فانظر إلى ما قيل ، وليس لمن قال . وبعد هذا ، فإن أعجبتك مقالتي فانشرها ، والا فاضرب بها عرض الحائط) . ثم يقول مخففا من شدة اللهجة : واني اقترح عليك ان تنشر جميع مايردك من الردود في المعنى ، سواء جاهر اصحابها بأسمائهم او تستروا ، فان الموضوع طلي شهي ، وفي اطلاقك الحرية للكتاب ما ينشط لحرية الجولان في هذا المضمار[1] .

وقالت الثريا : (ألقى الينا مكتب بريد الزيتون ملفا ضخما واردا من مصر ، وداخله كتاب موجز ، ومعه المقالة المتقدمة للنشر .. وقد تصفحنا المقالة قراءتنا

---

1 – مجلة الثريا يناير ١٩٠٥

شدة لهجة الكتاب ، وبتنا نقدم رجلا ونؤخر اخرى في نشرها ، الى ان تغلب علينا الميل لنشرها ، إن لم يكن لشيء فلكثرة ماحوته من رائق الاشعار لفحول الشعراء وهم نخبة شعراء مصر في هذا العصر)[1] .

بمثل هذه المناورات الأدبية استطاع الرافعي أن يحقق الكثير لنفسه ولأدبه ويقول محمد سعيد العريان عن هذا المقال : (أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعي دراسة أوسع ، قائمة على قواعد من العلم والتحليل النفسي)[2] .

وقال عنه الرافعي بعد ان مضى عليه أكثر من ثلاثين سنة : (كانت تصدر في القاهرة مجلة اسمها الثريا ، فظهر في أحد أعدادها مقال عن الشعراء بهذا التوقيع ﴾ ، وانفجر هذا المقال انفجار البركان ، وقام به الشعراء وقعدوا ، وكان له في الغارة عليهم كزفيف الجيش وقعقعة السلاح ، وتناولته الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ، وانتهى الى الخديو ، وتكلم عنه الأستاذ الامام في مجلسه ، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين ، كالعلامة سليمان البستاني ، وأديب عصره الشيخ ابراهيم اليازجي ، والمؤرخ الكبير جورجي زيدان ... وجعلوا ينفذون الى صاحب المجلة دسيسا بعد دسيس ، ليعلموا من هو كاتب المقال ، وشاع يومئذ أني أنا الكاتب له)[3] .

لم يقتصر نشاط الرافعي الأدبي على الكتابة في الصحف ، بل شمل أيضا بعض النواحي الأخرى التي لها علاقة بأدبه ، وأهمها الاتصالات بكبار الكتاب والشعراء ، أمثال محمد عبده والكاظمي ، وله في ذلك سبيلان،أولاهما : اللين، فإن لم تجد سلك الأخرى ، وهي سبيل القوة ، كما فعل مع الكاظمي . فقد حاول أن يتصل به بالطريقة الأولى ، فلما عجز استعمل الثانية فكتب كلمة يذمه

---

١ ـ مجلة الثريا يناير ٥ ـ ١٩
٢ ـ حياة الرافعي ٥٨
٣ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٣٤١

فيها وينال منه (وما كان مؤمنا بما كتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالانذار والتخويف ، بعدما عجز أن يبلغ إليه بالزلفى والكرامة • وفعلت هذه الكلمة فعلها في التقريب بين الأديبين، فاتصل الرافعي بالكاظمي ، وصفا ما بينهما، وأخلصا في الوداد ، حتى لم يكن بينهما حجاب ، وحتى صار الرافعي أصفى أصفياء الكاظمي ، وصار الكاظمي أشعر الشعراء المعاصرين عند الرافعي ، ثم ارتقت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ، فتصادقا صداقة النظراء، حتى أنه لما هم الكاظمي أن يسافر الى الأندلس في سنة ١٩٠٥ كتب كتابا إلى الرافعي يقول فيه : (ثق أني أسافر مطمئنا وأنت بقيتي في مصر)[١] •

وهكذا كانت حياة الرافعي تزخر بالحوادث والمناورات الأدبية حتى حقق لنفسه بعض مبتغاه • وكان قبل أن يشق طريقه في الأدب ، فكر في مهنة الصحافة، ولكن أباه نهاه عن ذلك ووجهه هذه الوجهة الأدبية التي أصبح يعتز بها ويحمد الله أن أنقذه من الصحافة ، والا لكان كبعض الحروف المكسورة في الطبع على حد قوله : (إني في ابتداء أمري كنت نزعت الى العمل في الصحافة ، وأنا يومئذ متعلم ريض ، ومتأدب ناشىء، ولكن أبي ــ رحمه الله ــ ردني عن ذلك ووجهني في سبيلي هذه ــ والحمد لله ــ فلو أني نشأت صحفيا لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة في الطبع)[٢] ولم يهجر الصحافة هجرا تاما • فقد كان ينشر فيها بعض المقالات الأدبية والنقدية ، أو بعض مقطوعات أو قصائد شعرية •

ويمكن تقسيم حياة الرافعي الصحافية الى فترتين : إحداهما ترجع الى أيامه الأولى حين كان أديبا ناشئا ، وهو في هذه الفترة لا ينشد إلا مجدا وشهرة، وثانيتهما هذه التي حدثت له في أواخر أيامه مع مجلة الرسالة لغرض الكسب المادي • وكتابته في الفقرة الأولى تتسم بالصبغة الدينية ، كهذه المقالات التي نشرها بعنوان الرواية والرواة في مجلة المقتطف سنة (١٩٠٥) ، فان أسلوبه فيها

---

١ ــ حياة الرافعي ص ٤٦
٢ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٢١٤

كان ينم عن تفكير الفقهاء وطريقتهم في الكتابة ، كقوله : (يشترط في ناقل اللغة العدالة والأمانة والصدق)[1] .

وكانت وسيلته في نشاطه الصحافي في هذه الفترة الأولى ، كثرة الاتصال بأصحاب الصحف والمجلات ، وجلهم من أبناء وطنه الأصلي لبنان ، فقد وجد فيهم كل تشجيع في نشر أشعاره ومقالاته . فقد بدأ نشاطه الصحافي واضحا أيام كان يتعاطى الشعر ، ثم اختفى اسمه من الظهور في المجلات والصحف بعد سنة (١٩٠٥) أو كاد . والسبب كما يبدو لي يرجع الى اهتمامه بما هو أرفع من أن ينشر في الصحف، ثم إلى اعتكافه على تأليف كتابه الكبير تاريخ آداب العرب فقد بدأ الكتابة فيه سنة (١٩٠٩) ونشره سنة (١٩١١) .

وبعد ان انتهى من تأليف كتابه هذا، نشر بعض المقالات ، وكثيرا من القصائد، وجلها في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، مثل قصيدة غليوم[2] ، وويلسون[3] ، والتبرج[4] ، والتخنث[5] ، وأطفال الشوارع[6] . ولكل قصيدة سببها وغايتها ، فقصيدة غليوم أنشأها في ذمه وذم الحرب التي كان هو السبب في إشعال نارها ، وقصيدة ويلسون عارض بها الأولى لأنه يرى في الرجلين رأيين مختلفين، فالأول يمثل الجبهة الشيطانية ، بينما الثاني الجبهة الالهية . وفي هـذا المعنى يقول : (إن قصيدة غليوم قد تمت منذ أيام في نيف وثمانين بيتا ، وسأرسلها غدا ـ إن شاء الله ـ الى المقطم ، وفي النية ـ إن شاء الله ـ أن أنظم قصيدة أخرى عن ويلسون ، لأن هذا الرجل هو روح الجبهة الالهية من الحرب ، كما أن غليوم روح الجبهة الشيطانية منها)[7] .

---

١ ـ مجلة المقتطف يونيو ١٩٠٥
٢ ـ امبواطور ألمانيا في الحرب العالمية الاولى
٣ ـ رئيس امريكا .
٤ ـ جريدة الحال ٢٠ فبراير ١٩١٩ .
٥ ـ جريدة الحال ١٠ يوليه ١٩١٩ .
٦ ـ جريدة الحال ٥ يونيو ١٩١٩ .
٧ ـ رسائل الرافعي ص ٥٤ .

وبعث الرافعي بقصيدة غليوم الى المقطم، ولكنهالم تنشر ، لأن نهجها مريب فيه مس للوضع السياسي في البلاد ، مع أن الرافعي قد احتال في نظمها حتى لايدري ، أهي مدح ، أم ذم ، فلما سأل عن السبب في عدم نشرها ، قيل له : إن نهجها مريب ، هل هي مدح أم ذم ؟ قال الرافعي : (وقد وضعتها على هذا النحو من توجيه الذم بما يشبه المدح ، تخفيفا لوقعها في نفوس المصريين الذين يحسبون هـذا الامبراطور ، كأنه امبراطور الاسلام ، مـع أنه لم يكن إلا شؤمـا)[1] .

وعزم الرافعي في هذه الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى على مواصلة السير في الميدان الصحافي ، وقد رأى قلوبا تتأجج وطنية وحماسا، فأكثر من نظم الأناشيد حتى لقب بشاعر الأناشيد . وحالفه النجاح في كثير منها ، إلا أنه كان يجد عقبات كبرى في التعبير عن مشاعره ومشاعر الجماهير المتحمسة . فقد كتب نشيدا حماسيا فرفضته جريدة الأخبار ، حتى عدل شطرة منه ، كان أعدها للنيل من الأعداء ، وهيهذه (تقتلع الأنجم لو كانتعدى)ولو لم يكن موجودا ساعتئذ ، وأصلح بعض كلماته ، لما نشروه)[2] .

في هذه الفترة التي اشتد فيها حماس الشعب ، اشتدت رغبة الرافعي في نشر أناشيده الحماسية في مختلف الصحف ، لأنه شعر بأن عليه واجبا وطنيا لايقل عن واجبه الثقافي ، ولا يقل أيضا عن واجب السياسيين الوطنيين الذين ثبتوا على المبادىء الوطنية . فهم بألسنتهم وخطبهم وصحفهم ، وهو بقلمه ، وما يسطره من أفانين القول للشباب المتحمس ، ولذلك كان يكثر من نظم الأناشيد ، وفاز في بعضها بالجائزة الاولى[3] . وساعده على البلوغ فيالأناشيد المنزلة السامية ، ما كان له من ذوق دقيق في فهم الأجواء والمناسبات ، وإدراكه

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٥٥ .
٢ - راجع رسائل الرافعي ص ٦٨ .
٣ ـ رسائل الرافعي ص ١٤٦ .

طبيعة الشباب والشابات • وفي هذا المعنى يقول : (نشيد مدرسة البنات يعملون الآن على تلحينه وطبعه ، وهو رقيق جدا ، بخلاف النشيد الآخر ، لأن الطلبة محل القوة والحماسة ، أما البنات فيجب أن يكون نشيدهن غناء وحماسة ظريفة)[1] •

ولما ازدهرت الحركة الوطنية في مصر ، نظم نشيد الاستقلال الذي أصبح نشيد البلاد من سنة ١٩٢٣ الى ١٩٣٦ وهو (اسلمي يا مصر)[2] • وزاحم أكبر شعراء مصر ، بل شعراء البلاد العربية قاطبة ، وهما شوقي وحافظ ، وفاز عليهما بنشيده (ربنا اياك ندعو) الذي قدمه الى جمعية الشبان المسلمين • ويتعجب الرافعي كثيرا بهذا الفوز ، لأن شوقي نظم نشيد على نمط الأبيات الدينية التي كانت نساء الأنصار يرددنها في عودة النبي من إحدى غزواته ، وكأن عقيدة الرافعي ترى أن الفوز ينبغي أن يكون لنشيد شوقي ، مادام على هذا النمط من اللحن •

قال : (قد فزنا والحمد لله فوزا عظيما في جمعية الشبان المسلمين ، إذ عرضت الأناشيد كلها فقرروا اتخاذ النشيد الذي مطلعه « ربنا إياك ندعو » ، وكان القرار بالاجماع • وطبع النشيد في كراسة صغيرة ، وطرح للتلحين ، وأرسل لجميع صحف العالم العربي ــ والحمد لله على هذا التوفيق ــ وقد أخذت جريدة الفتح تنشر الأناشيد الأخرى واحدا بعد واحد ، قالوا براءة لعهدة الجمعية حتى لايظن بها الظن •

ومن العجيب أن نشيد شوقي على لحن الأبيات المشهورة : « نحن بنات طارق ــ نمشي على النمارق » ، وهي الأبيات التي استقبل بها نساء الأنصار عودة النبي صلى الله عليه وسلم من غزوته • نعوذ بالله من الخذلان ومن السوء في أي المظاهر كان[3] •

---

١ ــ رسائل الرافعي ص ٢٥١ .
٢ ــ راجع حياة الرافعي ص ٩٠ .
٣ ــ رسائل الرافعي ص ١٤٦ .

ولم يقتصر نشاط الرافعي الصحافي في هذه الفترة الحاسمة التي تجتازها مصر على كتابة الصحف بالأناشيد وحدها ، بل كانت له جـولات في كتابة المقالات • فقد كان يكتب مقالات مختلفة في شتى أنـواع الفنون الأدبية ، وحتى السياسية ، فكتب مرة (كلمة بليغة في وصف حالة البلاد السياسية)[1] وأبدى رأيه فيها ، وتقدم بها للنشر فرفضت ، لأن فيها رأيه الذي أبداه في الوضع السياسي للبلاد ، ورأيه لاينشر في الصحف ، لأنه موظف في الحكومة ، وليس له الحق أن يدلي بأي رأي سياسي •

واستمر يكتب في الصحف حسب ما تقتضيه المناسبات ، وما يسمح به وقته إلى أن ظهر كتاب (في الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين • وهنا اشتد نشاط الرافعي الصحافي اشتدادا قويا ، ظهر أكثر ما ظهر في المقالات اللاذعة، والمتلاحقة سراعا ، التي كان ينشرها في جريدة كوكب الشرق • وما ان انتهى من أمر الدكتور طه حسين حتى نشط نشاطا آخر في النقد الأدبي ، ولكنه من النوع اللاذع أيضا ، بل لعله أشد وقعا من نقد كتاب الدكتور طه حسين • ففي سنة ١٩٢٩ ظهر له أن يخلق نوعا جديدا في النقد الأدبي ، فاختار موضوعه شعر عبد الله عفيفي ، وكان هذا شاعر القصر الملكي ، فحيل بينه وبين شاعر الملك ، فاتجه إلى العقاد ، وكتب مقالات لاذعة بعنوان على السفود ، ولما أعياه أمر العقاد ، أراد أن يضيف إلى ما سبق الدكتور زكي مبارك ، ثم اختفى قليلا من ميدان الصحافة وأصبحنا لا نكاد نقرأ له شيئا في الصحف إلا بعض القطع النثرية التي كان ينشرها حينا بعد حين ، ويعلن عنها بأنها من موضوعات أوراق الورد وعلى نسقه وأسلوبه •

واستمر على هذا النحو ، يكتب في الصحف حينا بعد حين ، إلى أن اتصل بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٤ ، وهي الفترة الثانية من حياته الصحافية كما أشرنا الى ذلك سابقا • وقد اتفق الرافعي مع صاحب المجلة على أن يكتب مقالا في

---

١ ــ رسائل الرافعي ص ٦٧ •

كل أسبوع ، مقابل أجر يتقاضاه عن كل مقال ، وظل الرافعي يكتب في هذه المجلة إلى أن مات سنة ١٩٣٧ .

في هذه الفترة شعر الرافعي بواجبه نحو القراء ونحو الرسالة ، فكان يحرص كل الحرص على إنجاز عمله قبل موعده ، ولو بقليل ، حتى تطمئن نفسه . وقد ذكر لنا طريقته في الكتابة ، وهي طريقة تدل على اهتمامه بالموضوع والشعور بالمسؤولية ، فقال : (ومن عادتي في كتابة هذه الفصول التي تنشرها الرسالة أن أدع الفصل منها تقلبه الخواطر في ذهني أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس ، واترك أمره للقوة التي في نفسي ، فتتولد المعاني من كل ما أرى وما أقرأ ، وتنثال من ههنا وههنا ، ويكون الكلام كأنه شيء حي أريد له الوجود فوجد ، ثم أكتب نهار الجمعة ومن ورائه ليل السبت وليل الأحد)[1] .

وبهذه الأيام الطوال التي كان يقضيها في التفكير والتحبير والتبييض، ازدانت مقالاته وازدهرت ، وأخذ اسمه ينتشر في جميع البلدان العربية بطريقة أوسع من ذي قبل، لأن مجلة الرسالة كانت تصل إلى جميع هذه البلدان بطريقة أو أخرى، حتى البلدان النائية أو المستعمرة .

لقد مر بنا أن الرافعي كان قد هم في أول الأمر بالكتابة أن يحترف مهنة الصحافة ، ولكن أباه وجهه هذه الوجهة الأدبية التي ارتضاها وحمد الله أن أنقذه من مهنة الصحافة وإلا أصبح كبعض الحروف المكسورة في الطبع على حد تعبيره[2] . ونقرأ له في مثل هذا المعنى قوله : (ولا يقتل النبوغ شيء كالعمل في الصحافة)[3] ثم نراه مع ذلك يكتب في الصحف في كلا الفترتين الأولى والثانية .

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٢٠٨ .
٢ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٢١٤
٣ ــ وحي القلم ج ٢ ص ٢١٥

كيف نفسر هذا ؟

كان الرافعي في الفترة الأولى يتعهد ما يكتبه للنشر ، ويعتني به اعتناء كبيرا ، لأنه يدرك الخطر الذي يتهدد أسلوب الكاتب الناشيء • أما في الفترة الثانية فلا خوف على اسلوبه ، لأنه بلغ درجة قصوى في النضج الفكري والبياني ، ثم هو لم يزل يتعهد أسلوبه ، الا أن تعهده في الفترة الأخيرة ، ليس من خوف على أسلوبه أو ذوقه ، إنما من أجل الرونق والخلابة •

يقول في هذا المعنى : (فليس يَحْسُنُ بالأديب أن يعمل في هذه الصحافة اليومية الا اذا نضج وتم وأصبح كالدولة على الخريطة ، لا كالمدينة في الدولة في الخريطة ، فهو حينئذ لا يسهل محوه ولا تبديله ، ثم هو يمدها بالقوة ولا يستمد القوة منها ، ويكون تاجا من تيجانها لا خرزة من خرزاتها ، ويقوم فيها كالمنارة العظيمة تلقي أشعتها من أعلى الجو الى مدى بعيد من الآفاق ، لا كمصباح من مصابيح الشارع)[١] •

ويعترف بأن العمل في الصحافة من أشق الأمور على النفس[٢] ، الا أنه وسيلة للاصلاح والتهذيب ، ولهذا السبب الأخير وحده كان يتمنى أن لو اتيحت له فرصة فيتفرغ للنقد لينشيء جيلا قويا جديدا ، ويقضي على التدجيل الصحافي المتفشي في البلاد[٣] • ودعاه هذا الشعور الى أن يقترح على أحد الفضلاء أن ينشيء صحيفة إسلامية[٤] ليحقق هدفه الأسمى الذي يرمي اليه ، ولكن الظروف لم تكن مواتية فلم تنشأ مثل هذه الصحف التي ينشدها ، وبقي يتحسر عليها طول حياته كما كان يتحسر على الصحف الأخرى التي كانت تصدر آنذاك ووصفها بأنها حوانيت تجارة[٥] •

---

١ — وحي القلم ج ٣ ص ٢١٤

٢ — رسائل الرافعي ص ٢٢١

٣ — رسائل الرافعي ص ٢١٩ .

٤ — رسائل الرافعي ص ٢٢٠

٥ — رسائل الرافعي ص ٢٢١

كان اتصال الرافعي بمجلة الرسالة خير وسيلة لكثير من أدباء العرب ، فقد تعرفوا عليه من خلال ما يكتبه ، فأعجبوا به ، وبأدبه ، وطريقته فيعرض خلجات نفسه . نذكر منهم في هذا الفصل شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة .

كتب الرافعي مقالتين في الرسالة إحداهما بعنوان إبليس يعلم والأخرى دعابة إبليس[1] ، ولما اطلع الشاعر الجزائري على المقالتين أنشأ هذه الأبيات ليداعب الرافعي بها .

سخرت بإبليس في علمه   وأمعنت كالنجم في رجمه
أهنيك أنك في المنشئين   ثأرت لآدم من خصمه
وأحذر أن يهمس القارئون   وقد طال كشفك عن ظلمه
دعابة إبليس للرافعي   مخايل دلت على وهمه[2]

وكان الرافعي كثيرا ما يغتبط بمثل هؤلاء الأدباء المشجعين الذين يعرفون قيمته الأدبية ومنزلته الاجتماعية ومدى خدماته الثقافية التي يقدمها لبني وطنه.

وفاته تسبق أمانيه

في صبيحة ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ فاجأ الموت الرافعي وعمره سبع وخمسون سنة ، قضى أكثرها بين الأعمال الأدبية والادارية وشؤون الحياة .

(استيقظ الرافعي مع الفجر على عادته كل يوم فتوضأ وصلى ، وجلس في مصلاه يسبح ويدعو ويتلو قرآن الفجر ، وأحس بعد لحظة ألماً في معدته ، فتناول دواء وعاد الى مصلاه ... ومضت ساعة ثم نهض من فراشه لا يحس ألماً ولا يشكو وجعا وما به علة ، فأخذ طريقه الى الحمام ، فلما كان في البهو سمع أهل الدار سقطة عنيفة أحدثت صوتا شديدا ، فهبوا مذعورين ليجدوا الرافعي جسدا بلا روح . وحمل جثمانه بعد ظهر الاثنين من ذاك اليوم الى

١ ــ وحي القلم ج ٢ ص ١٩٢ ــ ٢٠٧
٢ ــ جريدة البصائر عدد ١٤ سنة ٣٦ ــ ومحمد العيد ص ١٤٠

حيث رقد رقدة الأبد في جوار أبويه من مقبرة الرافعي بطنطا)[1] •

وغداة موته نشرت جريدة الأهرام صورته وقالت (مصطفى صادق الرافعي في ذمة الله) • وبعد أن ذكرت صفاته الأدبية وما وصل اليه في اللغة والكتابة ، ذكرت بعض أسماء الأسرة الرافعية ، وما منهم الا ذو شأن عظيم ، فمن طبيب الى مهندس [2] •• وفي اليوم الرابع من وفاته نشرت الجريدة نفسها مقالات ثلاثا ومقطوعتين شعريتين ، وكلها تتدفق روحا وحياة • نقتطف بعضها وندع البعض الآخر •

وأول مقال يبتدىء على هذا النمط (هذا إمام من أئمة الأدب العربي ، خرج من الدنيا ودخل في التاريخ ، وقليل هم الذين يفتح لهم التاريخ بابه ليأخذوا مكانهم من المجد والخلود • ولقد كان الرافعي ـ رحمه الله ـ فوق صفاته الأدبية العالية ، وشمائله الخلقية الرفيعة ، ذوادا عن لغة العرب ، حاميا لذمارها ، مدافعا عن كيانها ، رافعا من بنيانها ، مستعينا في ذلك كله بما آتاه الله من قوة ونبوغ [3] ••

وكتب أيضا عن الرافعي صهره الأستاذ البرقوقي مقالا طويلا أسهب في ذكر مناقب الرافعي وخصائصه الأدبية وأقوال القراء فيه بين معجب ومتبرم ••

ومن الشعر نكتفي بهذه المقطوعه

عزاء العروبة

أعزي البيان وأبكي الأدب — وأفضي لصادق حقا وجب
وأرسل شعري في الخافقين — دموعا كصوب الغمام انسكب
فياليت لي منطق المصطفى — وإعجاز صادق اما خطب

---

١ ـ حياة الرافعي ص ٣٤١
٢ ـ جريدة الاهرام ١١ ـ ٥ ـ ١٩٣٧
٣ ـ جريدة الاهرام ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٣٧

عساي أقوم ببعض الـذي لصادق في قصـرات العـرب
عـزاء العروبـة في خطبهـا فقد مات ناصرهـا ذو الغلب[1]

واستمرت بعد ذلك سائر الصحف تكتب عن وفاة الرافعي حينا بعد حين . فهذه مجلة المقتطف تذكر الكثير عن الرافعي وعظمته في الشرق العربي ، ثـم تنطرق الى ذكر الأسرة الرافعية ونسبها الذي يرجع الى عمر بن الخطاب ، كمـا تخبرنا بشيء جديد لا نجده في سواها وهو أن هـذه الاسرة كانت تلقب فيما مضى بعائلة اليساري ، ثم حدث أن قدم الجد الأكبر لهذه الأسرة الى مصر ، وهو الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير الذي توفي سنة ١٢٣٠ هجرية ، والتقى بشيخه محمود الكردي الخلوتي فلقبه بالرافعي تشبيها بمحمود الرافعي العالم المشهور[2] .

ونكتفي بهذا القدر مما قالته الصحف بعد موت فقيدنا الرافعي ، ونذكر بعض أمانيه التي كان ينوي تحقيقها فعاجله الموت وبقيت أمانيه تشهد له بالعمل والاستبسال في سبيل تحقيق أهدافه .

كان يمني نفسه أن يؤلف كتابا في أسرار الاعجاز ، وكتـابا في القرائـح العربية ، وكتابا في السيرة النبويةوكتابا وكتابا...يقول عن الامنية الاولى : (لنا كلام طويل في فلسفة الأسلـوب البيـاني ، سنـذكره في كتابنـا أسرار الاعجاز)[3] . ويقول عن الأمنية الثانية : (لعلنا نؤلف كتابا في القرائح العربية الذي أثبتنا فيه عيون الكلام نظمه ونثره)[4] . وكانت له أمنيـة في تأليف كتاب في السيرة النبوية بعنوان محمد . إسوة بمن ألفوا في هذا الموضوع[5]

١ ـ جريدة الاهرام ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٣٧
٢ ـ راجع هذه الرسالة ص ٥ ـ المقتطف ديسمبر ١٩٣٧
٣ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٢٨٤
٤ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧
٥ ـ رسائل الرافعي ص ٢٧٢

على أن يكون نهجه على غرار مقاليه : (الاشراق الالهي[1] ووحي الهجرة)[2] لا على طريقة غيره من المؤلفين •

والمتصفح رسائله التي كان يبعث بهـا الى صديقـه أبي رية ، يدرك أن الرافعي لم يخلق الا للنشاط والمثابرة ليقدم ثمرة أدبية من نوع غير الأنواع المألوفة ، وكأنه لم يخلق في الوجود الا ليكون المسؤول الوحيد عن تقـديم هذه الثمرات الأدبية الفريدة • وكان اذا خلا الى نفسه حدثها وحدثته ، وسمع منها وسمعت منه ، يقول لها (ويحك يا نفس ما لي أتحامل عليك فاذا وفيت بما وسعك أردت منك ما فوقه وكلفتك أن تسعي ، فلا أزال أعنتك من بعـد كمال فيما هو أكمل منه ، وبعد الحسن فيما هو الأحسن ، وما أنفك أجهدك كلما راجعك النشاط ، وأضنيك كلما ثابت القوة ، فان تكن لك هموم فأنا أكبرها ، واذا ساورتك الأحزان فأكثر مما أجلب عليك • أنت يا نفس سائرة على النهج ، وأنا أعتسف بك ، أريد الطـيران لا السـير ، وأبتغي عمـل الأعمار في عمر) •

ويستمر في المحاورة مع نفسه فهو يعترف لها بقسوته عليها ، وهي تجيبه بكلمات الرضا كالحبيبة الوفية الى أن تقول له نفسه : ليست دنياك يا صاحبي ما تجده من غيرك بل ما توجده بنفسك ، فإن لم تزد شيئا على الـدنيا ••• كنت أنت زائدا على الدنيا ••• والقوة يا صاحبي تغتذي بالتعب والمعاناة ، فما عانيته اليوم حركة من جسمك ، ألفيته غدا في جسمك قوة من قوى اللحـم والدم • وساعة الراحة بعد أيام التعب هي في لذتها كأيام من الراحة بعد تعب ساعة • وما أشبه الحي في هذه الدنيا ووشك انقطاعه منها ، بمن خلق ليعيش ثلاثة أيام معدودة عليه ساعاتها ودقائقها وثوانيها • أفتراه يغفل فيقدرها ثلاثة

---

١ ـ راجع وحي القلم ج ٣ ص ٣ ـ ١٧

٢ ـ المصدر السابق

أعوام ، ويذهب ويسرف فيها ضروبا من لهوه ولعبه ومجونه ، الا اذا كان أحمق أحمق الى نهاية الحمق ...

أتعب يا صاحبي تعبك فإن عناء الروح هو عمرها ، فأعمالك عمرك الروحاني ، كعمر الجسم ، وأحد هذين عمر يعيش ، والآخر عمر ما سيعيش .

ويستمر في المحاورة الى أن يخلص الى النتيجة التي يريد أن يقررها ، وهي أن الحياة عمل واجتهاد ، فيقول لنفسه : إني الى الآن لم أقل لك ما كتمته عنك ، فتقول له نفسه : إني لم أجبك الا عما كتمته عني[1] .

علق الرافعي في أسفل الصفحة عن سبب كتابة هذه المقالة فقال : (كتبت في ساعة ضجر ، من هذه الساعات الطارئة على الروح ، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده ، والعالم كله وحده . ذاك في وجود نفسه خاصة ، والآخر في وجود الطبيعة كلها)[2] .

إن المقالة والتعليق عليها ينبئان بما كان يراود الرافعي من أفكار أثناء خلوته ، فقد تهيأ للراحة ، فإذا الأفكار تتصارع في ذهنه ، فلم يستطع الخلاص منها ، الا حين أخذ القلم وسجلها خاطرة خاطرة ، وبذلك قذفها عن نفسه بعيدا ، الى حيث يقرؤها من يقرؤها فيعلم من أمر صاحبها ما يمكن أن يعلم . وهي دليل على نشاطه ، وشعوره بأنه لم يخلق في هذه الحياة الا ليؤدي رسالة من أسمى الرسالات . وفعلا قد أدى رسالته الثقافية كما ينبغي .

وكان يتمنى أن يضيف الى تآليفه تآليف أخرى ، وخاصة في أسرار اللغة وخفاياها ، ولكن الموت عاجله ، وبقيت أمانيه وتآليفه دالة عليه وعلى نبوغه واتجاهه ، رحمه الله .

---

١ ـ انظر وحي القلم ج ٢ ص ٨٥ وما بعدها .
٢ ـ المصدر السابق .

الفصل الثاني

الرافعي المؤلف

١ ـ الجزء الأول من تاريخ آداب العرب .
٢ ـ الجزء الثاني (إعجاز القرآن) .
٣ ـ الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب .

انتهت حياة الرافعي الشاعر بانتهاء الجزء الأول من ديوان النظرات سنة ١٩٠٨ ، وتلت ذلك حياة الرافعي المؤلف . وقبل الحديث عن مؤلفاته ، نلاحظ ملاحظتين :

أولاهما : أن الرافعي لم يهجر الشعر هجرا تاماً ، فقد كان ينظم بين حين وحين قصائد في شتى الموضوعات ، حسب مناسباتها ودواعيها . ولقد أشرنا الى بعضها في الفصل السابق عند حديثنا عن نشاطه الصحافي ، وسنشير أو نثبت البعض الآخر في مؤلفاته الأدبية بعد هذا الفصل والذي يليه .

والملاحظة الثانية : أنه هم قبل أن يهجر الشعر بمدة طويلة أن ينشىء كتابا مدرسيا في (ملكة الإنشاء) يكون نموذجا للمتأدبين وطلاب المدارس ، يحتذون حذوه ، وينسجون على منواله . وقد سلك فيه طريق الأقدمين في أسلوبه من تكلف السجع ، واصطياد اللفظ الغريب ، ولكنه أهمل طبعه لأمور يقول عنها

سعيد العريان : أنها (نشأت وصرفته عن وجهه)[1] . ولا أرى تفسيرا صحيحا لهذه الأمور إلا في التطور العظيم الذي حدث في الأدب العربي ، وهزه هزا عنيفا حتى بعث به الى حيث الانطلاق والترسل ، بعد أن كان يرسف زمنا طويلا في أغلال السجع ، وقيود الصناعة اللفظية .

ونجد ثلاثة فصول[2] نشرها في الجزئين الأخيرين من ديوانه ، وفي الجزء الأول من ديوان النظرات ، وهي تدل على بقية الفصول الأخرى التي أهمل طبعها ، كما تدل على اتجاهه الفكري والأدبي في أول عهده بالأدب . نكتفي بفقرتين من فصل (الحسن المصنوع) لنتبين هذا الاتجاه .

يقول : (حسناء قد نزعت لون الوردة بخدها ، وتركت في الوردة الطيب ، ومثلت هيف الغُصْنِ في قد غير رطيب ، وانتحلت دلال الحب ، ولكن من غير حبيب . فما أحسن الوجه وهو روضة مصورة ، وزجاجة منورة ، وشهادة على الله مزورة . كيف لا وقد امتاز بين الناس بالقياس وغير القياس ، فتلك صور مخلوق أهلها من الطين ، وهو لكثرة ما عليه من شبه الدقيق كأنه صورة من العجين)[3] .

فكل هذه الصيغ مقتسرة من الالفاظ الشعرية التي كان الشعراء قديما ، وما فتئوا إلى عصرنا ، يرددونها على مسامعنا في شعرهم أو في نظمهم . فالجمال في البادية مطبوع ، وفي الحضر مصنوع . وهذه الفتاة كغصن البان ، وتلك هيفاء أو حسناء ، إلى غير ذلك من الالفاظ المعادة المحفوظة ، وهي ركيكة مبتذلة لكثرة ما استعملت وكررت ، ومن أجل ذلك أهمل الرافعي طبع كتابه (ملَكة الانشاء) ، ولبث يفكر فيما عساه أن يفعل . أيتابع الشعر ؟ أم يتابع النثر ؟ وأي نوع من أنواع النثر ؟ فلم تطل وقفته ، فقد حدث أمر هام نبه الرافعي بعض

---

١ ـ حياة الرافعي ص ٦٤

٢ ـ ديوان الرافعي ج ٢ ص ٦٧ ـ ج ٣ ص ٨٠

٣ ـ المصدر السابق

التنبيه ، وسرعان ماعرف الرافعي نفسه وشق طريقـه في ميدان التأليف ، كما سيتضح ذلك في الفصول القادمة •

الجزء الأول من تاريخ آداب العرب

وقف الرافعي إزاء هذا التطور الحديث مذهولا لايدري ماذا يصنع ، ولا كيف يشق طريقه في الأدب • أينتهج نهج الأقدمين أمثال الصاحب بن عباد والحريري والهمذاني ؟ أم يساير العصر فينطلق مع الركب ؟ أم يستمر في نظم الشعر ، فيشفع الجزء الأول من ديوان النظرات بالثاني كما يفهم من عنوانه[1] •

وقف حائرا إزاء هذين التيارين المختلفين ، تيار القدماء ، وتيار المحدثين ، وكاد وقوفه يطول ، لولا أن حدث أمر فبدد من حيرته ، وجعله يخرج إلى عالم الواقع ، ليشق طريقه في التأليف •

والذي حدث هو إنشاء الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٨ • سمع الرافعي بها ، وأخذ يتتبع أخبارها نحو سنة ، ثم استيقن أن لاشيء فيها يعلو على أدبه وعلمه • فكتب مقالا في الجريدة (يحمل على الجامعة وعلى أساتذتها ومنهجهم فيها • ورن المقال رنينه ، وأحدث أثره ، فاجتمعت اللجنة الفنية للجامعة ، ونشرت دعوة على الأدباء الى تأليف كتاب في أدبيات اللغة العربية ، جعلت جائزة الفائز فيه مائة وخمسين[2] جنيها وضربت أجلا لتقديمه اليها سبعة أشهر)[3] •

ان الدعوة مغرية ، ولكن الرافعي لم يكن يطمع في هذا المبلغ الذي سينفذ بعد حين ، إنما كان يطمع أن يكون مدرسا في الجامعة ، يحاضر طلابها،ويجالس

---

١ ــ انظر حياة الرافعي ص ٥٠ ورسائل الرافعي ص ٦١ ــ ٧٥ ــ ٢٤٨ وديوان النظرات ج ١ ص ١٢٨

٢ ــ جاء في حياة الرافعي ص ٦٥ أن الجائزة مائة جنيه والصوات ما أثبت . انظر الجريدة ١ ابريل ١٩٠٩ .

٣ ــ حياة الرافعي ص ٦٥

أساتذتها ، ويباهي بها ، وتباهي به ، ولذلك عزز المقال الاول بمقال ثان ،وأطلق عليه بعد ذلك مقال الجريدة الثاني ، تمييزا له عن الاول . قال فيه ... (إنهم على الاغلب ، سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم ، كالغائب عنهم ، ولا فضل لدارهم الا أنها مصدر التلقين ، فاذا طبع الكتاب ، صارت كل مكتبة في حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب ، لا الذي يلقيه ، وإلا فما بالهم لايعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الاستاذالقدرةعلى القاء درسه،دون القدرةعلىاستنباط الدرس ، واستجماع مادته، وحتى لايزيد على أن يكون هو بين تلامذته،التلميد الكبير[1] ثم انتقل الى اللجنة وقال : إنها لاترقى الى منزلة المؤلف ، ومن ثم فليس لها ان تحكم . (لاجرم أن أولى الناس بالحكم ، أبصرهم بالمحكوم فيه، وإلا لكان حكمه في الخصومة خصومة أخرى ، تحتاج الى حكم غيره . واذا كان ذلك ، فلم تنفض ادارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة)[2] .

وبعد هذا المقال ، جددت اللجنة الدعوة مرة ثانية (وزادت المدة الى سنتين، والجائزة الى مائتين،وتعهدت بطبع الكتاب المختار)[3] ، وهنا زالت حيرة الرافعي، وقرر أن يشق طريقه في ميدان التأليف ، وما هي إلا فترة وجيزة حتى أتم الجزء الاول من تاريخ آداب العرب ، وهو أول كتاب ينشئه في النثر ، عكف عليه نحو سنة ونصف ، إذ شرع فيه في منتصف سنة ١٩٠٩ إلى آخر ١٩١٠ وأتم طبعه في أوائل السنة التالية ، ولكنه لم يتقدم به إلى الجامعة . والسبب في ذلك على ما أرى ، خوفه من الاخفاق ، لأن منهج الكتاب قد لايرضي الجامعة . ويؤيدني في هذا الرأي أمران أحدهما ما عرف عن الرافعي في مثل هذه المسابقات، فقد كان يشارك فيها بالقصص والأناشيد ، ولكنه لايفتأ يتتبع أعضاء اللجان ،

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ٧٠

٢ ـ المصدر السابق .

٣ ـ الجريدة ٢٩ ابريل ١٩٠٩ وحياة الرافعي ص ٦٦ .

فاذا أحس شيئا ، أعلن أن هناك مؤامرة تحاك ضده[1] .

والأمر الثاني سكوت الرافعي الطويل مدة تأليف هذا الكتاب ، فقد عكف عليه دون أن يعلن عن قصده ، والعلةواضحة ، أنه يخشى من منافس يزاحمه في المسابقة ، لأنه متى كان وحده في ميدان السباق ، كان الفائز لامحالة . وآية ذلك تألمه الشديد من ظهور كتاب زيدان قبل كتابه ، فقد علل الرافعي هذا السبق ، والمرارة بادية عليه ، أن السبق كان مطبعيا ، وبنحو شهر أو شهرين فقط[2] ، ثم قال في موضع آخر : (لقد كنت أنا السبب في أن زيدان ألف كتابه تاريخ آداب اللغة العربية)[3] .

اطلع الرافعي على كتب الأقدمين ، وأخذ يجمع مايراه مناسبا لموضوعه ،فلما تم له ذلك ، وازن وقارن ثم شرع في التنظيم والتبويب ، فجاء الكتاب منسقا ومتماسكا . وقد حصر منهج الكتاب في اثني عشر بابا ، وعلل ذلك بقوله : (وقد جعلنا أبوابه اثني عشربابا تنطوي على جملة المأثور،ويدور عليها التاريخ، كما تدور السنة على عدة الشهور)[4] .

وأرى أن سبب تقسيم الابواب إلى اثني عشر بابا ، لايرجع الى مايفهم من كلامه ، من أنهجمع فيهذهالأبوابما وسعه ، وكأنه لم يتركلاصغيرةولاكبيرة ، كما جمعت السنة شهورها الاثني عشر . إنما يرجع الى تيمن الرافعي بالنبي محمد وعيسى ، فللأول ، اثنا عشر نقيبا ، وللثاني اثنا عشر حواريا أو رسولا على حد تعبير الانجيل[5] . وقد كان كل من الرسولين في بداية الطريق عندما اتخذ لنفسه هذا العدد ، ليكون عونا له . والرافعي كذلك في بداية الطريق ،

---

١ ـ انظر رسائل الرافعي ص ١٠٣
٢ ـ تحت راية القرآن ص ٦٩
٣ ـ رسائل الرافعي ص ٣٩
٤ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٨
٥ ـ انظر الكتاب المقدس ـ العهد الجديد ـ ص ٤٤٥

فنوى هذه النية ليبلغ مبلغا عظيما كما بلغ الرسولان مبلغا عظيما • وسوف أتحدث عن منهج كل جزء من الكتاب في موضعه •

وقد اجتمع في هذا الجزء الأول ثلاثة عناصرهي أساس قيمته الفنية واللغوية والأدبية : أصالة المنهج ، ودقة السبك ، وروعة الأسلوب •

لم يتبع الرافعي في هذا الجزء منهج العصور على عادة المؤلفين الذين يقسمون تاريخ الأدب العربي الى عصور تاريخية • فقد زعم أن هذا المنهج من صنع المستشرقين ، ألجأهم إليه ضعف السليقة في اللغة العربية وآدابها ، وتبعهم فيه بعض المستغربين ، وصنيعهم جميعا (لايعتبر في حقيقة التأليف ، إلا توسعا من ضيق ، وتوفيرا من قلة ، وإغراقا في الحشد والاجتلاب) •

وقال : والفرق بعيد بين علم يورد منه المؤلف إشباعا لكتاب ، وبين كتاب يفرده إشباعا للعلم نفسه • ولهذا بقي تاريخ آداب العرب محتاجا الى طريقة أخرى ، لايختصر فيها الزمن بسرعة النقل ، ولا يرفه على الفكر بهذا الاضطراب الرياضي ، في وثوبه بين الكتب ، ولا تنفتق الفصول الهزيلة سمنا بل تلبس من الأوراق الكثيرة[1] • ولهذه العلل التي ذكرها ، قسم الكتاب بحسب الموضوعات، إذ يرى الوحدة الموضوعية هي أهم رابط للفكرة التأليفية ، فقال : (وإذا تدبرت طريقتنا هذه ، وقابلت آثارها بما شئت من آثار الطريقة الأخرى ، وأحكمت ذلك بعقل راجح وأنعمت فيه بنظر غير مدخول ، رأيت أي هذه الكتب أحسن قياما على تاريخ الأدب ، وأوفى بالحاجة منه)[2] •

والكتاب بعد المقدمات التوضيحية ، يشتمل على فصلين تمهيديين • يتناول الأول ، كلمة أدب وتاريخها ، وما اشتق منها ، ويتحدث الثاني عن حياة العرب وبلادهم من الناحية الجغرافية ، وتأثير الطبيعة في الصوت واللحن ، ويلي ذلك

---

١ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٢

٢ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٤

بابان ، يتحدث في الباب الاول عن تاريخ اللغة ونشأتها واشتقاقاتها ، وفي الباب الثاني يتحدث عن الرواية والرواة •

وطريقةتأليفه لا تخلو من أحد أمور ثلاثة : الاقتباس أو النقل ، أو الاشارة، وفي كل ذلك يسلط ذهنه ، ويعمل فكره ، ويحاول جاهدا أن يتعمق الموضوع بالتحليل والشرح ، وقد وفق في كل فصول الكتاب ، وخاصة مايتصل بالأمور التاريخية ، كالرواية والرواة • فقد عقد لها بابا خاصا (نيفت صفحاته على مائة وخمسين •• لم فيه شتات الموضوع من أطرافه كلها ، واستقصاه استقصاء)[1]، حتى أنه قارن بين رواة اليونان والعرب ، وطريقة كل فريق فيالرواية ، مما يدل على إحاطته بموضوعه إحاطة تامة ، فقال : (وقد كان عند قدماء اليونان لبعض الأسباب المعنوية التي تشابهوا فيها هم والعرب ، رواة يتفرغون لنقل الشعر ، ويقومون في الناس على انشاده ، ويرون قطعا من التواريخ ، وهم يسمونهم Rhapsedist • ومن أشهرهم في القديم ، رواة الالياذة لهوميروس ، على أن الفرق بين العرب واليونان في ذلك ، كالفرق بين أمة كلها شعراء بالفطرة ، وأمة تميز الفطرة منها بعض شعراء)[2] ويمكن تلخيص باب الرواية والرواة في موضوعين ، أحدهما يتعلق بتاريخ الرواية قبل الاسلام ، والثاني بعد الاسلام •

استقصى الرافعي الموضوع الأول استقصاء عميقا ، فذهب الى أن الاصلفي الحفظ عند العرب ليس سببه الأمية الفاشية فيهم ، أو قلة مرافق الحياة ، كما زعم بعضهم ، إنما هو طبع فيهم ، حباهم الله به ، ودليله : (أن أقواماً غير العرب

---

١ ـ مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٧٧

٢ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٣٦٥ ـ هذه النظرية التي أثبتها الرافعي بين شعراء العرب وشعراء اليونان هي التي أثبتها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٨ في فصاحةالعرب على الفرس . وانظر الرد عليه ، في مقدمة الدكتور طه حسين لكتاب نقد النثر ، لقدامة بن جعفر .

قد تبدوا في عصور مختلفة،ولم يؤثر عنهم من نوادر الحفظ وفنونه بعض ما أثر عن هؤلاء[١] .

ويستمر في تدعيم نظريته إلى أن يقول : (واذا أردت أن تعرف مصداق ذلك فاعتبر ما اتسعوا فيه من المحفوظ ، فانك لست واجده ، إلا في المعاني النفسية ، مما يرجع الى التفاخر ، والتفاضل بالأحساب والأنساب ، والتعاير بالمثالب،والتنابذ بالألقاب[٢] . وهذا الدليل الذي أثبته الرافعي صحيح إلى حد بعيد ، وهو يدل على ان المؤلف قد ألم بهذا الموضوع إلماما واسعا ، وعرف الخصائص المميزة لكل من العرب واليونان .

أما الرواية بعد الاسلام ، فبحكم التطور الثقافي والاجتماعي والديني ، قد تعددت وتشعبت ، وأصبحت تشمل جميع العلوم والفنون ، كالحديث واللغة والأدب ، وخاصة الشعر ، (لحاجة العلماء إلى الشواهد في تفسير الغريب ، ومسائل النحو[٣] ، كما أصبحت علما بمناهج وشروط خاصة .

والرافعي بصفة عامة ، أجاد في هذا الكتاب . فقد استقصى أخبار اللغة وتاريخها ، وعلل واستنتج ، وعمل ذهنه في كل الفصول ، وظهرت شخصيته قوية بارزة ،وأدركها الثقاة من أدباء عصره ، وشهدوا له بذلك، ومنهم الدكتور طه حسين ، فقد أشاد به وبفهمه للنصوص التي نقلها ، ومنها كلمة الأدب ، فقد وردت على ألسنة الأقدمين ، وأضافها بعضهم الى ابن عباس ، وبعضهم أضافها الى حفيدا بن عباس ، فدرس الرافعي الكلمة ، وآثر الرواية الأخيرة ، (لأن ابن عباس توفى فيما بين سنة ٦٨ ـ ٧٤هـ[٤] ولم يكن يومئذ بالتحقيق ما يصح أن يسمى علم الأدب[٥] .

---

١ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٧٨
٢ ـ المصدر السابق
٣ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٣٦٨
٤ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٣٦٨
٥ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢

أدرك الرافعي الفرق الزمني بين ابن عباس وحفيده ، فاختار الرواية التي نسبت إلى الحفيد ، لأن المنطق يؤيد ذلك • وفي هذا المعنى يقول الدكتور طه حسين : (من الحق أن يثنى على مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب ، فقد بحث عن كلمة الأدب وأطوارها ومعانيها ••• وقرأ اللسان وفهمه ، لم يأخذ منه إلا مااحتاج اليه •• ورأى نصوصا تضاف الى القدماء شك في صحتها ، فنفى بعضها، وأعرض عن بعضها الآخر • ويقول : وقد علم الله ما أعطف على الرافعي ، ولا أميل إلى فنه ، ولكني أحب أن أنصف الرجل)[1] •

وممن أشاد بالرافعي في كتابه هذا من مشاهير الكتاب آنذاك ، أحمد لطفي السيد مدير الجامعة المصرية ، وأمير البيان شكيب أرسلان ، وأحمد زكي ، ثم المصلح الجزائري ابن باديس • نذكر لكل واحد من هؤلاء الأربعة بعض إشادته • قال لطفي السيد : (قرأنا هذا الجزء ، فأما نحوه ، فعليه طابع الباكورة في بابه ، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاما ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا ، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هـذا الجزء إلا بعد درس طويل • وأما أسلوب الرافعي في كتابه ، فانه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين • فكأني وأنا أقرؤه ، أقرأ من قلم المبرد ، في استعماله المساواة ، وإلباس المعاني ألفاظا سابغة، مفصلة عليها ، لا طويلة تتعثر فيها ، ولا قصيرة عن مداها تودي بعض أجزائها)[2] •

وقال شكيب أرسلان : (لو كان هذا الكتاب خطا محجوبا في بيت حرام إخراجـه للنـاس •• لاستحق أن يحج إليه ، ولو عكف على غير كتاب الله في نواشيء[3] الأسحار ، لكان جديرا بأن يعكف عليه ، ولا عيب فيه غير أنه حديث ، وأن للقديم حرمة)[4] •

---

١ ــ من بعيد ص ٢٥٢
٢ ــ الجريدة ٤ مارس ١٩١٢
٣ ــ نواشيء أوائل الليل
٤ ــ جريدة المؤيد ٩ فبراير ١٩١٢

وقال أحمد زكي : (أما إنه ليحق لنا بعد أن قرأنا تاريخ آداب العرب الذي سبك قوالبه ، وهذب مطالبه ، شاعر الحقيقة والخيال ، وكاتب العبارات يصوغها صوغ اللآل ، السيد مصطفى صادق الرافعي ، أن نقول : إن في الحلبة جيادا ، وإن للنهضة الحديثة في مصر رواسيَ وأوتادا ، وإن للأدب وجهة سامية هو موليها ، وساعة قد آن وقتها فهو يجليها ...) • ويستمر في التقريظ والثناء ، ثم ينبه المؤلف إلى بعض الهنات التي لا يخلو منها كتاب ضخم ، كهذا الجزء ، فيقول : (على أن الكتاب لا يسلم من هنات قليلة ، في مسألة ظنية ، ودليل معدوم ، ووجه مشتبه ، ونحو ذلك مما لا بد منه في تاريخ اللغة العربية ، لضياع الكثير من أصول هذا التاريخ في مختلف أعصاره ، وهجرة ما بقي منه إلى غير داره ، واستقراره في غير قراره) • ثم يستطرد قائلا : إلا أن كل ذلك في مجموعه معفو عنه بإزاء ما في الكتاب من الحسنات • فما شئت من لغة ناصعة ، وسبك صحيح ، وتعبير صريح ، واستنباط رجيح ، وتدقيق مليح •

ويقول : (وبالجملة ، فإن آداب العرب ، هو الكتاب الذي ليس لنا غيره إلى الآن في موضوعه ، بما يفي وفاءه ، ويغني في الأدب غناءه ، ويفيد مطالعيه وقراءه • فعسى أن يكون فاتحة ، تستهل بعدها الآيات ، وتدنو بها الغايات)[1]

وبعد أن مر على هذا الجزء وصنوه الجزء الثاني مدة طويلة تلقى الرافعي رسالة من الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يقول له فيها : إنه سيتخذ طريقة الرافعي في تدريس آداب اللغة العربية ، فاغتبط الرافعي بالرسالة وبصاحبها ، وكتب إلى أحد أصدقائه يخبره بذلك فيقول :

وقد كتب لي صاحبنا العالم المغربي في بلاد الجزائر أنه ... تألفت عندهم جمعية علمية إسلامية لافتاء الشعب في أموره الدينية ، وإرشاده وتعليمه ؛ ولها شعبة خاصة بالأدب العربي هو رئيسها • وأن هذه الشعبة قررت أن يكون

---

١ — الجريدة ٢١ فبراير ١٩١٢

الأدب العربي في الجزائر على الخطة التي رسمتها في تاريخ آداب العرب ، وأنها ستعمل لذلك وتتخذ طريقتي • فبارك الله في هذا الرجل الفاضل[1] •

ونكتفي بهذا القدر مما قيل في الكتاب ، لأن الذين تناولوه بالتقريظ كثيرون ، منهم رجال الصحافة[2] وكبار الكتاب[3] • وقد هم الرافعي مرة ، أن يضيف إلى الكتاب بعض الزيادات في طبعته الثانية ، ولكنه عدل عن ذلك، لأنه وجده متماسكا ، فاكتفى بأن وضعها تعليقات في أسفل الصفحات[4] •

الجزء الثاني : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية

وضع الرافعي هذا الكتاب سنة ١٩١٢ بعنوان الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب ، ليتمم به معاني الجزء الاول الذي أصدره قبله بسنة • وبعد مضي أربعة عشر عاما ، بدا له أن يغير عنوانه في الطبعة الثانية ، فاختار له هذا العنوان الجديد : (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، وبه اشتهر وعرف • علل الرافعي سبب هذا التغيير بقوله : (كان هذا الكتاب مبحثا من مباحث كتابنا الكبير تاريخ آداب العرب ، ثم أفردناه ليكون كتابا بنفسه تعم به المنفعة ، ويسهل على الناس تناوله)[5] •

يتألف هذا الكتاب من باب واحد ، هو الباب الثالث حسب الترتيب الذي ذكره المؤلف في الجزء الأول من تاريخ آداب العرب[6] • وموضوعه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) • وقد مهد للكتاب بكلمة قصيرة عن منهجه فقال : (لابد لنا من صدر نبتدىء به القول ، في تاريخه وجمعه وتدوينه وقراءته ،

---

١ ــ رسائل الرافعي ص ٢٢٦
٢ ــ راجع مجلة الزهور مارس ١٩١٢
٣ ــ انظر الجريدة ٢١ فبراير ١٩١٢
٤ ــ قارن بين الرأيين في رسائل الرافعي ص ١٦٥ ــ ١٦٧
٥ ــ أعجاز القرآن ص ٢١
٦ ــ انظر تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٨

حتى تكون هذه سببا إلى الكلام في لغته وبلاغته ، ثم إعجازه في اللغة والبلاغة)[1] وبعد الصفحات التمهيدية ، يشرع في الحديث عن الكيفية التي نزل بها القرآن ، وعن المدة التي استغرقها الوحي ، ثم سرعان ما ينتقل إلى أسباب نزوله ، والعلة في أنه نزل مرجما ، فيقول : (لولا نزوله متفرقا آية واحدة إلى آيات قليلة ، ما أفحمهم الدليل في تحديهم بأقصر سورة منه ، إذ لو نزل جملة واحدة ، كما سألوا ، لكان لهم في ذلك وجه من العذر يلبس الحق بالباطل ، وينفس عليهم أمر الاعجاز ، ويهون في أنفسهم من الجملة ببعض ما لا يهون من التفصيل ، لأنهم لا يقرؤون ولا يتدارسون ، ولكن الآية أو الآيات القصيرة ، تنزل في زمن يعرفون مقداره بما ينزل في عقبها ، ثم هم يعجزون عن مثلها في مثل هذا الزمن بعينه ، وفيما يربى عليه ويضعف[2] ... أمر هو يشبه في مذهب الاعجاز ، أن دليل التاريخ عليه ، وأنه ليس في طبعهم البتة لا قوة ولا حيلة)[3] . وعلى هذا النسق يمضي المؤلف في هذا الموضوع ، وهو كما رأينا باحث عالم .

والكتاب يشتمل على صنفين من الموضوعات :

١ ــ ما يتعلق بالتاريخ ، كطريقة جمع القرآن وتعدد القراءات .

٢ ــ ما يتعلق بالاعجاز والبلاغة النبوية .

وفي كلا القسمين يتدخل المؤلف بآرائه ، إما شارحا أو معللا .

1

مثال ذلك في القسم الاول يقول : (الكلمات التي يظن أنها زائدة في القرآن ، كما يقول النحاة ، فإن فيه من ذلك أحرفا ، كقوله تعالى : فبما رحمة

---

١ ــ أعجاز القرآن ص ٢٩
٢ ــ فيما يزيد عليه وينقص
٣ ــ اعجاز القرآن ص ٣٠

من الله لنت لهم[1] وقوله : (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيرا)[2] فإن النحاة يقولون : إن (ما) في الآية الأولى و (أن) في الثانية زائدتان ، أي في الاعراب ، فيظن من لابصر له أنهما كذلك في النظم ، ويقيس عليه ، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير ، لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته . فإن المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه ، وأن ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد في (ما) وصفا لفظيا ، يؤكد معنى اللين ويضخمه . وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية ، لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق ، ثم كان الفعل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس الى تدبر المعنى ، وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه ، وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية كما ترى[3] .

ويقول في الآية الثانية : إن المراد منها (تصوير الفصل الذي كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام ، وأن ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب ، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره ، هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي (أن) في قوله : (أن جاء)[4] . وينهي كلامه عن مثل هذه الحروف بقوله : (وعلى هذا يجري كل ما ظن أنه في القرآن مزيد ، فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمعناها ، إنما هو نقص يجل القرآن عنه ، وليس يقول بذلك إلا رجل يعتسف الكلام ، ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره . فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة ، من جهة نظمه أو دلالته ، أو وجه اختياره ، بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق ، أو حرف نافر ، أو وجهة غير محكمة ، أو شيء مما تنفذ في نقده الصنعة الانسانية من أي أبواب الكلام إن وسعها باب[5] . والظاهرة الرئيسية في الكتاب هي ظاهرة الروح الديني ، كما في هذا

---

١ ــ سورة آل عمران آية ١٥٩
٢ ــ سورة يوسف آية ٩٦
٣ ــ اعجاز القرآن ص ٢٦٢
٤ ــ المصدر السابق
٥ ــ المصدر السابق

المثال ، ثم تأتي بعد ذلك بقية الخصال الأخرى ، من أدبية ولغوية ونحو ذلك .

ومن الموضوعات الهامة التي تلفت النظر ، فلسفة الاجتماع ، فقد أدخلها في هذا الكتاب ، وعلى أساسها حل كثيرا من الآيات القرآنية ، وبنى نظريته على قاعدة أخلاقية ، ومنها تنبثق الفضائل الأخرى التي تهدف إلى تحقيق المساواة بين الفرد والمجتمع ، وبين الضعيف والقوي . والنتيجة الحتمية بعد تحقيق هذه الفضائل الاجتماعية ، أن تنتشر المحبة الروحية بين الجميع ، ومتى تم ذلك ، سهل كل شيء ، وتحقق كل هدف ، حتى الأهداف الوطنية .

وقد تصدى لبعض الألفاظ الحديثة يفسرها عصريا على أسس قرآنية ، وكأنه يريد أن يقول : إن الزمان مهما يتطور ويتقدم ، فإن القرآن معه دائما ، لأن القرآن صالح لكل زمان ومكان . ومن هذه الألفاظ العصرية كلمة الاستقلال . يقول : (وإنما أركان الفضيلة الاجتماعية الكبرى في ثلاث ، كلها حرية واستقلال) .

١ ــ استقلال الارادة وقوتها ، وهذا هو الذي يكون عنه (الأمر بالمعروف) لا يكون بدونه .

٢ ــ استقلال الرأي وحريته ، ويكون منه (النهي عن المنكر) ولا يمكن أن يكون بغيره .

٣ ــ استقلال النفس من أسرار العادات والأوهام ، بالنظر والفكر في مصنوعات الله ، ولا يكون الايمان ايمانا عن الحقيقة بدونه . ثم هذا الايمان هو الذي يسند الركنين المذكورين آنفا ، ويشدهما ، ويقيم وزنهما الاجتماعي ، فيبعث على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر بثقة إلهية لا يعترضها شيء من عوارض الاجتماع التي تعتري الناس من ضعف الطباع الانسانية ، كالجبن والنفاق والخلابة والمؤاربة وإيثار العاجلة ، ونحوها مما ينقم الناس بعضهم من

بعض)[1] • وهذا التفسير الذي ذهب اليه الرافعي في تلك الآونة ، يوحي بأنه اتجاه جديد في الفهم ، أملاه عليه عصره وثقافته •

وقد ذكر كثيرا من الملاحظات الدقيقة التي لايتنبه لها إلا المؤرخ الماهر ، من ذلك عنصر الأمتصاص • فقد رأى أن بعض الخصال في كثير من الأمم تبقى فيهم أبد الدهر ، ولا تتأثر بأي مؤثر خارجي ، ولو كان غزوا عسكريا ، وعلل ذلك تعليلا عقليا فقال : (وانظر كم ترى بين صنيع القبائل الجرمانية « الغوط » وبين صنيع العرب ، فان أولئك أغاروا على إيطاليا في القرن الخامس للميلاد ، وانتقصوها من أطرافها ، ولم يكن إلا أن ملكوها حتى ملكتهم ، إذ ••• أخذوا يتحضرون من بداوة ، ويستأنسون إلى الحضارة الرومانية ، حتى رغبوا في العلم فاستجادوا المهرة من علماء الرومان ، ونصبوهم لوضع الكتب وتأليفها وأقروها • فوضعها لهم هؤلاء باللغة اللاتينية ، وهم قرأوها بها ، وأقروها عليها • فذهبت غوطتهم وذهبوا على أثرها ، وأدالت اللغة الرومانية لأهلها منهم ، فأخذتهم رجفة التاريخ ، فأصبحوا في الرومانية جاثمين ، كأن لم يغنوا في لغة قبلها)[2]إ •

ذكر هذا في معرض حديثه عن الجنسية العربية في القرآن • فقد اهتدى إلى أن (العربية قد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسي ، حتى صارت جنسية • فلوجن كل أهلها وسخوا بعقولهم على ما زينت لهم أنفسهم من الالحاد والسياسه كجنون بعض فتياننا •••[3] لحفظها الشعور النفسي وحده ، وهو مادة العقل ، بل مادة الحياة • وقد يكون العقل في يد صاحبه ، يضن به ويسخو ، ولكن ذلك النوع من الشعور في يد الله • وهذا من تأويل قوله سبحانه : (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون)[4] •

---

١ ــ اعجاز القرآن ص ١١٢

٢ ــ اعجاز القرآن ص ٩٦

٣ ــ الفراغ للرافعي ، ولعله يقصد فتياتنا الادباء ، وحكامنا السياسيين

٤ ــ اعجاز القرآن ص ٩٧

بينما اللغة اللاتينية التي انتشرت في أوربا ، وتمكنت من ألسنة القوم وأقلامهم لم تلبث أن أصبحت غريبة أو كالغريبة بعد أن تفرعت منها لغات أخرى ، كالفرنسية والايطالية والاسبانية ، بل إن هذه اللغات التي تفرعت من اللاتينية ، أصبحت هي بدورها متباعدة فيما بينها (كأن بين اللغة واللغة العدم والوجود)[1] .

وفي الطبعة الأولى من الكتاب ، أشار الى بعض الآيات الكونية إشارة عابرة ، ثم ظهرت بعد ذلك كتب في الفلك تتحدث عما جاء من الآيات القرآنية في الكون والطبيعة موافقا لما وصل إليه العلم الحديث . فاستبشر الرافعي بهذه الكتب ، وأشاد بها ، ونقل منها بعض ما يتفق وموضوع كتابه ، فقال : (ومما أفدناه من تلك المباحث ، أن عالمنا الناسوتي الذي نسميه «العالم الشمسي» ــ وتؤلفه طائفة مستقلة من الأجرام السماوية تعد بالمئـات ، أهمها شمسنا المنيرة ، وأرضنا وأخواتها من السيارات وما يتبعهن من النجوم ذوات الأذناب ــ يدور بسرعة عشرين ألف ذراع فرنسية في الثانية الواحدة ، مجتازا فضاء الله الذي لا نهاية له ، كما أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : (والشمس تجري لمستقر لها)[2] .

ويعلق الرافعي على هذه الآية تعليقا أساسه القواعد اللغوية من بلاغة ونحو ، ويثبت على أساس هذه القواعد نظريته . فيقول : (تأمل هذا التنكير في قوله «لمستقر» فهو يشعرك أن العالم الشمسي يجري في اللانهاية ، الى نهاية محتومة . فما الشمس بمؤهلة إذا كان لها استقرار ، فهي محدثة فانية . ثم قوله : « لها » هو الذي يعين أنها تجري في اللانهاية ، لأن المستقر غير مطلق بل هو لها . ثم التعيين بالفعل « تجري » دون غيره ، « من نحو تسير ، أو تدور ، ألخ » هو الذي ينطوي على الحقيقة الفلكية التي أثبتتها الأرقام . فكل كلمة من الآية إعجازه وحده)[3] .

---

١ ــ اعجاز القرآن ص ٩٧

٢ ــ اعجاز القرآن ص ١٤٧

٣ ــ المصدر السابق

ويقول : (وإن المجرة العظمى المحيطة بالسماء[1] ، تحتوي مئات الألوف من العوالم الأخرى ... إلى أن قال[2] إن في القرآن الكريم آيات بينات عن تكوين العالم ، وكيف كان هذا التكوين ، وعن الأطوار التي تنقل فيها ، وعن خلقة الموجودات ، وأسباب الحياة ، وعن آخرة كرتنا الأرضية وعاقبتها التي ستصير إليها في النهاية . ولقد كانت معاني هذه الآيات الشريفة منظورا إليها فيما مضى من جهة العقائد فحسب ، ولم يكن أحد يستطيع أن يذهب في تأويلها مذهبا يصدر فيه عن علم ، ولكن هذه الحالة قد تغيرت الآن ، لأن الحكماء الذين نبغوا في العصرين الأخيرين ، قد أبانوا بمباحثهم العلمية ، وما كشفوه من الغوامض الدقيقة عن قدرة الله بأجلى بيان ، حتى أصبحت نظريات علم التكوين ، صالحة لتفسير آيات الله سبحانه تفسيرا بديعا ، مع أنها هي في حالتها الراهنة ، لم تبلغ بعد حد الكمال)[3] .

وفرق بين هذه الآيات الكونية وبين غيرها من الآيات الاخرى ، إذ جعل مقياس الاعجاز في الكونيات ، في مدى مطابقاتها للنظريات العلمية ، ومقياس الاعجاز في الآيات الأخرى ، في سر فصاحتها وبلاغتها ، من الناحيتين : النفسية واللفظية ، لأن بعض الآيات قد توهم بتكرارها ، أو بعدم ترابطها بما قبلها أو ما بعدها . فعالج الرافعي جميع هذه النواحي معالجة قيمة أساسها الذوق اللغوي ، والفهم الدقيق لأسرار اللغة . مثل قوله : في التحدي بالتكرار . (وههنا معنى دقيق في التحدي ، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجبا ، وهو

١ ـ المجرة : سطح هائل في غاية العظم تسبح فيه ألوف ومئات من العوالم (الرافعي) .

٢ ـ الفراغ وما بعده للرافعي وهو ينقل عن المصدر السابق .

٣ ـ لم يعين الرافعي المصدر الذي نقل منه وإنما قال : (ومما أفدناه من تلك المباحث) ومعنى هذا أن النقل لم يكن باللفظ ، وانما بالمعنى ، ثم إن اسلوب الرافعي واضح في هذا النقل . اعجاز القرآن ص ١٤٨ .

التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن ، فتختلف في طرق الأداء ، وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة ، كالذي يكون في بعض قصصه ، لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها ، أو في بعض عبارته لتحقيق النعمة ، وترديد المنة ، والتذكير بالنعم واقتضاء شكره ، إلى ما يكون من هذا الباب ، وهو مذهب للعرب معروف ، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم ، للتهويل والتوكيد والتخويف والتفجع ، وما يجري مجراها من الأمور العظيمة • وكل ذلك مأثور عنهم ، منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة)[1] •

وهذه الكتب التي أشار إليها الرافعي كثيرة ، منها ما هو خاص بالتكرار في الشعر ، وما هو في النثر • وبعضها جمع بين النوعين[2] •

ومن المتأخرين الذين تحدثوا عن التكرار السيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) وقد تناوله في كل موضع بما يناسبه • نذكر نوعا منه في تفسير التكرار في سورة المرسلات حيث يقول : (هذه السورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الايقاع ، كأنها سياط لاذعة من نار • وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يوجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهام المسنونة •

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ، ما تعرض • وعقب كل معرض ومشهد ، تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار ، (ويل يومئذ للمكذبين) • ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة ، وهو لازمة الايقاع فيها ، وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد •

---

١ ــ اعجاز القرآن ص ٢٢٠

٢ ــ انظر العمدة ج ٢ ص ٧٣ والجامع الكبير ص ٢٠٤ وما بعدها .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة (الرحمان) عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد • (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة (القمر) عقب كل حلقة من حلقات العذاب • (فكيف كان عذابي ونذر ؟) وتكررها هنا على هذا النحو ، يعطي السورة سمة خاصة، وطعما مميزا حادا) (1) •

٢

وفي القسم الثاني الذي أنشأه للبلاغة النبوية ، يذكر فصاحة الرسول وبلاغته ، وأنها توفيق من الله بغير تدريب ولا روية ، وأن لغته وإن كانت من لغة قومه إلا أنها أعلى في أسلوبها ومعانيها وبيانها من لغتهم ، لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، فلاءم بين المعنى واللفظ ، وبين الحروف باعتبار أجراسها ومخارجها • وضرب لذلك أمثلة منها ما يتعلق بالايجاز المحمود ، ومنها ما يتطلب شيئا من الايضاح ، ثم ذكر بعض التراكيب التي أصبحت مثلا له في الايجاز والحكم ، مثل قوله : (الآن حمي الوطيس) و (مات حتف أنفه) • ويذكر طريقة مكاتبته قبائل العرب ، وكيف كان يحسن مخاطبتهم كل قبيلة بلغتها مع شدة اختلافها وتباينها •

يقول : (ومن ذلك كتبه الغريبة التي كان يمليها ويبعث بها الى قبائل العرب، يخاطبهم فيها بلحونهم ، ولا يعدو ألفاظهم وعبارتهم فيما يريد أن يلقيه إليهم ، وهي ألفاظ خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم ، لا تجوز في غير أرضهم ، ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ، ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية)(2) •

ويعلق على ذلك تعليقا ينبيء عن عقيدته الاسلاميــة المفعمة بالايمان ،

---

١ ــ في ظلال القرآن ج ٢٩ ص ٢٣٤ وانظر أيضا نوعا آخر من التكرار في ظلال القرآن ج ١ ص ٢٨ ط ١ عيسى البابي الحلبي

٢ ــ اعجاز القرآن ص ٣٥٠

فيقول : (فما ندري أي ذلك أعجب ؟ أن ينفــرد النبي صلى الله عليه وسلم بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ، ممن ليس ذلك في ألسنتهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية ؟ أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها ، وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم في أرضهم ، وحين يتوافون إليهم في موسم الحــج ، وهم مع ذلك لايعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه ، ولا يديرونه في ألسنتهم ، ولا يؤرثونه أعقابهم فيما ينشئون عليه من السماع والمحاكاة ، حتى كان هذا الباب فيه صلى الله عليه وسلم بابا على حدة ، كما يؤكد كل ذلك من قول علي : « نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره »[1] .

ويذهب في التفرقة بين الاعجاز الذي في القرآن ، والبلاغة النبوية ، مذهبا لغويا ، ولكنه لايخلو من العقيدة الدينية . فيستوحي التفرقة من معنى اللفظين « الاعجاز ـ البلاغة » فالاعجاز أقوى وأعلى درجة من البلاغة ، لأن فيه معنى التحدي أو هو التحدي نفسه ، إذ « جمع في أسلوبه أرقى ما تحس به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ، ومذاهب النفس إليه »[2] . وهذا ما جعل العرب يحسون « بعجزهم عما امتنع مما قبله . وكان كل امرىء منهم ، كأنما يحمل في قرارة نفسه برهان الاعجاز »[3] فلو ذهبوا إلى معارضة السورة القصيرة على قلة كلماتها ، وعلى أنها نفس واحدة ، وجملة متميزة ، لضاق بهم الأمر بمقدار ما يظن الجاهل أنه يسعهم)[4] .

والبلاغة النبوية وإن كانت بلاغة نبي ، إلا أنها أقل درجة من بلاغة القرآن وإعجازه ، ولكنها في نفس الوقت برهان قاطع على صدق رسالة الله في رسوله .

---

١ ـ المصدر السابق ص ٣٥١
٢ ـ المصدر السابق ص ٢١٧
٣ ـ المصدر السابق ص ٢١٧
٤ ـ المصدر السابق ص ٢١٨

٣

وفي هذا الكتاب وصف الآيات القرآنية والألفاظ النبوية بعبارات إنشائية رائعة جعلها كالمقدمة لما يليها ، نذكر نموذجا لكل قسم •

يقول في القسم الأول : (ألفاظ إذا اشتدت ، فأمواج البحارة ، وإذا هي لانت ، فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا ، فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة ، فمنها جنتها وضرامها • ومتى وعدت من كرم الله ، جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعدمن حمى القلوب •

ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، ونور تبصر به في مرآة الايمان ، وجه الأمان • وبينا هي ترف بندى الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير ، وتهب عليها بأنفاس الرحمة ، فتنم بسر هذا العالم الصغير • ثم بينا هي تتساقط من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان ، وتدعم القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوح عليها اللسان ، وتمثل للمذنب حقيقة الانسانية حتى يظن أنه صنف آخر من الانسان ، إذا هي بعد ذلك أطباق السحاب ، وقد انهارت قواعده ، والتمعت ناره ، وقصفت في الجو رواعده ، وإذا هي السماء قد أخذت على الأرض ذنبها ، واستأذنت في صدمة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وإنما هي عند ذلك زجرة واحدة ، فإذا الخلق طعام الفناء ، وإذا الأرض مائدة)[1] •

ويقول في القسم الثاني (ألفاظ النبوة يغمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي ، ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل ، فقد كانت هي من دليله • محكمة الفصول ، حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول ، حتى ليس فيها كلمة

---

١ ـ اعجاز القرآن ص ٢٦

مفضولة ، وكأنما هي في اختصارها وإجادتهـا ، نبض قلب يتكلم ؛ وإنما هي في سموها وإجادتها ، مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم .

إن أخرجت في الموعظة ، قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة ، قلت صورة بشرية من الروح ، في منزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد فينزو بالدماء . وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للارض ، أراك هـذا أنه كلام الأرض بعد السماء)[1] .

وفي الكتاب الى جانب ماتقدم من الخصائص اللغوية والبيانية والنزعـة الدينية ، توجد خاصة أخرى هامة لها دلالتهـا على علم الرافعي وسعة اطلاعه وادراكه التام لسنن التأليف ، وهي هذه الملاحظات التي كان يبديها حين ينقل نصا من النصوص . فقد كان يقلب النص على جميع وجوهه ، ثم يثبته في كتابه إما بلفظه ومعناه ، أو بمعناه فحسب . وقد يشير إلى مصدره أو لايشير تبعا لشيوعه وعدم شيوعه . وقد يعلق عليه تعليقا غاضبا إذا رأى غيره نقله بطريقة أو أخرى ولم ينسبه إلى صاحبه الأول الذي له فضل الأسبقية ، كما فعـل مع أبي هلال العسكري حين نقل طريقـة النبي فيمخاطبة قبائل العرب ، كل بلسانه ، كما أثبتها الجاحظ في كتابه الحيوان . قال الرافعي (نقل العسكري هذه العبارة في كتابه « الصناعتين » ولم يعزها ، فكأنه هو استخرج هذا المعنى ابتداء ، وكم من مثلها في كتابه .

ثم دلنا المصـدر الأصلي للنص فقـال : (انظر ص ٩٤[2] ج ١ من الحيوان فلا تشك في أن العسكري نقل على الجاحظ)[3] .

---

١ ـ اعجاز القرآن ص ٣١٢

٢ ـ هذا الرقم في الاصل حسب الطبعة القديمة لكتاب الحيوان هو الآن ٤٦

٣ ـ اعجاز القرآن ص ٢٢١

٤

وكما أشاد الكتاب والنقاد بكتابه تاريخ آداب العرب ، أشادوا أيضا بهذا الكتاب ، ومنهم زعيم مصر الكبير سعد زغلول الذي قال : (تحدى القرآن أهل البيان ، في عبارات قارعة محرجة ، ولهجة واخزة مرغمة ، أن يأتوا بمثله ، أو سورة منه ، فمافعلوا ، ولو قدروا ما تأخروا ، لشدة حرصهم على تكذيبهم[1] ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم واتسع له إمكانهم . هذا العجز الوضيع ، بعد ذلك التحدي الصارخ ، هو أثر تلك القدرة الفائقة ، وهذا السكون الذليل ، بعد ذلك الاستفزاز الشامخ ، هو أثر ذلك الكلام العزيز . ولكن قوما أنكروا هذه البداهة ، وحاولوا سترها ، فجاء كتابكم « إعجاز القرآن » مصدقا لآياتها ، مكذبا لانكارهم . وأيد بلاغة القرآن وإعجازها بأدلة مشتقة من أسرارها في بيان مستمد من روحها ، كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم)[2] .

وقد اغتبط الرافعي بكلمة سعد وأعتدها نصرا عزيزاً له ولكتابه . ومن شدة اغتباطه بها ، ذكرها مرتين في موضعين ، وفي زمانين متباعدين . قال في الاول : (أما تقريض سعد ، فهو غاية من الغايات ، وقد قيل لي أنه لم يكتب خيرا من هذا ، ولعل الله ينفعنا به ، ولم أقابله ، ولكني أرسلت إليه الكتاب في البريد ، وهو رجل بليغ ذكي همته القراءة والمطالعة ، فسرني أن يكون ذلك تأثير الكتاب ، إذ ليس ما يضطره الى مثل هذا التقريض إلا إعجابه بالكتاب . ويقول : وسنرسل له الكتاب الآخر[3] إن شاء الله في البريد أيضا ، لأني إذا قدمته بنفسي شكرني ولم يكتب شيئا[4] . هذه الفقرة الأخيرة صريحة في أن

---

١ ـ تكذيبهم : هكذا في الاصل ، وأظن تكذيبه ، لان المعنى في الحرص على تكذيب القرآن خاصة

٢ ـ رسائل الرافعي ص ١٢٧

٣ ـ كتاب تحت راية القرآن

٤ ـ رسائل الرافعي ص ١٢٧

الرافعي كان يستبشر بكلمة سعد ، فهو يكتب إليه عن طريق البريد لأنه إذا قدم كتابه بنفسه سمع كلمة شكر ثم لاشيء بعدها ، وهو يريد شيئا مأثورا يقرأ ويتلى •

وقال في الموضع الثاني بعد أن مضى على الأول نحو أربعين شهرا (أما الاعجاز فهو في رأيي كما قلت ، وهل تظن في الارض قوة كانت تسخر سعد ليقول فيه ماقال ، لولا أن هذا اعتقاده ؟)[1] •

وقال الرافعي أن العقاد نفى أن يكون سعد كتب الكلمة عن الاعجاز ، وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية التي أشعلت نار الحرب بين الأديبين الكبيرين ، كما سنرى في الفصل الثالث عند حديثنا عن كتاب السفود • وسبب آخر ما كتبه العقاد في البلاغ الأسبوعي عن الاعجاز ، فقد نفى أن تكون للكتاب قيمة غير القيمة البلاغية واللفظية والدينية ، أما غير هذه القيم فلا شيء إطلاقا •

يقول العقاد : (لقد قرأت إعجاز القرآن ، وخرجت منه على رأي واحد : على أن الكتاب معرض يعرض به الرافعي مبلغ اجتهاده في نقل عبارات البدو ، وتأثر أساليب السلف ، ولهذا يحسن أن يقرأ ويقتنى • أما أنه مبحث بيان إعجاز القرآن ، ولا سيما إذا كان القارىء من غير المسلمين ، فتلك نية للرافعي يثاب عليها ، كما يثاب الانسان بالنيات)[2] •

ولست بصدد مناقشة الآراء ، لذلك سأكتفي بكلمة وجيزة عن السبب الأول الذي قال الرافعي إن العقاد نفى أن يكون سعد كتب تلك الكلمة • ورد في كتاب حياة الرافعي بأن سعداً لم يمل الكلمة بل كتبها بخطه[3] ثم إن سياق الكلام ينبىء على أن الكلمة كانت مرسلة إلى الرافعي مباشرة ، لا إلى الصحف، لأن صيغة الخطاب توجه غالبا للشخص مباشرة • ثم إن النص الذي بين أيدينا

---

١ ـ المصدر السابق ص ١٧١
٢ ـ البلاغ الاسبوعي ٣ ديسمبر ١٩٢٦
٣ ـ حياة الرافعي ص ١٨٧ تعليق

مستهل بهذه العبارة التقليدية (حضرة المحترم الفاضل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي)[1] ثم أخيرا لا يمكن لمؤلف أن يختلق تقريضا في مثل هذا الموضع ويشيعه بين الناس قاطبة •

حنق الرافعي على العقاد بما كتبه عن الاعجاز ، فأخذ يكتب مقالا تلو الآخر إلى البلاغ الاسبوعي يدافع عن كتابه وفؤاده ، ولكنه كان يخفق في كل ما كتب ، لأن صاحب البلاغ ، كان يحذف بعض العبارات التي يرى فيها مسا بالعقاد ، وهذا ما أغضب الرافعي مرة أخرى ، وفكر في أن يترك الكتابة في هــذا البــلاغ[2] •

ومن الذين أشادوا في الكتابة عن الاعجاز صادق عنبر ، فقد كتب كلمة رائعة شيقة ، اختار لها ألفاظا رقيقة ، جميلة خلابة ، تستهوي القارىء وتغريه بالقراءة ، بل ربما بالاعادة مرة ومرة ، ولهذه الخلال جميعها أرى أن أنقلها برمتها من جريدة الأهرام[3] ، قال : (إلى صديقي نابغة البيان ••• لا أراني أنصفك إذا أثنيت عليك بكلمي ، ولو أحفيت قلمي ، فو الذي جعل الورد ، لا ينبت إلا في أغصانه ، وخلق البلبل ، وخصه بألحانه ، وجانس بين الأشجار في المنبت ، ونوع في الأشجار الثمر ، وأكثر النجوم في سماء الليل ، وأفرد بجمال الليل القمر ، إنك من البلاغة بحيث لا يصفك كما أنت الا قلمك أنت • وما أجد في الثناء على كتابك أقل من أن أقول لك أعجزت ، إذا لم أجد لغيرك أكثر من أن أقول له أحسنت •

أفهذه يا سيدي كتابة ، أم سحر بالكتابة ؟ ومعان تنقدح من فكرك ، أم برق يتتابع من سحابة ؟ وهل وضعت كتابك في الاعجــاز ؟ أم للاعجاز ؟ لترى الناس حقيقة لم يكونوا يعرفونها إلا في المجاز ؟ لقد جئت بكتابك يقاس عليه

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ١٢٧

٢ ـ انظر رسائل الرافعي ص ١٣٠ ـ ١٣٢

٣ ـ ١٠ ديسمبر ١٩٢٦

في البلاغة . أما هو فجل عن القياس ، فمن يعب عليك من بعد ، فما أطول هم فصوص الملح بفص الماس . حيا الله ذلك القلم الذي أقام به الأدب مجده ، ولا زال في آيات البلاغة كالآية التي تجب عندها السجدة)[1] .

وكتب عنه محمد رشيد رضا فقال : (صنف الرافعي في إعجاز القرآن سفرا لا كالأسفار ، أتى فيه ــ وهو الأخير زمانه ــ بما لم تأت الأوائل فكان مصداقا للمثل السائر ، كم ترك الأول للآخر)[2] .

وقد قلت في مستهل الحديث عن هذا الكتاب ، أنه كان يحمل في طبعته الأولى عنوان الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب . وذكرت سببا واحدا هو ما صرح به الرافعي من أنه اختار له عنوانه الجديد (إعجاز القرآن) في طبعته الثانية ليكون كتابا مستقلا بنفسه تعم به الفائدة ويسهل على الناس تناوله . ولم أعلل ما ذهب إليه المؤلف ، ولم أجد من استحسن هذا الصنيع أو استهجنه من حيث جوهره ، وإنما وجدت من انتقد الرافعي فيما يتعلق بالناحية الشكلية فقط . وهذا قد لا يعنينا كثيرا ولكن لا بد من كلمة قصيرة فيه حتى نفي الموضوع حقه .

ففي المجلة الجديدة نقرأ كلمة لاذعة لسلامة موسى ، لفح بها الرافعي لفحة ملتهبة جعلته يتلظى بسعيرها مدة طويلة ، ورأى أن السلامة في اجتناب الخوض في هذا الموضوع ، وأسرها في نفسه ولم يبدها له إلى ان مر بعض الوقت ، فكتب مقالا في مجلة الدنيا المصورة ، فقضى به على سلامة موسى كل القضاء[3] .

والانتقاد الذي وجهه سلامة موسى الى الرافعي فيما يخص تغيير العنوان هو هذا . إن الرافعي (طبع كتابا له مرة ثانية ، وخشي ألا يشتريه الذين اشتروه

---

١ ــ جريدة الاهرام ١٠ ديسمبر ١٩٢٦
٢ ــ الزهراء ربيع الثاني ١٣٤٥ هـ
٣ ــ مجلة الدنيا المصورة ١١ مايو

في المرة الأولى ، فغير اسم الكتاب فقط ، ولم يغير من موضوعه)[1] وعزا سبب التغيير إلى جشع الرافعي وتهالكه على حب المال ٠

وهذا الرأي بعيد عن الحقيقة ، لأن السلطان المادي لايطغى على الارادة فيعميها إلى أن يعبث المؤلف بعقول القراء من أجل شيء زائل يملأ به يده ٠ ولو كان الذي ذهب اليه سلامة موسى صحيحا ، لغير الرافعي كثيرا من عناوين كتبه التي تقبل مثل هذا التغيير كهذين الكتابين (تحت راية القرآن ــ وعلى السفود) فهما صالحان لأن يتخذا اسما جديدا بعنوان النقد ، ولكنه لم يفعل ، مما يدل على أن الأمر ليس مصدره المادة إنما هو شيء جوهري فوق هــذه الظنون المنحرفة ٠

إن سبب التغيير يرجع ــ فيما أعتقد ــ إلى أن الرافعي خطر له أن يؤلف مجموعة كتب في هذه العلوم البلاغية ، من مثل أسرار الاعجاز ٠ والقرائــح العربية ٠ وأسرار البلاغــة ٠ وله في كل ذلك أحاديث مبثوثة في ثنايــا كتبه ورسائله ، وأكثرها مستوحاة مما يكتبه ، أو مما يقرؤه لغيره ، كما في هــذا النص الذي يقول فيه : (أما رأي هيكل في الاسراء ٠٠٠ نبهني للتفكير في آية الاسراء ، فاهتديت منها إلى رأي جميل تدل عليه الآية نفسها حرفا حرفا ، ويثبته أهل التصوف اليوم ، وعلماء مناجاة الأرواح ، فأخذت بذلك مفكرة ضممتها لأخواتها في أسرار الاعجاز ٠ وهذه المفكرات أصبحت الآن كثيرة ، بارك الله فيها وزاد منها ٠

ثم يقول : وقد خطر لي أمس حين راجعت أهم كتب التفسير في قوله تعالى : (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج) قال اذا كنتم فخاطبهــم بها[2] ثم عدل في باقي الآيــة إلى ضمير الغيبة ٠

---

١ ــ المعنى غير واضح ، والصواب أن يقول : فخاطبهم بالكاف بدليل ما بعده .

٢ ــ في الاصل : التفسير بصيغة المفرد ، وهو لا يؤدي المعنى المراد ، ثم ان ما بعده مؤنث ، مما يدل على أن قصده الجمع لا الافراد

ويقول راجعت التفاسير فلم أر فيهـا ما يدل على السر البياني العجيب الذي خطر لي في هذا الأسلوب ، ففكرت في أن أدع كل عمل وأشرع من الآن في أسرار الاعجاز)[١] .

ونجد مثل هذا الأمل في تعليق له في الجزء الأول من تاريخ آداب العرب ، يقول فيه : (لعلنا تتبع هذا التاريخ بكتاب « القرائح العربية » الذي انتقينا فيه عيون الكلام ، نظمه ونثره)[٢] .

وفي موضع آخر يقول : (وقد عجبت كيف لم أتذكر آية « كأنهن بيض مكنون » عند كتابة مقال امرىء القيس[٣] ولكنها إن شاء الله ستكون الكتابة عنها لاسرار البلاغة ، فإن فكري دائما يشتغل بهذا الكتاب ، وطريقة وضعه ، وتدوين بعض الآراء فيه)[٤] .

فقد جاء في هذه الأمثلة الثلاثة ثلاثة عناوين ــ أسرار الاعجاز ــ القرائح العربية ــ أسرار البلاغة . ألا تكون رغبة الرافعي في إنشاء مجموعة كتب في فنون البلاغة سببا في أن يغير عنوان كتابه : الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب إلى الاعجاز ليتلاءم العنوان الجديد مع المجموعة البلاغية التي عزم على تأليفها ليستوفي الموضوع البلاغي استيفاء كاملا ؟

قد يكون هذا الرأي صحيحا ، لأن المؤلف تتجدد أفكاره حينا بعد حين ، ويسعى دائما إلى ما يرفع من قيمة فنه ، وإلى التطور من الحسن إلى الأحسن ،

---

١ ــ رسائل الرافعي ص ٢٢٤
٢ ــ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧
٣ ــ مقال كتبه مقدمة لكتاب امرىء القيس الذي ألفه محمد صالح سمك .
٤ ــ رسائل الرافعي ص ١٨٣

ثم هو يملك الحق في أن يبدل ويغير ماشاء أن يبدل ويغير •

وبقيت كلمة أخيرة تتعلق بالطريقة المتبعة في تجديد طبع الكتاب بعد وفاة الرافعي • لقد نشر الكتاب بعد موت المؤلف بعنوانين : تاريخ آداب العرب الجزء الثاني — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مع أن الكتاب واحد في مضمونه • وجاء في جريدة الأهرام التي صدرت في ١٥ فبراير ١٩٦١ إعلان لاحدى المكاتب التجارية بصريح اللفظ أن الكتاب كتابان ، مع أنه في الحقيقة كتاب واحد •

وعلى من تكون التبعة ، وقد مات المؤلف ؟

الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب

مات الرافعي عن هذا الجزء الثالث من كتابه تاريخ آداب العرب ، وتركه ورقات مبعثرة لا يربط بينها رباط • وكان يكثر الحديث عنه ، وخاصة في السنوات العشر الاخيرة ، فمرةيعلن أنه عقد العزم علىمواصلةالبحث فيه ، ومرة يقول : إنه أوشك على الانتهاءمنه ، أو بسبيل طبعه ، وأخرى يربطه بأجزاء الكتاب كله[1] بينما الكتاب لم يزل ناقصا في أصوله ، ولولا المجهود الذي بذله الأستاذ العريان لبقي الكتاب طي العدم ، أو على حالة غير هذه التي هو عليها الآن •

ذكر العريان العقبات التي اعترضت سبيله فقال : (هذا الكتاب مطبوع بين يدي قارئه ، لا يكاد يخطر بباله حين يراه أن يسأل نفسه : ما كان هذا الكتاب ؟ وماذا صار ؟ ولكني محدثه بخبره لعله — إن عرف — يجد لي عذرا مما قد يراه فيه موضعا للعتب والمؤاخذة • لقد كنت مخطئا حين حسبت في أول أمري أني سأجد — حين أجد — كتابا تام التأليف والتصنيف ، ليس عليَّ منه إلا أنأهيئه

---

١ — انظر رسائل الرافعي ص ٢٢٨ ومقدمة سعيد العريان لتاريخ آداب العرب ج ٣ ص — ط — ي

للطبع ، ثم أصحح تجاربه في المطبعة ؟ فإني ما كدت أحل الرباط عن الأضابير التي تضمه ، حتى وجدت أوراقا باليـــة حائلة اللون من تقـــادم السنين ، وقصاصات مبعثرة عن غير نظام ، لا يكاد يعرف أين مكانها من موضوعات البحث • ثم جهدت أن أعرف موضوعات الكتاب ونهجه وتبويبه ، فلم أهتد إلى شيء ، ولم أجد بين يدي إلا ورقات قد اجتمعت على غير ترتيب ولا نظام ، في كـــل صفحـــة منها حديث عن موضوع ليس لهـــا بما قبلها ولا بمـــا بعدهـــا سبب •

وحاولت أن أقرأ صحيفة مما بين يدي ، فأعياني ذلك إعيـــاء أيأسني من الاستمرار ، فان خط الرافعي كما قلت في بعض ما كتبت عنه ، هو أرْدَأُ خط قرأت في العربية ، حتى لقد كان يعيا هو نفسه أحيانا عن قراءة بعض ما يكتبه بخطه بعد مضي ساعات • وحملت على نفسي ما حملت ، ومضيت في القراءة متكلفا مالا قبل لي به ، فإذا الحديث ينقطع بعد أسطر ، وإذا هو يحيل على مراجع مختلفة ، يريد أن ينقل منها نصا أو خبرا أو رأيا ، ومنها مالا أملك ولا يتيسر لي •وقد يذكر رقم الصفحة المنقول عنها ، وقد لا يذكره ، وحينا يذكر رقم الصفحة يغفل اسم الكتاب)[1] •

هذه هي الصعوبات التي اعترضت محمد سعيد العريان ، ذكرناها لنعرف على ضوئها ما كان عليه الكتاب قبل الطبع وما صار إليه بعد ذلك •

وضع الرافعي منهج الكتاب بجميع أجزائه في الجزء الأول ، ولم يقل شيئا عن عدد أجزائه ، غير أني وجدت في الجريدة كلمة جاء فيها : أن الكتاب سيتألف من خمسة أجزاء ولكنني لم أجد عند الرافعي ما يثبت هـــذا القول ، ولعله ترك أمر الأجزاء الى الظروف وما تهيئه له في التوسع وعدمه •

حصر الرافعي أبواب الكتاب في اثني عشر بابا ، بابان للجزء الأول ، وثالث

---

١ ــ الجريدة ١٢٨ ابريل ١٩١٢

للاعجاز كما مربنا • وعلى مقتضى هـذا النمط ، يحتمل أن تكون الأبواب التسعة الباقية لجزء واحد أو أكثر ، ولكن طول المدة ، وكثرة الأعمال التي كانت تشغل الرافعي ، جعلت الاحتمال الأخير يتقلص شيئافشيئا إلى أن زال تماما ، وأصبح في حكم العدم ، ولم يبق أدنى شك في أن تكون الأبواب جميعها لجزء واحد ، هو الجزء الثالث والأخير من تاريخ آداب العرب ، ومع ذلك لم تتحقق هذه الأبواب التسعة جميعها إذ نقص منها أربعة وهي : الرابع والثامن والتاسع والثاني عشر ، لأن الرافعي لم يكتب فيها أصلا ، أو كتب جزازات لاتفـي بالغرض ، كما أشار إلى ذلك العريان •

وعلى هذا لم يبق للكتاب إلا خمسة أبواب ، وهي على هذا الترتيب •

١ ــ الباب الخامس في تاريخ الشعر ومذاهبه وفنونه •

٢ ــ الباب السادس في حقيقة القصائد المعلقات وشعرائها •

٣ ــ الباب السابع في أطوار الأدب العربي وتقلب العصور •

٤ ــ الباب العاشر في التأليف وتاريخه عند العرب •

٥ ــ الباب الحادي عشر في الصناعات اللفظية •

ولم تكن موضوعات هذه الأبواب جميعها على نسق واحد في البحث والاستقصاء ، أو على درجة واحدة في التحليل والتعليل ، فبعضها قد استوفى المؤلف البحث فيها ، وبعضها لم يكن إلا أصولا أعدت ليضاف اليها ما يمكن إضافته ، وأكثرها ما كان في الصفحات الأخيرة •

وقد اشتمل هذا الجزء على بعض الفنون الأدبية التي لم يتطرق لها الباحثون كثيرا ، مثل القصائد المعراة ، وذوات القوافي ، والمتائيم ، والقوافي المشتركة • وعرّف الرافعي هذه الانواع نوعا نوعا ، واستقصى بحثها ما أمكنه ذلك ، ثم أبدى رأيه على هذا النحو فقال : (من الكلام ألفاظ تشترك في معان كثيرة ، وهي هي في الدلالة على كل تلك المعاني المختلفة • وقد اختلف أهل اللغة في سبب

ذلك ، ولكنهم اتفقوا على أنه لا خلاف ان الاشتراك على خلاف الأصل ، وهذا الموضوع مما لا سبيل إلى تحقيقه ، وبيان وجه الصواب فيه ، لأن الألفاظ المشتركة سماعية ، إلا ما استخرج منها بالقياس ، كالخال مصدر خال مثلا ، وقليل ما هو ، فلا يمكن رده إلى لغة واحدة ولا إلى لغات مختلفة من لغات العرب ، لذهاب أصولها .

ثم يقول : وقد تناول المتأخرون تلك الألفاظ ، واستعملوها قوافي للشعر على طريقة الجناس التام ، وأشهرها الذي تخرج منه القصائد : ألفاظ معدودة ، وهي العين والخال والغرب والهلال والعجوز ، ولم يرد المتأخرين قصائد على غيرها . وقد زاد بعضهم في معانيها ما لم يسمع ولم يجىء به نص في اللغة ليبلغ من ذلك مبلغ الكثرة ، ولكن الشأن إنما هو في سهولة انقياد القافية وتمكينها على غير تكلف .

وأول ما جاء من الشعر في ذلك ثلاثة أبيات للخليل وهي :

ياويح قلبي من دواعي الهوى ... ان رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرفي وقد أزمعوا ... ودمع عينيَّ كفيض الغروب
باتوا وفيهم طفلة حرة ... تفترُّ عن مثل أقاحي الغروب

فلفظ الغروب الأولىغروب الشمس ، والثاني جمع غربوهو الدلوالعظيمة المملوءة ، والثالث جمع غرب ، وهو الوهاد المنخفضة)[1] .

فقول الرافعي : إن ألفاظ هذا النوعمعدودة ، وأن المتأخرين لم يتجاوزوها إلي غيرها يحتاج إلى شيء من النظر ، ذلك أننا نجد ألفاظا غيرها للمتأخرين . جاء للبارودي بعض الأبيات على كلمات غير التي ذكرها الرافعي نكتفي بثلاثة منها وهي :

---

١ ـ تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٣٧٩

يعـود الناس إن مـر النسيم به ولا يعود من الاشفاق من عادا
لايهـدأ الدهر من ظلـم يحاوله فإن قضى وطرا من غدرة عادا
أباده الدهـر رغمـا بين أسرتـه كما أباد بريـح صرصرعادا[1]

والمتأخرون يضعون مثل هذه القوافي في باب لزوم مالا يلزم ، لتداخـل البابين ، أو لغلبة باب ما لا يلزم على باب القوافي المشتركة •

لقـد جاءت كلمة وافية للرافعي عند لزوم مالا يلزم • وبمقارنة النوعين نفهم أنهما مختلفان • فالأول يشرط في كلمة القافية منه أن تكون جميع حروفها واحدة ، بينما لا يشترط هذا الشرط في لزوم مالا يلزم ، إذ يكفي أن تكون الكلمة مشتملة على الحرفين الأخيرين فقط •

أتحف الرافعي كتابه بمثل هذه الفنون الأدبية النادرة ، وأتحفه أيضا ببعض العلوم الأخرى ، كالفلسفة العربية وآراء علماء الغرب فيها ، كما تحدث عن خلود النفس • وكانت طريقة الرافعي في هذا العلم الفلسفي غير طريقته في الفنون الأدبية ، فهو لم يتدخل بآرائه إلا بمقدار ، وإنما اكتفى بعرض تطورها ، وأقوال العلماء فيها ، مثل قوله : (ثم حدثت مسألة خلود النفس في أواخر القرن الخامس عشر ، وخاض فيها علماء إيطاليا ، وكانوا يجدون من شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو أن النفس خالدة بعد الموت ، ولكن « بومبوتا » العالم المشهور أثبت من كتب « اسكندر دفروريز ياس » الفيلسوف اليوناني الذي شرح أرسطو قبل ابن رشد ، أنه لا خلود غـير الخلود الانساني النوعي في الأرض ، فانشق العلماء ، وطار الجدل في هذه النازلة حتى انعقد مجمع لاتران في سنة ١٥٥٢ ، وحرم كل من يقول بأن النفس غير خالدة • وبعد هذا الانتصار للفلسفة العربية طبعت كتب ابن رشد ، وطارت الى أيدي طلابها والمعجبين بها

---

١ ــ ديوان البارودي ج١ ص ٢١٥

من كل جهة • غير أن ذلك كان مبدأ للرجوع الى النص اليوناني في فلسفة أرسطو)[1] •

وباختصار فإن هذا الجزء جمع أشتاتا من المعارف والفنون الأدبية المتنوعة، بعضها على طريقة ابن رشيق في عمدته ، كما نراه بكثرة في الباب الخامس والسادس من هذا الجزء ، وبعضها سار فيها الرافعي سيرا جديدا ، يخالف ما كان عليه في الجزئين السابقين ، لأن الرافعي استولى عليه جوهر الموضوع ، وملك عليه نفسه ، فأصبح ينظر إلى الموضوع وكأنه شيء قائم بنفسه •

ففي الجزء الأول تبدو الفكرة الرئيسية في الألفاظ المفردة ، ونشأتها واشتقاقها وتطورها • وفي الثاني : التراكيب والصيغ البيانية والبلاغية والاعجاز • وفي هذا الجزء : التحليل والتعليل في بعضه ، وأكثر ذلك في ثلثيه الأول ، وذكر أقوال الأولين في البعض الآخر ، وأكثر ذلك في الصفحات الاخيرة دون تحليل أو تعليل •

والسبب كما ذكرت راجع إلى انشغال الرافعي منذ مدة طويلة بشؤونه الخاصة ، ولذلك تركه على حالته الأولى وهو يمني نفسه مرة بعد أخرى أن سوف يعتني به كثيرا ليخرجه في مظهر قشيب يستهوي القراء ، ولم يزل هذا اعتقاده وهذه نيته إلى أن وافته منيته ، فبقي الكتاب على هذه الحالة التي وصفت والتي طبع عليها •

ومع ذلك فإن الكتاب جد طريف لما اشتمل عليه من فنون أدبية جديدة أو كالجديدة بالنسبة للمتأخرين لقلة شيوعها بين الناس ، وهي هذه الفنون التي استحدثها الشعراء ، في الأندلس والشام للطبقة الدنيا التي قلّت ثقافتها ، وعجزت عن فهم الفصيح من القول • أنشأ بعض هؤلاء الشعراء أنماطا من الشعر العامي لهذه الطبقة ، وتناوله المتقدمون مثل صاحب الأغاني ومن جاء بعده ،

---

١ ـ تاريخ آداب العرب ج٣ ص ٣٢٨

ثم أخذ يختفي قليلا قليلا إلى أن جاء الرافعي ، وقال فيه كلمة طيبة تعد بذرة صالحة لمن سيأتي بعده .

وفعلا جاء بعد الرافعي بعض الكتّاب وكتبوا في هــذا الشعر العامي ، وأفضلهم جميعا ـ فيما قرأت ـ الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (موسيقى الشعر) . ومع اجتهاده ومحاولاته المشكورة في إعطائه حقه كما ينبغي ، لم يستطع أن يخرج على ماكتبه الأقدمون لقلة ما وصل الينا من الأمثلة فــي كل نوع[1] .

وفي اعتقادي أن الرافعي لو امتد به الأجل لبلغ بالكتاب درجة أعلى من التي هو عليها الآن . وأعتقد أيضا أن الذين لم يعرفوا أسباب هذا النقص الذي ذكرت لا يشعرون بأي نقص في الكتاب ، وخاصة أولئك الذين ألّف في عصرهم، غير أن الرافعي يدرك أمورا لايدركها الآخرون .



---

١ ـ انظر تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٧٤ وما بعدها ، والفصــل السابع من موسيقى الشعر .

الفصل الثالث

الرافعي الناقد

١ تحت رايـة القرآن .

٢ ــ على السفـود .

(١)

أنشأ الرافعي هــذا الكتاب بمناسبة ظهور كتاب (في الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين ، سنة ١٩٢٦ ، وقد أتم طبعه في السنة نفسها .

يقوم الكتاب على فكرتين أساسيتين : إحداهما تدور حول النزاع القائم بين المذهبين الأدبيين : القديم والحديث . والأخرى خاصة بنقض آراء الدكتور طه حسين التي أثبتها في كتابه عن الشعر الجاهلي .

والكتاب يشتمل على مجموعة كبيرة من المقالات النقدية ، بعضها خاص بالفكرة الأولى ، وهو ما أنشأه بين سنتي ١٩٠٨ ــ ١٩٢٦ ، والبعض الآخر ، خاص بالفكرة الثانية وهو مانشره في هذه السنة الأخيرة ١٩٢٦ في جريدة كوكب الشرق . وفي الكتاب بعض المقالات لم يكن للرافعي يد فيها ، وإنما تلقاها من أنصاره ، أو جمعها من مختلف الصحف ليدعم بها آراء ، أقلها للاشادة به ، وأكثرها في الرد على الدكتور طه .

هذه هي الخطوط الرئيسية التي يقوم عليها الكتاب • ونبدأ الحديث على الفكرة الأولى •

يرى الرافعي أن الأدب ينبغي أن يبنى في هذا العصر على أسس متينة ، حتى يكون قويا ، يستطيع أن يقف أمام الآداب الأخرى وقفة المتعالي ، ينبيء على ما كانت عليه لغته قديما ، وما ستكون عليه بعد حين • ويرى أن السبة التي لحقت لغتنا في بعض عصورها ، ترجع الى ضعف الكتاب ، لا إلى ضعف اللغة • وعلى هذه النظرية ، بنى نقده وآراءه في مجابهة أهل التجديد •

والطريقة التي يستعملها في محاورته ، طريقة منطقية ، فهو يذكر آراء المجددين ، ويضع بجانبها أمثلة من آرائه عن المذهب القديم ، ثم يخلص إلى أن المذهب القديم أدل وأقدر على إحياء اللغة وبعثها من جديد بعثا قويا صحيحا •

يبدأ الحديث عن المذهب الجديد لينا هادئا إلى أن يبلغ الصفحة المائة ، فإذا لهجة جديدة وأسلوب في النقد لاذع • ومن هنا يمكن أن نقسم الكتاب إلى مجموعتين نقديتين ، إحداهما تعتمد على الحجة والمنطق ، وهي التي تقع في أول الكتاب ، والثانية تتدخل فيها النزعة الذاتية إلى حد كبير ، وهي بقية الكتاب •

إن أسلوب القسم الأول ساخر باسم ، لا يدل على اشتداد الحمية ، ولكنه ينبيء بأنها ستشتد بعد حين ، كما يتجلى في هذا المثال الذي يصف فيه المجددين ، فيشبههم (بطائفة من الذباب ، لو أصابت لها حاميا مدافعا من النسور ، فجاءت تطن بأجنحتها لتلوذ به ، وتنضوي إليه ، ثم قصف النسر قصفته بجناحه لأهلكها أو بعثرها وشردها ، وهو كان في وهمها ملاذا ، وكان عندها حمى ، فذلك مثل القوم وما يحتاجون إليه من الرجل البليغ ، إذا التمسوه فأصابوه)[1] •

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ٥

ويقول عنهم في مثال آخر : (ما رأيت فئة يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعا كهؤلاء المجددين في العربية ، فهم عند أنفسهم كالجمرة المتوقدة ، لايشبعهـا حطب الدنيا ، ولكن غرفة من الماء تأكل الجمرة ، وهم مخذولون بقوة الله ، إذ ليس فيهم رجل فصيح يكون لهم كالتعبير عن الطبيعة ، عن هذا المذهب ، حتى يثبت مذهبهم فلا يدفع ، ويقوم فلا ينقص ، ولن يأتي لهم هذا الرجل • فلو أنه اتفق لهم لكان أشد أعدائهم ، والأغلظ فيهم النكاية ، فما يزال ينقصهم أبدا ، ولن يتموا به أبدا • وذلك من عجيب تقدير الله في العربية ، لمكان القرآن منها ، حتى لا يدخل في طمع أحد ، ولا تناله يد متناول • فهو محفوظ بالقدر كما ترى ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[1] •

ويعترف الرافعي في مقدمة كتابه هذا ، بأن خصومه المجددين ليسوا جهلة، إنما هم علماء ، ولكن المبدأ الذي يدعون إليه غير سديد من ناحيتين : أولا أنه مجتلب من المستشرقين الذين يرفعون جانب المعنى على جانب اللفظ • ثانيا أنه ضعيف الى حد يدعو للرثاء • لذلك تجب محاربة آرائهم ، لا محاربة أشخاصهم • ولذلك أيضا ، يجب أن تتخذ إزاءهم أساليب مختلفة ، من الشدة والعنف والتهكم •

يقول : (نحن مستيقنون أن ليس في جدال من نجادلهم عائدة على أنفسهم ، إذ هم لا يضلون إلا بعلم ، وعلى بينة ، فمن ثم نزعنا في أسلوب الكتاب الى منحى بياني ، نديره على سياسة من الكلام بعينها ، فإن كان فيه من الشدة أو العنف أو القول المؤلم أو التهكم ، فما ذلك أردنا ، ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي من أن يضل ، فما به زجر الأول ، بل عظة الثاني)[2] •

والقرائن التي تدل على أن مبادىء هؤلاء مجتلبة ، منبثة في الكتاب ، وكذلك ضعفهم اللغوي • وهذان أساسان يعتمد الرافعي عليهما في نقـده

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ٤

٢ ـ تحت راية القرآن ص ٣

القوم ، بالاضافة الى أساس ديني أيضا ، هو عقيدته الاسلامية ، ثم تأتي بعد ذلك طريقة المهاترة ، أو قرع الحجة بالحجة حسب ما يراه ملائما • وقد يراوغهم مراوغة الدهاة ، كأن يتساءل : (ما هو المذهب الجديد ؟ أنأخذ بالمقابلة فنقول : إذا كان الأبيض هو القديم ، فالأسود هو الجديد ؟••• أم هنالك حقيقة ثابتة محدودة ، خفيت على عظمها وخطرها في هذه اللغة خفاء أمريكا في هول المحيط، حتى بعث الله لها في أيامنا هذه من يرميها ببصره ، فكشفها وسماها ، وكان منها المذهب الجديد ، وكانت هي إياه •• ويستمر على هذا النحو إلى أن يقول : لو تأمل أصحابنا تاريخ هذه اللغة وآدابها ، لرأوا في كل عصر من عصورها شيئا كان يمكن أن يسمى مذهبا جديدا ، ولكن لم نجد أحدا اسماه كذلك ، ولا بناه على أنه شيء بنفسه إلا في هذه الأيام الأخيرة)[1] •

إن الفقرة الأخيرة صريحة في أن الرافعي يعترف بتطور الأدب وتجدده عبر العصور ، ولكنه ينكر أن يكون قد وضع له اسم فيما مضى ، كهذا الذي يردد على ألسنة المجددين الآن ، وإذن فليس بلازم أن يختلق له اسم • والعلة كما يبدو ومن مجموع آراء الرافعي المتفرقة هنا وهناك ، أنه أدرك خطر التسمية ، إن هي شاعت وانتشرت ، إذ معنى ذلك ، أن دعاة التجديد ، سيكون لهم مذهب خاص ، هم دعاته وزعماؤه ومن ثم سيصبحون ذوي مكانة أدبية ونهج خاص في الأسلوب والتفكير ، وهو ما يخشاه الرافعي على الشباب الناشيء •

وأول الكتاب يكاد يمضي على هذا النمط في الرأي والدفاع ، فاذا تجاوزنا قدرا من الصفحات طالعنا أسلوب آخر في الرأي والدفاع والاتجاه ، غير الذي عهدناه من قبل •

ففي القسم الأول كان الكلام عاما لا يتجه الى شخص معين ، أو أنه يتعلق بالمبدأ من حيث هو مبدأ • أما القسم الثاني ، فإن آراء الرافعي تكاد تنصب

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ١٥

على شخص واحد هو الدكتور طه حسين ، ثم هي لاتنصبْ عليه إلا في قــوة وعنف ، وقد يؤدي به الأمر الى أن ينتقد من له صلة بالدكتور طه مثل مدير الجامعة أحمد لطفي السيد ، فقد شن عليه هجوما عنيفا كما سنرى ٠

إني أوجزت الكلام عن القسم الأول ، فأنتقل الآن الى القسم الثاني ٠

في هذا القسم نتحدث عن آراء الرافعي في موضعين هما : الجامعة المصرية ، وكتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين ٠

ومعروف أن الجامعة المصرية أنشئت في سنة ١٩٠٨ لتؤدي واجبها الثقافي والفكري ، ولم تكن آنذاك على أتمها في ناحيتي التدريس والتأليف ، باستثناء نفر قليل كانوا قد أعدوا لأن يكونوا نواة لمن بعدهم من الأجيال ٠

وفي هذا الوقت كان الرافعي قد تم تكوينه العقلي في اللغــة والأدب ، وأصبح صالحا لأن يدخل في ميدان التأليف ٠ وكان يتسمع أخبار الجامعة لعله يجد شيئا لا يعرفه ، ولبث على هذه الحال نحو سنة ، فلما استيقن أن لاشيء في الجامعة يجهله من الدروس في الأدب العربي وتاريخه ، وأنه لا يقل عن أساتذتها في العلم والاطلاع ، وطرق التدريس ، كتب مقالا ، ثم عززه بآخر ، وكل منهما له ظاهر وباطن ، فظاهرهما الصلاح والخير للامة وللطلبة ، وباطنهما ترجمة خالصة لمشاعره وامانيه في أن يصبــح بفضل أدبه ونضجه مدرسا في الجامعة ، كما سيتضح بعد قليل ٠

ويمكن حصر آرائه الصريحة في ثلاث خصال هي :

١ ــ ضعف الأساتذة في اللغة العربية وآدابها ٠

٢ ــ عقم مادة التدريس ٠

٣ ــ خلل في المنهج الدراسي ٠

ومن ناحية يرى أن لا ملامة على القائمين بأمر الجامعة فيما يتعلق بالأساتذة ومادة التدريس ، لأنه أدرك أن الأمة لا تزال في بداية الطريق ، ولكنه لا يجد

مبررا في المنهج الدراسي حين أدخلوا فيه نوعين من الآداب الأجنبية ، لما في ذلك من خطر يهدد اللغة العربية والطلبة •

وعلى هذه الخصال الثلاث يبني كلامه ليعلن عن نفسه وأدبه وطريقته في التدريس فيقول : (لا أعلم ماذا يرادبقولهم « آداب اللغة العربية » إلا أن يكون ذلك إحاطة الأديب بفصح اللغة ، وتمكنه من استعمالها في تنزيل الكلام ، ومعرفة الإعراب ، والأبنية والتصاريف ، وبعد النظر في معاني البلاغة وأساليب الفصاحة ، والاقتدار عليها نظما ونثرا • ثم معرفة الرجال ومراتبهم ، وطبقات كلامهم وآثارهم واختلاف العصور بهم ، مع البصر بالنقد ومواضع المؤاخذة الى الطبع السمح ، والفطنة المؤاتية ، حتى لا يكون برما بالحجة اذا نزع بها ، ولا ضعيف الدليل اذا حاول الاستخراج والتعليل ، ثم الاحاطة بذلك كله إحاطة تاريخية فلسفية وتدبره على اختلاف وجوهه وأسبابه ، وهو كله جملة واحدة لايغني فيه بعضه عن بعض • وعلى مقدار ما يبلـغ منه الأديب يكون أدبه • فقد يقال للعالم باللغة لغوي ،ولصاحب النحو نحوي ، ولمن يقرض الشعر شاعر ، وبالجملة ينسب كل ذي علم الى علمه ، إلا الأديب فلا علم له إلا مجموع تلك العلوم ، وإحسان المشاركة فيها جميعا)[1] •

وبعد هذه الأوصاف التي نفهم منا أنها من خصائصه ، ينتقل الى تأكيد رأيه في صفات الأديب أو في صفاته هو من أنه واسع الاطلاع ، محيط بكل ما يتصل بالأدب من أخبار وروايات ، فيذكر قصة أبي بكر مع أديب الأندلس ابن عبدون ، الذي يحفظ كتاب الأغاني كله كما ورد في الكتب • ثم يقارن بين زمننا وزمن هذا الأديب ، فيقول : (ومن ذلك نعرف كيف ابتذل هذا اللقب العظيم ــ لقب الأديب ــ في زمننا حتى لم يحرمه إلا العامة من الجهلاء)[2] •

وينتقل بعد ذلك الى الكتب التي ألفت في آداب اللغة العربية ، فيقرر أنه

---

١ ــ تحت راية القرآن ص ٤٢

٢ ــ المصدر السابق ص ٧٤

اطلع على جميع ما ألف فيها في هذا العصر ، وأنها لا تفي بالغرض المنشود • فالمؤلفون (يثبتون في كتبهم بعض فصول في تاريخ اللغة ونظمها ونثرها ، ويومئون الى طائفة من الكتاب والشعراء غير منتقدين ولا مميزين ، ويأتون بشيء من كلامهم يصيبونه ــ كما يقول النحاة ــ حيثما اتفق • وقد يتكلمون في العلوم الاثني عشر[1] ويسردون لك أسماء من الكتب المؤلفة فيها ، وأنك ما أصبت من فائدة في بعض كتبهم ، فذلك حكم الجمع ، وما يطرده لك التأليف ، ولا أقبح من كتاب تستعرض فيه العقول ، وتتصفح الآراء ، إلا عقل صاحبه ورأيه)[2] •

ثم ينبري للجامعة فيقول : (وما أدري ؟ الجامعة مفلحة في الأدب ، إذا هي لم تحي ذلك العهد ، ولم تطو الأيام إليه ، فإن الأمة تحيا إذا ماتت لغتها ، ولن تموت لغة أمة حية ، وما دامت العربية على أصلها ، فأدبها ما أخرجه لنا السلف ، لا ينقض منه ولكن يزاد عليه ، بما تمثله الأيام وتبتدعه الأفهام ، وتستأنفه القرائح وتدبره العقول ويمحصه التحقيق وتبدعه مذاهب النقد)[3] •

وكل الذي قدمناه من آراء الرافعي في الجامعة كان في السنوات الاولى من إنشائها • فلما تقدم الزمن قليلا وأصبحنا في سنة ١٩٢٦ ، تطورت آراؤه بتطور الأحداث ، إذ ظهر في هذا الوقت كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه ، فأحدث ضجة كبرى في الطبقة المثقفة بما يشتمل عليهمن آراء غيرمألوفة ، لأنه يقوم على فكرة ديكارتية ، وهي التجرد من العواطف ، والشك قبل اليقين • ولما كان مؤلفه أستاذا في الجامعة ، وصدرت منه هذه الآراء ، كان لزاما أن تتجاوز انتقادات الرافعي المبدأ العام للجامعة الى القائمين بها • وهكذا انشعب بنا الحديث الى شعبتين ، إحداهما في المسؤولين عن الجامعة ، والأخرى في آراء الدكتور طه حسين •

---

١ ــ انظر اللغة العربية لجرجي زيدان ص ٦٦
٢ ــ تحت راية القرآن ص ٧٤
٣ ــ المصدر السابق ص ٧٥

الشعبة الاولى :

كان أول عمل قام به الرافعي ، أنه حمل إدارة الجامعة تبعة ما جاء في الكتاب ، من آراء مخالفة للنصوص التاريخية الصحيحة ، بدعوى حرية الفكر ، (قالوا : إن هذه الجامعة أنشئت للبحث العلمي ، لا للعلم نفسه ، إذ العلم قليله وكثيره علم ، وجيده ورديئه علم ، وما صح فيه وما تشابه منه كل ذلك علم ، لأنه سببه وغايته والواسطة اليه • والبحث يتناول الباطل كما يتناول الحق ، لأنه بحث • ولذلك وضع ، وبذلك مادته ، فلو أطبق الناس جميعا على رأي من الآراء ، أو مذهب من المذاهب ، ثم قام أستاذ في هذه الجامعة فنقض ذلك الرأي ، وذهب خلاف ذلك المذهب ، كان له أن يفعل ما وسعه ، وأن ينقض وأن يخالف ، وهو مصيب وإن أخطأ ، وقريب من الحقيقة وإن بعد ، وعالم وإن جهل)[1] •

وشيئا فشيئا يجد الرافعي نفسه أمام مدير الجامعة وجها لوجه ، ذلك أن المدير نشر كلمة في جريدة السياسة بسط فيها آراءه في حرية التفكير واستقلال الرأي • فما كان من الرافعي إلا أن كتب مقالة بعنوان (حرية التفكير أم حريه التكفير ؟) ينتقد فيها آراء المدير انتقادا ساخرا ، ثم ينقل كلمات من نسخته الخاصة كليلة ودمنة التي زعم أنه يمتلكها[2] فيقول : (نحن سعداء حقا ، أن وجدنا في نسختنا العتيقة من كليلة ودمنة هذا الحديث • قال كليلة•••) ويستمر في الحديث على لسان كليلة ودمنة ويتشعب الحديث ويطول ويختفي أثر كليلة ودمنة اختفاء كليا ، ولا يبقى معنا إلا الرافعي واتجاهه ، فإذا هو يقول بعد حديث طويل : (إنما الشأن في سمو التفكير قبل حريته ، فينبغي أن يكون الفكر قويا على مصادمة النقد ، إذ يكون صحيحا لا زائفا ، وحقا لا باطلا • ومتى كان الفكر كذلك ، فما هو في حاجة الى قانون يحميه ، لأن قانونه مناظرته • أما إن كان على غير هذا ، فجاء ضعيفا متخاذل الحجة ، واهي الدليل لا يقدر على دفع

---

١ ــ تحت راية القرآن ص ١٢٣

٢ ــ زعم الرافعي أنه يمتلك نسخة خاصة من كليلة ودمنة

الاعتراض ، ثم كان قائما على أن يقول المفكر الباحث ما شاء ، ويقول المنتقدون ما شاءوا بلا نتيجة هنا ولا هناك ، فلعمري إن هذه ليست حرية تفكير ، بل هي حريـة الخطأ . والخطأ دائما مقيد في أي الأساليب جـاء ، ومن أي الناس وقع[1] .

ولم يكتف الرافعي بهذه المقالة ، بل كتب أخرى أيضا وعنوانها « ذو الأقفال » يصف المدير فيها بصفات لاذعة استفتحها بقوله : (نحن نعرف الأستاذ الفاضل مدير الجامعة ، رجلا صلبا ، مستغلقا كالأبواب الحصينة ، بعضها من وراء بعض ، إن أنت عالجت بابا منها فانفتح لك بعد الكد والعناء وطول المزاولة ، قام من دونه باب آخر فاضطرك إلى مثل ما كنت فيه ، واستأنفت ما فرغت منه ، فما تظفر من الرجل بطائل ، لأنه فيلسوف أديب مطلع ، يرجع من طبعه الذكي إلى مثل كتب الفلاسفة ، ومن كتب الفلاسفة الى مثل طبعه الذكي . فهو أبدا متحذر مستعد ، ولا تبرح أقفاله الفلسفية على مَدّ يده . فإذا هو وضع الباب من أبواب الكلام بينك وبينه ، تناول القفل والقفلين والثلاثة ، واستغلق وتعسر ، فهو في الرجال كالشاذ في القاعدة)[2] .

وعلى هذا النمط من السخرية يستمر في وصف المدير الى أن يتشعب بـه الحديث ، فيلجأ مرة أخرى الى نسخته الخاصة من كليلة ودمنة ، ينقل منها بعض الآراء التي يريد أن يثبتها ، وهي في نفس الوقت تدل على ما يكنه في نفسه إزاء الجامعة ومديرها فيقول : (غير أن نسختي من كليلة ودمنة ليست بليدة ، فقد رجعت اليها الساعة فاذا الماكر دمنة يقول : ولا يغرنك أنك على ثقة من غفلة من حولك ، فإنك إن تكن على مسافة بعيدة من عاقبة غفلتهم ، فأنت على مسافة دانية من عاقبة مكرك ، وأن القدر إن خلاك فلا يفلتك من يمينه إلا ليأخذك بيساره ، فلا تستنم الى مسافـة ما بين القبضتين ، إذا كان ما من الوقوع في

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ٣٠٩
٢ ـ المصدر السابق ص ٣١٥

إحداهما بد ••• وغفلة الماكر الغاش يطمئن إلى دحسه ••• وغشه وهو يعامل فيها أمة كاملة ، فيوشك أن يلقى ما يلقى الرجل ذو الأقفال حين زم بأقفاله على فضيحتين ، فكانت أقفاله الفضيحة الثالثة •

قال كليلة : وكيف ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أن رجلا حازماً فيلسوفاً ••••)[1] •

إن أسلوب الرافعي فيما يخص المدير لا يدل على أنه يعني ما يقول ، وإنما وجد مادة لآرائه ، فأفاض في استغلالها ، وكان منها هذا الاسلوب الساخر الذي تفتح له عن نسخته الخاصة كليلة ودمنة •

الشعبة الثانيــة :

نشأ عن هذه الشعبة نوعان من النقد ، أحدهما عاطفي ، ينصب على شخص الدكتور طه أكثر مما يتناول آراءه ، ولذلك ندعه دون أن تتعرض له • والنوع الثاني وان لم يخل من العاطفــة إلا أنه أقرب الى العقــل من الأول ، وهو ما نتحدث عنه •

ينقل الرافعي نصا للدكتور طه عن وحدة القصيدة ، والشخصية الشعرية ، ذهب فيها الدكتور الى أن في شعر الأقدمين هلهلة ، مما يدل على أنه من وضع القصاص • فقال الرافعي متسائلا ومجيبا : (فالشخصية عنده هي الجزالــة والفخامة ؟ أو الرقة والسهولة ؟ كأن كل شاعر لا يكون شاعرا إلا إذا لزم نمطا واحدا بعينه • وهذا خطأ •• فليس من شاعر قديم أو حديث ، بل ليس شاعر يعد شاعراً إلا إذا أعطى المعاني خير ألفاظها ، جزلة" في مقام الجزالة ، ورقيقة في مقام الرقة ولا تجد من يلزم طريقة واحدة في اختيار اللفظ ، إلا إذا لزم فنا واحدا في المعنى ، كالشاعر الغزل المتهالك في نسيبه ، فإن هذا الغزل لا تحسن

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ٣١٨

فيه إلا ألفاظ في رقة الدموع والتنهدات)[1] •

وبعد هذا الحديث يستشعر أنه مطالب بالدليل ، فيسرع الى ذكر مثالين لشاعر واحد ، كل مثال له مقامه الخاص به • أحدهما في موضع الجد ، والآخر في الهزل ، قال : (وأنت تعرف أن بشار بن برد هو القائل :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرا منبر صلى علينا وسلما

وهو القائل في جاريته ربابة :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

ويعلق الرافعي على هذا بما ورد من أخبار فيقول : قد قيل له في ذلك فقال : إن هذا في ربابة ، خير من قول امرىء القيس في معلقته •

ثم يقول : (وذلك قول صحيح ، لأنه يعبث بربابة ويداعبها ويكاد شعره يكون قرصة رقيقة في جلدها)[2] وهذا الرأي الذي أثبته الرافعي هو السائد في الأدب العربي ، وقد أثبته غير واحد من النقاد ، نذكر منهم صاحب العمدة • فقد قال تحت القول المشهور ، لكل مقام مقال : (وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده ، وأمور نفسه من مزح وغزل ، ومكاتبة ومجون ، وخمرية وما أشبه ذلك ، غير شعره في قصائد الحفل)[3] •

ولا إخالني في حاجة الى المزيد من الأمثلة للبرهنة على هذا الرأي ، فكتب الأدب والنقد زاخرة بمثل هذا الرأي ، ثم إني لا أعتقد أن الدكتور طه يجهل

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ٣٣٨
٢ ـ تحت راية القرآن ص ٣٣٨
٣ ـ العمدة ج ١ ص ١٩٩

مثل هذه الخصائص الشعرية التي يتسم بها غرض دون غرض وهو الذي كتب قبل هذا التاريخ عن مختلف الشعراء في الجزء الثاني من كتابه (حديث الاربعاء)، وأفاض في ذكر خصائص كل شاعر من الغزليين وغيرهم ، إنما للدكتور طه رأي في الشعر الجاهلي ومقدمة منطقية خاصة ، بنى عليها دراسته ، فجاءت النتيجة بسبب ذلك بعيدة عن القاعدة العامة .

ومثال آخر في النقد الموضوعي للرافعي ، ينقل نصا للدكتور طه في المعمرين، ويقارنه بنص آخر للجاحظ ، ثم يبدي رأيه .

يقول الرافعي : (قال طه في صفحة ١٠٢ : وهناك لون من ألوان القصص كان الناس يتحدثون به ويميلون اليه ميلا شديدا ، ويروون فيه الاكاذيب والأعاجيب ، وهو أخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة إلى أبعد مما ألف الناس . رويت حول هؤلاء المعمرين أخبار وأشعار ، قبلها العلماء الثقات في القرن الثالث للهجرة) .

قال الرافعي مُعَلِّقاً على هذا النص : « وقال الجاحظ : وقد ذكرت الرواة في المعمرين أشعارا ، وصنعت في ذلك أخبارا ، ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ، ولا دلالة قائمة ، ولا نقدر على ردها بجواز معناها ، ولا تثبيتها إذ لم يكن معها دليل يثبتها » .

ثم بعد هذين النصين المتباينين ، نص الدكتور طه ونص الجاحظ ، أبدى الرافعي رأيه فقال : (فأنت ترى من الفرق بين الجاحظ وطه ، إن هذا يبالغ ويهول ، ويتعمد الكذب ، فيزعم أن الناس كانوا يتحدثون بذلك النوع من الكذب ويميلون إليه ميلا شديدا كأنه كان شاهد أمرهم ، ورأى الناس يتحدثون ويميلون ، ثم يوهمك أن العلماء الثقات في القرن الثالث قبلوا تلك الأخبار والأشعار ، وما كان الجاحظ إلا في القرن الثالث ، ثم ينفي طه كل ما قيل من ذلك ، كأنه على ثقة من أن العرب لم يعمر منهم أحد ، مع أن في زماننا هذا من

ارتفعت به السن الى قرن ونصف)[1] •

وأقول : (إن أخبار المعمرين بمثل هذه السن التي ذكرها الرافعي منتشرة حقيقة في زمننا هذا ، ولا ينكرها أحد • ففي كل مرة تطالعنا الصحف بما يشابهها ، فقد جاء في إحدى الجرائد أن معمرا مات عن مائة وثلاث وستين سنة[2] وان آخر قد تجاوز الخمسين بعد المائة ولا يزال حيا يرزق)[3] •

غير أن الذي يفهم من كلام الدكتور طه ، هو ما تجاوز حد العقل ، وآية ذلك هذه الأبيات التي استدل بها على رأيه ، وتنسب للمستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد وهي :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وازددت من عدد السنين مئينا
مائة أتت من بعد مائتان وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقي إلا كما قد فاتنا يوم يكر وليلة تحدونا[4]

إن ظاهرة الانتحال في أشعار المعمرين واضحة لا خفاء فيها ، على الرغم من صنعة القصاص والوضاعين ، فقد حاولوا أن يلبسوا هذا الشعر الذي ينسبونه إلى المعمرين ثوبا يلائم الزمان والمكان ، وتقاليد العربي القديم ، كأن يتحدث المعمر عن النساء والشباب في مرحلة من مراحل عمره ، ويتحدث عن تجاربه وخبرته في الحياة في مرحلة أخرى من عمره • ومع ذلك فإن ظاهرة الوضع واضحة كما قلت ، فأشعار هؤلاء متشابهة تبدأ بالسآمة من الحياة وطولها ، فذكر لمئين من السنين ، ثم السؤال عما بقي لهم من العمر ، قصير أم طويل طول ما مضى ؟

---

١ ــ تحت راية القرآن ص ١٨٨
٢ ــ جريدة الاهرام ١٩٦٣/١/١٤
٣ ــ المصدر السابق ١٩٦٣/٣/٢٢
٤ ــ في الأدب الجاهلي ص ١٦٨

وظاهرة أخرى تتجلى في قدرة هؤلاء الوضاعين ، أنهم يستدلون على رأيهم بأعظم شخص مثل الأمير والخليفة ليكون ذلك أدعى الى تقبله ، فيديرون كلاما على لسان هذا الخليفة وذلك المعمر ، وتدوم المحاورة بين الاثنين مدة ، هذا يسأل وذاك يجيب ، والمجلس صامت يشهد ما يرى وما يسمع •

ولعل أحسن مثال في هذا النوع ما ورد في أمالي المرتضى عن معمر يدعى الربيع بن ضبع الفزاري الذي قيل انه ولد أيام حجر أبي امرىء القيس ، وعاش الى أيام عبد الملك بن مروان • وقد سأله أن يفصل له عمره فقال : (إني عشت مائتي سنة في فترة عيسى عليه السلام ، وعشرين ومائة في الجاهلية ، وستين سنة في الاسلام)[1] •

ومن كل ما قدمنا عن الرافعي والدكتور طه ، نفهم أن الرافعي لم يكن في هذه الفترة الأخيرة يقصد خلق خصومات أدبية أو مناورات من أجل الشهرة ، كما كان يفعل حين كان أديبا ناشئا[2] ، وكما يحلو لبعضهم أن يناور الآخرين من أجل الشهرة نفسها[3] إنما كان الغرض غير هذا كله • ويمكن توضيحه بحسب زمنه وحوادثه فيما يلي :

ان ما نشره عن الجامعة في سنة ١٩٠٩ وفي الدكتور طه حسين بعد ذلك الى ما قبل ظهور كتابه (في الشعر الجاهلي) ، كان بدافع ثقافي ، مشوب بقليل من حب الشهرة ، وما كتبه عنهما في سنة ١٩٢٦ كان بدافعين اثنين : أحدهما ديني وهو الأصل وثانيهما ثقافي صرف ، وليس للشهرة في هذه الفترة من دخل أصلا ، لأن اسمه كان قد فشا وشاع وانتشر في الآفاق ، حتى عم جميع الاقطار العربية النائية منها والدانية •

---

١ ــ امالي المرتضى ج ١ ص ٢٥٤

٢ ــ الثريا يناير ١٩٠٥

٣ ــ راجع الجريدة ٢٥ يناير ١٩١٢ رقم ١٤٨٠

ولعل هذه الشهرة وثقته بنفسه ، وما يأمله من تشجيع ومناصرة من طرف قرائه ، جعلته يتابع الحوادث التي تتعلق بالكتاب ويتحمس لها بآرائه أكثر من أي ناقد آخر •

صمد الرافعي لهذه المعركة صموداً طويلا إلى أن انتهى أمرها بتدخل السلطان السياسي ، فقام إثر ذلك فجمع ما كان قد نشره في جريدة كوكب الشرق من المقالات وأضاف اليها ما كان نشره قبل ذلك عن الجامعة المصرية سنة ١٩٠٩ وأضاف الى ذلك بعض المقالات لكبار الكتاب ورجال الدين والسياسة ، ونشرها في كتابه هذا (تحت راية القرآن)

وبصمود الرافعي وتحمسه لمبدئه وما ضمه كتابه من المقالات اللاذعة عن هذه المعركة ، أصبح كأنه وحده في الميدان ، مع أن الذين دخلوا معه هذه المعركة وساهموا بكتبهم أو مقالاتهم كثيرون ، منهم الكاتب ، ورجل الدين ، والسياسة ، ومنهم المؤلف ، مثل محمد فريد وجدي صاحب كتاب (نقد كتاب الشعر الجاهلي) ، ومحمد الخضر مؤلف كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) • ومع ذلك فقد نسينا ، أو كدنا ننسى هؤلاء النقاد والكتاب جميعا ، ولم يبق في أذهاننا إلا صاحبنا الرافعي • وقد آن لنا أن نتسائل عن صمود الرافعي هذا الصمود الطويل ، وبهذا الحماس الشديد ، فما الداعي الى كل ذلك ؟

يخيل إلي أن الرافعي مذ درس مجتمعه ، وعرف مكانه فيه ، شعر بأن عليه واجبا دينيا ، وآخر ثقافيا ، ينبغي أو يجب عليه أن يعمل لهما ما أمكنه أن يعمل • فقد رأى جمال الدين الافغاني يجابه الأعداء في جرأة لا تعرف اللين ولا الهوادة ، ورأى محمد عبده يسلك مسلكا آخر في سياسته الاصلاحية غير المسلك الذي كان عليه جمال الدين ، فقارن بين هذين الزعيمين الدينيين المتفقين في العقيدة والهدف ، المختلفين في الوسائل والمنهج ، مقارنة الرجل المثقف المحنك ، فأدرك أن أحسن وسيلة أن لا يتعرض للجانب السياسي إلا تحت جنح الظلام ، وفي تستر تام ، كأن يكتب مقالا في الجريدة فيخفي اسمه تحت رمز من الرموز ، أو

ينشره غفلا خاليا من كل علامة إلا ما ينم به أسلوبه• يفعل ذلك لينال من الخصوم دون أن يعرض نفسه لسخطهم أو سجونهم ، لأن لهؤلاء السياسيين سطوتهم وسلاحهم ، أما غيرهم من الأدباء ، فسلاحهم في حججهم ومدى قوتها وصحتها ومطابقتها للحقائق والتاريخ •

وأهل التجديد لم يأخذوا فيما أخذوا فيه من عقيدة وإيمان، إنما هم صدى لقوم من هناك ، من الغرب •وكل ما هو غربي ، سواء فاه به المستشرقون أو المستغربون ، فالبلية من هؤلاء وهؤلاء واحدة ، ولذلك تجب محاربة كل فكرة أجنبية تسعى إلى إفساد عقيدة الشباب ولغة الضاد • والدكتور طه من المجددين بل زعيم المجددين ، فهو ذو سلاحين حادين يستعمل أحدهما كأهل التجديد للغض من لغة البيان ، لغة الأقدمين ، وينفرد بالثاني لاختلاق أشياء في الشعر الجاهلي ما سمعنا بها ، وما وردت في كتاب •

هذه هي حجج الرافعي في أدباء عصره ، وتلك نيته في أداء رسالته بعد محمد عبده وجمال الدين الأفغاني • لقد تأثر الدكتور طه حسين بهذا الحادث ، لأنه رأى فيه نوعا من تقييد الحرية الفكرية ، ونوعا من الانحراف عن القصد ، فقد استغل رجال الدين الدستور في أحد نصوصه ، واستجاب لهم بعض الحكام استجابة مطلقة •

قال الدكتور طه : (يقول الشيوخ إن الدستور قد نص أن الاسلام دين الدولة ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم الدستور حماية الاسلام من كل ما يمسه أو يعرضه للخطر ، ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تضرب على أيدي الملحدين وتحول بينهم وبين الالحاد ، أو تحول بينهم وبين إعلان الالحاد على أقل تقدير، ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تمحو حرية الرأي محوا في كل ما من شأنه أن يمس الاسلام ، من قريب أو بعيد ، سواء أصدر ذلك عن مسلم ، أو غير مسلم• ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم الدستور ، أن تسمع مايقوله الشيوخ في هذا الباب • فاذا أعلن أحد رأيا أو ألف كتابا ، أو نشر قصة ، ورأى الشيوخ

في هذا كله مخالفة للدين ، ونبهوا الحكومة الى ذلك ، فعلى الحكومة بحكم الدستور ، أن تسمع لهم ، وتعاقب من يخالف الدين أو يمسه ، بالطرد أولا إن كان موظفا ، ثم بتقديمه الى القضاء بعد ذلك ، ثم باعدام جسم الجريمة ، كما يقول رجال القانون على كل حال .

وقال عن استغلال الشيوخ للدستور : استغلوه استغلالا منكرا في حوادث مختلفة ، وأهمها حادثة (الاسلام وأصول الحكم)[1] وحادثة كتاب (في الشعر الجاهلي)[2] .

قارن محمد سعيد العريان بين آراء الرافعي التي كان ينادي بها قديما ، والتي ينادي بها حديثا ، فوجدها متناقضة أو كالمتناقضة ، ولكن الاستاذ العريان فطن للمبرر فقال : (على أنك تقرأ للرافعي من هذا الكتاب رأيه في طريقة تدريس الأدب بالجامعة ، غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد في تدريس الادب ، وتقرأ له من الكتاب نفسه رده في سنة ١٩٢٦ على طه ، وطريقته الجديدة لتدريس الادب ، فتراه ينكر عليه هذا الجديد ، فتعلم من هذا وذاك ، أن الرافعي لم يكن يعني بحملته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يرد الى الافواه كل لسان يحاول — بدعوى الجديد — أن ينتقص من القديم ، ليخلص من ذلك الى النيل من لغة القرآن ، ولغة الحديث ، ومن تراث أدباء العربية الأولين)[3] .

وأستطيع أن أضيف شيئا الى مافطن اليه الأستاذ العريان ، وهو أن الرافعي كان غداة إنشاء الجامعة يسعى إلى أن يتبوأ مقعدا بين أساتذة الجامعة ، فهو يعلم أن هذه الجامعة إنما أنشئت لتسير على نمط جديد من طراز أوربي ، لا على النمط الأزهري العقيم ، ومن ثم يتحتم عليه أن يعلن عن نفسه ، وعن علمه

---

١ — للمؤلف علي عبد الرازق
٢ — من بعيد ص ٢٤٧
٣ — حياة الرافعي ص ١٦٤

ومنهجه في التدريس ، وعن مبدئه في التجديد • أما وقد مضى عهد الجامعة ، وأخفق في الحصول على مقعد فيها ، فليس عليه ــ وقد سنحت الفرصة ــ أن يسدد سهامه الى ضعفاء الأقلام من أهل التجديد ، فينقد أساليبهم الركيكة ، ولغتهم الضعيفة ، وليس عليه أيضا أن يتصدى لمنحرفي الأفكار أن يقوم اعوجاجهم ، فيكون بذلك قد قام مقام محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ، بعد أن لم يكن في الدنيا لامحمد عبده ولا جمال الدين الافغاني •

ألم يكن الامام محمد عبده من المجددين في تفسير القرآن ، وأول من حاول (التوفيق بين الاسلام ونظريات العلم)[2] ؟ وجمال الدين ألم يشتهر بعقيدته الدينية ، ومبادئه الاسلامية حتى أصبح كالمنارة للوطنيين العرب والمسلمين ؟

والرافعي لا ينقصه أن يكون كهذين الزعيمين أو كأحدهما إلا الجريدة ، فلو وفق إلى إنشائها ، لكان فعلا زعيما مصلحا ، ولأصبح خلفا لمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني في آرائهما واتجاهاتهما • ومع ذلك ، فإن ما قدمه للدين وللعربية مما لا يستهان به •

قلت إن العريان فطن للدوافع النفسية التي كانت تخالج الرافعي في موقفه من أهل التجديد في الفترتين المتباعدتين ١٩٠٨ ــ ١٩٢٦ ، وهي خوفه على لغة القرآن • وأقول هنا : إن هذه الفكرة أيدها مالك بن نبى في كتابه (الظاهرة القرآنية) إذ أدرك أن منهج التفسير للقرآن ، سيكون على غير مقاييسه القديمة المعروفة التي هي الشعر الجاهلي[1] ، وهذا الرأي قد أقره الدكتور طه حسين نفسه في كتابه في الشعر الجاهلي ، فقال : فسينتهي بنا هذا البحث إلى أن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرىء القيس ، أو إلى الأعشى ، أو الى غيرهما من الشعراء الجاهليين ، لايمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء

---

١ ــ زعماء الاصلاح ص ٣٣٥
٢ الظاهرة القرآنية ص ٢٢

الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن • نعم ! وسينتهي بنا هذا البحث إلى نتيجة غريبة ، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث ، وإنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله[1] •

هذه النظرية التي نادى بها الالدكتور طه ويريد أن يقررها في طريقة تفسير القرآن ، هي التي دفعت الرافعي إلى أن يوجه إلى الجامعة المصرية بعض الأسئلة في موضوع الكتاب في الشعر الجاهلي ، ومنها هذا السؤال : هل صحيح (أنه لايوجد شعر جاهلي ، بل هو مصنوع بعد الاسلام ، وأن هذا الجاهلي لايستشهد به على القرآن ، بل القرآن هو الذي يحتج به للشعر ؟)[2] •

ويفسر محمد البهي في كتابه « الفكر الاسلامي الحديث » ما تقود إليه هذه النظرية بقوله : (ومعنى هذا القول كما يريد المؤلف أن يفهم قارئه : أن القرآن انطباع للحياة القائمة في وقت صاحبه ، وهو النبي ، ويمثل لذلك بيئة خاصة في عقيدتها ولغتها وعاداتها واتجاهها في الحياة ، وهي البيئة العربية في الجزيرة العربية) • ثم يستشهد البهي بفقرات من كلام المؤلف ، غير أنه ينتهي الى هذه النتيجة (وإذن فالقرآن بعبارة أخرى ، دين محلي ، لا إنساني عالمي ، قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها • قال به صاحبه تحت التأثير بحياته التي عاشها وعاش فيها ، ولذلك يعبر تعبيرا صادقا عن هذه الحياة • أما أنه يمثل غير الحياة العربية ، أو يرسم هدفا عاما للانسانية في ذاتها ، فليس ذلك الكتاب • إنه دين بشري ، وليس وحيا إلهيا ، قاله صاحبه لقوممعينين ، ولذلك تجاوبوا ، أو قاموا ضده • ولو أن صاحبه قاله في جماعة أخرى لما حفل به أحد ، لأن ما يقوله فيه لايتصل عندئذ بحياة الجماعة الأخرى في قليل أو كثير •

فالقرآن مؤلف ، ومؤلفه (نبيه محمد ، ويمتاز تأليفه بأنه يمثل حياة

---

١ ـ في الأدب الجاهلي ص ٦٦
٢ ـ تحت راية القرآن ص ١١٤

العرب المحدودة في شبه جزيرة العرب ، في اتجاهات حياتها المختلفة : السياسية والاقتصادية والدينية) [1] .

هذه النتيجة التي استخلصها الدكتور البهي هي التي راودت الرافعي وخاف من خطرها ، فحاربها وثبت طويلا يحاربها ، إلى أن كشفها كشفا واضحا ، وأيده في رأيه جلة من كبار العلماء ، أمثال محمد الخضر الذي ألف كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ، ومحمد فريد وجدي صاحب كتاب (نقد كتاب الشعر الجاهلي) ، ثم أتى بعدهما مؤلفون ونقاد وكتاب ...

على السفود

ألف الرافعي هذا الكتاب في نقد العقاد خاصة ، وأصله مجموع مقالات ، كان نشرها في مجلة العصور سنة ١٩٢٩ ــ ١٩٣٠ دون أن يذكر اسمه ، وكذلك فعل بالكتاب . والسبب في ذلك يرجع الى أمرين : أحدهما أن العقاد كان يتمتع بسمعة طيبة لدى عامة الشعب ، إذ كان كاتب الوفد ، وحزب الوفد آنذاك ، هو الأمة في نظر الشعب ، فكل من هاجم العقاد ، أو حاول ان ينال منه ، فقد عارض إرادة الأمة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد كانت الحكومة القائمة آنذاك وفدية ، وفي هذا المعنى قال الرافعي : (سيصدر الكتاب وليس عليه اسمي ، مراعاة للظروف الحكومية الحاضرة)[2] . والسبب الثاني أن النقد كان من النوع العاطفي ، وهذا النوع قد يسيء الى الرافعي من جميع القراء حتى الأصدقاء الذين خصهم بالود .

والمعروف عن الرافعي أن له نوعين من النقد ، أحدهما موضوعي ، والثاني عاطفي . يستعمل الأول في الموضوعات الدراسية التي أساسها البحث والتحقيق ، وهو منبث في سائر كتبه ، وخاصة كتبه اللغوية : تاريخ آداب العرب بجزئيه الأول والثالث وإعجاز القرآن . ويستعمل النوع الثاني في أربع مناسبات :

---

١ ــ الفكر الاسلامي الحديث ص ٢١٤
٢ ــ رسائل الرافعي ص ١٦٥

١ ــ المناورات الأدبية ليحقق شهرة كما كان يفعل حين كان أديبا ناشئا يكتب المقال دون أن يذكر اسمه[1] .

٢ ــ العناد ، ليقلل من قيمة خصمه كما في موضوعنا هذا .

٣ ــ المجاملة ، يداري صديقاً في بعض المواقف الأدبية الحرجة ، كأن يطلب منه مقال لمقدمة كتاب أو تقريظ ديوان ، والرافعي لا يؤمن الايمان كله بما جاء في الديوان أو الكتاب . ففي هذه الحالة ، يعمد الى التعميم أولا ، كأن يتحدث عن الموضوع من حيث هو موضوع عام ، ثم أخيرا يقول كلمة قصيرة عن المؤلف ، وبذلك يخرج من المأزق الذي هو فيه ، وقد أرضى الصديق وأنصف الحقيقة [2] .

٤ ــ النبز ، وهو في هذا النوع لا يبتغي شهرة ، وإنما لينال من صاحبه ، كأن يكتب مقالا عن خصمه دون أن يذكر اسم خصمه ، وقد أشار اليه أو عرفه ببعض آرائه وخصائصه ، كما فعل مرة مع أديب ناشىء كان يكتب مقالات أدبية في (الجريدة) التي هي لسان الجامعة المصرية آنذاك ، فكتب عنه الرافعي مقالا في إحدى المجلات ، وقال عنه بعد أن مضى عليه أربع عشرة سنة (كنت كتبت عن طه حسين في مجلة الزهور في سنة ١٩١٢ فصلا بليغا ، لم أذكر فيه اسمه)[3] .

والسبب كما يبدو من المقارنات التاريخية ، أن طه حسين وهو طالب بالجامعة المصرية آنذاك ، كتب في تلك السنة كلمة في الجريدة أشهد الله أنه لم يفهم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب الذي ألفه الرافعي[4] .

---

١ ــ انظر مجلة الثريا يناير ١٩٠٥
٢ ــ انظر مقدمة كتاب امير الشعراء لمحمد صالح سمك . وقد نقله العريان الى وحي القلم ج ٣ ص ٤١٥
٣ ــ انظر رسائل الرافعي ص ١٢٤
٤ ــ انظر حياة الرافعي ص ٦٨

لا شك أن هذه الكلمة قد أثرت في نفس الرافعي ، ولذلك رد عليه بطريقة خاصة ، لأنه يخشى إن هو صرح باسمه وهو في بداية الطريق ، أن تتعقد الأمور ، فيصبح منتقدا أكثر من ذي قبل . أما الباعث الحقيقي الذي دفع بالرافعي الى تأليف هذا الكتاب ، فمبهم غير واضح ، ذلك آن آراءه التي وردت في ذلك متضاربة فمرة يقول : (إن العقاد في رأي نفسه ورأي كثيرين[1] هو جبار الكتابة ، فنحن نريد أن نضع أنف هذا الجبار في الارض مقدار ساعتين على الأقل ، لأنه لم يتجرأ عليه أحد الى الآن ، والذين كتبوا عنه ، لم ينالوا منه نيلا)[2] . ومرة يقول : إن صاحب مجلة العصور اقترح أن يوضع العقاد في السفود (فوضع في سفود ... يظهرفي أول يوليه[3] تتبعه سفافيدأخرى[4] . وقد روي عنه قول آخر ، وهو أن السبب كان غضبة لله وللقرآن[5] ، لأن العقاد كان له رأي خاص في القرآن وإعجازه[6] . وهذا ما نستبعده لأنا لم نجدما يثبت أن العقاد انحرف يوما عن الآراء الصائبة في القرآن وإعجازه . والذي بين أيدينا ، أن العقاد قال كلمة في الكتاب ، وفي منهج الرافعي فيه ، ولم يقل كلمة تمس القرآن أو إعجازه . غير أن الكلمة التي قالها العقاد في الكتاب ، وطريقة الرافعي فيه ، كانت قاسية على الرافعي ، لأنها جردته من كل ما يتصف به الباحث المحقق ، ما عدا اللغة والنية الحسنة . لقد ذكرت كلمة العقاد عند الحديث عن كتاب الاعجاز[7] .

---

١ ــ انظر العقاد دراسة ص ١٧٦

٢ ــ رسائل الرافعي ص ١٦٠

٣ ــ سنة ١٩٢٩

٤ ــ رسائل الرافعي ص ١٥٩

٥ ــ حياة الرافعي ص ١٩٠

٦ ــ حياة الرافعي ص ١٨٥

٧ ــ انظر ص ٥٢ من هذه الصفحات والبلاغ الاسبوعي ٣ ديسمبر ١٩٢٦

مما تقدم من الآراء ، نذكر أن السبب الذي دفع بالرافعي الى تأليف هذا الكتاب ، وبهذا النوع العاطفي من النقد ، كان ذاتيا[1] . ويؤكد هذا الرأي قول صدر من الرافعي نفسه ، فقد كتب مقالا في مجلة العصور لم يذكر فيه شيئا عن ايمان العقاد بالقرآن وإعجازه ، وكل ماذكره أن حديثا دار بينهما حول الكتاب انتهى الى ما يدل على حسد العقاد ، وخاصة بعد أن عرف أن سعد زغلول قال فيه (كأنه تنزيل من التنزيل) .

قال الرافعي : لقد رأى العقاد (سعد زغلول نابغة دنياه ودهره، يقرظ كتاب إعجاز القرآن ، فيقول يصف بلاغته وبيانه كأنه تنزيل من التنزيل ، وينشر تقريظ سعد في كل الصحف وهو حي بعد في سنة ١٩٢٧[2] فيجن العقاد ، ويتهم صاحب الكتاب ... بأنه زور تقريظ سعد[3] .

وشبيه بهذا المعنى ما رواه محمد سعيد العريان قال : (حدثني الرافعي قال سعيت لدار المقتطف لأمر ، فوافقت العقاد هناك ، ولكنه لقيني بوجه غير الذي يلقاني به ، فاعتذرت من ذلك الى نفسي بما ألهمتني نفسي ، وجلسنا نتحدث ، وسألته الرأي في إعجاز القرآن ، فكأنما ألقيت حجرا في ماء آسن[4] . ويخيل إلي أن الأسباب كثيرة ، متشابكة ومتداخلة ، بعضها حديث وهو الذي قدمت ، وبعضها قديم يرجع تاريخه الى سنة ١٩٢١ حين كتب العقاد كلمة في شوقي ، ينتقد نشيده ، فكان أن وجدها الرافعي فرصة سانحة لينال من شوقي ، فحذا حذو العقاد . وهنا ثارت ثائرة العقاد ، فتصدى للرافعي يهاجمه قال (تحت عنوان : ماهذا يا أبا عمرو : مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيق الفكر ، مدرع الوجه ، يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيانا ... ثم يقول

١ ـ انظر التيارات المعاصرة ص ٥٦ وما بعدها
٢ ـ مات في ١٩٢٧/٨/٢٣
٣ ـ مجلة العصور ديسمبر ١٩٢٩ ص ٣٥
٤ ـ حياة الرافعي ص ١٨٥

في آخر الكلمة : إيه يا خفافيش الأدب ، أغثيتم نفوسنا ، أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم : السوط . السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت ، وسنفرغ لكم أيها الثقلان ، فأكثروا من مساوئكم ، فإنكم بهذه المساوىء تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم ، إن كانت لكم حسنة يحسبها الأدب والحقيقة)[1] .

ترى ما الذي هيج العقاد وجعله يهاجم الرافعي هذه المهاجمة ، ويصبح في صف شوقي بعد أن كان ضده ؟ يقول الرافعي : إن (العقاد والمازني سيصدران رسالة اسمها الديوان ، وهي كما يقولان لهدم شوقي فقط . وقد طلبا صورة النقد الذي سأكتبه ، وقالا : إن شوقي عرض عليهما ٢٠٠ جنيه ليكفا عن نشرها فلم يقبلا ، وأمر هذه الرسالة شائع في مصر)[2] . ونلاحظ أن كلمة الرافعي هذه مؤرخة في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٠ وهجوم العقاد على الرافعي كان في شهر فبراير ١٩٢١ . ومعنى هذا أن كلمة الرافعي صحيحة لا غبار عليها في بعض جوانبها[3] ، وهو ما أثبته الواقع فعلا . فقد أنشئت هذه الرسالة باسم الديوان ، يكتب فيها كل من العقاد والمازني ، وفيها من الطعنات على شوقي الشيء الكثير .

وبقيت مسألة عرض المبلغ ورفضه ، فهذه مسألة ليس فيها من غرابة ، فشوقي ثري لا يبالي ببذل المال[4] في سبيل صيانة أدبه وسمعته ، والأستاذان العقاد والمازني أرفع من أن يقبلا شيئا زائلاً ليكفا عن تأدية رسالتهما الأدبية . وآية ذلك أنهما استمرار في تأدية رسالتهما الى نهايتها ، دون أن يعلق بهما أو بأحدهما ما يسيء الى شرف العلم . وإذن فلماذا ينتقم العقاد من الرافعي لشوقي دون أي مقابل ؟

---

١ ــ الديوان ج ٢ ص ٧٩
٢ ــ رسائل الرافعي ص ٧١
٣ ــ انظر التيارات المعاصرة ص ٧٦ وما بعدها
٤ ــ انظر اثني عشر عاما ... ص ٧١ ــ ٧٥

قلت : إن العقاد يفهم معنى رسالته الأدبية ويسعى فيتأديتها على أكمل وجه دون طمع في عرض الدنيا ، وأقول : إن العقاد بحكم رسالته ومبادئه التي يؤمن بها كان يقارن بين الرافعي وشوقي ، فرأى شخصين مختلفين في القوة والضعف، فأراد أن ينتصف للضعيف من القوي .

فشوقي إن يكن قويا في الشعر ويستطيع أن ينظم أبياتا في نقد الرافعي أو هجوه ، فإن همته أعلى من أن ترضى بالهجو[1] . ثم إن عصر الهجاء قد مضى ، وحل محله النقد ، وشوقي لا يقدر على النقد ولا يستطيع أن يقف في وجه الرافعي دقيقة واحدة .

نظر العقاد الى شوقي هذه النظرة ، ونظر الى الرافعي نظرة أخرى ، فإذا هو يرى عملاقا في كل شيء ، عملاقا في العلم ، في الجرأة ، في النقد ، فشعر العقاد بحكم رسالته التي آمن بها أن الخير كل الخير أن يضع لكل شيء حدا ، فانتضى قلمه وهاجم الرافعي تلك المهاجمة ، لا لأنه يريد الهجوم ، أو أنه يريد أن يرضي شوقي ، وإنما لينصف الحقيقة ويرضي ضميره ، ويقول للملأ : انظروا إن هذا العملاق الكبير الذي يسمى الرافعي قد وقفت في وجهه ، وها هو كما ترون حيث وضع نفسه ، أو حيث منزلته الثقافية . وانظروا الى سفح الجبل ثم انظروا الى أعاليه ، إنه هناك في الوادي واني هاهنا في القمة كما تشاهدون . ويؤيدني فيهذه النظرية أن العقاد استمر في نقد شوقي بعد مهاجمته الرافعي .

ومن كل ما قدمت نستطيع أن نقول : إن الرافعي لم يكتب مقالاته (على السفود) إلا بمجموع هذه الأسباب ، وإن كان بعضهما أقوى من بعض ، وهو ما يتصل بأدبه وأبحاثه . وهناك سبب آخر ذكره أحد المؤلفين ، وأرى أن أثبته

---

١ ــ قال ابن رشد في مقارنة بين ذوي الطبع الشريف وغيره : (إن النفوس التي هي فاضلة وشريفة بالطبع هي التي تنشىء أولا صناعة المديح .. والنفوس التي هي أخس من هذه ، هي التي تنشىء صناعة الهجاء) (أرسطو طاليس ــ فن الشعر ص ٢٠٧)

لأنفيه ، لأنه لا يدل إلا على شيء واحد هو أن المؤلف كان يسارع الخطى ليسابق الزمن ويخرج للقراء موسوعة أدبية ضخمة تحمل أفكار قرن كامل • وبسبب هذه السرعة وهذا الحشد ، جاءت الموسوعة مملوءة بالأغلاط التي لا مبرر لها من نحوية وصرفية ومطبعية ، بل حتى الأغلاط التاريخية كهذه التي تتعلق بما نحن بسبيله •

يقول المؤلف أنور الجندي في كتابه الكبير « النثر العربي المعاصر في مائة عام » : (ويرى بعض النقاد ، أن الصراع بين الرافعي والعقاد ، يرجع بعضه الى موقف من مواقف صالون « مي » عندما أحس بأن الكاتبة تجاهلته حين شغلت بالحديث الى العقاد ، فانصرف غاضبا وأرسل خطاب القطيعة ، وانتقم لكبريائه بأسلوب النقد في مهاجمته للعقاد)[1] •

من أين استقى المؤلف هذا الرأي ؟ استقاه من كتاب (حياة الرافعي) للأستاذ العريان ، فالمعاني متشابهة هنا وهناك ، ثم إني أكاد أجزم بأن لا مصدر إطلاقا في سبب القطيعة بين الرافعي ومي إلا ما أثبته العريان • وإذن هل ما نقله أنور من كتاب العريان كان صحيحا أم خطأ ؟

لنقرأ للعريان هاتين الجملتين : (وراح الرافعي يوما الى ميعاده وكان في مجلسها شاعر[2] • لننظر الى أسفل الصفحة حيث التعليق لنعرف من هو ذاك الشاعر « هو المرحوم إسماعيل صبري » • ثم لننظر مرة أخرى الى جميع طبعات الكتاب لعلها تختلف في التعليق • إنها جميعها متفقة باستثناء الطبعة الأولى فقد جاءت غفلا من التعليق • وإني أعتقد أن الباحث الحقيقي هو الذي يغوص في الأغوار البعيدة ، لا الذي يغرف من فوق ، لأني فيما أعلم ، أن اللآلىء والدرر إنما هي في الأعماق ، وعلى سطح الماء الخز والطحلب وقشة الغريق • واذن فلم يبق لرأي الأستاذ أنور أي قيمة تاريخية ، ولذلك يمكن

---

١ ــ النثر العربي المعاصر ص ٤٥٨

٢ ــ حياة الرافعي ص ١٠٢

لنا أن نقول : إن رأيه ولد ليموت •

أجمع الباحثون على أن أسلوب على السفود كان آية في النقد اللغوي ، يدل على سعة الاطلاع وعمق التفكير ، إلا أنهم يعيبون ما جاء فيه من هجر القول ، وبذيء اللفظ ، وكان رأيهم أن تحذف مثل هذه الألفاظ حتى لا تمس شرف العلم • قال أبو رية (كان رأيي أن هذه المقالات على ما فيها من نقد أدبي ــ لا يستطيع غير الرافعي أن يأتي به ــ تحمل بعض عبارات شديدة ، كان يجمل بمثل قلم الرافعي أن لا يجري بها ، وكان ــ رحمه الله ــ قد اقتنع بما رأينا ، ووعد بحذف هذه العبارات عندما يعيد طبع هذه المقالات)[1] •

ومثل هذا ما أثبته العريان ، إذ قال : (والحق الذي أعتقده ، أن في هذا الكتاب ــ على ما فيه ــ نموذجا في النقد ، يدل على نفاذ الفكر ، ودقة النظر ، وسعة الاحاطة ، وقوة البصر بالعربية وأساليبها ، ولكن فيه مع ذلك شيئا خليقا بأن يطمس ما فيه من معالم الجمال ، فلا يبدو منه إلا أدم الصور ، وأقبح الألوان ، بما فيه من هجر القول ومر الهجاء ••• وقال : ولقد هم الرافعي منذ سنوات أن يجمع كل ما كتب في النقد بعد كتاب « المعركة » في كتاب واحد ، فأبديت له الرأي أن يضم الى هذا المجموع مقالات « على السفود » ، بعد أن يجردها مما يعيبها حرصا على مافيها من الفن ، فارتاح لهذا الرأي واطمأن اليه ، ولكنه لم يفعل ، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته)[2] •

وللرافعي مادتان في النقد ، إحداهما خاصة بطبيعة العقاد وتفكيره ، من دعوى التفلسف ، وابتكار النظريات ، وما الى ذلك مما يدخل في باب الغرور • والثانية تتعلق بمؤلفاته ، وما جاء فيها من أخطاء لغوية أو فكرية • وسنذكر نماذج من كل طريقة •

الاولى :

قال الرافعي : (أي والله لو أن ذبابة من الذباب ، سخط الله عليها فابتلاها

١ ــ رسائل الاحزان ص ١٦٣
٢ ــ حياة الرافعي ص ١٩٢

بمثل ما ابتلي به العقاد الشاعر الفيلسوف ••• من الغرور ودعوى الغرور••• لذهبت في قومها تزعم أنها من طراز زبلن ، وأنها في قدره وقوته ، ولا أقل من أن يكون زبلن هذا عمها أو ابن عمها ، وإلا فهو ذبابة من ذباب ماوراء الطبيعة ، جاءت خاصة لترى فيها هي ذبابة الطبيعة ، فكلاهما عظيم وكلاهما جبار قوة وذهن •

قالوا وتغيب الذبابة المأفونة سحابة من نهار ، ويراها الذباب قاطبة مختبئة في روث دابة ، ثم تقذف بنفسها في الجو عالية ، ثم تكسر [1] ، ثم تنقض ، ثم تدور ، ثم تهبط ، ثم تقر على الأرض فيقلن لها : أين كنت ؟ لا كنت ويحك ! قالوا فتجيبهن أنها كانت مع المنطاد زبلن ، وكانا معا في رحلة حول الارض ، وكاد زبلن المسكين يتحطم في العاصفة لولا أنها ضربت حوله بجاحيها ضربات دفعت له الهواء دفعا أقوى من العاصفة • فبضربة ترفعه من حيث يتكفأ[2] ، وبضربة تمسكه من حيث يميل ، وبضربة تخلق تحته طبقة زاخرة في الجو ، وهكذا لدماً ولكما ولطما في صدر العاصفة وعلى وجهها وقفاها الى أن ولت هاربة ، فتركت زبلن فنجا وما كاد ينجو)[3] •

وبعد هذا النمط من الأسلوب الساخر الذي جعله مقدمة لما بعده ، ينتقل الى أخوات الذبابة فيجعل منهما حَكَماً ليقُلْنَ كلمتهن في أختهن المغرورة •

يقول : (قالوا وتضحك الذباب وتعلن لها : أيتها المأفونة ، لو قلت أنك عصفورة من عصافير الفردوس ، دافعت أمام عرش الله عن آدم وحواء ، فطردت معهما الى الأرض ، لكان ذلك أشبه بالصدق من دعواك أنك من طراز زبلن ، وتساميك في الدعوى الى الرحلة معه حول الأرض ، وتناهيك في السمو الى

---

١ ــ تضم جناحيها
٢ ــ يميـل
٣ ــ على السفود ص ١٠٢

الدفاع عنه في أجواز الفضاء ، وتألهك آخرا في ضربك العاصفة وهزيمتها بجناحيك ، على أن هذا كله منك ، وأنت بأعيننا مختبئة في هذه الرمثة[١] ، من هذه البهيمة في هذه المزبلة ، ساعة وخمسا وأربعين دقيقة ••• أفي روث دابة زبلن ؟ وسماء وعاصفة وطواف حول الأرض ؟)[٢] •

ثم يتجه الى القراء ، وكأنه بما بسط من الكلام لم يدع مجالا للشك ، فيقول : (هذا وحقك يا سيدي القارىء ، هو مثل العقاد ، لو أفصحت الحقيقة عن نوع غروره وحماقته ، ومقدارهما في الأدب والفلسفة والكتابة والشعر • فلقد كاد يقول للمغفلين أمثاله ، وللمخدوعين فيه : ابحثوا فيّ عن الاله ، بل ما أراه إلا ادعاها في هذيانه الذي قال فيه :

والشعـــر من نفس الرحمن مقتبس   والشاعر الفذ بين الناس رحمن[٣]

وتكاد طريقته في شخص العقاد أن لا تخرج على هذه الانماط من الأساليب• حديث تمثيلي أبطاله الحيوانات أو الحشرات أو الجمادات ، إقرار للحقائق على ضوء أبطال التمثيل ، احتكام الى القراء ، ثم رأيه بعد ذلك مستدلا عليه بما يصطاده من عثرات العقاد أو ما يجعله الرافعي عثرات •

الثانيــة :

نذكر في هذه الطريقة التي تنصب على مؤلفات العقاد نموذجين من نقد الرافعي ، أحدهما في آراء العقاد الفلسفية ، والثاني في أبيات من شعره •

ترجم العقاد في مراجعته رأيا لشوبنهور في تعريف الجمال ، ثم ناقشه مناقشة مستفيضة ، انتهى به الأمر أخيرا الى رأي خاص به ، مخالف لرأي شوبنهور

---

١ ـ الرمثة : بقية من حليب في الضرع بعد الحلب . والرافعي يعني معناه المجازي الذي هو الروثة

٢ ـ على السفود ص ١٠٢

٣ ـ المصدر نفسه

يرى شوبنهور أن الجمال في الحرية ، لأنه ناتج عن الارادة • والارادة حرة ودليله تفاوت النفوس والأفكار في تذوقه •

قال الرافعي : إني أستبعد أن يكون شوبنهور بهذه الغفلة ، فكيف يقول : أن الجمال يحدث سرورا بلا سبب ولا منفعة ؟ ثم قال : أغلب الظن أن الذي أخطأ التقدير هو العقاد • وطالب العقاد وأمثاله بالتزام الأمانة العلمية في كل ما تطلبه من شروط ، وفي مقدمتها الرجوع بالنص الى أصله ترجمة أو نقلا • فقال : (نريد من العقاد وأمثاله إذا ترجموا أنيقولوا ترجمنا ، وأن يأتوا بالكلام المنقول على نصه ليفهم منه كل قارىء على ما يفتح له ، ولكن العقاد على أنه مترجم يأبى أن يكون مترجما ، فيأخذ ما يريد أن يأخذ ، ويدع ما يستحسن أن يدعه لا من حكمة وفائدة ، بل على ما تتجه اليه خطته في السرقة والإغارة على الناس ، وانتحال آرائهم وأفكارهم • وكل كتبه مشحونة بمثل هذا ، فأنت تجد فيها كل كاتب أو شاعر فيلسوف أنجليزي ، ومن كل ما نقل الى الانجليزية على أنه للعقاد لا لأصحابه ، فإن جاء منه شيء معزوا لصاحبه ، جاء خليطا كما رأيت في كلام شوبنهور • تستطيع أن تنقضه وترده بأيسر التمحيص، لأنه على قدر فهم العقاد ، لا على ما وضعه قائله أو كاتبه • وليس هذا وحده بل مع فهم العقاد وشعوذته على القراء ، وسوء قصده من الغرور ••• فالأمر كما ترىأشبه برقيع يدعي النبوة والوحي ، ويعمل على أنه نبي ••• فكل ما جاء عاليا لم يجيء بطبيعته وطبيعة عمله إلا سافلا •••

بعد هذا الكلام الطويل ينتهي الرافعي الى عدم الثقة إطلاقا فيما صدر عن العقاد في فلسفة شوبنهور السابقة • يقول الرافعي معللا كلامه : (ولأجل هذا فنحن لا نثق أن ترجمة العقاد عن شوبنهور هـي نص معاني شوبنهور على اغراضها وسياقها ، فلا نتعرض لهذه الآراء ولا نقول في تفسيرها ، وإنما نذهب

---

١ ـ انظر مراجعات العقاد ص ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨

الى ما نظنه الأصل في غرض الفيلسوف مجملا غير مفصل ، وخاصا بالجمال دون ما تفرع من هذا الأصل •

يقول الرافعي بعد هذا : (والرأي الفلسفي الصحيح ، أن الحواس الانسانية لا تستطيع أن تحكم على الأشياء في ذواتها وحقائقها ، ولا أن تتبين ما هي في كنه أنفسها ، فليس فينا إلا نسبة هذه الأشياء إلينا ، كمادة تلائم مادة أو تقاربها ، أو تداخلها • أما فكرة الشيء في ذات نفسه ، كما هو في كنهه • وأننا نحزن ونكتئب لمنظر المادة الجامدة ، إذ لا تقاوم الجذب ، ونسر لمنظر النبات اذ يقاومه ولا ينقاد إلا على الخلاف ، فهذا كله تخليط)[1] •

وجاء في مراجعات العقاد على رأي شوبنهور (أن الحزن الذي تبعثه المادة غير العضوية في نفوسنا آت من أن هذه المادة تطيع قانون الجذب طاعة تامة ، في حيث تتجه الأشياء • أما النبات ، فإن منظره يشرح صدورنا ، ويسرنا سرورا كبيرا يزداد في نفوسنا كلما ترك وشأنه وسبب ذلك أن قانون الجذب يبدو لنا كالمعطل في عالم النبات ، لأنه يتجه الى خلاف الجهة التي يجذبه اليها ذلك القانون •

ويقول : والى هنا يسبق الى ظنك ، أن شوبنهور سيخلص من هذا القول الى نتيجته القريبة فيقول : إن الأشياء تحزننا بما فيها من معاني الخضوع وتفرحنا بما فيها من معاني الحرية ، أو أنها تحزننا كلما قل نصيبها من الارادة، وتفرحنا كلما عظم نصيبها من هذه الصفة ، ولكنه يدع هذه النتيجة القريبة الى تنيجة أخرى لا تؤدي اليها ، هي: أن الأشياء تحزننا كلما ابتعدت عن عالم الفكرة واقتربت من عالم الفكرة ، فيمشي مع الحرية شوطا بعيدا في وسط الطريق ، ولكنه يفترق عنها في مبدئه ومنتهاه)[2] •

والعقاد أثبت في الموضوع نفسه ما يمكن أن يكون توضيحا للمعنيين اللذين

---

١ ــ العصور ديسمبر ١٩٢٩ ــ ص ٣٩
٢ ــ مراجعات العقاد ص ٧٩

طلبهما الرافعي ، فقال عن المعنى الأول : إنه رأي ارتآه شوبنهور ، إذ هو يعتقد أن (لا شيء من المحسوسات إلا له فكرة مكنونة ، ولكنها تقبض الصدر ، وتثقل على الطبع ، لأنها تمثل الركود والتجرد من الارادة والحرمان من الحرية ، والخضوع المطلق للقانون والضرورة)[1] .

وقال عن المعنى الثاني : (تلك خلاصة وجيزة جدا من رأي شوبنهور في معنى الجمال ، تطلع القارىء على مجمل فلسفته في هذا الباب ، ولا تغنيه عن الرجوع الى مطولاته)[2] .

علق الرافعي كما سبق أن ذكرت على هذا الرأي بأنه تخليط وقبل ذلك قال : نريد من العقاد أن يقول كلمة صريحة فيما ترجم أو ارتأى ، حتى نكون على بينة من الأمر .

وما أثبته العقاد لشوبنهور ، هو نفسه الذي أثبته غير واحد ممن كتب عن شوبنهور ، أمثال الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وأندريه كريسون ، والدكتور أحمد معوض .

كتب هؤلاء الثلاثة عن شوبنهور ، وكل منهم بطريقته الخاصة ، إلا أنهم جميعا اتفقوا على النقط الرئيسية التي انتهى اليها العقاد ، من أن شوبنهور من الفلاسفة المتشائمين ، ومن أن آراءه تخالف أو تناقض آراء الفلاسفة الآخرين ، ومنهم كانط نفسه الذي يعتده شوبنهور حلقة الاتصال بينه وبين أفلاطون ، إذ نظر اليه والى (ما خلفه من آراء وراح يدرسها بدقة ، وانتهى الى أن كانط إنما هو الحلقة الثانية من السلسلة الثلاثية التي كان أولها أفلاطون ،

---

١ ــ مراجعات العقاد ص ٧٩

٢ ــ المصدر السابق ص ٩٦

وثانيها كانط ، وثالثها ومكملها هو شوبنهور نفسه)[1] •

والرافعي يعرف أن الاختلاف بين الفلاسفة أمر مسلم به ، لا يحتاج الى مناقشة ، ولكنه أراد أن يقذف بمعلوماته الفلسفية الى الآخرين ، وفي ذلك إعلان عن نفسه ، ثم يكون في نفس الوقت قد نال من خصمه العقاد • ومثل هذا تماما ما نراه في نقده اللغوي •

النقـد اللغوي :

قد يكون الرافعي في هذا النقد اللغوي أقرب قليلا الى الحقيقة من الموضوع السابق ذلك أنه يعطينا فكرة أوسع في اللغة ، وإن كانت لا تؤخذ على علاتها في البحث • إن المعاني التي يذكرها العقاد في شعره ، قد تكون نابعة من وجدانه ، وتعبيرا عن شعوره ، ومن ثم فهي له ولكن الرافعي يتتبعها ، ويتقصاها ، حتى يجد لها مثيلا في الأدب العربي القديم ، فينقله على طريقة الاقدمين ، بدعوى أن العقاد احتذاه ونهج نهجه ، أو سلخه ، أو اختلسه ، أو ما شاكل ذلك من تلك المصطلحات المقررة في النقد الأدبي عن الشعر العربي • ومن ذلك رأيه في هذه الأبيات التي نقلها من ديوان العقاد •

صفـــه فـــي كســـاء　　صفه في كل الجهـــات
هـــو في الروضـــة إذ　　يمشي أحب الزهرات
وهـــو في القفر رياض　　من هوى لا من نبات
تـــم والله فيـــاليـــــت بـــه بعض الهنات
تـــم حتـــى أتعـــب العـــــين بفـــرط الحسنات

---

١ ــ أضواء على شوبنهور من ١٥٠ وانظر ماهية الجمال ١٦٨ في كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي (شوبنهور) من سلسلة الفكر الاوربي ومبحث الارادة ص ١١٦ ، وفلسفة شوبنهور ص ٤٢ من كتاب شوبنهور لاندريه كريسون ترجمة أحمد كوى .

قال الرافعي : إن هذه الأبيات من أحسن شعر العقاد ، ولكن لا تنخدع وفتش وانظر كيف يجيء بأسخف توليد في البيت الذي أحسنها •

نقول : (صفه في كل كساء) حتى في كساء شحاذ قذر ؟ حتى في كفن ميت ؟ حتى في ثوب مصاب بالجذام أيا حبيب ••• لاتقابله إلا وفي يدك كرباج سوداني « صفة في كل الجهات » حتى في القبر • أيا حبيب ••• الكرباج والبيت الثاني من قول القائل •

تظنــه الروضــة إما مشى   في أرضها أجمل أزهارها

وقلّب ابن المهدي هذا المعنى فجاء به طريفا ، إذ جعل الحبيبة تغني عن الروضة كلها فقال :

خلتها في المعصفرات القواني[1]   وردة من شقائق النعمــان
أنت تفاحتي ، وفيــك من التفـــاح رمانتان في غصن بان
وإذا كنت لي وفيك الذي أهـــوى فما حاجتي الى البستان

يقول الرافعي : وأثقل شعر على النفس جعل العقاد حبيبه (في القفر) رياضا من هوى لا من نبات •

أهذا مما يجعل للحبيب قيمة في القفر ولو قيمة ••• عود نبات يابس •

يقول الرافعي ••• وتشبيه الحبيب بالروضه كثير ، ولكن لم يقل أحد روضة هوى في قفر غير العقاد •

وتسائل الرافعي عن هذا البيت :

(تم والله ، فياليت به بعض الهنات)

هل في الدنيا حبيب يقبل من محبه أن يقول له : ياليت بك العيوب ؟ وفسر

---

١ ــ القواني : الحمر

الهنات بالعيوب الطفيفة . فما هي العيوب الطفيفة التي يتمناها هذا ... في حبيبه وخلقته وجماله ؟)[1] .

لا أحد من المنصفين ينكر علم الرافعي بفنون الشعر ومحاسنه ودقائقه ، وهو من هو في شعر المعاني[2] ولذلك يمكن أن نقول : إن الرافعي في قرارة نفسه يدرك الادراك كله أن قول العقاد : (تم والله ، فياليت به بعض الهنات) قول صحيح لا غبار عليه ، وقد جاء في كلام الأقدمين ، ومنهم المجنون ، وقد سألته نسوة ما الذي أعجبه في ليلاه فقال : (كل شيء رأيته وشاهدته وسمعته منها أعجبني . والله ما رأيت شيئا منها قط ، إلا كان في عيني حسنا وبقلبي علقا، ولقد جهدت أن يقبح منها عندي شيء ، أو يسمج أو يعاب ، لأسلو عنها ، فلم أجـده)[3] .

ما من شك في أن الرافعي اطلع على ما قيـل عن المجنون شعرا ونثرا ، وخاصة كتاب الأغاني ، ولكنه أنكر على العقاد جمال البيت لما قدمت من أن النقد كان من النوع العاطفي .

غير أن هذين النوعين من النقد يدلان على أن الرافعي كان يشعر بينه وبين نفسه بأن له ثروة غزيرة في مادة الفلسفة ، لا تقل عن ثروته اللغوية ، فأراد أن يعلن عنها ، فرأى أن أحسن وسيلة الى ذلك أن يزاحم العقاد في المـادة التي اشتهر بها وهي الفلسفة .

ويتجلى هذا في أسلوبه الساخر الباسم الذي يكثر فيه من الألفاظ العامية المتداولة والألفاظ الأعجمية والصيغ التهكمية ، من ذلك تعليقـه على بيتين أنشأهما العقاد في حبيبه هما :

---

١ ـ على السفود ص ٩٦ ـ العصور ديسمبر ١٩٢٩ ص ٤٤

٢ ـ في الادب الحديث ج ٢ ص ٢٣٢

٣ ـ الاغاني ج٢ ص ٢٠ وديوان مجنون ليلى ص ١٢

يا ليت لـــي ألف قلـــب　　　تغنيك عـــن كل قلب
وليت لـــي ألف عـــين　　　تراك من كل صـــوب

يقول الرافعي في تعليقه على البيت الأول : (إن لِحَبيبِ العقاد ألف عاشق، فاذا كان لا بد له من ألف عاشق ، ولا يقنع إلا بألف ، فالعقاد يتمنى أن يكون له ألف قلب ليقوم وحده مقام الألف ... ثم يريد أن يكون له أيضا ألف عين لينظره من ألف جهة ، فاذا صح أن الحبيب ... يجد له ألف قلب تحبه ، فهل يصح في العقل ، أن الجهات ألف ؟ أم يظن العقاد أن تخرج عينه وتجري وراء الحبيب . فاذا كان هذا الحبيب في حلوان ثم رجع الى القاهرة ... ثم مر في كل الشوارع ، خرجـت عيون ... تجري وأرسلت اليه النظرة بطريقـة لاسلكية ، فيكون حيث هو ملقى ، ومع ذلك يرى حبيبه في كل مكان)[1] .

لو قارنا هذا المعنى الساخر الأخير الذي ذكره الرافعي ، بمعنى ساخر آخر ذكره العقاد في نقد شوقي في رثائه محمد فريد[2] لرأينا الرافعي يقلد العقاد في الطريقة تقليدا واضحا ، فنتساءل عن السبب ، فلا نجد إلا جوابا واحدا ، هو أن الرافعي بطريقته التقليدية هذه ، يكون قد عارض العقاد بالنثر ، كما كان يعارض الشاعر بالنظم ، ليقول للعقاد : إنك انتقدتني في فبراير سنة ١٩٢١ حين انتقدت أنا شوقي ، فها أنذا أنتقدك في سنة ١٩٢٩ بالاسلوب الـذي استعملته أنت حينئذ مع ذلك الشاعر الضعيف المستضعف ، والذي تغلب عليه شاعريته وتغيب عنه ملكة النقد .

ولكي يتضح هذا المعنى نذكر طريقة العقاد الساخرة في نقد شوقي .
قال العقاد : (ويقول في نعش فريد ، أو حقيبة الموت كما سماه .

لو تركتم لها الزمـــام لجاءت　　　وحدها بالشهيد دار الرشاد

---

١ ــ على السفود ص ١٠٨
٢ ــ محمد فريد تزعم الحزب الوطني بعد مصطفى كامل ، ومهد لحزب الوفد ان يخطو خطوات جريئة في سبيل استقلال مصر

أما دار الرشاد ، فهي كما أرادت القافية ، لا كما أراد شوقي ، ولا كما أراد التاريخ والأثر . وأما معنى البيت . فيقول شوقي : إن نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر ، لسعى وحده الى مصر . فالله ما أقدر راثي الشموس على إحالة الجليل مضحكا ، والتقديس زراية . نعش يسعى وحده في البرور والبحار ، ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل وينعطف ويمضي ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جادا لا يلوي على شيء قبل بلوغه . والناس متنحون عن طريقه ، تاركوه يتهدى لطيته . أفمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والاجلال)[1] .

وليس من فرق بين ما قاله العقاد عن نعش ينعطف ، ويمضي ويسعى وبين ما قاله الرافعي عن عيون تجري وراء الحبيب هنا وهناك . ومعنى هذا إذن أن الرافعي يقول للعقاد : إن كنت استضعفت من لا يملك سلاحا قويا في النقد ، فها أنذا هنا أملك ذلك السلاح . وآيتي كي تفهم أني أعارضك حتى أجعلك تفهم ، وحتى يصبح كلامي لا يحتاج الى تأويل .

ودليلي على ما قدمت من أن شوقي ضعيف في النثر ، وهلوع من النقد ما أورده الرافعي في موضوعين مختلفين ، وفي زمانين متباعدين بأكثر من عشر سنين ، مما يدل على أن الرافعي كان منذ وقت بعيد يدرك ضعف شوقي في النثر ، وهلعه من النقد .

يقول الرافعي عن انزعاج شوقي من النقد : (إن المويلحي الكاتب الشهير ، انتقد في جريدته مصباح الشرق أبيات « خدعوها » عند ظهور الشوقيات في سنة ١٨٩٩ ، فارتاع شوقي ، وتحمل عليه ليمسك عن النقد ، مع أن كلام المويلحي لا يسقط ذبابة من ارتفاع نصف متر)[2] .

ويقول عن ضعف شوقي في الكتابة النثرية ، أو النقدية : (إن أجهل الناس

---

١ ـ الديوان ج١ ص ١٥ وانظر الشوقيات ج٣ ص ٥٥
٢ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٣٥٥

لايكاد يقول إن شوقي أمير الكتاب • أما في الشعر فهو حقيقة أشعر هؤلاء الموجودين بيننا)[1] •

بل ان الرافعي يرمي جميع الشعراء المعاصرين له بالضعف في الكتابةالنقدية، يقول : (ومن مصيبة الادب عندنا ، بل من أكبر أسرار ضعفه ، أن شعراءنا لاطاقة لهم بالنقد ، وأنهم يفرون منه فرارا ، ويعملون على تفاديه ، وانهم لا يحسنون غير الشعر ، فلا البارودي ، ولا صبري ، ولا حافظ ، ولا شوقي كان يحسن واحد منهم أن يدفع عن نفسه ، أو يكتب فصلا في النقد الأدبي ، أو يحقق مسألة في تاريخ الأدب)[2] •

ولا زالت بقية من الحديث للرافعي عن البيتين الأخيرين ، فقد تقصّى أخبارهما عبر العصور ، طالعاً نازلاً ، الى أن عثر على معناهما لأحد الشعراء في آخر القرن الرابع للهجرة ، فأعلن في جرأة تامة ، أنهما مسروقان من بيتي أبى علي الحاتمي وهما :

لي حبيب لو قيـل لي : ما تمنى ... ما تعديتـه ولـو بالمنـون
أشتهـي أن أحـل في كل قلب ... فأراه بلحـظ كل العيون[3]

وواضح أن العثور على هذين البيتين في المعنى الذي أقره العقاد في بيتيه ، ليدل على همة الرافعي الطّلَعَة وصبره على المعاناة والاستقصاء •

هذا وإنا لا نستبعد أن يكون الرافعي قد اطلع على هذين البيتين قبل أن ينشيء العقاد بيتيه • فلما قرأهما الرافعي تبادر الى ذهنه معناهما الاصلي ، فحققه ليضرب خصمه هذه الضربة • وآية ذلك حديثه عن معجم الأدباء قبل

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٨٢

٢ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٣٥٥

٣ ـ انظر ترجمة أبي علي الحاتمي في معجم الادباء لياقوت الحموي ج ١٨ ص ١٥٤

هذا التاريخ بنحو ثلاث عشرة سنة[1] •

(ومن هنا نعرف غزارة علم الرافعي ، وسعة اطلاعه ، ونعرف أيضا بأنه في هذا الكتاب حقق للقارىء شيئين : التسلية والفائدة ، وهما صفتان محببتان للنفس ، إذ تنشطان العقل ، ولا تبعثان على الملل والسآمة • ولعلهما السبب الحقيقي في رواج الكتاب واشتهاره ، ذلك أن النفس تميل دائما الى الهزل المشوب بالجد ، أو الجد المشوب بالهزل •

لننظر الى الرافعي مرة أخرى كيف تفنن في تصوير العقاد من خلال لفظة واحدة ، وهي السفود ، تصويرا ضاحكا ساخرا ، إذ عمد الى هـذه اللفظة يشقق منها ، ويحللها ، كأنها من المفردات اللغوية التي تحتاج الى كثير من العناية في الشرح والتمثيل • فاشتق منها اسم الفاعل ، لأنه رمز له ، واسم المفعول ، لأنه رمز لصاحبه العقاد •

يفعل ذلك لأنه كان يشعر بأن له نوعا جديدا في النقد المعاصر ، فأراد أن يعلن عنه كما أعلن الجاحظ عن نقده حين كتب رسالة التربيع والتدوير ، في أحمد بن عبد الوهاب ، فوصفه بهذا الوصف الساخر[2] •

قال الرافعي في مقدمة الكتاب : (السفود في اللغة : الحديدة التي يشوى بها اللحم ، وقد تكون عودا مستويا يذهب مستدقا ، فينتهي بشباة حادة في طرفه الأعلى ، هي مغرزة في اللحم ، كما تكون حديدة ذات شعب معقفة ••• ويجمع السفود على سفافيد • ومن تناوله السفود ، قيل فيه مسفد لا يجوز غيرها ، لأن تسفيد اللحم نظمه في تلك الحديدة للاشتواء ، فالعقاد مسفد في هذا الكتاب ، وهذا النقد تسفيده ، وسفده فلان ، وضعه على السفود)[3] •

---

١ ـ انظر رسائل الرافعي ص ٢٦

٢ ـ انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٧١

٣ ـ على السفود ص ٥

وكانت نتيجة هذه المقالات ، وبهذا العنوان ، أن كتب العقاد كلمة في جريدة مصر يعاتب فيها على كاتب المقالات صنعه هذا ، فقال : (إن أنانية هؤلاء المجرمين أنانية عمياء ، لا تعقل ولا تدرك أن الاحراق بالنار يؤلم)[1] •

نقل الرافعي كلمة النار من الجريدة ، ووضعها في مقدمة كتابه ، وأضاف اليها كلمة السفود ، فقال : (نار السفود) ، ووضعها بين قوسين ، ثم علق عليها في أسفل الصفحة ، فقال : (هذه الكلمة منا للبيان والتفسير)[2] • ولم ير في ذلك أيَّ حَرَجٍ ، بل شعر بالافتخار ، كأنه حقق معجزة في البطولة لم يحققها أحدٌ من معاصريه ، إذ هزم عملاقا اسمه العقاد •

وهنا يتبادر الى أذهاننا هذان السؤالان : هل كانت في ذلك الوقت حرية الأدب ، قد بلغت هذه الدرجة ؟ ولماذا ؟

الإجابة عن السؤال الأول ، نستخرجه من سلوك الرافعي إزاء السياسة والسياسيين • فقد كان يعيش في جو أدبي بعيداً عن الضجيج السياسي ، وما يثيره من زوابع حينا بعد حين وساعده على ذلك ما كان عليه من الصمم ، لذلك أمن هجوم الأحزاب وكيدهم ، وإن كان كما يبدو ينتصر للحزب الوطني في بعض الأوقات ، إلا أن هذا الانتصار كان خفيا لا يكاد يظهر إلا من خلال الغمزات التي كان يغمز بها حزب السعديين من مثل كلمة كتبها بعنوان (جنود سعد)[3] ينتقد فيها أعمال السعديين ، وقد خرجوا ينالون من بقية الحزب الوطني ، وفي مقدمتهم الوطني الكبير أمين الرافعي[4] •

شق على الرافعي أن يحدث مثل هذا الاعتداء على جماعة أبرياء ، ليس لهم من ذنب إلا أنهم بقوا على ما كانوا عليه أيام محمد فريد ، وقبله مصطفى

---

١ ــ على السفود ص ٤
٢ ــ على السفود ص ٤
٣ ــ انظر رسائل الرافعي ص ٧٧ ــ ٧٨
٤ ــ ذكرى فقيد الوطن ص ٣٩ وقارن بين التاريخين

كامل ، ولم يدخلوا في حزب سعد ، فكتب كلمته ، وأخفى اسمه ، ولكن أسلوبه نم عليه ، فعرفته الخاصة والعامة •

ويؤيدني في هذه النظرية ، أن الرافعي كان قبل هذا التاريخ بنحو سنة ، بعث بالنشيد المصري الذي ألفه في سنة ١٩٢٠ ، الى سعد زغلول ، فتلقى من سعد ردا باردا لم يكترث له الرافعي ، وهو يشبه الى حد كبير ، كلمة علي بن أبي طالب في أحد منافقيه ، حين أخذ في الاكثار من مدحه والثناء عليه ، فقال له علي : (أنا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك)[1] •

وها هو ذا رد سعد زغلول على الرافعي : (حضرة الأديب الفاضل ، مصطفى صادق الرافعي • قرأت النشيد الذي ألفته ، والخطاب الذي أرسلته ، فرأيتهما جديرين بأدبك ، ولكنهما فوق ما استحق)[2] •

والاجابة الثانية : أن الحكومة لا تتدخل في حرية الفكر إلا عندما تشعر بأن قنابل الأدباء ، مصوبة اليها ، كما حدث للرافعي فعلا عندما صوب سهامه الى القصر الملكي ، بطريقة غير مباشرة ، ليزعزع أحد أركانه)[3] •

وبهذا الذي أثبته للرافعي من الميل السياسي الخفي للحزب الوطني ، أكون قد خالفت الأستاذ العريان بعض المخالفة ، فهو ينفي أن تكون للرافعي ميول سياسية ، ولو خفية ، كالتي أشرت اليها • وهذا ما استبعده على مثل الرافعي ، وخاصـة إن بين يدي دليلا قاطعا على ما ذهبت اليه ، وهو أن أحد أصدقاء الرافعي كان طلب منه أن ينظم قصيدة في رثاء الزعيم الوطني محمد فريد ، فرد عليه الرافعي بهذا الرد : أما ما كنت كتبت لي عنه من رثاء الشهيد العظيم فريد بك ، فأنت لا تعرف الظروف المحيطة بي التي جعلتني أرى السلامة في

---

١ ــ البيان والتبيين ج٢ ص ٧٧ و ٢٠٠

٢ ــ رسائل الرافعي ص ٦٩

٣ ــ انظر حياة الرافعي ص ١٧٥

السكوت ، واعلم أني لو نظمت ذلك الرثاء ، كما يجب أن ينظم ، وفي المعاني التي تليق به ، لرأيت في الصحف خبر نقلي الى قنا ، وما دونها ، فترك الشر ساكتا أجمل بي [1] .

ويخيل اليّ أن محمد سعيد العريان يدرك هذا الميل السياسي الخفي في الرافعي ، ولكنه لا يقره لسببين : أولهما ليرتفع بصاحبه عن الحزبية الضيقة ، الى مستوى أعلى ، كما صرح بذلك في عدة مواضع[2] ، وثانيهما ليجعل سبب انتصاره على العقاد في هذه المعركة النقدية التي نحن بسبيلها ، راجعا الى بعد الرافعي عن السياسة والسياسيين ، ونزعاتهم وأهوائهم .

وعندما هم الرافعي بطبع المقالات في كتاب خاص وجد تشجيعا من صاحب مجلة العصور ، إذ أعلن في إحدى صفحاتها عن طبعه وعن فائدته فقال : (هذا الكتاب الممتع ، الطائر الصيت في النقد الأدبي ، الذي لم يوضع مثله في هذه النهضة الحديثة ، والذي سيوجه تيار النقد الى الجهة الصحيحة ،ويعطي القراء ميزانا دقيقا يزنون به الحميد من الدنيء ، والعالي من النازل . وقد اطلع قراء العصور على المقالات التي نشرناها منه ، وأعجبوا بها كل الاعجاب ، وكان لها دويّ عظيم في الأوساط الأدبية ، وألحوا علينا بطبعها كتابا على حدة)[3] .

ثم قدم للكتاب بكلمة جاء فيها : (أردنا بنشر السفود أن نرضي من أنفسنا نزعتها الى تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء المستعصي الذي كان سببا في تأخير الشرق عن لحاق الأمم الأخرى في الحضارة . وإن نحن قدمنا اليوم للسفود بهذه المقدمة الوجيزة ، وقد هم أحد أدباء الناشرين بنشره ، فإنما نقدم بها تعريفا لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التي أعتقد بأنه لم ينسج على منوالها في الأدب الحديث حتى الآن . وعسى أن يكون السفود

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٦٥
٢ ـ انظر حياة الرافعي ص ٣٣
٣ ـ العصور فبراير ١٩٣٠

مدرسة تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم ، ومثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الاشخاص ، ووثنية الصحافة)[1] •

وأغلب الظن أن صاحب المجلة كتب ما كتب في الموضعين لا ليحرر عقولا من عبادة الاشخاص ، كما جزم بذلك ، وإنما ليعلن عن مجلته حتى تكون أكثر رواجا ، لأن النفوس بطبيعتها تميل الى مثل هذه الموضوعات الطريفة لا لأنها جديدة ، أو لأنها من النقد الصحيح ، وإنما لأنها تنال من الآخرين •

والغريب أن محمد سعيد العريان تدخل في هذه المرة ، ونصب نفسه قاضيا عدلا يحكم بين المتخاصمين بالقسطاس ، فقال : (أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم ينسج على منوالها في الأدب الحديث فنعم • وأما أن تكون مدرسة للتهذيب ومثالا يحتذيه النقدة ، فلا ، فليس بنا من حاجة الى أن يحتذي النقدة هذا المثال في أسلوب النقد والجدل ، فيزيدوا عيبا الى عيوب النقد في العربية)[2] •

إننا إزاء هذه الكلمة التي أثبتها العريان نشعر كأنه يناور فقط • والغرض من ذلك يخيل إليَّ أن يجعل من هذا النقد اللاذع الذي صبه الرافعي على العقاد ، مجرد خدش بسيط • ويؤيد هذا الرأي تبرئة العريان للرافعي في نقده إذ قال : (على أن كثيرا من قراء على السفود مؤمنون بأن في الأدباء طائفة لا يمكن مناقشتها إلا بمثل أسلوب على السفود[3] •

* * *

---

١ ــ على السفود ص ٧

٢ ــ حياة الرافعي ص ١٩١

٣ ــ حياة الرافعي ص ١٩٣

الفصل الرابع

الرافعي الأديب

حديث القمر ـ المساكين ـ رسائل الأحزان
السحاب الأحمر ـ أوراق الورد ـ ـ وحي القلم

حديث القمر

ألف الرافعي هذا الكتاب بعد الجزئين الأولين من كتابه تاريخ آداب العرب ، وذلك سنة ١٩١٢ ، إثر عودته من لبنان الى مصر ، وكان سببه فتاة لبنانية التقى بها هناك .

تناول في الكتاب شتى الموضوعات ، وأكثر من الصنعة اللفظية ، حتى بعدت بعض معانيه ، وأوشكت أن تستغلق . وكان رائده من هذه الصنعة اللفظية ، وما فيها من تنسيق وزخرفة ، أن يحدث نموذجا بلاغيا لطلبة الانشاء ، يربي فيهم ملكة التخيل التي هي « أصل البلاغة »[1] كما قال .

وأكد هذا المعنى مرة أخرى فقال : (أرجو أن أكون قد وضعت لطلبة الانشاء المتطلعين لهذا الأسلوب ، أمثلة من علم التصور الكتابي ، الذي توضع أمثلته ولا توضع قواعده ، لأن هذه القواعد في جملتها إلهام ينتهي الى

---

١ ـ حديث القمر ص ١

الاحساس ، وإحساس ينتهي الى الذوق ، وذوق يفيض الاحساس والالهام على الكتابة جميعا ، فيترك فيها كحياة الجمال ، لا تداخل الروح حتى تستبد بها ، ولا تتصل بالقلب حتى تستحوذ عليـــه ، فتكون له كأنها فكرة من ذاته)[1] .

وقد تطغى عليه هذه الفكرة البلاغية التي تحمس لها الى أن يرمي غيره من الأدباء والكتاب بالعجز البلاغي ، فيقول : البلاغة التي حار العلماء في تعريفها على كثرة ما خلطوا ، لا تعدو كلمتين ؟ قوة التصوير ، والقوة على ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة)[2] .

إن ظاهرة التعالم واضحة في هذا الكتاب ، وليس الغرض منها التحدي كما يفهم من ظاهر اللفظ ، إنما الاعلان عن نفسه وعن كتابه . وقد استعمل هذا النمط من الأسلوب ، ليكون ذلك أدعى الى التأثير في نفوس القراء . ويتضح هذا من قوله : (وما البليغ إلا ذلك الذي يستطيع أن يؤتيك طبائع الأشياء التي تجعلها في غير صورها ، ثم أنت لا تعرفها من كلامه إلا في صورها ، فكأنه ناسب بين قوتها وضعفك بصناعته وسحره ، إذ يمازجها بخيال قوي كالعقل يوازن ضعفك ، وحقيقة ضعيفة كالقلب توازن قوتها . وهو لا يتسلط على طبيعتها إلا بتصوره ، ولا يستهوي طبيعتك إلا بقدرته على ضبط النسبة بينك وبينهـــا)[3] .

بسُل هذا التعاظم بحث موضوعاته التي تطرق لها في هذا الكتاب ، وهي متنوعة ، بعضها في الحب ، وبعضها في الطبيعة ، وبعضها الآخر في الأخلاق والفلسفة الاجتماعية والدينية .

بحث هذه الموضوعات بحثا عميقا ، وأبدى في أكثرها رأيه ، من ذلك أن الحب ينبغي أن يكون شعارا لكل نابغة ، وخاصة الشاعر ، لأنه حين (يكتب

---

١ ــ حديث القمر ص ٥
٢ ــ نفس المصدر ص ٦
٣ ــ نفس المصدر ص ٧

عمن يحب ، فيرى كأنه ينفخ في كل كلمة معنى من الحياة ، لأنه لا يكتب كلاما بل يخط صورة قلبه)[1] • ويرى أن الحب ظاهرة طبيعية في الانسان ، فليس لأحد أن يقاوم ما في طبعه ، وإنما عليه أن يهذب من أخلاقه وسلوكه ، حتى يرتقي بالحب الى معانيه الروحانية المنبثة في جميع الاشياء ، صغيرها وكبيرها ، جمادها ونباتها •

قال عن جمال الطبيعة وتأثيرها في النفس كلاما يشعرنا بأنه أدرك كنه الطبيعة ، وعاش في أغوارها البعيدة ، لا في ظواهرها الخارجية : (إن في ضمير الطبيعة سرا من الحب تتجدد في الناس معانيه ••• كأنه فيه حياة غريبة تغذوه بتلك المعاني)[2] •

وقال يصف محبا في بعض سبحاته الروحانية : (كأنه حي بلا نفس)[3]، (فلو رأيته لآنست من نظره عمقا بعيد الغور)[4] •

فهم الرافعي الحب على النحو الذي فهمه رجال الفلسفة والاجتماع والأخلاق ، وتغنى به في نثره كما تغنى به الشاعر في نظمه ، فكتب عن الطبيعة وجمالها وسحرها ، وعن الحبيب وتأثيره ، وعن المحب وانقياده لما يساق اليه ، كل ذلك بأسلوب بديع يجمع بين جمال اللفظ وحسن التعبير •

وعلى هذا النحو الذي تناول به الحب وأغراضه وظواهره ، تناول الموضوعات الأخرى من مثل الفقر والغنى والاخلاق والعادات • وطريقته أن يذكر الشيء وضده ليتم التقابل ، ويكون أدعى للفهم ، مثل حديثه عن الغني ، فما كاد يعرفه ببعض صفاته التي خرج بها عما كان يجب ، حتى تناول بجانبه

---

١ ــ حديث القمر ص ١٩
٢ ــ المصدر السابق ص ٢١
٣ ــ نفس المصدر
٤ ــ نفس المصدر

الفقير ووضعه في كفة شريفة تعلو على التي للغني فقال : (ليت شعري ، ماذا يريد هذا الغني الاصطلاحي ؟ أيريد أن يشتري الأرض أم أهلها ؟ وهل يظن أنه يوم يشتري الارض لا يشتري فيها قبره ، ويوم يسترق الناس لا يسترق بماله من يلعنه ... ليهنأ الفقير ، إنه الاساس القائم من الأحجار الصلبة ، بلا شيء ، فإنما يشتري الانسان بفقره نعما كثيرة من الله ولكن اللؤم يسول له أن يساوم الناس عليها ، فلا يجد من يشتري منه إلا قوته وعمله ، لأن الأيدي التي خلقت لحمل الذهب لم تخلق لحمل العالم ، فيبتئس هذا الفقير ويحسب أنه وحده البضاعة المزجاة التي لا تقوم في سوق الغني بثمن إلا بضع رغفان من الخبز ، فتجف أصول الدموع اللينة من عينيه ولا يبقى فيهما إلا اللحاظ الخشنة .

ويقول : ولا تحسبن الأغنياء المجرمين على غنى ، فإن كل شيء يسرق حتى الغنى ، وحتى اللص يسرق نفسه من يدي الشرطي ، بعد ان يكون قد جمعها عليه . والفقير الذي يطمح الى الغنى ، كالغني الذي يطمح الى ما هو أغنى ، كلاهما فقر ، وكلاهما طريق الى الجريمة . ويقول : ويحك لم تبتئس أيها الفقير ؟ الغني يريد أن يجعل حظوظ الناس جميعا حظا واحدا ، ليختص نفسه بهذا الحظ ، وأنت تريد أن تختص بحظ الغني فماذا تركتما لله ؟.. إن الله قد ائتمنك على أثمن الفضائل وأعزها ، من الصبر والقناعة ، وشرف الضمير ، وأشرف بك على مصارع الأغنياء ، فرأيت كيف قلب أحدهم وهو يحسبه كرة الأرض زلزلت زلزالها . وكيف تطرف عينه ، وهو يتوهمها اللجة التي تبلغ كل ما في رأسه من الأحلام ، وكيف يموت وهو يرى كل ما كان في يده كالظل على الماء ، لا يذوب ماء ولا يبقى ظلا ، ويرى أنه كان يشتري المال الذي لا حد له بالعمر المحدود ، فلما أفلس من هذا خسر الاثنين جميعا)[1] .

وعلى هذا النحو ، وبمثل هذا الاسلوب ، يستمر في الفصل كله ، يذكر مساوىء الغني الذي انحرف عن الجادة القويمة ، ويحذر الفقير من عاقبة الامر

---

١ ــ حديث القمر ص ٤٠ ــ ٤٤

إن هو تمنى شيئا مما يملك هذا الغني الاصطلاحي ، من متاع الدنيا الزائل ، وينوه بالقناعة والصبر ، وأن لا سبيل لبناء المجتمع على أسس صحيحة ، إلا متى عرف الحق من الباطل ، واتبع بعد ذلك سبيل الرشاد •

وفي الكتاب حديث عن الشعر والشعراء ، تبدو فيه نغمة النقد الأدبي ، يتهم فيه شعراء الشرق بالنقص في الموهبة ، والضعف في الخيال ، ويشبههم بجماعة الزنوج الذين يحسنون الرقص على نغمات الطبول ، لأن هؤلاء في نظر بني قومهم شعراء • وينتهي الى أن الشاعر الصحيح هو الذي يتلقى المعاني السامية من الطبيعة لينقلها الى الآخرين مهذبة مصفاة (كأن الطبيعة لا تجد طريقا الى النفوس الضعيفة إلا بعد أن تصفى في نفوس الشعراء ، فتخرج منها كما تنبعث المعاني الغزلية الكثيرة من عيني الحسناء الفاتنة • ولكل معنى طابعه الخاص به في النفس ، مع أنها جميعها من مصدر واحد)[١] •

وللرافعي في هذا الكتاب حديث عن المرأة وجمالها ، يعد مقدمة لكتاباته الغرامية التي سنجدها فيما بعد ، في كتبه الأدبية الخاصة بفلسفة المرأة من مثل رسائل الأحزان ، والسحاب الاحمر ، وأوراق الورد ، ولذلك نرجئه الى كتاب السحاب الأحمر ، ونكتفي بذكر شيء له اتصال به ، كحديثه عن المؤامرات التي تحاك لهن ، وخاصة الجميلات منهن • وقد يخشى عليهن حتى من رجال الدين أنفسهم ، لأن روح المصادفة قد تكون في ثباتهم (وكم من مرة رأيت عالماً يوثق عقد الزواج بخطبته ، وكاهنا يربط القلبين بكلماته رباطا مقدسا ، فكنت أهتز من الفرق الى القدم ، خشية أن تكون روح المصادفة العمياء في ثياب هـذا العالم ، أو الكاهن • فإن ثلاثة تأتي الى الانسان من تلقاء نفسها •• هـذه المصادفة ،والعداوة ، والنحس ، وقلما أحس إنسان بأحداهـا إلا فوجىء بثلاثتها جميعا)[٢] •

---

١ ــ حديث القمر ص ٥٢
٢ ــ المصدر السابق ص ١٢٠

ولم يفته في هذا الكتاب أن يتحدث عن الالحاد والملحدين ، فيصفهم بصفاتهم ، ويجادلهم بمثل منطقهم ، فهم يتحدثون باسم العقل والمنطق والتفكير الحر ، وهو يجادلهم بمثل قولهم ، ويحذر منهم ومن أساليبهم التي يثبتون بها ما يثبتون ، وينفون ، حسب ما تمليه عليهم نفوسهم ، وكأنهم يقولون : (إن العلم أثبت ونفى ، وإن الدين نفى وأثبت ، فلا تمايل بينهمامترددا ، وخذ ودع ، ولكن من العلم وحده • فإن شيئا تفهمه خير من شيء لا تفهمه ، وكل ما أبى العلم فلا ترضه ، لئلا ترمى بالجهل الاصطلاحي •• واذا كنت فقيراً لا تملك الملايين ، وكنت اشتراكيا ، فلا تصدق أن أحدا يملكها ، لأن الاشتراكية تأبى ذلك ، وكن دائماً تنظر ولا تصدق • واذا رأيت الانسان لا يزال عاجزا الى اليوم عن تعليل أشياء كثيرة من البسائط التي تمتحن بها الطبيعة أطفالها ، ممن نسميهم العلماء ، فاعلم أن هذا الانسان لا يزال ناقصا في رأي العلم ، وسيتم يوما ما ، فحسبك أن تكفر كفرا ناقصا • وإياك من الغرور ، وأن تحسب أن نقص الكفر جاء من كون الأيمان كاملا بطبيعته ، لأنه شيء أزلي في النفس ، بل هو جاء عن نقص العلم ، أو من نقص الانسان العالم ، فمتىتم ذلك لا محالة، فيكون أكبر عالم في الأرض • ونحن لا نعرف من أمر المستقبل شيئا ، ولكننا نعرف أن العلم سيبلغ تمامه في المستقبل)[1] •

ويستمر في هذا الحديث الشائك ، يديره مرة على ألسنة الملحدين ، وأخرى على لسانه هو أو على لسان الحق الذي هو أكبر منه ومن أهل الالحاد • وفي كل ذلك يحاول أن يثبت حقيقة دينية هي العقيدة الاسلامية •

والسبب في ذلك أنه عاش فترة من أحرج الفترات في تاريخ التطور الفكري • فقد فوجىء الشرق الاسلامي بأفكار جديدة في كل ما يتعلق بالحياة الدنيا أو بالحياة الآخرة • وكانت ترتكز هذه الافكار الجديدة على أساس واحد هو الحرية المطلقة في البحث والتفكير والاعتقاد •

---

١ ــ حديث القمر ص ٦٣ ــ ٦٤

والغريب أن الذين تبنوا هذه الأفكار الجديدة هم أبناء الشرق الاسلامي نفسه ، وأغرب من هذا كله ، أن هذه الأفكار التي تبنوها ليست إلا من بنات الفكر الغربي ، أستوردوها من هنا وقاموا على بثهـا في صفوف الناس من خـلال ما يكتبون في الصحف والمجـلات ، ليزعزعوا بها عقائـد الشبان الناشئين •

ولا ننسى أن الكتاب إنما ألف للطلبة الناشئين ، والغرض منه تربية ملكة الانشاء في نفوسهم كما سبق أن ذكرت ، ولكن الرافعي لم ينس أن يطعم كتابه هذا بأفكار دينية أخلاقية ، تساعد على التربية الصالحة والاتجاه الحسن ، وبذلك يتم الكتاب تمامه ويؤتي ثمره •

والى جانب القيم الاخلاقية والدينية والاجتماعية ، توجد صور إنسانية عميقة ، لا يدرك كنهها ويقدر على إبرازها وتصويرها تصورا إنسانياً حياً إلا من أوتي قسطا وافرا من الشعور الانساني ، والتجربة في الحياة الواقعية ، كهذه الصورة الحزينة التي نقلها الرافعي لنا ، وصوّرها تصويرا أدبيا رائعا ، وأبرزها في ثوب إنساني يشير في النفس الشفقة والرأفة ، وكأننا نشاهد منظرها الاليم ، ولكن صاحبها لا يشعر بشيء من الألم ، لأنه قبل أن يسلب منه الروح سلب الارادة ، فسها عما هو فيه من الكارثة التي حلت به ، وقضى وما درى •

ويصوّرها الرافعي تصويراً دينياً الى جانب التصوير الانساني والأبي فيقول : (أما المصائب الإلهية فإن الله يرسلها برحمته ، فيستلب فيها من الانسان إحساسه ، أو أكثره ، ويعطيه أسباب العزاء أو أكثرهـا ، ويهيىء له من أمره ما يجعله يتلقى المصيبة بروحها ، لا بروح النعمة التي أصيب فيها ، وبذلك لا يشعر أنه ضرب بيد الجبار ، ولكن بيد الرحيم ، ولا يكون إلا كالذي يغمض عينيه عند الوسنة ثم ينحدر الى الأبدية ، وقد يتحطم في هواتها وما أحس من آلام الموت ونزعـه أكثر من غمضة العين • وعلى هـذه الصفة الرحيمة يفترس الحيوان ما هو أضعف منه ، فيستلب إحساس الضعيف حتى لا يدري ما هو

من مفترسه ، ولا ما كان فيه مما يصير اليه)[1] •

وقد فطن الرافعي الى نقطة هامة بالنسبةلوحدة الكتاب ، وهي كلمة القمر ، إذ أدرك أن الكتاب يشتمل على فصول متباينة ، كل فصل في موضوع بعينه، فأراد أن يربط بين أجزاء الكتاب ، فكان أن اهتدى الى فكرة ساحرة ، وهي أن يوجه كلامه عند بداية كل فصل الى القمر ، كأن يقول : ولعمري أيها القمر ، أواه عليك ياقمري ، أو نحو ذلك • وبهذه الطريقة استطاع أن يجمع ذهن القارىء في الكتاب ، بين فصل وفصل ، وكأنه بذلك يقرأ موضوعا مسلسلا مترابط الأجزاء •

ولعلنا قد أعطينا صورة واضحة لفكرة الكتاب ، واتجاه المؤلف فيه ، وبقي أن نذكر أبياتا من شعره ، ونماذج من أساليبه البيانية ، ثم بعض ما قيل في الكتاب •

لقد مر بنا أن الرافعي في أول عهده بالأدب كان ينظم الشعر ، وكانت نيته أن يكون فيه أميرا مثل البارودي ، ولكنه هجره لأمرمن الأمور ، ذكر بعضها[2] وأخفى بعضها الآخر ، غير أنه لم يهجره هجرا تاما ، فقد كان ينظم فيه حينا بعد حين ، من ذلك هذه القصيدة التي ذكرها في آخر الكتاب عن الشرق المريض •

يا من لهذا المريض المدنف العاني	مـــردد النفس مـــن آن الـــى آن
إذا رأى الليل ظنّ القبـــر شق له	أنجمـــــه آثـــــار أكفـــــان

---

١ ــ حديث القمر ص ١٠٠

٢ ــ قال الرافعي : ومن نكبة الشعر العربي أنه لا يتسع لبسط المعاني، فاذا بسطت المعاني فيه وشرحت ، سقطت مرتبته من الشعر ، وأصبح كنظم المتون في الاكثر . وهذا هو ما صرفني من الاول الى الكتابة ووضع حديث القمر والمساكين وغيرهما ، فان هذه الكتب هي شعر ولكنه في غير الظروف الموزونة) رسائل الرافعي ص ١٥٢ ــ وانظر حياة الرافعي ص ٧٢

ويحسب الصبح باب الموت لاح له وفوقه الشمس قفل فتحه داني
نضو على رمق فإن يعش به لكنه رمق مهما يعش فاني
مطرح الهم في كل الجهات فما يرى بكل مكان غير أحزان
تؤزه كبد حرى معلقة من الأضالع في أعواد نيران

وعلى هذا النحو الحزين الكئيب يستعرض حالة الشرق ويبين عجزه أمام طغيان الجبابرة الذين غزوه وسلبوه كل خصاله حتى الارادة ، الى أن يقول متحسرا على الضدين اللذين اجتمعا في بلده •

لهفي لجوهرة زهراء ما سطعت في جيد غانية أو فوق تيجان
لهفي لريحانة خضراء ما قطعت إلا لتذبل في راحات نشوان
لهفي لغانية عذراء ما وضعت إلا بمنزل أسواء وأضغان
لكل معنى جميل ما يلائمه كما تمازج(٢) ألحان بألحان
وليس يطرب صوت الماء منحدرا كما ترى وقعه في سمع ظمآن
فيا إلهي إذا أجريت في قدر يوما بأن يلتقي في الناس ضدان
فاجعل للطفل معنى في التقائهما كيلا يكون من الضدين زوجان
فما خلقت كمثل البغض في امرأة ينالها رجل يوما بطغيان
ولا خلقت كمثل الذل في رجل تسومه امرأة سودا بعدوان

وينهي القصيدة بهذه الأبيات

يا بانيا بقلوب الناس يجعلها قصر الحياة ، تبصر أيها الباني
أسس على الحب، لاتلقى القلوب سدى وضع لكل فؤاد شكله الثاني
فلست تبني سوى دار ، إذا خربت أركانها خربت من كل عمران
دار السعادة دار الحب ، دار" في الأحبابِ ، دار الغرام الخالد الهاني(١)

---

١ ــ تمازج : تتمازج
٢ ــ حديث القمر ص ١٢٣ وما بعدها

إن نغمة هذه القصيدة تذكرنا بقصيدة الشاعر الأندلسي أبي البقاء الرندي[1] التي ينعي فيها سقوط الأندلس مدينة مدينة بيد الطاغية فرديناند الثالث في آخر النصف الأول من القرن السابع للهجرة .

وقد عاش أبو البقاء هذه الفترة الحاسمة التي أخذ الطغاة يقتحمون عليهم دورهم فرأى وشعر ، فكانت قصيدته هذه التي تصوّر ما آلت اليه حال المسلمين حينذاك من الضعف والخور ، حتى أصبحت مساجدهم تدق فيها أجراس الكنائس ، ونساؤهم عرضة لعبث العلوج . ومما جاء فيها قوله :

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

وقبل هذين البيتين قال :

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الألف هيمان
على ديار من الأسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان

وليس بعيدا أن يكون الرافعي قد اطلع على هذه القصيدة فأثرت في نفسه[2] ووجد فيها طلبته ، فنهج نهجها في كل شيء ، لأنها تنطبق إلى حد بعيد على الحالة التي أصبحت عليها بلاد العرب والمسلمين ، بسبب هذا الغزو الأجنبي الذي قضى على مقومات الأهالي أو كاد .

إن ظاهرة الاقتداء واضحة في القصيدة ، ولكن هل هي معارضة لها ، أم مجرد تقليد في القافية والوزن ، أملاه عليه شعوره بعد أن تأثر بها ؟ إن الرافعي

---

١ ــ رندة : مدينة في اسبانيا الجنوبية بالقرب من وادي اللبن كانت من أحصن حصون الاندلس . أخذها الاسبان سنة ١٤٨٥

٢ ــ الأدب والنصوص ج٢ ص ٢٩٧

لم يشر إلى شيء من ذلك • ويغلب على الظن أنه اطلع على قصيدة أبي البقاء وأعجب بها ، إذ رأى فيها ما يتلاءم والوضع السياسي الذي آلت إليه بلاده ، فبدا له أن يعارضها • فلما تم له ذلك ، قارن بين قصيدته وقصيدة أبي البقاء ، فشعر بأنه لم يبلغ في بعض أجزائها مبلغ أبي البقاء ، فعندئذ اكتفى بنشرها دون أن يذكر شيئا من دوافعها أو الغرض منها •

على أن الباحث يستطيع أن يستكشف ظاهرة المعارضة ، وذلك بمقارنة قصيدة بقصيدة في الموضوع والوزن والقافية ، كما يستطيع أيضا أن يلاحظ التفاوت الذي أشرت إليه •

فقصيدة أبي البقاء ذات وحدة في الموضوع، وذات نغمة واحدة في الجرس، ثم إن أسلوبها في سائرها على وتيرة واحدة ، فليس أولها بأحسن من آخرها ، ولا وسطها بأبدع من طرفيها ، بينما قصيدة الرافعي ، تتفاوت في أجزائها ، فأولها يختلف، عن آخرها ، ووسطها غير أولها أو آخرها ، ولذلك يمكن القول بأن الرافعي أحسن في الجزء الأول من القصيدة ، فجاء أسلوبه فيها قريبا من قصيدة أبي البقاء ، وأبدع الابداع كله في الجزء الأخير منها ، حتى فاقت قصيدة أبي البقاء • والسبب في ذلك يرجع إلى أن الجزء الأخير كان مما يتعلق بخلجات النفس ، والرافعي عرف بهذا الضرب من الشعر ، حتى لقب نفسه بشاعر الحسن[1] •

وقصيدة الرافعي بصفة عامة تعد من أحسن قصائده ، فقد أجاد فيها إجادة ملحوظة ، وإن لم يستطع أن يسير فيها على وتيرة واحدة • والسبب في هذه الاجادة ، يرجع إلى أمرين : أحدهما أنه شعر بالأسى ومرارة الهزيمة بما أصيبت به الأندلس إن صح ظننا أنه اطلع على قصيدة أبي البقاء • فهذا يجعله يفكر كثيرا فيما كانت عليه ، وما آلت إليه ، ثم يجعله أيضا يقارن بينها وبين أمته التي هو بين ظهرانيها ، فإذا الداء واحد ، والمستقبل محفوف بالأخطار ، وإذا

---

١ ـ انظر ديوان الرافعي ج٢ ص ١٢

الماضي يختلط بالحاضر وبالمستقبل ، فإذا القصيدة تنبض بالحياة .

والأمر الثاني أن القصيدة أخذت وقتا طويلا في إعدادها ونظمها ، لأن الرافعي ــ كما علمنا ــ كان في هذه الفترة قد عدل عن الشعر إلى النثر ، وهذا بطبيعة الحال يجعله لايجهد نفسه كما كان يفعل في الفترة الاولى ، ومن هنا نشأ الفرق بين الفترتين في شعره .

ويضيف عمر الدسوقي بالنسبة للفترة الأولى سببا آخر في ضعف شعر الرافعي ، وهو أن الرافعي كان (من شعراء المعاني الذين اهتموا بها كل الاهتمام يؤدونها بأي لفظ تهيأ لهم ، ولذلك جاء في شعره كثير من السقط المهلهل النسج)[1] .

وفي الكتاب قطعة بديعة في جمال الطبيعة لم تخل من الفلسفة الدينية ، ومقارنة شيء بضده على عادته ، يقول فيها موجها كلامه إلى القمر : (يا قمر السماء ويا مثال النية البيضاء ، بل شبيه كلمة الرضا[2] المبتسمة على شفتي الحسناء ، هل تغضب الطبيعة على قوم من أهلها وهي كالطفل الضاحك أبدا ؟ وهل تعرف من الناس مؤمنين وملحدين ، وهي بجملتها شريعة الايمان ؟

أتعرف الحسناء الفاتنة من عسى أن يكون لها مبغضا ؟ وإن عرفته فهل تراها مستيقنة معنى البغض ، كما يتحققه ذلك الخبيث من نفسه ؟ وهي هي التي يلقي عليها الحب صلاته وسلامه ، ويتخذ الحسن من ألحاظها إشارته وكلامه ، ولا يقابلها الغرام أينما التفتت في الناس إلا بدمعة أو ابتسامة ؟

يقول الملحدون : إن الطبيعة الجميلة ، تغضب وتحنق ، لأنهم لايريدونها إلا خادمة ، فلا ينظرون إلى جمالها ، بل إلى فعالها .

---

١ ــ في الادب الحديث ج٢ ص ٢٣٢

٢ ــ دي الاصل الرضى . والصواب ما اثبت

ويقول المؤمنون الذين يرون في كل شيء مظهرا للايمان : إن غضب الجميل نوع من جماله ، فلتغضب الطبيعــة ، ولتتورد الوجنات ، وليتطاير السحر من اللحظات ، ولينبعث الصوت الصارخ الرهيب من الروح بدون أن يصفيه القلب ، ليكون ذلك وما أشبه ذلك من روعة الغضب • فإننا نريد أن نبصر الحسن كيف يتحول في غضبه جليلا بديعا ، كما رأيناه في الرضا لينا وديعا ، وكيف تظهر فيه الروح قلقة لا تطمئن ، كما ظهر فيه القلب يتأوه أو يئن • ونريد أن نرى ولو مرة واحدة انطباق شفتين جميلتين لم يفارقهما الابتسام ، فإن ذلك منهما ولا غرو ابتسام جديد •

كل ما في الطبيعة جميل ، غير أن الانسان لم يتسع بعد في درس علم الجمال بمقدار ما يسع هذا العلم الجميل ، فإن الأولين تهيبوا الطبيعة فعبدوها ، ولم يمسوها ولو بالفكر ، ولم يقرؤوا من أجزاء علم الجمال على كثرتها إلا جزءا واحدا أصابوه في أصل الخلقة ، وهو المرأة • وجاء المتأخرون، فابتذلوا الطبيعة حتى ملوها ، وكأنما أخذوها عن أوليتهم كما يأخذ القصاب بقرة البرهمي من المعبد الى المذبح ، فلم يبق في أيديهم من أجزاء علم الجمال ، إلا الجزء الذي أصابوه في أصل الخلقة وهو المرأة)[1] •

وواضح أن الرافعي فهم جمال الطبيعة كما يفهمه المؤمن ، الراضي بكل شيء ، فجمال الطبيعة منبث في كل جزء من أجزائها ، في غضبها حين تغضب ، وفي رضاها حين ترضى ، وفي سكونها أو ثورتها ، حين تسكن أو تثور ، وهو في البكاء كما في الضحك ، وهو في القفر كما في العمران ، لأن بكاءها أودموعها سبب في ضحكها • أليس الربيع وليد الغيث ؟ إذن فلتغضب الطبيعة ، ولتتورد الوجنات ، وليتطاير السحر من اللحظات ، ولينبعث الصوت الصارخ الرهيب ، وليكن ذلك وما أشبه ذلك ، لأن جميعه ابتسام ، ولكنه ابتسام لايدركه إلا الخاصة ممن اصطفاهم الايمان بنوره •

---

١ ــ حديث القمر ص ٧٢ ــ ٧٣

ويبدو أن الرافعي من الذين يؤمنون بأن الأديب (الموهوب هو الـذي يجمع بين القمة الفنية والقمة الانسانية الكبيرة)[1] وهو ماصرح به بعد أن بلغ في الأدب مبلغا عظيما ، إذ قال : (ولو أردت أن تعرف الأديب من هو ؟ لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه ، من أن تسميه الانسان الكوني ، وغيره الانسان فقط • ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الاشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصـال الموجودات به ، بآلامها وأفراحها • وإذا كانت فيه مع خاصية[2] الانسان خاصية الكون الشامل ، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع : أنه منها • وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار : أنه كذلك منها • وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنـه هو أيضا منها • وهـذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لاحد له)[3] •

وقد أجمل العريان مافصلناه في هذه الأسطر فقال : (إنه أول كتاب أنشأه الرافعي فيأدب الانشـاء ، بأسلوب رمزي في الحب ، على ضرب مـن النثر الشعري ، أو الشعر النثري • يصف من عواطف الشباب ، وخواطر العشاق ، وما إليهما ، في أسلوب فني مصنوع ، لاأحسبه مما يطرب الناشئين من قراء العربية في هذه الايام ، إلا أن يقرؤه على أنه زاد من اللغة ، وذخر من التعبير الجميل،ومادة لتوليد المعاني وتشقيق الكلام في لفظ جزل وأسلوب بليغ)[4] •

وكتب بعض الكتاب عن حديث القمر مقالات أشادوا فيها بما بذله المؤلف من جهد في إحياء اللغة على هذا النحو ، وتقريبها الى الشباب الناشىء ،كما كتبوا انتقاداتهم •

قالت مجلة الزهور : (نشرنا مقالا للاستاذ الرافعي في جزء سابق من هذه

---

١ ــ الاهرام ١٩٦٢/١٠/٢٧
٢ ــ خاصية : هكذا في الاصل والصواب خاصة
٣ ــ وحي القلم ج٣ ص ٢٥٠
٤ ــ حياة الرافعي ص ٧٤

المجلة بعنوان (أيها القمر) ثم أخذ يوسع هذا المقال بما أوحى إليه أمير الليل من خطرات أفكار شعرية وغزلية وأدبية واجتماعية ، فجاءت مسلسلة فصول شائقة ، تتناول مباحث شتى في الحب والجمال والزواج والالحاد والطبيعة ، بأسلوب خيالي وقالب شعري ، تعمده الكاتب البليغ ، وهو يرمي من ورائه إلى تربية ملكة التخيل في الناشئة ، لأن الخيال هو أساس الانشاء وركنه الركين ، فلا يمتلك الذين يحاولون الكتابة أعنة هذه الصناعة ، إلا إذا حبتهم الطبيعة نصيبا من الخيال ، وعملوا هم على تربية هـذه القوة بالمطالعة والملاحظة والاقتـداء)[1] .

وكتبت الجريدة سلسلة من الأحاديث لكبار الكتاب أمثال حفني ناصف ، وطه حسين ، بعضها تقريض وثناء وهو ماكتبه حفني ناصف ، وبعضها انتقاص من قيمة الكتاب ، وهو ماكتبه طه ، نذكر مثالا لكل منهما ، وبذلك نأتي على آخر كلمة في الكتاب .

تقول الجريدة : (تلقى الناس كتاب حديث القمر الذي أصدره الكاتب الألمعي مصطفى أفندي صادق الرافعي ، بالعناية التي هي من حق كتاب مبتكر مثله ، في طريقة مبتكرة من الانشاء . وقد كتب شيخ الأدباء سعادة الأستاذ حفني ناصف المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف ، هذا الكتاب البديع إلى الرافعي قال :

« وصلتني ــ وصلك الله ببره ــ هديتك الجميلة ، وطرفتك البديعة التي يقل أن يقال في وصفها جليلة (حديث القمر) ، وما أدراك ماحديثه، لوعة شاك، وأنة باك ، وتسريح الطبع المخترع في جمال الطبيعة ، وإرسال الفكر المبتدع في مجالي الكون البديعة ، ونظرات الشاعر القدير ، في حقائق هذا العالم الكبير.

قضيت في قراءته ليلتين منفردا ، ألقي على مبانيه ضوء المصباح ، وأتبين

---

١ ــ الزهور ديسمبر ١٩١٢

من معانيه فلق الأصباح ، فذهبت مع هذا الحديث كل مذهب ، وسريت مع الخيال كل مسرى ، وطفوت مع الفكر ورسبت ، وصعدت الى مناط الكواكب في الخضراء ، وهبطت الى مسارح الوحش في الغبراء ، وفقهت منطق الطير وتسبيح الحيتان ، وعلمت صحة قولهم : ليس في الامكان أبدع مما كان •

فوالذي أجرى الحكم على لسانك ، ومزج السحر ببيانك ، لولا أن ثبتني الله لطار لبي طربا ، واتخذ سبيله في بحر الاعجاب سربا • فسبحان الذي صرفك في ملك الخيال[1] ، وأجال طرف ذهنك في كل مجال ، وملكك أعنة المعاني والمباني ، وخصك من الأساليب بكل عجيب »[2] •

ونقيض هذا ماكتبه طه حسين ، وكان إذ ذاك لايزال طالبا في الجامعة المصرية ، فكتب مقالا في الجريدة ، يعلن فيه أنه لم يفهم الكتاب ولم يهتد إلى معرفة أساليبه ومعانيه ، وكذلك الهدف منه ، لأن الهدف في الأدب كما في غير الأدب ، هو في تحقيق المنفعة • والكتاب مستغلق في ألفاظه و في معانيه ، ومن ثم سقطت قيمته ، لأنه فقد الخاصة المنشودة ، وهي الفائدة • ولم يفته أن ينتقد حفني ناصف في كلمته التي مدح بها الرافعي وكتابه •

يقول طه في مقاله : (لانستطيع أن نحمد كتاب الرافعي الذي نشره منذ حين ، وزعم أنه نمط من الانشاء الجديد ، ينبغي أن يتخذ نموذجا لطلاب الانشاء ، يقرأونه ويرددون النظر فيه ، ثم يحاكونه وينسجون عليه ، ليأتوا من البلاغة بالعذب السائغ ، ومن الخيال بالمستحسن المحبوب •

لانستطيع أن نحمده ولا أن نثني عليه بمثل ما أثنى عليه الاستاذ الجليل حفني بك ناصف ، لأنا لم نفهمه ، ولم نهتد إلى أغراضه ، ولم نقف على مذهب الكاتب فيه ، إما لأن الله عز وجل قد قضى علينا بالغباوة ، وإما لأنه قد قضى على هذا الكتاب بالغموض •

---

١ ـ جعله يملك زمام المعاني ، يتصرف فيها كيف شاء
٢ ـ الجريدة ٨ ديسمبر ١٩١٢

لسنا من الذكاء النادر، ولسنا من أهل الغباوة المطلقة ، بل نحن من أوساط الناس الذين لهم تؤلف الكتب ، وفيهم تنشر الرسائل ، وإليهم تساق الأحاديث، وهم المقياس الصحيح للايجاز والاطناب ، والاختصار والاسهاب • ومع ذلك نعلن أنا لم نفهم كتاب الرافعي، ولم نعرف ماذا أراد به ، ولا ماقصد إليه فيه •

ولقد اتهمت نفسي بادئة الأمر بالقصور عن فهمه ، فشاركت جماعة من أصحابي في قراءته ، فلم يكن حظي في الثانية أكثر من حظي في الأولى • غير أنا بعد القراءة الثانية نتهم أنفسنا أيضا، ونشرك القراء كافة معنا ، فلعل المرة الثالثة تهدينا إلى جلالة خطر الكتاب)[١] •

ومما تقدم نفهم أن طه في كلمته كان يتهكم على الرافعي ، وينتقص من قيمة كتابه بأسلوب ساخر مملوء بالغمز والطعن •

وبعد هذه الكلمة التمهيدية التي شرح فيها نفسه وعقله وحال القراء وعقولهم، انتقل الى الكتاب يستشهد منه بفقرات فقرات ، ثم يعقب على كل فقرة بكلمة ساخرة تسلب كل معنى للكتاب ، وتتركه ميتا بلا روح •

وأغلب انتقاداته راجعة إلى التشبيهات المجازية ، أو الصيغ اللفظية في تركيبها وطريقة عرضها ، كأن يفصل بين جزئي الجملة أو يباعد بين الظرف وجوابه كالمثال الذي نقله طه من قوله : أيها القمر! الآن••إلى قوله : وفرحا)[٢]

قال طه : (لاينتظر القارىء أن أنقل له جواب الظرف الذي بدىء به الكلام، فإن بيننا وبينه أمدا بعيدا) •

شبه الرافعي في كتابه هذا رجلا بظل ملك يتنقل في الأرض بتنقل الملك في السماء ، فقال طه : (فمن رأى من القراء ملكا في الأرض أو في السماء استطاع أن يفهم وجه الشبه ، أما أنا فلا أعرف الملائكة إلا في الكتب) •

---

١ ــ الجريدة ١٤ ديسمبر ١٩١٢

٢ ــ الجريدة ١٤ ديسمبر ١٩١٢ وانظر الفقرة في حديث القمر ص ٩

ويقول : (إن كتاب الرافعي غامض ، وتلك مزية أعترف بها ، فقد يكون من نعم الله على الانسان أن يبتليه بغموض اللفظ ، وخفـاء المعنى ليعتقد العـامة وأشباه العامة أنه إنما يكلمهم بلغة الفلسفة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن كانت الفلسفة تبرأ من الغموض والخفاء) •

ويستمر في ذكر مآخذ الكتاب فيقول : (وليس الغموض وحده هو العيب في هذا الكتاب ، بل هناك أمران آخران لابد من ملاحظتهما : أحدهما إغرابه في الاضافات والنسب ، حتى يخيل الى القارىء أن الرافعي إنما يكتب بلغة ليس بينه وبينها عهد في عالم لم يقع عليه حس الانسان ولم تطلع إليه نفسه لفهم الحقيقة وتمثال الفن الالهي • الثاني وجوه الشبه التي لايمكن أن تفهم ، لأن موضوعاتها أمور لم يهتد إليها إلا عقل الرافعي •

ثم يقول : (فهذا هو الكتاب النافع ، والسفر الجليل ، الذي يريد الرافعي أن يجعله نمطا لانشاء الطلاب)[1] •

المساكين

هذا الكتاب هو الثاني مما ألف الرافعي في الأدب الانشائي ، وذلك في سنة ١٩١٧ ، والحرب العالمية الأولى قائمة على قدم وساق • وكانت أخبـارها المزعجة تصل إليه صباح مساء ، فتؤثر في نفسه ، ويتألم مما أصاب الناس في الأرواح والعمران • وقد ازداد تألما حين شاهد خطرها يتهدد الأحياء جميعا ، حتى هؤلاء الذين يبعدون عن ميدان القتال كثيرا • وقد كانت الحرب سببا في المجاعة والقحط والغلاء •

وفي هذه الفترة صادف أن التقى الرافعي برجل قيل إنه يمثل نزعة صوفية بسيطة خالية من جميع الشعائر والطقوس ، تلك النزعة الطبيعية البدائية التي

---

١ ـ الجريدة ١٤ ديسمبر ١٩١٢

يتعشقهـا الرافعي ويتغنى بها • إن هـذا الرجل الصوفي يـدعى الشيخ علي الجناجي • التقى به الرافعي مرة واحدة فأثر في نفسه ، فكان سببا في هـذا الكتاب •

يقول محمد سعيد العريان : (وأول أمر الرافعي في تأليف كتاب المساكين أنه كان في زيارة أصهاره في (منية جناج) فلقي هناك الشيخ علي ، والشيـخ علي هذا رجل يعيش وحده ، وليس له جيب يمسك درهما ، ولا جسد يمسك ثوبا ، ولا دار تؤويه ، ولا حقل يغل عليه ، يجوع فيهبط على أول دار تلقاه ، يتناول ما يمسك رمقه ، ويدركه النوم فيمسك ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق • رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس ، وآمال الحياة • ولقيه الرافعي ، واستمع إلى خبره ، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب)[1] •

وقد سئل الرافعي مرة عن حقيقة هذا الرجل فقال : (إنه رجل حقيقي •• ولو رأيته لاستولى على نفسك ولأعجبك)[2] • ومع أن اللقاء لم يكن إلا عابرا ، لم ينطق فيه أحد بكلمة ، إلا أن أثره كان قد بذر بذرة طيبة في نفس الرافعي ومشاعره ، حتى كتب عنـه كثيرا من الفصول بعضها في غير هـذا الكتاب[3] • وما فتىء يذكره ويتحدث عنه طول حياته ، ويصفه بصفات فيها مايوحي بطبيعة الرافعي الصوفية •

يقول عنـه (هو حليم لنفسه ، غضوب لنفسه ، وكذلك هو في الخفـة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض • وفي كل ضدين منهما

---

١ ـ حياة الرافعي ص ٨٠

٢ ـ رسائل الرافعي ص ٢٦

٣ انظر السحاب الاحمر ص ١١٢

لذة وألم ، كأنه جزيرة قائمة في بحر لايحيط بها إلا المــاء ، فلا صلة بينهما في المادة ، وإن كانت هي فيه • فالناس كما هم ، وهو كما هو ، يرونه من جفوة الزمن أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى ؟ ويتحاشونه رأفة ورحمة ، ويتحاماهم أنفة واستغناء ، ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سقيط ، أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه ، فيألم وكأن ألمه مرض طبيعي يعتريه ، ولا فرق عنده في هــذه الحال بين أن يمغص بطنه بالداء ، أو يمغص ظهره بالعصا •

وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة ، غير أن أمرها مختلف جدا ، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها لأنها لم تظفر به)[1] •

يقول محمد سعيد العريان : (إن الكتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب التي حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء، والشيخ علي)[2] •

وأضيف إلى ما قاله العريان سببا آخر ، وهو أن الرافعي ألف هذا الكتاب ليعارض به كتاب البؤساء لفكتور هيجو ، ذلك أنه سمع بشاعر فرنسا ومشاعره الانسانية نحو الضعفاء البائسين ، وسمع بشهرته وماله من سمعة طيبة ، وما لمؤلفاته من رواج ومن صبغة قاتمة ، فاستهوته هذه الخلال ، وكان هو نفسه أديبا إنسانيا ، وقــد قرأ ترجمة الجزء الأول من البؤساء الذي ترجمه حــافظ إبراهيم من الفرنسية إلى العربية سنة ١٩٠٣ ، فأعجب به وبلغته ومعانيــه وأهدافه ، فأثر ذلك في نفسه ، وكان إذ ذاك لايزال في أول الطريق ، فلم يستطع أن يفعل شيئا ، لمــا تراكم عليه من أعمــال أدبية وغير أدبية ، وبقيت الفكــرة تختمر في ذهنه إلى أن التقى بالشيخ علي ويؤيد هذه النظرية ماكتبه الرافعي نفسه عن ترجمة حافظ للجزء الثاني من البؤساء سنة ١٩٢٢ • فما كتبه عن هذا الجزء ليدل على أنه اطلع على الجزء الأول وأعجب به •

---

١ ــ المساكين ص ٣٩
٢ ــ حياة الرافعي ص ٨٢

قال الرافعي : (ترجم حافظ هذا الجزء الثاني من البؤساء فطوى به الأول ، وكانوا يحسبون الأول قد عقمت بمثله البلاغة ، فلا ثاني له ، وبين الجزئين زمن لو اتسع به أديب في قراءة الأدب لاستوعبها كلها ، فكأن ارتفاع السن بحافظ في هذه المدة جعل منه في قوة الأدب حافظين يترجمان معا • وما البؤساء في ترجمته إلا فكر فيلسوف تعلق في قلم شاعر ، فانعطفت عليه حواشي البيان من كل ناحية ، وجاء ماتدري ، أشعرا من النثر ؟ أم نثرا من الشعر ؟ وخرجت به من الكتابة في لون من الصفاء،والاشراق،كأنما تتحمل عليه أشعه الضحى)[1]•

ومن أجل ذلك نرى أن الرافعي قد عارض كتاب فكتور هيجو بعد أن اطلع على فكرته العامة ، واتجاهاته الانسانية،فرأى فيه مايمثل نزعتهالشخصية، وينطبق في نفس الوقت على الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي يسود بلاده في تلك الآونة •

والمعروف عن الرافعي مصارعته للعماليق ، فقد عارض المتنبي[2] في بعض قصائده ، وعارض أبا البقاء كما مر بنا[3] ، وعارض جوت الالماني في آلام فرتر كما سنرى في رسائل الأحزان ، وألف كتاب أوراق الورد ليعارض اللغة الفرنسية والأوربية، بل جميع اللغات باللغة العربية ودقائق معانيها كما سيتضح لنا ذلك عند حديثنا عن أوراق الورد •

وقد قص علينا الأستاذ العريان بعض المآسي التي كانت تسودالبلاد آنذاك بسبب الحرب فقال : (لقد وقعت الحرب العالمية الأولى ، واستعرت نارها في الميادين البعيدة ، ولا يبلغ الينا منها نار ولادخان ، ولايراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء • فلم يكن ضحاياها في مصر بالجوع والمتربة ،

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٤٢
٢ ــ انظر ديوان الرافعي ج٣ ص ٩١
٣ ــ انظر ص ١٠٥ من هذا الكتاب

أقل عديدا من ضحاياها هناك في الميدان)[1] •

ويقول الرافعي في نفس المأساة التي سببتها الحرب : (هلك وتعطل بها نحو ثلاثين مليون نسمة ، فكانت حصادا للارض وأهلها • عمل فيها الموت والفقر والخراب جميعا)[2] •

(والكتاب فصول شتى ليس له وحدة تربط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الانسانية ، كثيرة الألوان ، متعددة الظلال ، تلتقي عندها أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ،وصرخة اللهفان المستغيث • فهنا صورة الشيخ علي الذي يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس ، لأنه يعيش في نعمة الرضا، وإلى جانبه قصة الغني الشيخ الذي حسب أنه سيطر على الحياة ، لأنه ملك المال ، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التي انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع ، فوهب لها المال ، ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة • وهذا ، وهذه ، من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع)[3] •

إن الفكرة العامة في الكتاب فكرة إنسانية ، جعل بعضها على لسان الشيخ علي ، وبعضها الآخر على لسانه هو ، وغايته أن يوفق بين المتناقضات ، أو ما يبدو أنه من المتناقضات ، كالغنى والفقر ، والحب والهجر ، والسعادة والشقاء ، والكرم والبخل • فكل هذه الأشياء أو المعاني يراها لازمة للحياة (حتى يظل الناس ناسا لا ملائكة ولا شياطين)• فإن من عجيب حكمة الله ، أنه لا صلاح للعالم إلا بالفساد الذي فيه • بيد أن في كل شر جهة الخير ، أو جهة تتصل بالخير • فإذا صلح فهمه ، صلح هو أيضا ، أو كأنه صلح لظهور حكمته والوقوف به عند حد الشر الطبيعي ، وهو الشر الذي لا بد منه •

فليكن الفقر والحسد والطمع والبخل، ولكن برضىً يسنع السخط،وسكون

---

١ ــ حياة الرافعي ص ٧٧
٢ ــ المساكين ص ١٩٨
٣ ــ حياة الرافعي ص ٨٠

يكسر شرة النفس ، ورفق لا يعنف على الحق ، واعتدال يقر كل شيء على حدة . يومئذ يجد الانسان في كل نزوة من نزوات جنونه شيئا من الحكمة ، أو على الاقل شيئا يمكن من بعض الوجوه أن يسمى في باب المنفعة الانسانية حكمة) [1] .

وجاءت كلمة له عن غرض الكتاب ، قد توضح هذه الفكرة ، وهي قوله : (إني وضعت هذه الاوراق ، وكتبت فيها عن الفقر ، وما هو من باب الفقر ، لا لمحوه ، ولكن للصبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ، ولكن للعزاء عنه ، ثم كتبت عن الغنى وما إليه ، لا رغبة في إفساده على أهله ، ولكن لاصلاح ما يفهم منه غير أهله ، وأدرت الكلام في كل ذلك على الوجه الذي يراه الشاعر في ضحك الطبيعة ورقتها ، دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوف في عبوس المادة وجفائها ، ونحوت به نسق العقل في بث خواطره للنفس ، لأني أريد به النفس في مستقرها . وجئت به من مبرق الصبح لا من غياهب الليل ، وأطلقته من أفق الايمان لا من قرارة الشك ، وأردت به تفسير شيء في حكمة الله ، في شيء من أغلاط الناس)[2] .

واستهل الكتاب بالحديث المأثور (اللهم أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين)[3] .

وقال : (لما أجمعت النية على طبع هذا الكتاب طبعته الاولى ، رأيت فيما يرى النائم : أني في دار الطبع التي اخترتها له ، وقد سألني جامع الحروف أن أكتب المقدمة ليبدأ منها ، فكتبتها ثمة ودفعتها إليه ، ثم استيقظت وما برحت تدور لساني . وتالله إن خرمت منها حرفا ، وهذه هي بنصها ، وكأنها فاتحة الكتاب من قلم الغيب :

---

١ ــ المساكين ص ٢٢
٢ ــ المساكين ص ٣٣
٣ ــ المصدر السابق ص ١١

(هذا كتاب المساكين ، فمن لم يكن مسكينا لا يقرؤه ، لأنه لا يفهمه ، ومن كان مسكينا فحسبي به قارئا والسلام)[1] .

وقد كتب كثير من الأدباء والباحثين عن البؤس وأهله ، فكانت طريقتهم تختلف عن طريقة الرافعي في كتابه هـذا . فكان بعضهم ينقل صور البؤس والبائسين في أسلوب قصصي حزين ، يبعث في النفس الشفقة والرأفة ، كالذي في البؤساء لفكتور هيجو ، وبعضهم يصور البؤس والألم والحرمان في شكل رسائل ، ويؤرخها باليوم والشهر كما فعل الأديب الروسي دستويفسكي في كتابه المساكين[2] .

أما الرافعي ، فلاءم بين الفكرة الأساسية في الكتاب ، والذوق العربي الذي يهتم باللغة واللب أكثر من اهتمامه بتاريخ اليوم والشهر والسنة . وقد سلك فيه مسلك الأديب الاجتمـاعي ، أو الأديب الانساني ، فجاء الكتاب بأسلوبه وموضوعه ذا قيمة أدبية واجتماعية بل أخلاقية أيضا ، لأنه لم يخل من معاني الفضيلة . ولعل الرافعي كان يتمنى أن يكون كتابه مقررا على الطلبة ، لما اشتمل عليه من الموضوعات الأخلاقية والاجتماعيـة ، ولكنه لأمر ما لم يتقدم به الى الوزارة ليحقق أمنيته . والسبب لم يذكره لنا ، وكل ما ذكره هو قوله : (كنت أطمع أن تقرر المعارف « المساكين » ولكني لم أسع بعد . ولعنة الله على زمن يحتاج الحق فيه الى السعي)[3] .

ومـع أن الكتاب فيـه الدموع والصـراخ والزفـير بسبب الجـوع والمرض، فإنه لايبدو قاتما حالكا مثل بعض الكتب التي ألّفت في هذا الموضوع. فالقارىء الذي يطالـع مساكين دستويفسكي وبؤساء فكتور هيجو ، يشعر بمرارة الحرمان التي يعانيها أبطـال القصص في الحب العاثر ، أو في عـدم

---

١ ــ المساكين ص ١٠
٢ ترجمه الى العربية صوفى عبد الله سنة ١٩٥٢
٣ ــ رسائل الرافعي ص ١٥٨

الاستقرار النفسي والفكري في هذه الحياة • ومن أجل هذا الحرمان يستشعر القارىء ذاك الألم ، ويعاني منه ، ويبقى في نفسه بعد قراءة الكتاب ماثلا أمام عينه في صور حزينة كما صورها المؤلف • وقد تبقى هذه الصور الحزينة ما بقي قارؤها على قيد الحياة • ومن منا قرأ قصة جان فالجان لفكتور هيجو وما آلى إليه أمره ثم ينساها ؟

بينما كتاب الرافعي ، وإن كانت فكرته مشابهة للكتابين ، إلا أن آلامه أخف وطأة على القلب والمشاعر مما في الكتابين ، وهذا يرجع إلى منهج الرافعي في الكتاب • ذلك أنه بحث كل فكرة بحثا واقعيا أساسها التفاؤل لا التشاؤم، إذ أدرك أن في الحياة كثيرا من المتناقضات ، أو ما يبدو أنها من المتناقضات ، ولكنها ضرورية للحياة ، لأن بها يعرف معنى الصبر ، ومعنى القناعة بالنسبة للفقير ، وبها يعرف معنى الكرم والبذل بالنسبة للغني •

وهذا المنهج يعطينا فكرة عامة عن سائر الكتاب ، ومن أمثلة ذلك قوله : (سألت القبر : أين المال والمتاع ؟ وأين الجمال والسحر ؟ وأين الصحة والقوة ؟ وأين المرض والضعف ؟ وأين القدرة والجبروت ؟ وأين الخنوع والذلة ؟

قال كل هذه صور فكرية لا تجيء إلى هنا ، لأنها لا تؤخذ من هنا • فلو أنهم أخذوا هدوء القبر لدنياهم ، وسلامة لنزاعهم ، وسكونه لتعبهم ، لسخَّروا الموت فيما سخروه من نواميس الكون •

إن هؤلاء الباحثين يحملون في ذواتهم معانيهم الميتة ، وكان يجب أن تدفن وتطهر أنفسهم منها ، فمعنى ما في الانسانية[1] من شر هو معنى ما في الناس من تعفن الطباع والأخلاق •

يكذب أحدهم على أخيه فيعطيه جيفةَ حقيقةٍ ميتة ، ويكيد بعضهم لبعض

---

١ ـ يستعمل الرافعي الانسانية بمعنى البشرية في سائر كتبه حتى الحديث منها .

فيتطاعمون من جيف الحوادث المسمومة ، ويمكر الخائن ، فإذا جيفـةُ عمل صالح قد مات . فكل مضغة تبتلعها من حق أخيك الحي هي كمضغة تفتلذها[1] من لحمه وهو ميت ، لا تعطيك إلا جيفة ، ثم أنت من بعد ، لست بها إنسانا؛ ولكنك وحش بل دنيء ، ليست فضيلة الوحشية التي من قوة تأبى أن تسس لحوم الموتى)[2] .

وواضح أن هذا المقال قد أعطاناصورة عامة علىالنغمة التي تسود الكتاب؛ وهي نغمة ليست شديدة الوقع على النفس ، لأنه بحث الفكرة مجردة عن كل شيء ، فهي لا تتصل بإنسانبعينه ، وإنما هي فكرة عامة مستقلة عن كل شخص؛ ولكنها قد تصدق على هذا أو على ذاك . ومن ثم كان تأثيرها في النفس كما في العقل قليلا .

ولنقرأ له بعض الأمثلة في الخصائص الاجتماعية كالغنى وحب الذات . يقول : ولو أن رجلا من هــؤلاء الذين بسط الله لهم فقبضوا ، وجاد عليهم فبخلوا ، وأعطاهم ، فأمسكوا ، قد أراد الله به خيرا فوقاه شح نفسه ، ويسر له في أخلاقه ، ومكن له باب البذل والجود ، وأتاه من حب الخير بعض ما ابتلاه من حب المال ، لرأيت حياته توسعة على قوم في معاشهــم ، وإحياء لقوم في آمالهم ، وعتادا لقوم في أعمالهم ، ومنفعة لآخرين من وجوه كثيرة ، ولرأيت في غناه بركة العدل ، ورحمة الأمن ، وعصمة الخلود ، فكأنه استجمع في حياته الطيبة خيرات الأعمار الكثيرة ، وكأنه أمة في نفسه ، ثم لايكون رجل أحب إلى الناس، ولا أجدر بطبيعة الحبالانساني منه ، ثم لا تجد اسمه إلا في واحد من ثلاث : إما صفحة تكتبها الأعمالللتاريخ، أو صفحة يفردها الناس للأخلاق، أو صفحة ترفعها الملائكة إلى الله)[3] .

---

١ ــ التفليذ : التقطيع . افتلذت المال أخذت منه فلذة (قطعة)

٢ ــ المساكين ص ٥٨

٣ ــ المساكين ص ٣٠

ويقول : (إن لنا على هذه الأرض حياة واحدة ، علم أهل العلم أنها حقيقة مسرعة بين أوهام ، فهي ما تبرح تجاهد كل شيء ، ولا تثبت أطول من مدة جهادها إلى أمد غايته أرذل العمر ، وعرف أهل الجهل أنها تتقدم إلى الموت ، وأن الموت يتقدم إليها . فهما لا بد ملتقيان ، لا العلم ولا الجهل يرتاب، أو يشك في الموت ، ولا الفقر ولا الغنى ولا الصحة ولا المرض ، ولا شيء من خصائص الأحياء ، لأنه ليس على الأرض حي قديم ، ولكنّ العالم والجاهل ، والفقير والغنيّ ، والصحيح والمريض ، كل هؤلاء يخالفون الموت ، ويحرصون على الحياة ، إلا قليلا منهم . فليتهم علموا أن النفس روحية ، وأنها تألم لهذا الخوف ، ولا تقار عليه ، إذ هي لا تعرف الموت لأنها خالدة ، ولكنها تعرف الألم لأنها في غير دار خلود . ومعنى ذلك أن الانسان يخاف الموت ، فيتصل هذا الخوف بالنفس ، فترده إلى حوادث الحياة ، فتخيفه هذه الحوادث ، فيذله هذا الخوف ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت)[1] .

بهذا الاسلوب الذي تناول به موضوعاته يكون قد جمع بين عدة خصائص، منها خصائص الكتاب الاجتماعيين الذين يبحثون موضوعاتهم على أسس علمية، ليصلوا إلى نتيجة محققة. ومنها خصائص الأدباء الشعراء الذين يكتبون بوحي الوجدان والمشاعر ، فإذا أساليبهم ترهف الطباع وتلين القلوب ، بل إن في الكتاب خصائص أخرى هامة ، وهي هذه التي تتعلق بفلسفة الحياة والموت ، كما في المثال السابق ، ويمكن أن نطلق عليها اليوم الفلسفة الدينية . ذلك أن الرافعي لم يطرق هذه المعاني الدينية على طريقة الأقدمين ، وخاصة ذوي المنابر أو المجالس الدينية ، وإنما حللها بما يلائم عصره، فأضاف إليها من أسلوبه وفنه، فجاءت مزيجا من الفلسفة الدينية والأدب .

ويخيل إلي أن الرافعي تأثر كثيرا بالأفكار الاجتماعية التي أخذت تنتشر على يد كتاب قديرين من رجال الصحافة والأدب ، أمثال المويلحي وقاسم أمين

---

١ ـ المساكين ص ١٠٣

وأحمد لطفي السيد وغيرهم ممن كانوا ينشرون مقالات اجتماعية في نقد الأوضاع السائدة في البلاد آنذاك •

لقد كتب هؤلاء في الموضوعات الاجتماعية وفي أصحابها ، سواء منها ما يرجع إلى العرب أو إلى الغرب • فقد تحدثوا عن ابن خلدون وفكرته العمرانية ، كما تحدثوا عن روسو وفكرته الاجتماعية ، وقارنوا بين هذا وذاك ، وقالوا كلمتهم ، كما كتبوا عن مفكرين آخرين ، وبثوا آراءهم في جميع الأوساط الأدبية •

وهذا مما لا شك فيه يجعل الرافعي يطلع على كثير من مثل هذه الافكار والآراء ، حتى كون من مجموعها فكرة خاصة به ، وصاغها في أسلوب بديع ، جمع فيه بين نغمة الكتاب الانسانيين النائحين مثل المنفلوطي ، وبين نغمة الباحثين الاجتماعيين والاخلاقيين ورجال الاصلاح أمثال المويلحي ومحمد عبده •

يقول الرافعي في المعاني الاجتماعية : (الانسان إنما خلق اجتماعيا ، وهو بشخصه لاقيمة له ، ولا منفعة إلا حيث يكون شخصه جزءا من مجموع ، لأن اليد الواحدة في الجسم ولو كانت يد ملك ، وكان فيها زمام العالم ، فإنها لايفارقها عيب أختها المقطوعة • وكل خلل في النظام الاجتماعي ، فإنما مرده إلى طغيان بعض الأفراد ، وجنوحهم إلى أن تكون شخصية الواحد منهم من الكبر والعظمة ، بحيث توازن المجموع أو أكثر المجموع • بيد أن هذه الموازنة الفردية متى اتفقت كانت إخلالا بالموازنة الاجتماعية ، لأنها تجعل كل حركة من هذا الفرد زلزلة في المجموع ، كالثقل في إحدى كفتي الميزان : إن خف سقطت الكفة الأخرى ، وإن ثقل شالت ، وهو السقوط إلى فوق •

والموازنة الاجتماعية لا تتهيأ إلا إذا تطبعت قوى المجموع فاندفعت في تيار واحد إلى جهة معينة ، ولكن الموازنة الفردية لا تستقيم إلا إذا جاءت من عكس هذه الجهة ، فتصد قوة المجموع ، وتبقى دائما ذات قوة على صدها ، ومن الغلبة ، فإنّ ضعف خصمه يعطيه منها أكثر مما تعطيه قوة نفسه • ولا يكون

ضعف المجموع إلا من حصر الشخص العظيم قوة عقله ونفسه وضميره في هذا السبيل الفردي ، لتكون منه الشخصية الهائلة التي تشبه ما كان في تاريخ الوثنية من شخصيات الآلهة وأنصاف الآلهة)[1] .

ولم يفته أن يتناول مشكلة المرأة ووضعها الاجتماعي ، من حب وبغض وشعور رقيق وافتقار إلى رجل . وكذلك تناول الموضوعات الأخرى التي لها علاقة بالأفكار الاجتماعية والاخلاقية ، من مثل التعاون والاشتراكية والسعادة والشقاء والحظ .

وبعد أن مضى على الكتاب أكثر من عشر سنين ، كتب مقـالا في مجلة المقتطف عن مشكلة الغنى والفقر ، وجعل عنوانه هكذا (أمن عصر العقـل إلى عصر القلب ؟ أم من عصر العقل إلى عصر المعدة؟)[2] انتقدفيه الذين يقولون بأن مشكلة الفقر تحل وفق دراسات عقلية. وقال : إن الحل الصحيح لا يكون إلا بالايمان .

وهذا الايمان نفسه هو الذي نجده منبثا في كتابه المساكين ، ويفسره على هذا النحو (وإنما الأيمان هو ذلك المعنى الذي يلقي على روحك السكينة ، لأنها متصلة بالله ، وفي ضميرك المحبة ، لأنه متصل بالناس ، وهو ذلك المعنى الذي يعلمك ما أنت ممن حولك ، وما حياتك مما وراءها ؟ وهو ذاك الاعتقاد الكبير الذي تصغر عنده الحياة بما فيه من الخير والشر...)[3] .

كتب سلامة موسى كلمة طويلة في انتقاد أهل القديم ، ومنهم الرافعي في كتابه هذا ، فقال : إن الرافعي (لا يكاد يؤمن بالعلم ، بل لا نجد له أثرا في جميع كتاباته ... فإنه يعتقد أن الفقر ضربة لازب ، قد حكم به الله ولا مرد لحكمه ، كأنه لم يسمع عن الاشتراكية في حياته) .

---

١ ـ المساكين ص ٧٢
٢ ـ المقتطف يناير ١٩٢٩ ص ١٥
٣ ـ المساكين ص ١٨٧

ثم نقل قطعة نثرية من مقدمة كتـاب المساكين ليستدل بها على قوله ، نكتفي ببعضهـا وهي : (فالناس مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقـر ، إذ حاصروه من جهاته الأرضية ، وقد ترامت ، وضيقوا من حـدوده السماوية ، وقد تراحبت . وإنما هو طبقة معنوية فوق الأرض ، وإنما هو أسلوب خاص في نظام الكون ، ولا سبيل إلى التنقيح والتحرير في أساليب الله نصرفها عن معانيها ، أو تتكذب في تأويلها ، أو نرد عليها ما ليس منها ، وإنما الشأن كله أن نحسن الفهم عن أوضاع القدرة الالهية بمقدار ما نستبين فيها من الحكمة . فإن في ذلك صلاح أنفسنا . وما جعل الله سبيل المصلحة والمفسدة إلا مـن أفهامنا)[1] .

هذه القطعة التي استدل بها سلامة موسى على منهج الكتاب وضعفه في الناحية الاجتماعية ، نقلها من المقدمة ، وليست هي كل الكتاب ، فقد جاء فيه من المعاني الاشتراكية ما ليس بالقليل ، ذكرنا بعضها ، ونضيف هنا كلمـة موجزة تتصل بما قبلها وهي قوله : (إن الأنسان لا يعيش فردا ، ولكنه حين يموت يموت فردا . فإذا رأيت فقيرا منبوذا من الأجتماع ، منفردا عنه لا يساهمه في عمله وعيشه ، بل كأنه يعيش في بقعة مجهولة من الحياة ، فاعلم أن إهمال ذلك الفقير إنما هو نوع من القتل الاجتماعي)[2] .

إن قول سلامة موسى : إن الرافعي لا يكاد يؤمن بالعلم ، وكأنه لم يسمع بالاشتراكية في حياته ، فهو قول بعيد عن الحقيقـة . فكتاب المساكين كتاب إنساني ، فيه من المعاني الاشتراكية الشيء الكثـير ، ولكن الرافعي يصبغها بصبغة دينية وأخلاقية لأنه يرى أن الأساس الأول في بناء المجتمع ، إنما هو في العقيدة والايمان . ومتى تم ذلك جاءت جميـع المعاني الأخرى من تلقـاء نفسها .

---

١ ـ المساكين ص ٢١ الهلال يناير ١٩٢٤

٢ ـ المساكين ص ٧٣

ونختم الحديث عن هذا الكتاب بكلمة جاءت في المقتطف وهي : (والكتاب ... تطالعه كأنك تطالع رسائل المعري ، أو مناظرات الجاحظ ، أو تعاليم سقراط ، أو حكم كنفوشيوس . فيحسن أن يكون كتاب مطالعة في كل المدارس حيث يبتغي فصيح اللغة ، والتمرس بالانشاء البليغ)[1] .

رسائل الاحزان

ألف الرافعي هذا الكتاب في الآنسة مي بسبب تعلقه بها . كان سمع بها وبأدبها ونشاطها ، فتاقت نفسه إلى رؤيتها . وما كاد يستقر به المجلس أمامها، وينطق ببعض الكلمات ، حتى أخذ بسحرها ، وبدا عليه التأثير والأنفعال ، ولم يقو على ما به[1] .

ويبدو أنها لاحظت ما حل به ، وسرها أن ترى منه ما رأت ، لأنها عرفت مصدره وأنها السبب، ولذلك بدا لها ــ على ماأظن ــ أن تلهيه بشيء مما عندها، فابتسمت له ، أوضحكت ، أو تظاهرت بالأعجاب به ، فإذا هو يعتقد أنه ملك عليها أمر نفسها ، واستولى على مجاميع قلبها ، وأنه أحظى الناس جميعا .

وهذا الرأي لا أستبعده ، لأن المرأة بطبيعتها ، تود دائماً ، أن تكون بطلة المجالس ، ويعجبها أن تملأ بحسنها وفتنتها عيون الرجال . لقد جاء في رسائل الأحزان شيء من هذا[3] ، وجاء أيضا عمن كتبوا عنها ما يشبه هذا . قالت هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي المصري إثر وفاة الآنسة مي : (لم تكن ذات جمال خِلْقي بالمعنى الصحيح ، إلا أنها بين الجميلات كانت لا تبدو أقل منهن فتنة وجاذبية بشيء مستبهم يكسبها هذا الجمال ، ولعل ذلك الشيء هو الذي حار في كنهه الشاعر فقال :

---

١ ــ المقتطف يوليو ١٩١٧

٢ ــ انظر حياة الرافعي ص ١٢٢١ .

٣ ــ انظر رسائل الأحزان ص(٧٠ ص ١٥٣) وهذه الصفحات

شيء به الورى غير الذي يدعى الجمال ، ولست أدري ما هو؟)[1] •

وتوالت زيارة الرافعي لها بعد ذلك ، وكان يحظى منها بجميل اللقاء ، وهو سعيد بشابته الفاتنة ، إلى أن حدث أمر قلب له ظهر المجن ، وغير مجرى حياته الأدبية في كثير من المعاني والاتجاهات ، ومن هذه المعاني والاتجاهات كتابه هذا رسائل الأحزان ، وكتابان بعده هما : السحاب الأحمر وأوراق الورد •

والذي حدث ليس بشيء ذي بال ، ولكن الرافعي اهتم به وقلق له ، لذلك أسرع إلى هجرانها ، وأعلن هذا الهجران في رسالة بعث بها إليها • وكان يظن أن الأمر سيقف عند هذا الحد ، ولكن ما كاد ساعي البريد يحمل رسالة القطيعة إلى صاحبته ، حتى هاجت نفس الرافعي هيجانا أليما حزينا ، نسمع زفيره في هذه الرسائل الحزينة التي فلسف فيها الجمال والحب كما شعر به ، وكما اكتوى به من صاحبته •

ولم تهدأ نفس الرافعي بهذه الرسائل ، بل سبحت في سحاب أحمر قان ، يصفه في بعض عباراته بأنه يشبه القلب الجريح الذي يترقرق دما[2] كما سنرى في كتابه السحاب الأحمر •

ثم هبطت نفسه من عالم السماء إلى عالم الأرض ، لكن لا لتستقر فيه وتخلد إلى الراحة بعد أن أعياها التحليق في الأجواء البعيدة ، بل لتعيش في عالم الزهور فتشقق من معاني وروده ما عجز عنه غيره من الأدباء ، كما سيتضح هذا في كتابه أوراق الورد •

والآنسة مي لبنانية الأصل مثل الرافعي ، نزحت مع أبويها إلى مصر في بداية هذا القرن • وما إن شبت وأخذت بأساليب اللغة العربية ، حتى أنشأت ناديا في القاهرة للمسامرات الأدبية ، يؤمه جمع غفير من الأدباء والشعراء أيام

---

١ ـ مي : مجموعة الخطب التي قيلت في ذكراها ص ١٦ .
٢ ـ انظر السحاب الأحمر ص ٥ .

الثلاثاءات ، يتناقشون ويتحاورون في مختلف الفنون والعلـوم ، ورائدهم جميعا تنوير الأفكار ، وبعث الثقافة واللغة العربية بعثا جديدا . وكان من بين رواد هذا النادي صاحبنا الرافعي .

انقطع الرافعي عن صاحبته حولا كاملا ، ثم في سنة ١٩٢٤ أصدر كتابه هذا ، وكانت طريقته فيه تشبه إلى حد بعيد طريقة الكاتب الألماني (جوت) في كتابه (آلام فرتر) . ألا يكون كتاب رسائل الأحزان معارضـة لآلام فرتر ؟ إن الرافعي تحدث عن هـذه المعارضة كثيرا ، فقال : إن كتاب أحـزان فرتر : (مشهور في لغات أوربا وآدابها ، فأنا أريد معارضته . وقد قام في ذهني أن لا راحة لي إلا إذا أخرجت مثله)[1] .

وكتاب آلام فرتر مشحون بالآلام والشجون ، وهو ما عناه الرافعي بقوله: (سأتفرغ ــ إن شاء الله ــ لتأليف جديد يكون قصة شقـاء وحزن وبؤس وعذاب ولهفة وهوى)[2] .

يخيل إلي ، أن الكتاب معارضة لآلام فرتر ، وأن الدافع إلى ذلك ما قرأه في مقدمة الدكتور طه حسين التي كتبها لكتاب آلام فرتر الذي ترجمه الزيات من الفرنسية إلى العربية سنة ١٩٢٠ . فقد جاء في هذه المقدمة ما يغري بالاقتداء والمعارضة ، منها تشابه العصرين ، عصر أوروبا الذي كتبت فيه آلام فرتر ، وعصر الرافعي ، ثم تشابه المؤلفين في النزعات النفسية والفكرية ، وغير هـذه الخلال التي يصورها لنا الدكتور طه بقوله : (إن كتاب آلام فرتر يمثـل حياة الآداب الأوربية في عصر هي أشد العصور شبها بهذا العصر الذي نسلكه. فقد كانت أوربا حين كتب جوت آلام فرتر تعبر عصر انتقال كعصرنا الذي نعبره ... سئمت مثلنا كل قديم ، وشغفت مثلنا بكل طريف ، وودت لو أراحها الكتاب والشعراء من تلك الأساليب العتيقة التي ألفوها فيما يكتبون وينظمون ، ومن

---

١ ــ رسائل الرافعي ص ٧٥ .
٢ ــ المصدر السابق ص ٧٤ .

تلك الآراء البالية التي كانوا يرددونها في كل ما يقولون ، حتى كأن حياتهم العقلية والنفسية لم تكن إلا صورة وفق الأصل ، لحياة من سبقهم من الكتاب والشعراء ، مع تغير الأحوال الاجتماعيةوالسياسية ، واستحالة النظرياتالعلمية والفنية • وليس على هذا السأم والملل من دليل يعدل ما كتبه جوت إلى أحد الشعراء (دعني أشعر بشيء لم أحسه من قبل ، وأفكر في شيء لم أعهد التفكير فيه) •

ثم ينتقل إلى ذكر شخصية جوت فيقول : (كان جوت شديد الاعتراف بشخصيته ، والميل إلى إظهارها ، فلم يستطع أن يسلك طريق غيره من الكتاب ، فيتخذ لكتبه وقصائده موضوعات لاتمس شخصه ، ولا تتصل به ، بل كان في كل ما كتب إنما يعبر قبل كل شيء عن عواطفه الخاصة ، وما لقي في دهره من خير وشر) •

وينتقل إلى القصة فيصفها بقوله : (ليست آلام فرتر قصة منتحلة ، أو بناء متكلفا استعيرت أجزاؤه المختلفة من الخارج ، إنما هي قصة ما أصاب جوت نفسه إبان شبابه • ومن هنا برىء الكتاب مما يشوه غيره من آفة الكذب والاختراع) •

وأخيرا ينتقل إلى الكتاب فيقول عنه : (إن آلام فرتر ليست من السهولة واليسر بحيث يستطيع القارىء أن يفهمها لأول قراءة ، بله القدرة على نقلها وترجمتها ، ذلك لأنها صورة نفس كبيرة ، دقيقة الحس والعاطفة ، هي نفس جوت ، ولأن فيها من دقيق الوصف الحسي من جهة ، والآراء الفلسفية من جهة أخرى ، ما يعسر فهمه والوقوف عليه • أضف إلى ذلك أن اللغة العربية لم تألف هذا النوع من الوصف والفلسفة ، لأن أبناءها لم يسلكوا بها هذا الطريق)[1] •

---

١ — مقدمة آلام فرتر .

إن جميع هذه العناصر التي ذكرها الدكتور طه في مقدمته موجودة في رسائل الأحزان ، وقد توخاها الرافعي جميعها ، سواء ما يتعلق منها بالقصة من حيث واقعيتها ، أو بالكتاب من حيث صعوبته ، أو شخصه هو في إيمانه بشخصيته واعتزازه بها •

وكل هذه العناصر ستتضح لنا فيما بعد ، ولذلك فلست أشك في أن الرافعي اطلع على هذه المقدمة فوجد فيها العناصر الرئيسية للكتاب فاستساغها، ثم اطلع كذلك على الكتاب كله ، فرأى فيه نوعا من الأدب الوجداني ليس للعربية به عهد في بعض جوانبه الفلسفية والتعبيرية ، فإذا هو يجد في نفسه رغبة في معارضة الكتاب ليكون أول مؤلف عربي يكتب عن هذا الفن الغرامي بالطريقة الحديثة ، طريقة التأثر والانفعال ، والرضا والسخط ، والاذعان والثوران ، وهي طريقة جوت نفسه كما سبق أن ذكرنا •

ويؤيد هذه النظرية تشابه الكتابين في عدة عناصر منها :

١ ــ وحدة المنهج ، فكلاهما ألف على شكل رسائل •

٢ ــ وحدة الموضوع ، فكلاهما تعبير عن حب يائس •

٣ ــ وحدة الطريقة • كلا المؤلفين يتحدث عن نفسه تحت اسم آخر ، حقيقي عند جوت وهو فرتر ، ورمزي عند الرافعي وهو الشخص الذي جرده من نفسه ، بالاضافة إلى تشابه النفسين في المشاعر • فكلاهما يغضب مرة ، ويرضى أخرى ، وينفعل ويهدأ ، ويقسو ويلين ، ويتعاظم طورا ويتواضع طورا آخر • ويضاف إلى كل ما تقدم تشابه الكاتبين في تحليل مشاعرهما بطريقة فلسفية •

وقد كتم الرافعي بعد التصريح أمر المعارضة ، فما السبب في ذلك ؟ إن الغرض من وراء ذلك أن يحقق لنفسه الأسبقية في هذا النوع من الأدب • وآية ذلك ، أنه أهدى إلى الدكتور طه حسين نسخة من كتابه رسائل الأحزان،

وسأله أن يقول فيه كلمة • وكان يعتقد أن الدكتور طه سيقول كلمة حسنة كما قال في آلام فرتر كلمة حسنة ، لأن تشابه الكتابين في الموضوع والطريقة ، وتشابه المؤلفين في التفكير والمشاعر ، قد يذكر الدكتور طه بما كتبه في مقدمة آلام فرتر ، فيكتب عن هذا الكتاب مثل ما كتب عن ذاك ، ولكن الأمر كان عكس ذلك •

وهنا نتساءل : ما السبب في أن يثني الدكتور طه على آلام فرتر ، ويعيب رسائل الأحزان ؟ مع أن الكتابين متشابهان ، والمؤلفين كل منهما نسخة للآخر في التفكير والشعور • ألأن جوت من رجال الغرب ، والرافعي من رجال الشرق ، وكل ما هو غربي محمود ، وكل ما هو شرقي مذموم ؟ أم هناك مبدأ عام ؟ أم هي مسألة شخصية ؟

أعتقد أن وراء تهجم الدكتور طه على الرافعي وكتابه لا يرجع إلى ما يتعلق بالشرق أو الغرب أو المبادىء العامة ، وإنما يرجع إلى مسألة شخصية ، وهي أن الرافعي عملاق في الأدب ، بأسلوبه وبيانه وفصاحته ، والدكتور طه عملاق في الأدب أيضا بأسلوبه وبيانه وطريقة كتابته ، غير أنهما يختلفان في المبدأ والغاية• فالرافعي من أنصار القديم ويسعى أن يكون له حاميا ، والدكتور طه من أنصار الجديد ويسعى أن يكون زعيمه • ومتى انتصر أحد المذهبين انتصر زعيمه وسقط الزعيم الآخر بمذهبه إلى حيث لايسمع له إلا أنين ضئيل يخبر أنه كان يوما ثم اختفى •

سعى الدكتور طه هذا السعي ليسقط الرافعي ومذهبه ، ويبقى هو الزعيم الوحيد في دولة الأدب ، وهذا ما دعاه إلى أن يحطم خصمه الرافعي بكل الطرق • وآية ذلك ما نجده للدكتور طه من تناقض في مسألة واحدة • فقد كتب في الجريدة سنة ١٩١٢ عن تاريخ آداب العرب للرافعي ، يشهد الله أنه لم يفهم الكتاب ، ثم كتب عن هذا الكتاب نفسه سنة ١٩٢٦ فأثنى عليه ثناء جميلا[1] •

---

١ ــ انظر من بعيد ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣ وحياة الرافعي ص ٦٨ •

وهذا التناقض إن دل على شيء فإنما يدل على ما ذكرت من تحامل الدكتور طه على الرافعي لغرض شخصي • وسوف يتضح هذا عندما ننقل كلمة للدكتور طه ينتقد فيها الرافعي في آخر هذا الكتاب (رسائل الأحزان) •

وقد تباينت الآراء في حب الرافعي ، بين مثبت ومنكر ومتردد[1] • والرأي الذي أميل إليه ، ما أثبته محمد سعيد العريان من أن الحب كان متبادلا بين الأثنين في أول الأمر • ولما حدثت القطيعة انتهى الحب وبقيت قصته في ذاكرة الرافعي • فرسائل الأحزان تعبير عن آلامه وأشجانه ، لأنه كان حديث العهد بالحب • والسحاب الأحمر تعبير عن غضبه وثورته ، لأن صاحبته مي بقيت حيث هي بمنأى عنه ، مع أنها اطلعت على رسائل أحزانه • وكتاب أوراق الورد تحليل للمشاعر النفسية للمرأة في حال رضاها وغضبها بأسلوب أدبي وتفكير فلسفي ، لأن الحب قد طال عهده ، ولذلك سكن القلب وهدأت المشاعر •

واستطيع أن استدل على رأيي برسالتين رمزيتين : إحداهما كتبتها الآنسة مي سنة ١٩٢٢ أيام الوئام تصف فيها شخصا لا أراه ــ لبعض الأوصاف الخاصة ــ إلا الرافعي نفسه ، وقد نقلها الرافعي فيما بعد من أحد كتبها إلى كتابه أوراق الورد • والرسالة الثانية للرافعي كتبها في سنة ١٩٢٣ أيام القطيعة بعنوان (رسالة في العتب) زعم أنه بعث بها إلى صديق له سوري تغضب عليه، وما هناك إلا صديقته السورية مي الغضبى ، ثم أثبتها في كتابه أوراق الورد سنة ١٩٣٢ ، وقد غير الخطاب من المذكر إلى المؤنث ، والآنسة مي في هذه الفترة (١٩٣٢) لا تزال على قيد الحياة ، فلم تنكر شيئا من رسالتها التي نقلها من كتابها إلى كتابه ، ولم تنكر شيئا من رسالة العتب التي تنبىء بأنها لها •

رسالة مي :

(أنا وأنت سجينان من مساجين الحياة ، وكما يعرف المساجين بأرقامهم

---

١ ــ انظر حياة الرافعي ص ١٢٠ وما بعدها ، ووحي الرسالة ج ١ ص ٢٤٩ وما بعدها .

يعرف كل حي باسمه • وقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم للضحك من سواهم حينا ، والضحك بعضهم من بعض أحيانا •

أنا منهم وإياك ، غير أن شبهك بهم يسوءني ، لأني إنما أقلدهم لأريك وجها مني جديدا ، وأنت أتجاريهم بمثل قصدي ؟ أم الهزء والاستخفاف فيك طوية وسجية ؟

ولكن رغم انقباض للنكتة منك والظرف ، ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور ، أراني وإياك على تفاهم صامت مستديم ، يتخلله تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر •

بنظرك النافذ الهادي تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به ، فصـرت ما ذكرت إلا ارتدت نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم ، متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق)•

وتستمر في ذكر صفاتها هي وما ستقوم به نحوه وما تشعر به إزاءه إلى أن تقول : (هناك في تلك الزاوية الضائقة ، حيث أقام القدر من دواهيه على صدري جدران الحديد ، ومعاقل الرصاص • وهناك قرب حلول الشفق برزت فجأة أمامي ، وأخذت تتكلم عن معان اختفت طي المعاني ، وأشياء توارت في الأشياء ، وممكنات حجبت في المستحيلات • وكانت يدك تتحرك متريثة متأنية، فبدت الأشارات سحرية ساهية ، كأنما هي انعكاس اشارات خفية على المرايا المتبخرة في مهجور القصور •• •) • ثم تقول : (أنت لم تكن تهتم بي ، وأنا لم أكن أهتم بك ،ولكن علام تشل أوصال روحي للدنو من مـــكان حللته ؟ وعلام اضطرابك وارتعاش يديك إذ تلمح خيالي عن بعد ؟ أنت لم تكن تنظر إلي ، وأنا لم أكن أنظر إليك ، ولكن لماذا كانت تتبلبل خواطري ، وأهرب عند قدومك ؟ وأنت إن لم تستطع السكوت فلماذا يخرج صوتك متقطعا متهدجا

كأنك تجاهد لتقهر تأثرا ما)[1] •

والرسالة طويلة فيها من الأوصاف ما ينطبق على الرافعي بدون جدال ، مثل تهدج الصوت[2] ، واضطراب اليد[3] والتغافل عنها مع التفكير فيها •

أما رسالة الرافعي فإني سأتحدث عنها في الفصل الخامس لأسباب ستتضح هناك ، واكتفي بالمقدمة التي كتبها إلى صاحب الجريدة لينشرها ، وفي هـذه المقدمة ما يدل على سبب كتابتها •

يقول الرافعي : (سيدي الفاضل ••• أرسل إلى السياسة هذه الرسالة عاتبت بها ظريفا من أدباء الشام كتبت إليه ، فتفتر في رد كتابي ، لأن جماله ظرف ، وظرفه جمال ، وهما إذا اجتمعا كان لهما حكم خاص في قانون الرسائل• ولقد كتبتها من النمط الأول ••• فأرجوكم الحفاوة برسالتي هذه في السياسة الغراء ، والتمهيد لها بما يبين عن سبب كتابتها ، حفظكم الله للمخلص[4] •

نلاحظ بالبداهة أن الرسالة مكتوبة إلى فتاة لا إلى فتى ، لأن الرافعي الأخلاقي يدرك المعاني ، ويعرف مواضعها ، ومن ثم لا تسمح له نفسه أن يصف رجلا بالظرف والجمال ، فهاتان صفتان لحبيبته مي ما في ذلك شك • ونضيف إلى الدليلين السابقين بعض الأقوال لأعز أصدقاء الرافعي وهما أبو رية والعريان •

يقول أبو رية : إن الآنسة مي كانت تحمل للرافعي حبا ، ولكنها كانت (تتلطف في إبدائه له ••• وتتحرج من إظهاره للناس)[5] •

---

١ ـ انظر رسائل مي ص ٥٩ ـ أوراق الورد ص ١٥٧ ـ ظلمات وأشعة ص ٩٣ .
٢ ـ انظر حياة الرافعي ص ٢١ ـ ١٢٢ .
٣ ـ نفس المصدر .
٤ ـ جريدة السياسة ٣٠ مايو ١٩٢٣ ـ حديث الأربعاء ج ٣ ص ٥ .
٥ ـ رسائل الرافعي ص ٥ .

ويذكر قصة عن الرافعي فيقول : (مما أذكره كنت معه ــ رحمه الله ــ ... فجاءت جريدة الأهرام وكان فيها يومئذ مقالة للآنسة مي ، فيها عبارة من كلام لها نشر من قبل ، فقرأه ــ رحمه الله ــ بشغف ، ثم التفت إلي وقال بلهف : انظر يا أبا رية ! ووضع إصبعه على عبارة من المقال : إن هذه الكلمة العابرة لم تكن في الأصل ، وإنما وضعت هنا كأنها رسالة لي منها)[1] .

وفي هذا المعنى يقول العريان : (إن الرافعي قطع ما بينه وبين صاحبته منذ ثلاث عشرة سنة ، لم يلتقيا فيها إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائل لا يحملها ساعي البريد ، لأنه كان ينشرها وتنشرها في ثنايا ما تنشر لهما الصحف المحلية من رسائل أدبية ، يقرؤها قراؤها فلا يجدونها إلا كلاما من الكلام في موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة ، ويقرؤها المرسل إليه خاصة ، فيفهم ما تعنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك ، حشوا من فضول القول ، في حديث أو مقالة أو قصة هي رسائل خاصة ، ولكنها على أعين القراء جميعا . وما ذاع السر ، ولا انكشف الضمير ، وفي أكثر من مرة والرافعي يملي علي مقالاته ، كان يستمهلني برهة ليعبث في درج مكتبه قليلا ، فيخرج ورقة أو قصاصة يملي علي منها كلاما ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ، وأعرف ما يعنيه فأبتسم ويبتسم ، ثم نعود إلى ما كنا فيه ، وتنشر المقالة ، فلا نلبث أن نجد الرد في رسالة تكتبها فلانة[2] ، فيتلقاها الرافعي في صحيفتها ، كما يفض العاشق رسالة جاءت في غلافها مع ساعي البريد من حبيب ناء)[3] .

إن الباحث يستطيع أن يعثر على مثل ما قاله العريان ، من أن الرافعي كان يعبث في درج مكتبه ليقتبس كلمة من مقال لها يرد به عليها أو يحييها كما تحييه .

---

١ ــ رسائل الرافعي ص ٥

٢ ــ الأستاذ العريان يعبر عن الآنسة مي بفلانة لأنه ألف كتابه سنة ١٩٣٩ وهي على قيد الحياة .

٣ ــ حياة الرافعي ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .

فمثلا نشرت الآنسة مي كلمة في مجلة الهلال بعنوان (أتعرف الشوق)[1]. فأجابها الرافعي بقوله (ما الشوق إلا صاعقة تنشئها كهرباءة الحب في سحاب الدم ، حين يمور ويضطرب ، ويصدم بعضه بعضا من الغليان ، فيرجف فيه الرعد القلبي يتردد صوته آه ، آه ، آه)[2] .

وتقول مي في نفس المقال : (أعرفت الشوق ، وقد ثار وفار وأطلق من وجدانك شخصا مجهولا). يقول الرافعي في الموضوع نفسه (يا رحمة للمشتاق حين يكون فيما حوله ، وهو بعيد عنه ، وقد يتكلم بالكلمة وهو مسيرة شهر من معناها ، ويعيش في سكوت ملأته أرواح ألفاظ محبوبة تريد بما وسعه أن تتكلم ، ولا يمكن أن تتكلم إذ الفم الجميل الذي ينطقها بعيد في وديعة النوى، ويروي أنه هو وحبيبه ناحية فكرية من نواحي الدنيا بعيدة عن الناس والأشياء، كأنهما معتكفان في عزلة ، ومع ذلك فالحبيب عنه بعيد ، فكأنما المسكين غريب في دنياه وفي دنيا فكره معا ، ويحس الآلام لا تنتهي ، إذ كانت هي أشواقه الدائمة الحنين إلى من يهواه . فالألم دائما فيه يبدأ ولا يزال يبدأ .

ومن كل ذلك فأشواقي لك يا حبيبتي دائما تبدأ ، ولا تزال تبدأ ، وأنا دائما في أولها) .

وتقول مي في آخر المقال : (إن أنت عرفت مرة الشوق والحنين ، وشعرت بالانكماش الأليم يملأ صدرك غما وكربا ، إذن فاعلم أنك في تلك الساعة متمتع باستعداد الخالق القادر تضطرم في فؤادك الشرارة التي سرقها الانسان القديم من نادي الأرباب القديم ، لأن هذا العالم إنما هو ابن الصبابة والجوى ، وما برأ الباري هذه الأكوان إلا عندما شاء عطفه أن يعرف الشوق والحنين) . يجيبها الرافعي في آخر كلمته (آه ما هذه الأفكار الحزينة التي جاءت تبحث

---

١ ـ الهلال مارس ١٩٢٦ .
٢ ـ أوراق الورد ص ١٢٥ صدر سنة ١٩٣١ مع العلم بأن أوراق الورد استغرق مدة طويلة . انظر رسائل الرافعي ص ٩٩ رقم ٤ .

عن دموعي ؟ وما هذا المعنى الناري الذي يطير في دمي ؟ وما هذا الرعد القلبي الراجف يتردد صوته آه ، آه ، آه)[1] .

وبعد الذي قدمناه من الأدلة ، يتبادر إلى ذهننا هذا السؤال : لماذا لم تكاتب الآنسة مي الرافعي مباشرة وتصرح بكل ما يعتلج في مشاعرها نحوه ، إن كانت حقا تروم وده ؟

إنها لا تستطيع لسبب واحد ، هو أنها ارتبطت بأديب كبير يشاكلها في عدة خصائص . منها التحليق في الأجواء البعيدة[2] ، ومنها رابطة الوطن ، فكلاهما من لبنان ، ثم رابطة الغربة ، فكلاهما اغترب عن وطنه ، إلا أن أحدهما في أمريكا والآخر في مصر ، وأخيرا خلو كل منهما من شريك الحياة .

وهذا الأديب الذي ارتبطت به مي هو جبران خليل جبران الذي كان مغتربا في المهجر . كانت الآنسة مي راسلته في سنة ١٩١٢ ، تعرفه بنفسها ، وتفصح له عن اسمها في أول رسالة خطتها له . تقول له : إن اسمي ماري[3] .. وفي هذا الافصاح عن اسمها ما فيه من معان . وتطورت العلاقة بينهما ، حتى هم بالارتباط بها والحياة معها ، في عش واحد ، وتحت سقف واحد ، وذلك في سنة ١٩٢٠[4] .

وفي سنة ١٩٢٤ صرحت له بكل ما يعتلج في فؤادها من حب وإخلاص ووفاء ، وكانت رسالة من أجمل ما قرأت لامرأة في رسائل الغرام ، استهلتها بحديث عام طويل ، ولما أدركت هي ذلك ، ورأت أن التطويل والتعميم ليسا مما تشعربه

---

١ ــ أوراق الورد ورسائل الرافعي .
٢ ــ انظر مي في حياتها المضطربة ص (١٣) واقرأ أي كتاب لجبران تجد فيه سبحاته الخيالية .
٣ ــ انظر مي وجبران ص ٢٣ .
٤ ــ المصدر السابق ص ٤ .

في شيء، صرحت له بالحقيقة فقالت : ... (جبران ! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد كلمة الحب)[1] .

وتستمر في وصف هيجان الحب وغليان العواطف بأوصاف لاتجد مايشبهها في القوة إلا (قوة الديناميت الرهيبة) . وتطول الرسالة مرة أخرى ، وتشعر بما شعرت به من قبل ، فتستدرك قائلة : (ما معنى هـذا الذي أكتبه ؟ إني لا أعرف ماذا أعني به ، ولكني أعرف أنك محبوبي ، وإني أخـاف الحب . إني أنتظر من الحب كثيرا ، فأخاف أن لا يأتيني بكل ما أنتظر . أقول هـذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير ... كيف أجسر على الافضاء إليك بهذا ؟ وكيف أفرط فيه ؟ لا أدري ، الحمد لله إني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به ، لأنك لو كنت الآن حاضرا بالجسد ، لهربت خجلا بعد هذا الكلام ، ولاختفيت زمناً طويلا ، فما أدعك تراني إلا بعد أن تنسى)[2] .

ثم تسبح الآنسة مي في الخيال ، وتسبح في عالم الآفاق ، فلا تتخيل إلا فتاة ملأ الوجد قلبها ، وملأ الجمال بدنها ، وتوفرت لها الحيـاة والشهرة ، فلم يبق لها إلا أمنية واحدة تود أن تتحقق لها كما تحققت لكثير من الفتيات أمثالها، إن كان في الدنيا من يماثلها ؟ وهذه الأمنية هي حبيب قلبها ، جبران خليل جبران، أو الغريب القريب كما يلذ لها أن تسميه .

ومثل أحمد لطفي السيد ، الصحافي الكبير أنطون الجُمّيل ، فقد كـان يراسلها وتراسله ، ويتحبب إليها ويزورها في بيتها أمـام أبويها . وكانت له منزلة خاصة عندها من بين عشاقها في القاهرة، حتى أنه (عرض عليها الزواج)[3]، ومع ذلك ، لم تصرح له بشيء عن عواطفها نحوه . والسبب كما ذكرت ، كانت تأمل أن تقترن بجبران خليل جبران .

---

١ ـ رسائل مي ص ٦٥ .
٢ ـ المصدر السابق .
٣ ـ الهلال : مايو ١٩٤٨ ص ٧٤ .

والشق الثاني من الاجابة ، أن الرافعي لو اتفق أن حصل على رسالة واحدة من الآنسة مي لنفخ ببوقه في سور الحب نفخات مدوية يسمع صداها من بالمهجر ، بل قد يتجرأ فيخطو خطوة أخرى نحو أنواع القبل المختلفة الأنواع والأشكال كأن يتحدث عن قبلة شق التين وأخواتها[1] .

إن للرافعي أهازيج مع الحسناوات ، وأغاريد مع الساحرات . وكم أنجبن له من ثمرات[2] . والآنسة مي تعرف من الرافعي هذه الجرأة الأدبية ، ولهذا لم تكاتبه، وقد كاتبت غيره. ولما تجاوزت الأربعين ، أصبحت لاتحتفظ بما تقرؤه أو تسمعه من عشاقها ، إلا بما يتصل بالفكر دون القلب[3] . بل ربما غضبت على من حاول أن يكاتبها غراميا ، كما حدث لصاحبنا الرافعي[4] في سنة ١٩٣٤، وهي في التاسعة والاربعين من عمرها[5] .

والآنسة مي (فتاة لم يسالمها الدهر ، ولم تزل منذ كانت غرضا لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها ، فتجعل لها من كل هم همين . وإن حواليها لكثيرا من الأصدقاء ، يزدلفون إليها، ويخطبون ودها ، ولكنها تريد الصديق الذي يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه ، أكثر مما تريد الصديق الذي لاتسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبب واصطناع الهوى والغرام)[6] .

وعرف الرافعي مشاعرها على هذا النحو ، وعرف أصدقاءها على هذا النحو أيضا ، ثم هو قد اطلع على كتاب آلام فرتر ، فرأى فيه ما قدمت من

---

١ ــ انظر الأغاني : ج ١٣ ص ٢١٩ ، تجد حديثا عن قبلة شق التين لمغنية تدعى بصبص جارية ابن نفيس .
٢ ــ حياة الرافعي : ص ٩٧ .
٣ ــ الهلال : مايو ١٩٤٨ ص ٧٤ .
٤ ــ انظر حياة الرافعي ص ١٢٣ .
٥ ــ انظر مي وجبران ص ١١ .
٦ ــ حياة الرافعي : ص ١١٦ .

التشابه ، فاهتدى إلى أحسن السبل ، ليعبر عـن نفسه ومشاعره ، دون أن يمس شرف الحب بشيء من الأذى ، ودون أن يطلع أصدقاء مي على ما يرمي إليه ، فيفعل مثل ما فعل جوت في آلام فرتر ، ولذلك جرد الرافعي من نفسه شخصا يخاطبه ويتلقى منه ، مثل ما جرد جوت من نفسه شخصا ودعاه فرتر ، وكتب على لسانه آلامه وأحزانه ، كما سنرى بعد قليل •

ولما هدأت نفس الرافعي قليلا ، وشعر بالحنين إلى من أحب ، نشر مقالا في مجلة الهلال[1] يذكر فيه بعض ما كان قد اشتهر عن حبيبته مي ، وأهم ذلك اسمه ، فقد كانت تنطـق به مصغرا هكذا مصيف مع أن (صوابه صفي بضم ففتح فتضعيف)[2] ••

وقد أثبته الرافعي على هذا النحو الذي نطقت به صاحبته لأمرين : الأول أن ينبهها إلى أن المقال إنما نشر لها ، ولها وحدها دون سواها من البشـر • والأمر الثاني ، ما دامت هي نطقت به فيجب أن يبقى كما نطقت به (فلا كان سيبويه وأبو حيان)[3] •

قال الرافعي في هذا المقال : (كان لي صديق خلطته بنفسي زمنا طويلا ، وكنت أعرفه معرفة الرأي ، كأنه شيء في عقلي ، ومعرفة القلب ، كأنه شيء في دمي ، ثم وقع فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسيني ، وطار على وجهه حتى غاب عن بصري)[4] وهو لايعني إلا نفسه وعقله • وعلى هذا النحو استمر يكتب رسائله (وما هناك صديق ولا رسائل الا الرافعي ورسائله يتحدث بها الى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه • أو قل : إن الرافعي في هذه الرسائل جعل شيئاً مكان شيء ، فأنشأ هذه الرسالة إلى صاحبته ، ثم نشرها كتابا تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه ، أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه • فهي رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ،

---

١ ــ الهلال مارس ١٩٢٤ .
٢ ــ حياة الرافعي ص ١٠٠ .
٣ ــ المصدر السابق .
٤ ــ رسائل الأحزان ص ١١ .

تشفي ذات نفسه ولا تنال من كبريائه)[1] .

حاول الرافعي في هذا الكتاب أن يجمع بين الفكرة الفلسفية في الجمال والحب وبين الأسلوب البياني . وعلى أساسهما عرف الجمال والحب فقال : (لو أني سئلت تسمية علم الجمال لسميته علم تجديد النفس)[2] ودليله (أن الجميل الذي لايجدد بمعانيه حواسك وعواطفك ، ويعيدها غضة طرية كما فطرت من قبل ، لا يسمى جميلا)[3] ، وقال : (لا تسل عن الجمال من يحسن الفكر والابانة عن فكره ، ولكن سل عاشقا يحسن الشعور والتعبير عن شعوره)[4] . ويرى أن الجمال والحب شيئان متلازمان ، يسيران جنبا الى جنب، ويؤثران معا في ذي الطبع السليم والشعور المرهف ، وخاصة هذا النوع الذي فيه خاصة الأديب .

ويصور هذه المعاني في سائر الكتاب ، ومنها قوله : (لا أرى سر الجمال إلا أنه شيء حقيقي من تلك القوة السماوية التي نسميها الجاذبية ، فكأن الله حين يبدع الجميل ، يرسل في دمه الذرة الانسانية ، ذرة من مادة الكواكب هي سر عشقه وجاذبيته ، وهي بعينها معنى تلك القوة التي لايزال الجميل يخضع بها كما يخضع الفلك المدار ، ويتسلط على عاشقه كما تتسلط الأقدار، ويبث في الدم الانساني مع مادة الدم مادة من النار)[5] .

إن جميع التعاريف التي أوردها في الجمال والحب تدل على أنهما أمران متلازمان ، كل منهما يتمم معنى الآخر وبذلك يكون قد ابتعد عن مصطلحات الفلاسفة التي تحدد الجمال وحده ، والحب وحده ، وتسبغ على كل نوع

---

١ ــ حياة الرافعي ص ١٢٧ .
٢ ــ رسائل الأحزان ص ١١٠ .
٣ ــ رسائل الأحزان ص ١١٠ .
٤ ــ المصدر السابق .
٥ ــ المصدر السابق ص ١١٣ .

منهما ألفاظا جافة مثل هذا التعريف الذي نادى به هيجل في تحديد الجمال (إن الجمال هو إشراق الفكرة من خلال المادة)[١] ومثل هذا ما نادى به جاريت إذ يقول : (إن الأشياء تكون جميلة بقدر ما تخاطب القلب والعاطفة)[٢] والتعريف الفلسفي الأخير قد يكون قريبا إلى ما قرره الرافعي ، إلا أنه جاف ليس فيه من رونق العبارة مثل ما لتعريف الرافعي .

وقد جبل الرافعي على حب الجمال والشغف به منذ نشأته الأولى ، فكان ينشده ليحقق غاية هي هدفه ومناه ، وهذه الغاية هي النبوغ في الأدب، ولذلك قال في عدة مواضع : إن الأديب لايتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ، ويقول : إن المرأة للشاعر ، كحواء لآدم ، وهي وحدها تعطيه بحبها جديدا لم يكن فيه . ويقول : إن ملكة الفلسفة في الشاعر من ملكة الحب[٣] .

ويفلسف مجموع هذه المعاني بقوله : (وللحب العجيب جنس من النساء عجيب ، خلقن جواسيس على القلوب ، يدخلن فيها ويخرجن منها ، وقلما تحسب الواحدة منهن إلا لتفضح للدنيا أسرار روح عظيمة . وهذا الجنس تهيئه الطبيعة تهيئة المادة السحرية ، وتولد المرأة منه مرتين . فإذا هي انحدرت إلى الدنيا طفلة جعلت تأخذ في دمها الجذاب من شعاع الشمس يتوهج ، ومن نور القمر يتهدى ، وذهبت تنمو في ظاهرها نموا ، وفي باطنها نموا غيره ، حتى إذا بلغت مبلغها ، وانبعثت ملء شبابها ، آن لها أن تولد الثانية ، فولدت في قلب رجل) .

ثم يحاول أن يفرق بين الولادة الأولى والثانية فيقول : (والعجيب أنها في الولادة الأولى يكون أول وجودها هو أول وجودها ، أما في الثانية فذلك

---

١ ـ فلسفة الجمال لجاريت ص ٤٨ .

٢ ـ المصدر السابق .

٣ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٣٣٦ ـ حياة الرافعي ص ٩٣ .

أول فنائها ، لأن المرأة متى حلت من قلب الرجل محلا ، جعل يفنيها معنى في كل معنى حتى تفرغ ، فلا يبقى منها إلا ذكرى زمن مضى) .

ثم يتطرق إلى المرأة الساحرة وهو لا يعني إلا حبيبته مي (وكل امرأة من هذا الجنس هي معجزة عقلية ، ما دامت مخبؤة في الشعاع السماوي من جمالها، وما دام هذا الشعاع يفعل فعله الذي عرفه الناس أوضح ما عرفوه في أديانهم وعقائدهم ، وفيما أنزلوه منزلة الأديان والعقائد) .

وأخيرا ينتقل إلى وصف نفسه إزاء مؤثرات حبيبته الساحرة ، وكيف يخضع لها ولم يخضع لأحد ، فيقول : (وآية مصداق هذا الاعجاز في المرأة الساحرة المحبوبة ، ذلك النوع من الحب ، أنه بينا يكون محبها رزين الطبع وازن[1] الرأي كالجبل الراسخ الوطأة ، إذا هو من سخافة رأيه في بعض أهواء الحب ونزعاته ، كأنه جبل يطير بألف جناح ، وقد ملأ الخوافق بين السماء والأرض أوهاما سحرية . وهنا معضلة الحب التي لا حيلة في فهمها ، ولا في تقريبها إلى الفهم ، وهي تثبت أن العاشق يعطي في ناحية خياله قبل الناس جميعا ، ولكنه ينتقص من ناحية عقله مع حبيبته وحدها ، فهما سحران تظاهرا[2] . ومع ذلك فهو عاقل فيما عدا ذلك)[3] .

ويذهب في تأثير الحبيب في محبه إلى أن يجعل منهما شخصا واحدا فيقول: (الحب ليس حقيقة واحدة عجيبة بل هو أربع حقائق ، داخل بعضها بعضا ، فلا يتميز لون منها من لون منها . وما حقيقة الحب الصحيح إلا امتزاج نفسين بكل ما فيهما من الحقائق ، حتى قال بعضهم : لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا . ومن هذه الناحية ، كان البغض بين الحبيبين ــ حين يقع ــ أعنف ما في الخصومة ، إذ هو تقاتل روحين على تحليل

---

١ ــ وازن : عاقل وقور ، راجح الفكر (الرافعي) .
٢ ــ تظاهرا : تعاونا (الرافعي) .
٣ ــ السحاب الأحمر ص ٢٢ وما بعدها .

أجزائهما الممتزجة ، وأكبر خصيمين في عالم النفس ، متحابان تباغضا)[1] •

ومن المثالين السابقين تتجلى قدرة الرافعي في الخلق والابتكار ، فقد استطاع أن يجمع بين فلسفة الفلاسفة ، وبين أدب الأديب ، وذلك ما ينشده القراء ويقيسون به مراتب كتابهم وأدبائهم •

وفي هذا المعنى كتب الدكتور زكي مبارك مقالا في مجلة الرسالة يقول فيه: (الصلة بين الكاتب والقارىء منوعة الألوان ، فهنالك كاتب يحبه القارىء ، وكاتب يعجب به القارىء ، وكاتب يظفر بالحب والاعجاب • ومرد الأمر إلى ذاتية الكاتب ، فإن كان أدبه أدب وجدان ، فهو جدير بالحب ، وإن كان أدبه أدب ذكاء ، فهو خليق بالاعجاب، وإن جمع بين الوجدان والذكاء ، فهو الكاتب المنشود ، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق وأرباب العقول • والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء ومن الوجدان ، فإن خلا من أحد هذين الزادين ، فهو عرضة للضعف ، وان خلا منهما معا فهو إلى فناء)[2] •

بذل الرافعي كل جهد لابراز خصائصه الأدبية والفكرية ، فما من رسالة له في هذا الكتاب ، أو قصيدة أو مقطوعة شعرية ، إلا وفيها ما يوحي بهذا المجهود • ولعل أحسن مثال ننقله ، قطعة نثرية في وصف صاحبته مي ، فقد تناولها من جميع نواحيها ، وتفنن في وصفها وإبراز محاسنها ، وبذلك فاق كل الذين وصفوا المرأة ، سواء منهم الكتاب أو الشعراء ، وسواء منهم من وصفها بأوصاف حسية أو معنوية • وكأن الرافعي أراد أن يجمع كل تلك الصفات التي قالها الأولون في المرأة ، ويضيف إليها من فنه وأدبه ومشاعره ما يحس به ، ويراه صالحا أن يضيفه ، فإذا هو يبتز الأولين ، وينفرد من دونهم في هذا العصر بهذه الحسنة •

---

١ ــ السحاب الأحمر ص ٢١ .

٢ ــ مجلة الرسالة يونيو ١٩٤٣ عدد ٥٢٠ .

قال : (أما إنها فتنة خلقت امرأة ، فإذا نظرت إليك نظرتها الفاترة ، فإنما تقول لقلبك : إذا لم تأت إلي فأنا آتية إليك •

خلقت مقدرة تقديرا ، كأن كل شيء فيها وضع قبل خلقه في ميزان الجمال، ووزن هناك بأهواء القلوب ومحابها ، وكأنها بعد أن تم تكوينها ، أرسلت الملائكة في دمها نقطة عطر ، فهي تنضح على القلوب برائحة الجنة ، وهي أبدا تشعر أن في دمها شيئا لا يوصف ولا يسمى ، ولكنه يجذب ويفتن ، فلا تراها إلا على حالة من هذين ، حتى ليظنها كل من حادثها أنها تحبه ، وما بها إلا أنها تفتنه •

رشيقة جذابة ، تأخذك أخذ السحر ، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء ، فإذا تنفست أمامها ، فقد عشقتها • وتراها ساكنة وادعة أمام عينيك ، ولكن قلبك يشعر أنها تهتز فيه وتضطرب ، فلا يزال قلقا نافرا يتململ •

أما أنوثتها ، فأسلوب في الجمال على حدة • فإذا لقيتها ، لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع ، فلا تعثر فيهما بالسر ، ولكن بالحب ، وإذا كنت ذكيا ، فأضافت إلى ما فيها من بواعث الهوى إعجابها بك ، فقد أحكمت لك العقدة التي لا حل لها •

ومهما تكن من رجل باذخ ، فإنك بإزائها ترى كيف ينقاد جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة ، فلا براءة لك ، ولا مخرج من حبها • ومهما تكن من جبل شامخ ، فإنك تتهافت تحت أشعة عينيها ، كما تتدحرج جبال الثلج في القطب إذا زاحها عما حولها شعاع رقيق من أشعة الشمس ، تتنهد فيه نسمة ضعيفة •

وهي في لونها ذات بياض ، أسمر محمر وضيء ، يغترق العين حسنا ، وكأن ائتلاف الألوان الثلاثة فيها جملة مركبة من لغة النور والهواء والحرارة ، معناها : الجمال القوي الصحيح •

هيفاء ملتفة ، لم يهبط جسمها ولم يرب[1] ، تمـلأ قلبك كما تملأ ثوبها ، وتتمايل أعطافها ، فلو خلق غصن البان امرأة لمشى يتهادى في مثل مشيتها • وتنظر نظرة الغزال المذعور ألهم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزا ، يتوجس في كل حركة صائدا يطلبه[2] • وتنفجر لعينيك في حركاتها وكلماتها ، كما يتفجر أمام الظمآن ينبوع المـاء العذب ، وما رأيتها مرة إلا أحسست نفسي تصورها تصويرا كأن الشمس والقمر قد صنعاها في الحسن صنعة جديدة • وتنتحل هذه الظبية أحيانا كبريـاء الأسد ، فيكون ذلك منهـا في باب الدلال مخاشنة بين طبعي وطبعها ، تبث بها في الحب قوة تبلغ قوة الافتراس في أسد جريح)[3] •

وفي مثل هذا الأسلوب قال الدكتور منصور فهمي : (إن معانيه من آخر طراز يأتي من أوربا)[4] •

ومثله الدكتور طه حسين الذي أشهد الله أنه لم يفهم من الكتاب شيئا ، وذكر جملا ـ ولعلها من أعمق المعاني في الكتاب ـ للاستدلال بها على سائر أسلوبه ، وهي : (اجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه ، نيفا وأربعين سنة ، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبواب ، جف القلم منها على نيف وأربعين جزءا كلماتها في حوادثها ، وأن السطر منها ليرعد في صحيفته من الغيظ ، وأن الكلمة لتبكي بكاء يرى ، وأن الحرف ليئن أنينـا يسمع ، وأن تاريخه كله ينتفض لأنه مصيبة ملكية مصورة في ملك)•

يقول الدكتور عن هذه الجمل (اللهم إني أشهد أني لم أفهم شيئا، إلا أنه

---

١ ـ لا سمينة فضفاضة البدن ، ولا هزيلة نحيلة (الرافعي) .
٢ ـ يخشى والغزال دائما كالمذعور (الرافعي)
٣ ـ رسائل الأحزان ص ٧٠ وما بعدها .
٤ ـ حياة الرافعي ص ١٣٠ .

يشبه العمر بكتاب من كتب التاريخ ، والحوادث بالكلمات التي تكتب في هذا الكتاب ، والسنين بأجزاء الكتاب • فأما هذه السطور التي ترعد غيظا في الصحف ،وأما بكاء الكلمات الذي يرى ، وأنين الحروف الذي يسمع ، فعلم ذلك كله عند الله وعند الرافعي • ثم يقول : ومع هذا فهذه الجملة أيسر ما في الكتاب)[1] •

أعتقد أن هذه الجمل التي قال عنها الدكتور : إنها أيسر ما في الكتاب ، هي في نظري أعمق ما في الكتاب • وإذن فما دام الدكتور قد فهمها وهي الأعسر ، فقد فهم مادونها وهي بقية الكتاب ، وإذن فلم يبق لدينا إلا ما أنكره من الكلمات التي تبكي ، والحروف التي تئن ، فهذه أمرها هين ، فقد جاء في فصيح القول ما يشبهها فوصفت الكلمة بالكبر[2] ، والابصار بما يكاد يزلق الاقدام[3] ، والمكر بما يؤثر في الجبال حتى لتكاد تزول[4] ، • والغرض من كل هذه المبالغات تصوير الحقائق على ما هي ،وإبرازها في صور فضفاضة حتى تبدو كأنها مجسمة •

وللدكتور طه مثل هذه التشبيهات المجازية ، نذكر واحدة منها وندع الباقي ، مع اعترافنا بأنه لم يكثر منها ، ولم يبالغ فيها مبالغة الرافعي • قال الدكتور طه في كتابه دعاء الكروان : (فتراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض)[1] • إن البياض شعار السلم والأمن ، وهو مايعنيه الدكتور •

وليس لنا أن ننكر مثل هذه الصيغ البيانية • أما أن الرافعي يكثر منها ، فذلك يرجع الى خياله وشعوره ، فقد كان في بداية عهده بالأدب ، شاعرا يعنى بالخيال والتصوير •

---

١ ــ حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٢٤ .
٢ ــ سورة الكهف آية ٥ .
٣ ــ سورة القلم آية ٥١ .
٤ ــ سورة ابراهيم آية ٤٦ .
٥ ــ دعاء الكروان ص ٩ .

ولست أبالغ إن قلت : إن أسلوب رسائل الأحزان من الأساليب العزيزة في الأدب العربي ، قل أن تجد لها مثيلا عند غير الرافعي ، فمامن رسالة أو جملة نقرؤها إلا ونشعر بنبضات القلب فيها • لنقرأ له جملا من الرسالة السابعة التي يصف الرافعي نفسه في شخصين باطن وظاهر ، أو خيالي وواقعي • يقول : (نالت مني رسالتك ياعزيزي ، وما كنت ظالما ، ولقد ظلمت • جاءتني سطورك جملا جملا ، فانصبت على قلبي انصبابا ، فغشيته من حروفها بموج أسود كالظلم • لك الله ، أن تحسبني هالكا وتقول : إن روحي محمومة بتلك الفتاة وإني في حاجة منك إلى علاج مر ، إلى بضع نصائح من الكينا • فأما أني محموم بها فلا ، وما أبعدت • ولكن هي كانت أشبه بالهذيان في الحب ،• وإن الدهر ليحم مرارا عدة متى ركبته الأقدار الملتهبة ، فإذا هوجم جاء من هذيانه نابغة يهذي في رجل أو امرأة)[1] •

إن هذه الجمل لاتحتاج الى تعليق ، ومثلها مافي الكتاب مع تفاوت قليل ، لأن بعضها يمس الرافعي في قلبه ، وبعضها لايمسه إلا في فكره • وفرق بين ماله علاقة بالخلجات النفسية ، وماله صلة بالفكر •

ولعل أحسن مثال يجمع بين شعوره وتفكيره هذه الفقرة التي وصف بها لقاءه الأول بحبيبته ، وأنه لم يتعمده وإنما كان قضاء وقدرا • فقد جاء ليراها كما هي، ويدعها كما هي، ولكن القضاء كان مخبوءا فيها ، طلع عليه في عينيها[2]، فملك عليه أمر نفسه فلم يعرف كيف يعود •

قال : (كانت والله قدرا مقدورا ، لو علمت كيف تنتهي، لاتقيت كيف بدأت ، ولكني جئتها وأنا أقدر أن أراها كما هي ، وأدعها كما هي ، فإذا القدر مخبوء فيها ، وإذا هو قد طلع في ألحاظها ، وإذا أنا أراها فلا أدعها • وكان طريقي إليها

---

١ ــ رسائل الأحزان ص ٧٩ .
٢ ــ طلع في عينيها : ظهر . وطلع من : خرج .

بين رؤيتها وتركها، أبدأ وأعود ، فلما تخطيت أولها، لم أر لها آخراء ولما بدأت، عدلت بي إلى الناحية التي كنت أجهلها ، فلم أدر كيف أعود)[1] .

لاأرى أي غموض في هذه الجمل ، بل أرى فيها نوعا من الأدب الحي الذي يمس القلب والنفس والفكر جميعا . فهذه الصورة التي نقلها الرافعي لنا عن لقائه الأول بصاحبته وسببه ، وما كان له من نتائج بعد ذلك ، تكاد تنطق بما جرى له من أول الامر الى آخره . فقد سمع بفتاة لبنانية نزحت إلى مصر ، وأن من صفاتها هذه وهذه ، فخطر له أن يذهب إليها ليراها ويتعرف عليها . وأي غرابة في أن يتعرف رجل بامرأة ؟ ولما مثل أمامها ، ونطق ببعض الكلمات ، ورأى ما رأى ، أسقط في يده ، وأخذ أخذا ، وذهب به .

صور الرافعي هذه الخلجات وأبدع في تصويرها ، وكذلك فعل في سائر الكتاب ، حتى أن المرء ليقرأ القطعة ويعيدها ، ولا يزال يعيدها وهو لا يمل منها لعذوبتها ومتعتها . أما أن ينتقده منتقد، كالدكتورطه والدكتور منصور فهمي، ويتهماه بما اتهماه به ، فذاك لا يضر أدب الرافعي وأسلوبه في شيء ، لا من قريب ولا من بعيد .

لقد دافع الرافعي عن رسائل الأحزان ، وثار ثورة عنيفة ضد الدكتور طه وتحداه أن يأتي بمثل أسلوبه ، فقال له : (ولقد كتبت رسائل الأحزان في ستة وعشرين يوما،فاكتب أنت مثلها في ستة وعشرين شهرا، وأنت فارغ لهذا العمل، وأنا مشغول بأعمال كثيرة ، لاتدع لي من النشاط ولا من الوقت إلا قليلا . وها أنا أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها)[2] .

أختتم الحديث عن هذا الكتاب بكلمتين : إحداهما للأستاذ العريان عن طبيعة الكتاب ، والثانية لأحد المؤلفين الأزهريين ، يزعم أن رسائل الأحزان ألفت

---

١ ـ رسائل الأحزان ص ٧٣ .
٢ ـ تحت راية القرآن ص ١٥٠ .

لصاحبة حديث القمر . فقد أثبت العريان في الكتاب إلى جانب ماذكرت نوعين من الاستطراد ، نوع عام تمليه على الرافعي طبيعته الفنية ، ونوع خاص أوحت به ذكريات صاحبة حديث القمر .

قال العريان : (ولكن في رسائل الأحزان شيئا غير ما قدمت من أشيائه ، ذلك لأن الرافعي — رحمه الله — كان ولوعا بأن يضيف إلى كل شيء شيئا من عنده ، وتلك كانت طبيعته في الاستطراد عند أكثر ما يكتب . سيجد الباحث في رسائل الأحزان عند بعض الرسائل ، وفي هامش بعض الصفحات من الكتاب ، كلاما وشعرا لايتساوق مع القصة التي رويت،إلا أن الرافعي كانت تغلبه طبيعته الفنية في الكتابة أحيانا ، فيستطرد إلى ما لايريد أن يقول ، ليثبت معنى يخشى أن يفوته ، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التي يرويها أشبه ،أو لأن تعبيرا جميلا وجد موضعه الفني من الكلام ، وإن لم يجد موضعه من الحادثة . فإن رأى الباحث شيئا من ذلك ، فلا يداخله الريب فيما أثبت من الحقيقة التي أرويها كما أعرفها .

وسيجد القارىء في بعض الرسائل حديثا أو شعرا عن لبنان وأيام لبنان[1]. وما عرف الرافعي صاحبته إلا في مصر ، وإن كان مولدها هناك . فليذكر من يريد أن يعلم أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حبائبه[2] ، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام جولان . وكان بعض من أحب قبلها فتاة أديبة عرفها في لبنان ، وهي سمية صاحبتنا هذه . وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في أوراق الورد ، وهي التي أنشأ من أجلها كتابه حديث القمر . على أن عمر الحب لم يطل بينهما ، إذتزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك — وما تزال — فما جاء في رسائل الأحزان من حديث لبنان وذكر أيام هناك ، فهو بقية من ذكرى صاحبة حديث القمر أقحمه في

---

١ — انظر رسائل الأحزان ص ٦٤ وما بعدها .

٢ — انظر ديوان الرافعي ج ١ ص ٦٧ وانظرحياة الرافعي ص٣٥—٩٧ .

رسائله حرصا عليه ، وبخلا به على الضياع)[1] .

يقول محمد محمد خليفة (وهذه التي كتب عنها رسائل الأحزان هي التي من أجلها كتب حديث القمر)[2] . وهذا خطأ من المؤلف، فرسائل الأحزان خاصة بالآنسة مي ، وما جاء من الحديث عن صاحبة حديث القمر إنما هو من ذكريات الماضي أقحمه الرافعي (حرصا عليه وبخلا به على الضياع)[3] .

السحاب الاحمر

هذا هو الكتاب الثاني الذي ألفه الرافعي في صاحبته مي . شرع فيه إثر صدور رسائل الأحزان ، وأتمه في فترة وجيزة حددها بشهرين[4] ، ولم يذكر السبب الذي دعاه إلى تأليفه ، إلا أن ماجاء فيه من بعض العبارات ، قد يدل على هذا السبب ، مثل قوله :(يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم، أن تعلمها أيضا كيف تسكت عن بعض كلامها).

إن هذه الجملة تدل على غضب الرافعي وثورته ، ولكنها لاتدل على السبب الذي أثار ثائرته ، فمصدر الغضب امرأة مافي ذلك شك ، لأن الخطاب موجه إلى امرأة لا إلى غيرها ، وأن هذه المرأة هي صاحبته ما في ذلك شك ، لأنه لم يرتبط في هذه الآونة إلا بها هي ، وبها هي وحدها دون غيرها . ولكن ماذا كان من أمرها بعد أن اطلعت على رسائل الأحزان ؟ هل فهمت منها نوايا الرافعي وما يعنيه فلم يعجبها منه ذلك ، وتمنت لو أن أمرهما بقي في طي الكتمان ؟ ولذلك أنكرت عليه فعلته هذه التي أقدم عليها وكشف بها ماكان في سر ، وأنكر هو

---

١ ــ حياة الرافعي ص ١٣٠ .
٢ ــ انظر السحاب الأحمر ص ١٦ ــ ٥ ــ أدب اللغة والنصوص ١٧٨
٣ ــ حياة الرافعي ص ١٣١ .
٤ ــ المصدر السابق ص ٣٨ .

عليها ما كان تلقى منها أو سمعه عنها ، فجعل يقول : (ياهذه لاأدري ماتقولين ، ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون ، وهيهات)[1] •

يقول محمد سعيد العريان : (لقد كنت مع الرافعي مرة في مكتبه ، وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لي بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فترة من الكلام ، ليجيبني عن سؤال يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره ، فوضع الكتاب إلى جانبه ، وحدق في طويلا ، ثم سكت وسبحت خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبث بأعلى المكتب من أشيائه ثم قال : (أرأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في نصابه بين عيني والمصباح ؟ ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إلي وهو يقول : ضع النصاب بين عينيك والمصباح ، وانظر ألست ترى سحابايترقرق بالدم ، كأن قلبا جريحا ينزف • في شعاعة هذا النور تراءت لي هذه الخواطر التي تقرؤها في السحاب الأحمر) •

وعقب محمد سعيد العريان على ذلك فقال : (ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال)[2] •

إن النص الذي أورده العريان على لسان الرافعي وتعقيبه هو عليه ، لايزيد في المسألة إلا تعقيدا إذ كل ذلك أشبه باللغز منه بالبحث عن الحقيقة •

على أن الكتاب مفعم بالمعاني الغضبية ، مما يدل على أن الرافعي قد مس في كبريائه من صاحبته • وهذا مادفع به إلى أن يقول : (أشأم النساء على نفسها من لاتحب ولا تبغض ، وأشأمهن على الناس من إذا عدت مبغضيهالاتعد إلا الذين أحبوها)[3] •

---

١ ــ السحاب الأحمر ص ٤٠ .
٢ ــ حياة الرافعي ص ١٣٢ .
٣ ــ السحاب الأحمر ص ٤٠ .

ويقول : (كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء ، ثم تثور يوما فلا تدل ثورتها على شيء إلا كما يدل المستنقع على الوحل في قاعه ، فأغضب المرأة تعرفها)[1] .

ويقول : (بعض النساء تنقص بها الحزن ، وبعضهن تغير بها الحزن ، وبعضهن تتم بها حزنك)[2] .

إن هذه الأمثلة لاتدع مجالا للشك في أن الرافعي كان ثائر النفس ، وأن ثورته سببها صاحبته الآنسة مي . فقد كتب رسائل الأحزان ليخبرها عن نفسه وعما يكن لها من الحب والوداد ، وأن ماكتبه إنما من وحيها ومن أجلها ، وأنه مايزال على عهده بها ، وفيا مخلصا ، يكن لها مايعجز عن وصفه ، ويفكر فيها ليله ونهاره،ويترقب منها شيئا واحدا هو أن تعجب به ، أو على الأقل أن تتظاهر بالاعجاب به ، حتى تنقدح شرارته الأدبية من جديد ، فتخرج كتابا في صورة من الصور ، يحمل لوعة الهيمان وأمنية الراجي .

ولهذه الأفكار التي قدمت كان ينتظر أن يكون الكتاب بالنسبة لها مفاجأة سارة ، تغتبط به ، وتصفق له بكلتا يديها . أليست هي السبب فيه ؟ ولكن الذي حدث أنها أنكرت عليه ذلك كما سبق أن استنتجنا فعندئذ خطرت له فكرة أخرى جديدة ، فكان هذا الكتاب (السحاب الأحمر) وفيه الفكرة ، ولذلك يعتبر السحاب الأحمر توسعة لرسائل الأحزان ، إذ يبحث عن المرحلة الثانية لفلسفة الجمال والحب ، وهي فلسفة الهجر والحرمان وطيش المرأة .

وفي مقدمة هذا الكتاب (السحاب الأحمر) وصف لنا الرافعي نفسه حين كتب رسائل الأحزان ، يفهم من كلامه بأن جميلة فاتنة قذفت في قلبه شرارة من الحب ، وتركته يتلظى ، فلم يملك أن أخذ قلمه وسجل مشاعره ، لكن بلغة

---

١ ــ السحاب الاحمر ص ٣٧ .
٢ ــ السحاب الأحمر ص ٣٦ .

الأحلام ، حتى ظن الغافلون أنه تكلف خيالا •

(ولقد كنت من نفسي يومئذ كمن لو ضربه الحب بقشة لجرحه جرحا يدمي[1] • وكنت أكتب عن ساحرة تبسم حتى لتظن أنها لم تؤت وجها تعبس بـه ، ثم تكون مع ذلك شر ما هي كائنة من حيث لا تظن أنت إلا الذي هو خير وأهدى •

وكنت في ذلك الكتاب شاعرا ، وحب الشاعر لايخلو من الوزن •• وكنت متفلسفا ، وهيهات إن أصبت الحب أيها الفيلسوف ، إلا في امرأة معقدة، يؤلفها الله تأليفا من العسر بين فهمك ومعانيها • فلا جرم كان الكتاب في نوع من الحب المتألم ، لايكون مثله إلا بين اثنين مسح الله يده على وجه أحدهما ، ثم مسح يده على قلب الآخر ، ثم تراءيا بعد ، فما لبث أن أشرق الأثر الالهي على الأثر ووقع القضاء في الحب على القدر •

ثم يقول •• (كنت أستوحي الرسائل من تلـك النفس التي طـارت بي طيرتها البطيء وقوعها ، فإني لأستعربها فكرا ، واشتعل منها خيالا • وكنت أرى الفصول تخلص في يدي حين أكتبها ، كما تخلص سبائك الذهب بعناصرها ، لا بالصناعة • وكان القلم كالحديد إذا أحمي عليه • ليست يد لمسته من أيدي المعاني ، إلا وضع فيها سمة النار ، ثم جاء الكتاب ، وما أكاد أصدق ، أن الزمن مر به ، وتم قبل أن يتم القمر دورة شهر واحد ، فنبهني ذلك إلى أن أستوفي الكلام في الحب ، استمدادا من أرواح أخرى ، فوضعت هذا السحاب الأحمر • وقد استوحيته من أرواح فيها الحبيب والبغيض ، والصديق والمظلوم ، والظالم لنفسه ، ومن عقله قلبه ، ومن حبه منفعة)[2] •

يبدو أن العناصر الرئيسية للكتاب قد ظهرت بوضوح • على أن كل هذه

---

١ ـ دمي الجرح يدمى (كرضي يرضى) اذا سال دمه (الرافعي) .
٢ ـ السحاب الأحمر ص ١٥ .

العناصر لاتعني إلا (أن قلبا وقع في أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه ، فما يملك إلا أن يصيح بملء فيه : إني أبغضك أيتها ... أيتها المحبوبة . وكما يفزع الشخص ــ إذا حزبه أمره ــ إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأي في بلواه ، كذلك فزع الرافعي في السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمر . فهذا صديقه الشيخ علي صاحب المساكين ، وهــذا صفيه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعي ، وذلك أستاذه ومثلــه الأعلى في دينه ، الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وهذه أم ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ، وهذا وهذه وتلك يحدثونه جميعا حديثهم عن الحب في رأي العين ، وفي رأي القلب ، وفي رأي العقــل ، ويحدثهم حديثه ، فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعا إلا أن الرافعي في جهــاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هــواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وكبريائه ، ثم لا تكون الغلبة في النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه)[١] .

والكتاب يعني بتحليل المشاعر في جميع أطوارها وحالاتها ، من غضب ورضى ، وهجر وهيام، كما يعنى بتحليل نفسية المرأة فيجميع مواقفها وحالاتها المختلفة ، ازاء نفسها ، وإزاء غيرها ، من حبيب وزوج وولد ...

ويفهم من الفصل الأول أن الرافعي ينتقم لكبريائه ، فهو يقص قصة حبيبته الأولى التي أوحت إليه بحديثالقمر ، يصفحسنها وتأثيرها في النفس ، ويذكر علاقته بها ، وهو في ذلك يشير إلى صاحبته مي إشارة خفية ، كأنه يقول لها : إن لي من هي أجمل منك ، وهي هذه التي من صفاتها أنها أخت الشمس .

(رأيت فتاة عرفتها قديما في ربوة من لبنان ، ينتهي الوصف إلى جمالها ثم

---

١ ــ السحاب الأحمر ص ٦ ــ وحياة الرافعي ص ١٣٤ .

يقف . كنت أرى الشمس كأنما تجري في شعرها ذهبا[1] وتتوقد في خدها ياقوتا ، وتسطع في ثغرها لؤلؤة . وكنت أرى الـورد الذي يزرعه الناس في رياضهم ، فإذا تأملت شفتيها رأيت ورقتين من الورد الذي يزرعه الله في جنته . وكانت لها حينا خفة العصفور ، وحينا كبرياء الطاووس ، ودائما وداعةالحمامة المستأنسة . وكانت روحها عطرة تنضح نفح المسك المسك إذا تشامت الأرواح الغزلة بالحاسة الشعرية التي فيها . وكنت إذا رأيتها بجملة النظر من بعيـد ، صور لها قلبي من الحُسن والهوى ما يموت فيه موتة ثم يحيا . فإذا جالستها، أثبت النظر فيها ، رأيتها في التفصيل شيئا بعد شيء بعد شيء ، كما أنظر نجما بعد نجم بعد نجم ، كلها شعاع ، وكلها نور ، وكلها حسن .

وما نظرتمرة إلىالنساء حولها إلا وجدتمن الفرقبينها وبينهنمايتضاعف من جهتها عاليا عاليا ، ويتضاعف منهن نازلا نازلا ، كأنه ليس في الأمر إلا أنها أخذت من السماء ووضعت بينهن .

هي كالفتنة المحتومة ، تنبعث إلى آخرها ، فليس منها شيء إلا يُحسِّن شيئا ، ويشوق إلى شيء ، وبعضها يزيد بعضها)[2] .

وبعد هذه الأوصاف التي نعت بها صاحبته الأولى انتقل إلى ذكرياته معها. ومع أن الزمان زاد على اثنتي عشـرة سنة ، فإنه لا يزال يذكرها ، ثم سرعـان ما مجد القلب الذي لا ينسى حبيبه ، والغرض من ذلك واضح .

يقول : (لقد تراخى الزمن بي وبها ، فلو عددت لأحصيت مائة وخمسين قمرا منذ فارقتها . وما أحسب الأرض إلا انصدعت بيننا عن أقيانوس عظيـم

---

١ ـ شعر الآنسة مي أسود ، وهي تتعشق الشعر الـذهبي . انظر ماكتبته في هذا المعنى لجبران خليل جبران فيكتابها ظلماتوأشعة ص ١٢٣ .
٢ ـ السحاب الأحمر ص ٢٨ .

من الزمن ، تملؤه الأيام والليالي ، فلا يُخاض ولا يعبر ، ولا ينظر فيه أهل ساحل أهل ساحل آخر غيره .

وعلى أن هذا الزمن ، قد محا قلبي من بعدها وأثبت ، فلا تزال تنشق لها زفرة من صدري ، كلما عرضت ذكراها ، كأن القلب يسألني بلغته : أين هي ؟

والقلب الكريم لاينسى شيئا أحبه ، ولا شيئا ألفه ، إذ الحياة فيه إنما هي الشعور ، والشعور يتصل بالمعدوم ، اتصاله بالموجود ، على قياس واحد . فكأن القلب يحمل فيما يحمل من المعجزات بعض السر الأزلي الذي يحيط بالأبعاد كلها إحاطة واحدة ، لأنها كلها كائنة فيه . فليس بينك وبين أبعد ما مر من حياتك إلا خطوة من الفكر ، هي للماضي أقصر من التفاتة العين للحاضر)[1] .

وفي آخر هذا الفصل ، يرجع الى طريقة المقارنة فيقول : (إن من النساء ما يفهم ثم يعلو في معانيه الجميلة إلى أن يمتنع . ومن النساء ما يفهم ثم يسفل في معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل .

إن من المرأة ما يحب إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يكره إلى أن يلتحق بالكفر .

من المرأة حلو لذيذ ، يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مر كريه يشبع منه بلاأكل)[2] .

وقد انتهج الرافعي في هذا الكتاب نهجين مختلفين : أحدهما يتسم باللين والأناة ، والآخر بالثورة والغضب . ولكل منهما أسبابه ودواعيه ، تبعا لما تمليه عليه نفسه ، أو ما يستلهمه من الحوادث القريبة والبعيدة ، ولم يفته أن يضع نهجا للمحبة يسير عليه كل من ينشد السعادة في الحياة .

---

١ ـ السحاب الأحمر ص ٢٨ ـ ٢٩ .
٢ ـ المصدر السابق ص ٣٣ .

ويستنتج من كل ذلك ، أنه يحس بأشياء ويشعر بها ، فعبر عنها في جميع حالاتها المختلفة ، سواء منها ما يتعلق بالوجدان أو بالفكر أو بهما معا • وغرضه إبراز أحاسيسه ومشاعره وأفكاره إلى الآخرين كما هي •

ففي المنهج الثائر ينتقد الأفكار الفاسدة ، ويهاجم أصحابها المقلدين ، سواء منهم أهل الغرب ، أو أهل الشرق • ويحاول أن يصحح لكل من هؤلاء وهؤلاء أفكارهم • وفي المنهج العقلي يرى أن الحب صفة لازمة لكل نفس ، وبه سموها وأرتقاؤها ، شريطة أن يحسن المرء استعماله •

وعلى هذه النظرية بنى بحثه ، وانتقد أولئك الذين انحرفوا بالحب عن جهته ، واتهمهم بالعاطفة المادية التي تشبه عاطفة عشاق الذهب والفضة ، ثم هو في هذا المنهج العقلي يربط الحب بشيئين متعارضين : الجمال والبغض •

(ليس بجمال إلا ذلك الروح الذي يرفع النفس إلى أفق الحقيقة الجميلة ، ثم ينفخ فيها مثل القوة التي يطير بها الطير ، ويدعها بعد ذلك تتراخى بين أفق إلى أفق ، فإما انتهى المحب إلى حيث يصير هو في نفسه حقيقة من الحقائق ، وإما انكفأ من أعاليه ، وبه ما بالطيارة الهاوية : رفعت راكبها إلى حيث ترمي به ميتا ، أو كالمغشى عليه من الموت • والذين ينكرون أن الجمال يقتل أحيانا ، أو يجعل الحياة كالقتل ، ثم يدعون مع ذلك هوى وحياة ، إنما هم أولئك الذين يعشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التي يحبون بها الذهب والفضة •

وليس بحب إلا ما عرفته ارتقاء نفسيا ، تعلو فيه الروح بين سماوين من البشرية ، فتلوح منهما كالمصباح بين مرآتين ، يكون واحدا وترى منه العين ثلاثة مصابيح • فكأن الحب هو تعدد الروح في نفسها وفي محبوبها)[١] •

وقد يذهب إلى أبعد من هذا فيجعل الحب في منزلة الأيمان (وكما أن الطريق الى الجنة من الأيمان بكل قوى النفس ، فان الطريق الى الحب من

---

١ ـ السحاب الأحمر ص ٢٩ ـ ٣٠ .

قـوة لاتنقص عـن الايمـان إلا قليـلا : والخطـوة التي تقطع مسافـة قصيرة إلى القلب ، تقطع مسافة طويلة إلى السماء)[1] .

وأخيرا ينتهي إلى أن الحب أقوى من العقـل ، ولذلك ينقلب في بعض الحالات الى بغض . والسبب في ذلك أن العقل حاول أن يتحكم فيه (وكما ينشأ الكفر أحيانا من عمل العقل الانساني ، إذا هو تحكم في الدين ، يأتي البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم في الحب)[2] .

وينظر إلى المرأة نظرتين مختلفتين ، نظرة يتحدث عنها مستعليا ساخرا على شاكلة قوله : (ترى ما هذا الشبه بين المرأة وبين السماء ؟ أكانت المرأة في أصل الخلقة مادة سماء ، بدأت تتخلق في الغيب ، فحبسها الله في ضلع الرجل عقابا لها، ثم عاقبها الثانية فأخرجها للرجل تنظر إليه كما ينظر السجين إلى سجنه . ويكون الله سبحانه قد عاقبها مرتين لتتعلم هي بطبعها كيف تتجنى على الرجل وتعاقبه مرارا لا تعد ... لذلك أراني لا أستطيع أن أفهم الجميلة ، بل لا أدري كيف أفهمها . فمن حيثما نظرت إليها ، لا أراها تبتدىء إلا من فوق العقل ، فأنظر إليها ساكتا ، على أنها هي لا تنظر في إلا متكلمة)[3] .

والنظرة الثانية جدية لا سخرية فيها ولا استعلاء ، وأمثلتها كثيرة ، نذكر منها هذا الذي يمثل الحكمة الالهية في سر الرقة التي أودعها دموعها (يا عجبا لضمير المرأة ، يضل في ليل دامس من ذنوبها ، ثم تلمع له دمعة طاهرة في عينيها، فتكون كنجمة القطب ، يعرف بها كيف يتجه وكيف يهتدي وكيف كان ضلاله. وكأن الله ما سلط الدموع على النساء وجعلها طبيعة فيهن ، إلا لتكون هذه الدموع ذريعة من ذرائع الحياة الانسانية ، تحفظ الرقة في مثل الرقة ، كما جعل البحار في الأرض وسيلة من وسائل الحياة عليها تحفظ الروح والنشاط لها[4] .

---

١ ـ السحاب الاحمر ص ٣١ .
٢ ـ نفس المصدر .
٣ ـ السحاب الاحمر ص ٣٢ .
٤ ـ المصدر السابق ص ٨١ .

والكتاب فصول شتى ، لا تجمع بين موضوعاته إلا الفكرة العامة التي هي البحث عن مشاعر الانسان الذي بلغ مرحلة الشعور والاحساس أو مرحلة التفكير والتأمل . وسواء كان هذا الانسان رجلا أو امرأة ، زوجا أو زوجة أو غيرهما ، إلا أن السمة الظاهرة في الرجل غير التي في المرأة ، والتي تبدو في المفكر غير التي تبدو في الجاهل . ومثل هذا يقال عن أنواع النساء ، من امرأة جميلة وغير جميلة وزوجة وغير زوجة ..

يتحدث الكتاب عن كل نوع من هذه الأنواع البشرية المختلفة الألوان والنزعات والمشاعر ، بأسلوب وصفي يشخص الداء إن كان ثمة داء ، كالفصل الذي أفرده (للربيطة)[1] و (المنافق)[2] ، ويحاول بعد ذلك أن يبين الدواء الناجع ، كما يحاول أن يحذر من عواقبه السيئة . وقد يرمز إلى شخص بعينه يعرفه ليكون كلامه حقيقة لاخيال فيه[3] .

وهدف الرافعي من كل ذلك، أن يضع للحب أسسا صحيحة يسير عليها كل امرىء حسب ما هي في الأخلاق والشرائع ، لا كما هي في خيال الشباب وعواطفه . وقد يذكر الحب ومقابله كما في قصة السجين ، ليحلل المشاعر الأنسانية على القاعدة المشهورة (بضدها تتميز الأشياء) . فهذه زوجة فارقها وزجها إلى حيث لا تعلم ، فتركها (وقد صدع الحب قلبها صدعا ليغرز فيه الشوكة المستحدة من ألم الفراق)[4] .

وكان قبل أن يصل إلى وصف حالة الزوجة وقلبها الممزق ، تناول زوجها ونكبات الدهر التيحلت به ، ولم ينسأن يتحدثعن نفسهوإحساسهومشاعره ، كأديب إنساني يصف ما يرى ، وما ستئول إليه العائلة المنكوبة بعد فراق ربها .

---

١ ــ السحاب الاحمر ص ٥٩ .
٢ ــ المصدر السابق ص ٨٦ .
٣ ــ انظر التعليق في فصل الربيطة ص ٥٩ .
٤ ــ السحاب الأحمر ص ٥٦ .

(وجاءت حافلة السجن فركبها السجين ، ومضت تجرها البغال طائعة منقادة كما تنقاد إذا هي جرت مركبة ملك ، وذهبت وما تحفل بشيء من الدنيا وسياستها وآدابها وأحكامها ، ما تحفل بهذا السوط الدقيق المسلط على ظهورها •

أما أهل الرجل فتهالكوا وراء العربة ، فالشاب يخطف في عدوه خطفا منكرا ، كأن قربه منها يوصل بعض أنفاس الحرية إلى أخيه ، والنسوة يهتلكن في جريهن • وكلما أبعدت الحافلة علا صراخهن ليبلغ السجين منهن شيء ما • أما الطفلان وجدتهما ، فوقفوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم ، ولكن نظرات الجدة ارتمت إلى العربة ، فلما غابت عنها ارتمت إلى السماء •

وأما الرضيع ، هذا اليتيم في حياة أبيه ، هذا المسكين الذي ابتدأ تاريخه بجريمة لا يد له فيها ، هذا الضعيف الذي لا يزال جلده أرق ديباجة من ورق الزهر ، ومع ذلك تدق فيه منذ الآن مسامير الفقر واليتم والضياع ، أما الرضيع اليتيم المسكين الضعيف ، فكان وحده بين هذه المصائب الماحقة دليلا على الأمل الانساني في رحمة الله ، إذ فتح عينيه للنور وابتسم)[1] •

وبعد أن يذكر هذه المأساة وما فيها من آلام ، يسارع الى ذكر شيء له علاقة بالحب وهو الفراق فيقول : (ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أحبتها بمس الفناء ، لأن أرواحا أخرى فارقتها • ففي الموت يمس وجودنا ليتحطم ، وفي الفراق يمس ليلتوي • وكأن الذي يقبض الروح في كفه حين موتها ، هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه • وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ، فعند الفراق تنتزع قطعة من وجودنا ، فنرجع باكين ، ونجلس في كل مكان محزونين، كأن في القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت ••• في الحب يتعلم القلب كيف يتألم بالمعاني التي يجردها من أشخاصها المحبوبة ،

---

١ ــ السحاب الأحمر ص ٥٥ .

وكانت كامنة فيهم ، وبالفراق يتوجـع بالمعاني التي يجردها هو من نفسه ، وكانت كامنة فيه .

فترى العـُمرَ يتسلل يوما فيوما ولا نشعر به ، ولكن متى فارقنا من نحبهم ، نبه القلب فينا بغتة معنى الزمن الراحل فكان من الفراق على نفوسنا انفجار، كتطاير عدة سنين من الحياة)[1] .

فحديث الرافعي عن الفراق بهذا الأسلوب ، وبهذا التفكير ، يدل على أنه ارتفع به إلى حيث الدراسة التي أساسها بيان الحقائق ، ثم لا يسأل عن مصدر الجريمة وما عقابها ، لأنه ليس من رجال القضاء ، إنما شعر بأن في الحيـاة ثغرات كثيرة ، منها هذه التي تتعلق بالأسرة ، فأراد أن يتحدث عنها ما أمكنه الحديث ، ثم هو لا يريد أن يقلد الأقدمين في شيء من أقوالهم وأساليبهم في كلمة الفراق ، أوما يسمونه في الغالب بالهجر .

فقد كان الأقدمون إذا أرادوا أن يعبروا عن الفراق بكلمة لهـا وقعها في النفس عبروا عنها بالهجر . فلما جاء الرافعي أعطى لكل كلمة معناها على أسس من التجربة الشخصية ، وعلى أسس لغوية أيضا ، ذلك أن الفراق أعم وأخف وطأة من الهجر ، ولكل لفظ معناه وموضعه .

والميزة الخاصة بالرافعي في إبراز المعاني ، تبدو واضحة في تشبيهاته العجيبة . فهو إذا أراد أن يتحدث عن المنافق حديثا مؤثرا شبهه برجل أكثر منه نفاقا . وهل يوجد رجل أكثر نفاقا من المنافق ؟ يقول الرافعي : نعم يوجد ، واسمه السياسي .

(والمنافق هو سياسي الحب والصداقة ، فيضع المنفعة بين عينيه ، ثم تتوزع على جوارحه كل أساليب الكلام والحركة والعاطفة ، فلا مخرج لك من عقدته

---

١ ـ السحاب الأحمر ص ٥٧ .

إلا أن يعقد هو بأسلوب وتحل أنت بأسلوب آخر ، وترى صداقته تنتهي أكثر ما تنتهي إلى مثل المقاطعة الحربية بين فراعنة السياسة وشياطينها ، يرمي الداهية منهم داهية آخر « بإنذار نهائي » حاسم يحمل الزلازل في كلماته ، وينصب للحساب ميزان الهوان والهلاك ، ثم يقول له في آخره : « وإني أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم احترامي »(١) .

بعد الذي رأينا نستطيع أن نقول جازمين : إن السحاب الأحمر غزير المادة غزير المعاني ، بالاضافة إلى أسلوبه وبيانه . وهذه الأمور كلها كانت نتيجة لاسباب نفسية شعر بها الرافعي فأبرزها في الكتاب كما عاناها .

وقد قال الرافعي كلمة في هذا المعنى ، من أنه كان في بعض فصول الكتاب يحامي عن الحب أن ينتقص ، فيدير الكلام على ذلك ، فيلتوي ، ثم يراه لا ينقاد ولا يتتابع إلا على خلاف ما يريد ، فإذا أخذ في المذهب الذي عنّ له اتفاقا وعرضا ، تحدر الكلام تحدر الدمع من حيث لا يملك أحد أن يفيضه أو يكفه ، لأنه عند أسبابه الباطنة(٢) .

وإلى جانب ما قدمت من المعاني والأفكار وتحليل المشاعر ، يوجد في الكتاب نمط آخر من الأسلوب ، هو الأسلوب الانشائي . ومن أمثلته وصف القلم الذي يكتب به (في يدي الآن هذا القلم الذي أكتب به ، وهو سن قائمة في نصاب من الزجاج أحمر صاف ، يشف عن داخله . فإذا طاف به النور أشع فيه ، وانصبغ بلونه ، فرمى على إصبعي ظلا مجروحا ، يريك الجلد كأنما جرحه من فوقه لا من تحته . فإذا راوحته يدي وقلبته أناملي ، رأيت له بريقا يستعير فيه ، كأنه شعلة من اللهب ، حبستها معجزة في عود من الثلج . فإذا استعرضته بين العين وبين الضوء الساطع رأيت منه ياقوتة حمراء ، قد افتر فيها نبع كالقمر

---

١ ــ السحاب الاحمر ص ٨٥ .
٢ ــ السحاب الأحمر ص ١٦ .

الحلو ، يتنفس على قلبي الحزين بابتسامات تأتي إلي ، وفيها ألوان شفاهها الوردية)[1] .

إن هذا الأسلوب الانشائي ، وعلى هذا النحو من الوصف ، ليدل على شيئين : أحدهما أن الرافعي يريد أن يعرف الآخرين من الأدباء أمثاله بأن له رصيدا من المعاني لا يوجد عندهم ، وأن له قوة سحرية على إبرازها في أي صورة ، وفي أي ثوب أراد ، هم أعجز من أن يأتوا بمثلها . وثانيهما : ليربي ملكة الانشاء في الطلبة الناشئين كما هو معروف عنه .

وقد نجح في الأمرين كليهما ، ولكن الغريب ، إننا نجد مع ذلك أستاذا له شهرته ومنزلته الأدبية والاجتماعية ، يعلن في جرأة ليس وراءها جرأة ، أن هذا الأسلوب الانشائي ، وعلى هذا النحو الذي مر بنا في وصف القلم ، إن هو إلا (فقاعة) .

قال سلامة موسى : وهذا كاتب آخر يضع كتابا عن الحب والجمال ، ويبدأ الفصل الاول منه بوصف « فقاعة » هي نصاب قلم مصنوع من زجاج يحتوي على مداد أحمر ويباع بالقاهرة بنصف قرش[2] . ماهذا الانتقاد ؟ كان الكتابة في رأي سلامة موسى لاتكون في الأشياء الرخيصة ، وإنما في الأشياء الغالية أو الهامة .

لنستمع إليه مرة أخرى ، فإنه حاول أن يذكر غاية الأدب ومنهجه . قال : (فيكتب عن هذا النصاب عدة صفحات ، ويستوحي منه التأملات والخواطر في الحب والجمال). ثم يقول بعد ذلك ، والجمل مفككة : (فهو كاتب صنعة لا يبالي إلا برنين ألفاظه ، وخلابة استعاراته ، وهذا لعمري هو اللهو واللعب ، فإن للأدب غاية ، وغايته هو إصلاح الناس وهديهم ، وكشف حقائق هذا

---

١ ـ السحاب الاحمر ص ٢٥ .
٢ ـ الهلال ابريل ١٩٢٥ .

الكون ، والتمتع بجمال هذه الحقائق ، والسكون إليها . وهذا لايكون إلا بالدرس المتواصل ، والنية الحسنة ، والبعد عن غرور اللفظ ، وزهوه وخلابته)[1] .

إنهذه المعاني التي ذكرها الأستاذ سلامة موسى في انتقاده ، وجعلها شروطا للأديب يراعيها ويسير على منوالها ، مُتَنَكّفرَةً" عند الرافعي ، ولكن الرافعي يبرزها على نحو يمس المشاعر أكثر مما يمس الفكر ، لأنه في موضع رقيق يستدعي هذا النمط من الأسلوب ، وعلى هذا النحو من الوصف .

وقد أهمل الرافعي الرد على سلامة موسى لسببين : أولهما إن نقد سلامة للرافعي لا يسمى نقداً لضعفه وبعده عن الحقيقة . وثانيهما أن سلامة يعمل في مجلة الهلال مترجما ، والتعرض له يعد في نفس الوقت تعرضا للمجلة ، وهو ما يأباه الرافعي ويأنف منه)[2] .

ونحن لو تأملنا قليلا في وصف الرافعي للقلم ، لأدركنا بالبداهة أنه كان يستعرض القلم على النحو الذي ذكر ، فيضع القلم بين أصابعه ، ثم يرفعه إلى حيث موضع الاختبار ، فيسلط عليه نظراته من هنا وهنا ، وهو في كل ذلك يقلبه ويقلبه حتى تأتى له من الوصف ما رأينا .

وعندي أن السبب يرجع إلىما ذكرت سابقا من أنه مفعم بالمعاني والمشاعر ، ومفعم بروح الابتكار والخلق ، فهو لذلك لايرضى أن يبقى حيث الدائرة التي كان الأولون يدورون حولها ، وتبعهم في ذلك المتأخرون من أدباء الوصف ، فهم إذا كتبوا عن القلم ، وصفوه بصفات مشهورة معادة لاتعدو أن تبرز القلم قويا كقوة السيف أو أكثر ، وأن وقعه ليفوق وقع السيف .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يفعل ذلك ليشعر الطلبة إلى طريقة هامة

---

١ ــ الهلال ابريل ١٩٢٥ .
٢ ــ انظر رسائل الرافعي ص ٩٧ .

في الانشاء ، وهي هذه الطريقة الملموسة ، وكأنه يقول لهم : اعتبروا كل موضوع تكتبون فيه ، واختبروه على النحو الذي رأيتم ، حتى تعرفوا صوره الخارجية والداخلية ، ثم كنهه بعد ذلك • فإذا تم لكم فهمه ، ووعيتم مظهره وحقيقته ، سهل عليكم أن تكتبوا فيه •

وفي الكتاب قصيدة رائعة في الغزل ذكرها في أول الكتاب ، وهي لا شك من وحي حبيبته مي وإليها • نذكر منها هذه الأبيات :

من للمحب ومن يعينه ... والحب أهنأه حزينه
أنا ما عرفت سوى قسا ... وته ، فقولوا: كيف لينه؟
إن يقض دين ذوي الهوى ... فأنا الذي بقيت ديونه
قلبي هو الألماس : يصـ ... ـرف من أشعته ثمينه
قلبي وإنما ... أخلاقه فيه ودينه
ويلي على متدلل ... ما تنقضي عني فنونه
كيف السلو وفي فؤا ... دي لا تفارقني عيونه[1]

والسحاب الأحمر جزء متمم لرسائل الأحزان • وفيهما قالت مجلة الزهراء: (وإنك لا تكاد تنتقل فيهما من سطر الى آخر حتى تقع على حكمة بليغة أو معنى مبتكر)[2] •

أوراق الورد

هذا الكتاب تتمة للكتابين السابقين : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر • ألف الرافعي الأول ليكون رسالة إلى صاحبته الآنسة مي ، تقرأه فتعرف

---

١ ـ السحاب الأحمر ص ١٨ـ١٩

٢ ـ مجلة الزهراء ١٥ رجب ١٣٤٣ هـ .

من أمره ما يود أن تعرف ، ووضعه على نمط من الأسلوب الشيق الجذاب ، على طريقة الشعراء الغزلين في الاستعطاف والرضا حينا ، والهيجان والثوران حينا آخر . ولما أنكرت عليه كما استنتجنا ذلك منه ، تفتح له باب جديد فيما يتصل بالحب ، وهو الهجر والحرمان ، ولؤم المرأة إزاء من يحبها ، فكان بسبب ذلك السحاب الأحمر ، وكان فيه ثائرا غضوبا ، ناقما أو كالناقم .

وأخيرا ، وبعد ست سنوات مرت على الكتابين ، ألف هذا الكتاب أوراق الورد ، وقال عنه : (هذا الديوان من الرسائل ، تكملة على كتابين خرجا من قبل ، وهما : رسائل الأحزان والسحاب الأحمر ، فجملة آرائنا في فلسفة الجمال والحب وأوصافهما ، هما في هذه الكتب الثلاثة)[1] .

وفي أثناء عمله صرح بأن الكتاب من وحي الآنسة مي ولها . وذكر منهجه فيه فقال : (لا هم لي الآن إلا الفراغ من كتاب الشيطانة[2] ، فقد تعبت تعبا شديدا ، ومع ذلك فلم ننته إلا من ٢٢ رسالة . والمقرر ٤٠ ، منها عشر رسائل صغيرة ، ثم يقول : وإني أحمد الله على هـذا الكنز وتوفيقي إليه ، فليس في العربية كلها مايشبهه)[3] .

وفي الصفحات الأولى من الكتاب ، وفيجزء من عنوانه ، كلامللرافعي يفهم منه أن أوراق الورد رسائل متبادلة بينه وبين الآنسة مي . ويؤيد هذا الرأي ما سبق أن قاله الرافعي في آخر رسائل الأحزان تحت عنوان (تنبيه) ، قال : (هذا الذي أصدرناه من « رسائل الأحزان » إنما هو نصف كتاب الحب ، وبقي نصفه الآخر الذي يحتوي رسائله إليها ، ورسائلها إليه ، وسنخرجه ـ إن شاء الله ـ كتابا على حدة إن أذنت هي في نشر رسائلها ، فإن لم تأذن

---

١ ــ أوراق الورد ص ١٢ .
٢ ــ هي الآنسة مي رحمها الله . وهكذا كان يسميها . والكتاب هو اوراق الورد (أبورية) .
٣ ــ رسائل الرافعي ص ١٧٠ .

طويناه ، وبقي النهـار مشرقا على نصف الأرض ، والليـل مظلما على نصفها الثاني)[1] •

ولما كان السحاب الأحمر خاليا من كل رسالة لها ، وقد نشر بعد رسائل الأحزان ، لم يبق أمامنا إلا هذا الكتاب أوراق الورد • غير أننا لم نجد ما يثبت هذا الرأي سوى رسالة واحدة نقلها من كتابها ظلمات وأشعة ، ووضعها في هذا الكتاب ، وقال عنها (انتهى من أوراق الورد خمس وثلاثون رسالة ، ثم رسالة منقولة مهمة جدا ، وجدتها في كتاب من كتب صاحبة الرسائل)[2] •

وهذا النقل لا يدل على المراسلة أصلا ، ولكنه يدل على نوع من الارتباط القديم • وآية ذلك تتبعه لما كانت تنشره في المجلات والصحف ، كما أشـرت إلى ذلك سابقا[3] •

وهناك سؤال يثيره ما كتبه الرافعي تحت عنوان تنبيه في آخر الصفحة من رسائل الأحزان ، وهو الذي أثبته قبل هذه الأسطر • لماذا قال : إنه سيؤلف كتابا فيما بقي من معاني الحب ، يحمل رسائلها إليه ورسائله إليهـا ؟ أتراه يقول لها بعد أن أنشأ رسائل الأحزان على تلك الصورة التي رأينا : إنه يتمنى أن تشجعه بما عندها ، ولو بكلمات قصار كذاك النمط الذي يزعم أنه مـن صديقه ، حتى يخلق أدبا من نوع غير الذي عرفه الأدباء ؟

إني أميل إلى هذا الرأي ، وهو ما أشار إليه أحد أصدقاء الرافعي في تعليق له على كلمة الرافعي ، وقد ذكر هذا نشاطه الأدبي وسببه ، وأنه من الآنسة أو من شيطان في إيطاليا على حد تعبيره ، لأن الآنسة مي كانت هناك •

قال صديقه أبو رية في تعليقه : (آه لو كانت مي قد جاذبته حبل المراسلة)[4] •

---

١ ـ رسائل الأحزان ص ١٥٩ .
٢ ـ رسائل الرافعي ص ١٧٦ .
٣ ـ انظر ماكتبناه في هذا المعنى ص ١٣١ من هذه الصفحات .
٤ ـ رسائل الرافعي ص ١٧٥ .

وقد توخى الرافعي في هذا الكتاب أغراضا أربعة ، ذكرها في إحدى رسائله:

١ ـ سد المكان الخالي في الأدب العربي من أول تاريخه إلى اليوم ، وإعطاء العربية كتابا في رسائل الحب وفلسفته وأوصافه ، تقابل به ما في اللغات الأخرى .

٢ ـ وضع عمل حاسم يفصل في النزاع القائم بين القديم والجديد ، لأنه نزاع كلامي،إلى أن يضع أحد المذهبين عملا يعجز المذهب الآخر .

٣ ـ تطهير فكرة الحب ، وتهذيب معانيه في نفوس الشبان والفتيات ، والسمو بهذه الفكرة إلى الجهة الشعرية الروحانية لتسمو بها النفس بدلا من أن تسقط . وهذا غرض تهذيبي عظيم ، لأن ناموس الحب طور من أطوار الشباب ، ولا يمكن أن يقهر أو يدفع ، وإنما الممكن تهذيبه والسمو به .

٤ ـ الدفاع عن اللغة العربية ... لأن الكتاب الأوربيين يعيبون العربية بضعف التصوير للعواطف ، وأنها ليست لغة تحليل ، مع أن العربية أوسع لغات الدنيا في هذا الباب بمفرداتها ، ولكن أين الكاتب الذي يتولى ذلك بخيال قوي ، وإحاطة باللغة ، وإدراك لدقائقها وأسرارها ، وفوق ذلك فكرة عميقة فلسفية ملهمة .

ويقول إن هذا كله من أشق الأمور ، وقلما اجتمع لأحد ، وهو السبب في خلو الأدب العربي إلى الآن من دقة التصوير لخوالج النفس ، بمثل الأسلوب البياني الذي تكتب به الرسائل . فأوراق الورد ، دفاع عظيم عن اللغة ، كما أنه تجديد فيها وفي الأدب[1] .

ويقول في صدر الكتاب : (... إننا لا نعرف في تاريخ الأدب العربي كله، رسالة كتبت من هذا الطراز ،على كثرة كتاب العربية وكتبها ، وعلى ما أبدعوا

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

في فنون الترسل . وعلى أن هذه العربية من أوسع لغات الدنيا فيما خصت به المرأة ، وما أوقعته على صفاتها ، وما أفاضته على العاطفة إليها ، وما حفلت به من ألفاظ معانيها ، حتى لو أمكن أن ترسل لغات الأمم ألفاظها تستبق في المعاني النسائية ، لما كان السبق إلا للألفاظ العربية ، ولا أوفى على الغاية إلا المعجم العربي وحده)[1] .

وقال بعد أن أتم طبعه : إنه أحسن مما كتبه شكسبير ولا مارتين في معانيه وبيانه (لقد قرأت أوراق الورد في هذا الأسبوع ، بعد أن فرغت من قراءة رواية لشكسبير ، وأخرى للامارتين . وفي ظني أوراق الورد يرجح عليها بكثير في معانيه وبيانه)[2] .

وعن سبب تسميته بهذا الاسم « أوراق الورد » قال : (ثم دنت الشاعرة الجميلة ، فناطت وردتها إلى عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتها رقيقة نادية في صدري ، ولكن على معان في القلب كأشواكها ، فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوما معاني الأشواك ، فسمها أوراق الورد ، وكذلك سماها)[3] .

ونحن نرى أن سبب التسمية كان بما علق في ذهنه أثناء كتابته السحاب الأحمر ، فقد جاءت فيه كلمة الورد وورقة في موضعين أحدهما هذا : (فإذا تأملت شفتيها رأيت ورقتين من الورد)[4] والآخر هو قوله : (ألوان شفاهها الوردية)[5] .

وقد علمنا أن السحاب الأحمر ألف قبل أوراق الورد ، ولذلك يحتمل أن

---

١ ـ أوراق الورد ص ١٣ .
٢ ـ رسائل الرافعي ص ٣٥٤ .
٣ ـ أوراق الورد ص ٣٠
٤ ـ السحاب الأحمر ص ٢٧ .
٥ ـ المصدر السابق ص ٢٥ .

تكون هذه المعاني التي مرت به هناك قد علقت بذهنه ، فأوحت إليه بالكتاب أولا ، ثم عنوانه ثانيا .

وأوراق الورد يبحث في الخواطر النفسية التي تغشى العاشق ، وقلما نجد عملا فكريا إلا بعض الحكم والأمثال ، كأن ينثرها حينا بعد حين عند المناسبة .

ومعنى هذا أن هذه الكتب الثلاثة التي ألفها في الحب كل منها يبحث ناحية من نواحي الحب . فرسائل الأحزان يتناول طرق المراسلات الغرامية ، وأساليبها المختلفة من اللين والشدة ، حسب ما يحس به الحبيب أو المحب . والسحاب الأحمر يبحث في غضب المحب ، وغضب الحبيب ، كما يبحث بعض الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية . أما أوراق الورد ، فيبحث في الخلجات النفسية ، وما يتصل بها من الحكم والأمثال للبرهنة والاستدلال ، وكأنه يريد أن يجمع فيه بين العقل والقلب .

وقد حاول في هذا الكتاب ، أن يستوعب كل معنى له علاقة بالحبيب من مثل رسمه ، ونظراته ، وابتساماته . ومتى تناول موضوعا من هذه الموضوعات وأشباهها ، ركز فكره فيه ، وتناوله من جميع جهاته ، مثل حديثه عن « زجاجة العطر » فقد استوحى منها كل معنى طريف . فهي رسول منه الى حبيبته . إنه نثر على كل جوانبها قبلات ، فمتى لمستها يد الحبيبة من هنا أو هنا ، فقد التقت أصابعها بقبلاته الحارة .

ونراه يعمد إلى الكلمات التي اشتهرت بها حبيبته في الميدان الأدبي أو الفلسفي ، فيجعل منها موضوعات لحديثه ، ويسهب في تحليلها مثل (معاني التنهدات) و (البلاغة تتنهد) و (فلسفة المرض) ، وغرضه من ذلك أن يستوفي كل المعاني النفسية والعقلية ، حتى يحقق للعربية أحد الأغراض الذي توخاه في الكتاب كما مر بنا ، وعندئذ تتأكد من أن اللغة العربية قادرة على إبراز هذه المعاني النفسية متى وجدت أديبا قويا يحسن التعبير عنها .

وقد حشد الرافعي في أوراق الورد كل كلمة لها دلالتها النفسية والفكرية، وشقق منها معاني يفهم منها أنه جاد في تحقيق منهجه الذي رسمه في الكتاب ، من ذلك حديثه عن كلمة (أخطأت) • فقد نطقت الحبيبة بهذه الكلمة ، وقالتها للعاشق الهيمان • ماذا في الأمر ؟ حبيبة فاهت بكلمة كما تفوه بها أي أمرأة أو فتاة أخرى ؟ أفي ذلك منغرابة ؟ أو ما يستدعي التفلسف والاطناب فيالقول؟

إن الرافعي لم يترك هذه الكلمة تمر عليه دون أن يبين معانيها المختلفة • نعم إن في هذه الكلمة معاني مختلفة، بلمتضاربة، بل متناقضة ، لأنها لا تخضع للغة أصلا • وهل تخضع كلمة تخرج من فم الحبيبة إلى ما يعرف من المعاجم والقواميس اللغوية ؟

إن الرافعي أدرك هذه المعاني التي لا تخضع للغة ، فأسهب في تصويرها ، فهو يعلم عن نفسه أنه لم يخطىء مع حبيبته ، ولكن ما دامت هذه الحبيبة هي التي صرحت بها ، فلا بد أن يسمعها ويقدر معانيها ، وخاصة إذا كانت الحبيبة نطقت بها في جو خاص ، وفي تغنج ودلال • فقد جارى صاحبته كثيرا ، وهو يداريها ، ويخفي عنها شيئا ، ويظهر لها شيئا غيره • وأخيرا ينتهي إلى أنه لم يخطىء وإنما اعترف لها بما اعترف به من الخطأ ، لأن الكلمة فقدت معناها اللغوي وأصبحت تدل على معنى آخر وهو الحب •

لنستمع إليه كيف يحللها ، ويستوحي منها المعاني تلو المعاني، وكأنهيتحدى الأدباء جميعهم ، لا في الشرق العربي وحده ، بل في الغرب أيضا • قال تحت عنوان : « هل أخطأت » ؟ :

(قالت له يوما في أمر من الأمور : « قد أخطأت » وغضبت أو تغضبت• فكتب إليها هذه الرسالة •

لقد قلت يا حبيبتي : إني أخطأت ، ورميتني بها كلمة مقفلة لا منفذ منها ولا مخرج ، ولا أدري ــ والله ــ كيف أخطأت ، ولكنك لما قلتها وتغضّبتِ

فيها ، وتعتبت لها أثبت ّ في الكلمة معناها •

ولو أني راجعتك في ذلك مائة مرة ، ولكل مرة برهان ، ومع كل برهان اقتناع ، لما استطعت أن أنزع دلالك أو نعتك من هذه الكلمة • فأنا لابدلالك أخطأت لا بعملي ، وبرغبتك في الاساءة إلي قد صرت مخطئا لا بإساءتي • والتهمة ثابتة عندك لا بواقعة ، ولا دليل ، ولكن بثبوت حبي لك •

ولقد نظرت إليك حين قلتها ، ونظرت إلي ، فكانت شفتاك تتهمان ، وعيناك تعتذران ، وكان لساني يعتذر ، وعيني تتهم[1] ، وكانت الكلمة نفسها تكاد تقول : ما جئتك لأدل على معنى وقع منك أنت ، بل على معنى وقع فيها هي •

وقد اعتدت منك في بعض حالات قلبك تضعي أن لا المعنى في اللفظ الذي هو تعبيره ، بل في الذي هو تعبير ما بيني وبينك • فمعنى قولك أني أخطأت، يجيء في تعبير آخر كأنك تقولين : تذلل لي •

لا تزال الكلمة كلمة من اللغة حتى تقوليها أنت ، فإذا هي كلمة من الفن، وإذا فيها ذاتية وحياة ، ولها تاريخ • أنا أخطأت لأني لم أخطىء • فهي كلمة حب ، من معناك أنت ، لا من معنى الخط اللغوي • ولذلك أقرها • فإذا قلت لك : نعم أخطأت ، فاعلمي إنمـا أجيب بذلك على أسئلة أحستها نفسي من نسك ، فتجيء هكذا :

هل ترضيني ؟ نعم أرضيك • ألست تطيعني ؟ بلى أطيع • هل تتذلل ؟ نعم أتذلل • هل أخطأت ؟ نعم أخطأت •

وأرضيك ، وأطيع ، وأتذلل • كلها بمعنى : أحبك ، أحبك ، أحبك •

---

١ ــ هل تلاحظ شيئا في قوله : فكانت شفتاك الى قوله تتهم ؟ ماالذي لاحظته ؟ فكر . لماذا ذكر الشفتين والعينين عندما تحدث على الحبيب ، وذكر اللسان والعين الواحدة عندما تحدث عن نفسه ؟

فما رميتني بخطإ ، ولا أجبت باقرار ، ولا بقيت للكلمة عقدة تمسكها في معناها . ولو رأينا لرأينا الحب يضحك في هذه اللفظة بمقدار ما تعبس فيها اللغة .

وكلمات الحب كلمات يتغير عليها الحس ، فتنفهم على أوجه مختلفة ، وتشاكلها معان كثيرة ، وكأن طريقة قولها تخلق طريقة فهمها . فما هي من عام اللغة ، بل هي من خاصها ، إذ اللغة بين أهلها جميعا ، وهذه بين اثنين خاصة .

واللغة ألفاظ مفسرة بما تلبسه ، وهذه تفسر بما يلبسها . واللغة تشير إلى الموجود ، إذ لا يراد بها إلا التعبير للفهم . وهذه تشير إلى غير الموجود أيضا ، إذ تريد مع الفهم العاطفة ، ولا بد أن يعطي فيها القلب إرادة ورب كلمة ينبذها إنسان لانسان ، فإذا هي على قلبه كالريح السافية تعقد في الظهيرة ضبابا خانقا من تراب الأرض . فإذا ما لفظها حبيب لحبيبه ، نسمت على قلبه كرويحة الفجر ، في ضباب من الطل والندى ، على حديقة ملتفة ، إذ كانت هناك في منطقة اللسان ، وكانت هناك في منطقة القلب ، وكانت ثمة في جو من عداوة قائلها ، وكانت هنا في جو من حب قائلها)[1] .

هذا التحيل الفلسفي الذي يستوحيه الرافعي من كلام الحبيب وحركاته... من أبرز خصائص أوراق الورد . وهو ما أشار إليه في الغرض الرابع من أغراض هذا الكتاب . وهو أن اللغة العربية من أوسع لغات الدنيا في تصوير دقائق النفس ، وخلجات القلب تصويرا فلسفيا ملهما ، ولكن ينقصها من يتقنها ويفقه أسرارها .

وفي هذا المعنى يقول محمد سعيد العريان وهو يتحدث عن أوراق الورد: (إن أوراق الورد منجم من المعاني الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنز في العربية ، وفي معاني الحب والجمال ، يكون

---

١ ـ أوراق الورد ص ٢٥٣ ومابعدها .

لهم غذاء ومادة في الشعر والبيان)[1] .

وبعد أن أتمّ طبعه ، أعاد قراءته فوجده فريدا في فنه . (ولا نظير له في تاريخ العربية كله)[2] .

ومثل هذا قوله : (... صح عندي بعد البحث ، أنه لايوجد في اللغة العربية رسالة واحدة قيمة في هذا الباب من أول تاريخها إلى اليوم)[3] .

وقد أجهد نفسه كثيرا ليخرجه على هذا النحو . وكان يشكو المتاعب التي يلاقيها في سبيله ، أو في سبيل كتاب الشيطانة كما يسميه ، وهو يقصد الآنسة مي (لا هم لي الآن ، إلا الفراغ من كتاب الشيطانة . فقد تعبت تعبا شديدا). ويقول : (وفي كل وقت يظهر لي أن هذا الكتاب الصغير ، كأنه نتيجة فكر مسخر ، وقد تعبت فيه أشد التعب ، فلعل الله يجعله قوة لهذه اللغة)[4] . ويقول : (أوراق الورد انتهى ، وسأبدأ التنقيح والتبييض ، وهو عمل شاق ... وهذا الكتاب تعبت فيه كثيرا)[5] .

وقد نال الرافعي بهذا الكتاب رضا جميع الكتاب المنصفين في ذلك الوقت ، سواء منهم القاصي أو الداني . فقد كتب له الشيخ ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائرين يقول له : (إن أوراق الورد أعظم أثر فكري أخرجه العقل البشري)[6] . ومشهد غير واحد يمثل هذه الشهادة حتى الذين كانوا يتعصبون لخصومه . فقد كتب له أحدهم يثني على الكتاب ثناء جميلا ، وأثبت الرافعي هذا الثناء فقال : (إن الاجماع انعقد على إعجاز هذا الكتاب

---

١ ـ حياة الرافعي ص ١٤٥ .
٢ ـ رسائل الرافعي ص ١٧٩ .
٣ ـ المصدر السابق ص ١٨٤ .
٤ ـ نفس المصدر .
٥ ـ المصدر السابق ص ١٧٨ .
٦ ـ المصدر السابق ص ٢٢٦ .

أوراق الورد ، والحمد لله على توفيقه • وقد أخبرني الشيخ عبد الله حبيب الذي كان يتعصب للعقاد ، أنه يرى الكتاب سماويا ، فلا يراه إلا في السماء ، ومن السماء)[1] •

يقول محمد سعيد العريان : إن هذا الكتاب ليس من وحي الآنسة مي وحدها ، بل من وحي صاحبة حديث القمر أيضا[2] •

إني لم أعثر على ما يؤيد هذه النظرية التي ذهب إليها الأستاذ العريان • ويخيل إلي أن الرافعي في أوراق الـــورد كان يستمد معاني الحب والهجر ما يستشعره من صاحبته مي ، وهي على حالة من حالتي الغضب والرضا • وآية ذلك هذه الكلمة التي أثبتها الرافعي في مقدمة كتابه حيث يقول : (ورسائل اوراق الوردفي هذه تطارحها شاعر فيلسوف روحاني ، وشاعرة فيلسوفة روحانية ، كلاهما يحب صاحبه)[3] • وأكد هذا الرأي في بعض رسائله عندما أطلق عليها اسم الشيطانة ، ونسب اليها الكتاب كما مر بنا[4] •

اما قول العريان (هما اثنتان لاواحدة ، تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معاني الحب ، التي تملأ النفس بأفراح الحيـــاة ، وهذه يستوحيها معاني الكبرياء والصدو القطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر ، وأفعم قلبه بالالم)[5] •

ان هذا القول لادليل عليه • ولنا أن نقول : ان مسألة اللين والقطيعة كانت فعلا في السحاب الاحمر ، لان الرافعي هناك مس في كبريائه ، فقد كان غاضبا

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ١٤٥ .
٢ ـ انظر حياة الرافعي ص (١٤١) وما بعدها .
٣ ـ أوراق الورد ص ١٢ .
٤ ـ انظر ص (١٥٨) من هذه الصفحات .
٥ ـ حياة الرافعي ص ١٤١ .

ثائرا . ونلاحظ ظاهرة غضبه وثورته في كلامه القاسي العنيف الذي يوجهه الى المرأة ، والى المرأة الحسناء بصفة خاصة ، وهو لايعني الا صاحبته . فاذا ماذكر اللين فانما ليقول لصاحبته الآنسة مي : ان لي من هي هذه صفاتها .

وفي رسائل الاحزان ، لم يقحم مااقحم مما كتبه عن صاحبته الاولى التي اوحت اليه بحديث القمر الا ليحفظهمن الضياع كما أثبت ذلك الاستاذالعريان . أما أوراق الورد فهو كتاب خاص بالآنسة مي . وكل ما فيه من معاني اللين انما ذكرها لسببين :

أحدهما : ان يستوفي الكلام على الحب في جميع انواعه واحواله ، من غضب ورضا ، وقساوة ولين .

ثانيهما أن يتلطف بهذا الكتاب الى صاحبته مي ، فهو يسعى ان يسترجع صداقتها ، ليستوحي منها مايمكن ان يستوحيه . فقد طال الهجر بينه وبينها ، فهذه سنوات ثمان مرت عليه دون ان يكلمها او تكلمه الا مايكتبه او تكتبه هي في الصحف على النحو الذي مر بنا ، وهذا لايشفي غليلا ، ولايغني عما يرمي اليه شيئا .

ولعل احسن دليل اعتمدعليه في تأكيد معنى السبب الثاني ماكتبه الرافعي الى مي بعد صدور اوراق الورد فقد كتب اليها رسالتين غراميتين[1] مما يدل على أن ثورته الجامحة التي كانت قبل ذلك قد زالت ، ولم يبق في نفسه الا الآنسة مي وحدها .

وشيء من المقارنة بين ماقاله الرافعي في سنة ١٩٢٥ وماقاله في سنة ١٩٣١ عنها يبين بوضوح ، انه كان في الفترة الاولى غاضبا ثائرا ، وفي الفترة الثانية راضيا مستبشرا ومتأثرا بها .

---

١ ـ حياة الرافعي ص ١٢٣ .

ففي الفترة الاولى كان يسميها الثقيلة[١] وينسب اليهـا كل اخفاق أصابه فيما له علاقة بأدبه ، ولها هي يد او سلطة عليه[٢] .

وفي الفترة الثانية يعترف بأنها أثرت فيه وكادت تعمل عمـل شيطانها[٣] أو يقول : (وإن صوتا ليهتف بي من الغيب أن الماضي سيعود ، وإنني سألقاها، وسيكون ذلك في تمام عشر سنين من رسالة القطيعة)[٤] .

وقد بنى محمد سعيد العريان نظريته على اساس اللين والقسوة فقال : فما رأيت من رسالة فيها اللهفة والحنين ، وفيها التذلل والاستعطاف ، وفيها تصنع الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها المنى الحالمة تتواثب بين السطور في خفـة الفراشة الطائرة . وما رأيت من معنى تحاول ان تمسكه فيفلت ، فهو فصل يؤدي أداءه في قصة هذا الحب. وما قرأت من رسالة تصف ما كان في خلوة نفس الى نفس ، وتقص عليك في لغة الماضي حـديث قلب الى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى النظرة ، وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون، فهو ذكرى من الماضي البعيد كان حبـاً في القلب فصار حديثا في الفكر ، ثـم استتبع شيء شيئاً[٥] .

ويبدو أن العريان ذهب هذا المذهب معتمدا على طريقة الاستنتاج ، لأنه يعرف أن الرافعي قد اتصل في سنة ١٩١٢ بشاعرة عربية في لبنان ، وسمع مـن بيانها وسحرها .. فلما رجع الى مصر ألف حديث القمر ، وهو عنها راض وهي عنه راضية ، بينما حدثت بينه وبين الآنسة مي قطيعة أدت إلى أن يجاهر ببعض

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٩٩ .
٢ ـ المصدر السابق ص ١٠٣ .
٣ ـ المصدر السابق ص ١٩١ .
٤ ـ حياة الرافعي ص ١١٣ .
٥ ـ المصدر السابق ص ١٤٢ .

القول في أمرها ، من ذلك قوله في السحاب الاحمر : (كنت أكتب عن ساحرة تبسم حتى لتظن انها لم تؤت وجها تعبس به ، ثم تكون مع ذلك شر ما هي كائنة من حيث لاتظن أنت بها إلا الذي هو خير وأهدى)[1] .

ولذا أؤكد مرة أخرى ، أن هذا الكتاب من وحي الآنسة مي خاصة . أما السحاب الأحمر ، فقد شارك معها صاحبة حديث القمر ، لأن الرافعي ذكر ذلك[2] ، ولأن منهج الكتاب كان يستدعي أن يقارن واحدة بواحـدة ليحقق غرضين : أحدهما أن يقـول لصاحبته الآنسة مي : إن لي فتاة تعلو على كل الفتيات ، وهي التي يقال عنها إنها أخت الشمس . والغرض الثاني يستوفي معاني الغضب وطيش المرأة كما ينبغي .

وفي الكتاب إلى جانب النثر قصائد ومقطوعات شعرية . منها قصيدة قصيرة بعنوان (يوم النوى) تشبه في معانيها إلى حد بعيد مقدمة فكتور هيجو في وصف البائس[3] .

ياظلمة الموج يطغى البحر منتفضا	بها كأن جبل في البحر يقتلـع
تظن زلزلة في المـاء قـد جلست	أو لا ، فزوبعة في الماء تضطجع
تقلقلت فاستطارت فانثنت فهوت	فأطبقت فارتمت كالرعب تندفع
على غريق بجبـل المـاء معتصم	والحبل في لمسات الكف ينقطع
لـه بقيــة روح في أصابعـه	ينازع الموت فيها وهي تنتزع
بين الحياة وبين الموت مرتكس[4]	يقيئـه البحر أطـوارا ويبتلع
أذاك أعظم هـولا في فجيعتـه ؟	أم المحبون في أحبابهم فجعوا ؟
يالطف نفسي للعشاقِ ! تَحْسِبُهم	يوم النوى نزعت من قلبهم قطع

---

١ ـ السحاب الأحمر ص ١٤ .
٢ ـ انظر المصدر السابق ص ٢٧
٣ ـ انظر البؤساء ص ١٠ .
٤ ـ الارتكاس أن يرجع آخر الأمر على أوله (الرافعي) .

الحب قاتلهم بالصبر إن صبروا　　والحب قاتلهم بالهم إن جزعوا
إن ودعوا ذاهبا لم تلق حزنهمو　　من أنه سار ، بل من أنهم رجعوا
ربي متى تهب الأحزان مخترعا　　في هذه الأرض للنسيان يخترع؟[1]

ومع هذه المعاني السامية التي رأيناها في كتب الرافعي الغرامية الأربعة : حديث القمر ،رسائل الأحزان ، السحاب الأحمر وأوراق الورد ، نجد أديبا كبيراً مثل علي الجارم يتجاهل الرافعي ، ويهب الأسبقية في الغزل النثري الى الدكتور زكي مبارك ، لأنه ألف كتابه (ليلى المريضة في العراق)[2] وليس في كتاب زكي مبارك وحدة في الموضوع ، فهو يتنقل من مكان الى مكان ، ثم هو قد يقحم فيه بعض أصدقائه الذين تنكروا له ، وقد يذكر أكلة أكلها ، أو خبراً هاتفياً تلقاه ، وليس لكل ذلك علاقة بليلاه . بينما كتب الرافعي الغرامية كلها خالية من الحشو ، وكل منها يمثل جانبا مهما في الحب . وقد تطور الرافعي فيها تطورا ملحوظا ، فالكتاب الأول يمثله في بداية الطريق ، ولكنه طريق عام شائك ومتشعب ، والكتاب الثاني محدد السبيل مما يدل على ان الرافعي أدرك منهجه فيه ، وكذلك الكتاب الثالث والرابعي .

وحي القلم

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء ، نشر الرافعي الجزئين الأولين ، وبعد مماته نشر العريان الجزء الثالث .

والكتاب مجموعة من المقالات الأبية ، كانت نشرت في مختلف المجلات والصحف ، وبالأخص مجلة الرسالة التي كانت تنشر له مقالات أسبوعية في الفترة ما بين ١٩٣٤ ــ ١٩٣٧[3] . ويمكن أن نحصر هذه المقالات الأدبية في

---

١ ــ أوراق الورد ص ٢٨٣ .
٢ ــ انظر آخر الجزء الثاني من ليلى المريضة في العراق .
٣ ــ انظر الرافعي الصحفي ص ٢٤ وما بعدها من هذه الصفحات .

ثلاثة فنون هي : القصة ، المقالة ، النقد • على ان هذه الفنون الثلاثة لم تخل من القيم الاسلامية والقيم العربية ، لذلك سنتحدث عن الفنون الأدبية فناً فناً ، وتتحدث أيضا عن القيم الاسلامية والعربية حديثا مفصلا حتى نستبين معالم الكتاب وخصائصه جميعها ، خاصة خاصة •

القصـــة :

كان الرافعي قبل أن يتصل بمجلة الرسالة لايكتب في القصة ، ولايحفل بسن يكتب فيها ، إذ يراها نوعاً من الأدب الذي يمكن أن يكتب فيه كل مـــن يحسن تركيب الجمل ، ولذلك يعتبرها نوعا من الأدب الرخيص ، وما كتب إلا قصتين ، وبدافع التسابق ، وقد أخفق فيهما جميعا • كتب الأولى في سنـــة ١٩٠٥ بعنوان (الدرس الأول في علبة كبريت) وكتب الثانية في سنة ١٩٢٥ بعنوان (عاصفة القدر) •

وقبل أن يبدأ عمله في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٤ بقليل ، كتب قصة سعيد بن المسيب ، وكانت قصة من أروع ماكتب فيهذا النوع منالقصص التاريخي• وشعر الرافعي بتقدمه في مثل هذه الموضوعات ، وكأنه اكتشف نفسه ، ومن ثم عرف الطريق •

وسعيـــد بن المسيب شخص تاريخي ، له شهرة عظمى في العلم والدين ، وله أيضا مكانة مرموقة في قلوب المسلمين ، وخاصة أهل المدينة ، إذ كـــان فقيهاً[1] •

اعتمد الرافعي في هذه القصة على أصلها التاريخي ، وكتبها على سجيته ، فجاءتمعبرة عن العصر الذي كان يعيش فيه سعيد بن المسيب • وكان الناس في هذا العصر ، قد أخذوا في الاندفاع نحو الملذات ، يتقدمهم رؤساؤهـــم

---

١ ــ انظر الاصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ص ٤٠٠ رقم ٧٩٩٨ .

وأولياؤهم ، من خلفاء وأمراء وأغنياء .

وفي المساجد حيث الفقهاء والعلماء والمؤمنون ، تتردد أصوات تندد بهذا الاندفاع المنحرف ، وتحث على التزام الطريق السوي ، طريق من سبقهم من الصحابة والخلفاء الراشدين . والقصة يدور موضوعها حول زواج ابنة هذا الامام الفقيه ، بطالب علم ، بدلا من الخليفة عبد الملك الذي كان قد خطبها لتكون زوجة لولي عهده .

تبدأ القصة برسول الخليفة ، يقف على رأس الشيخ متعجبا ، مستنكرا ومهددا . والامام دائما على حالة واحدة ، يسمع وكأنه لايسمع ، لأن الكلام كان (لايخلص إلى نفسه إلا بعد أن تتساقط معانيه في الأرض)[1] .

(قال رسول عبد الملك : ويحك ياأبا محمد ؟ لكأن دمك والله من عدوك فهو يغور بك لتلج في العناد فتقتل . وكأني بك ــ والله ــ بين سبعين ، قد فغرا عليك،هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، ماتفر من حتف إلا إلى حتف،ولاترحمك الأنياب إلا بمخالبها .

هاهنا هشام بن اسماعيل عامل أمير المؤمنين ،إن دخلته الرحمة لك استوثق منك في الحديد ،ورمى بك إلى دمشق ، وهناك أمير المؤمنين ، وما هو ــ والله ــ إلا أن يطعم لحمك السيف يعض بك عض الحية في أنيابها السم . وكأني بها الجنب مصروعا لمضجعه ، وبهذا الوجه مضرجا بدمائه ، وبهذه اللحية معفرة بترابها ، وبهذا الرأس مجتزأ في يد (أبي الزعيزعة) جلاد أمير المؤمنين ، يلقيه من سيفه رمي الغصن بالثمرة قد ثقلت عليه .

وأنت ياسعيد ، فقيه أهل المدينة وعالمها وزاهدها ، وقد علم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه : (لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه

---

١ ــ وحي القلم ج ١ ص ١٢٧ .

وسلم لسره) ، فان لم تكرم عليك نفسك ، فليكرم على نفسك المسلمون • إنك إن هلكت رجع الفقه في جميع الأمصار الى الموالي •

ففقيه مكة عطاء ، وفقيه اليمن طاووس ، وفقيه اليمامة يحيى بن أبي كثير ، وفقيه البصرة الحسن ، وفقيه الكوفة ابراهيم النخعي ، وفقيه الشام مكحول وفقيه خراسان عطاء الخراساني •

وإنما يتحدث الناس أن المدينة من دون الامصار قد حرصها الله بفقيهها القرشي أبى محمد بن المسيب كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم • وقد علم أهل الأرض أنك حججت نيفا وثلاثين حجة ، ومافاتتك التكبيرة الاولى في المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمت الا في موضعك من الصف الأول ، فلم تنظر قط الى قفا رجل في الصلاة ، ولا وجد الشيطان ما يعرض لك من قبله في صلاتك ولا قفا رجل • فالله الله ياأبا محمد ، اني والله ماأغشك في النصيحة ولا أخدعك عن الرأي ، ولا أنظر لك الا خير ما أنظر لنفسي ، وان عبد الملك بن مروان من علمت ، رجل قد علم الناس ترغيبه وترهيبه ، فهو آخذك على ماتكره إن لم تأخذه أنت على مايحب وإنه والله ياأبا محمد ، ماطلب اليك أمير المؤمنين ، إلا وأنت عنده الاعلى ، ولابعثني اليك إلا وكأنه يسعى بين يديك رعاية لمنزلتك عنده ، وإكبارا لحقك عليه ، وما أرسلني أخطب إليك ابنتك لولي عهده الا وهو يبتذل نفسه اليك ابتذالا ليصل بك رحمه ، ويوثق آصرته ، وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبملكه ورعا وزهادة ، فما أحوج أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده وأن يكونوا أصهار (الوليد) فيستدفعوا شرا مابه عنهم غنى ، ويجتلبوا خيرا مابهم غنى عنه• ولست تدري مايكون من مصادر الامور ومواردها ، وإنك ــ والله ــ إن نجحت في عنادك وأصررت أن تردني اليه خائبا لتهيجن قرم سيوف الشام الى هذه اللحوم ولحمك ، ويومئذ من أطيبها ، ولأمير المؤمنين تارتان : لين وشدة،

وأنا اليك رسول الاولى ، فلا تجعلني رسول الثانية .)[1]

إن الرافعي عرف قبل أن يبدأ القصة جميع أركانها وعناصرها وأبطالها ، من الخليفة الى ولي عهده ، إلى رسوله وعامله وسيافه ، كما عرف العصر واتجاهاته فهو يعلم أن فقهاء الامصار أغلبهم من الموالي ، وأن المؤرخين نقلوا في ذلك أحاديث كثيرة ، وذهبوا في تأويلها وتفسيرها كل مذهب . تحدث عنها بعضهم حديثا شعوبيا ، وبعضهم قال كلمة إنصاف ...[2]

وقد عرف الرافعي كل هذه العناصر الأساسية للقصة ، فلم يبق إلا الأسلوب والصياغة اللفظية،وترتيب القصة ترتيبامسلسلا حتى لايحدث في الذهن اضطراب أو مايشبه الاضطراب .

وهذه أمور بالنسبة للرافعي ليست من العسر في شيء . فما إن ابتدأ القصة على الوجه الذي رأينا حتى انهالت عليه المعاني من هنا وهنا ، وهو لاينفك يسجلها مرتبة منسقة ، كما تساقط عليه . وما إن أتم القصة حتى أدركنا العصر الذي جرت فيه القصة ، وعرفنا مايجري فيه من الأحداث والتطورات الفكرية والعقلية ، والرغبة والرهبة ، والحذر واليقظة ، والطمع والخوف .. فهذا جلاد أمير المؤمنين يرمي الرؤوس رمي الغصن بالثمرة وقد ثقلت عليه ، وهذا رسوله تارتان : لين وشدة ، هما تأرتا الخليفة ، يطبقهما واحدة فواحدة ..

إن القارىء عندما يتناول هذه القصة لايكاد يبدأ فيها ، حتى تأخذه أخذا ، فما يدعها إلا وقد أتى عليها . ثم هو لاينساها ولاينسى مغزاها وفائدتها ومتعتها ، ولايزال يذكرها حينا بعد حين كلما دعت المناسبة الى ذلك ، لأنها تشتمل على عناصر التشويق التي تنشدها النفس والعقل من الفكرة والاسلوب والحقيقة والمجاز ...

---

١ ـ وحي القلم ج ١ ص ١٢٧ .
٢ ـ انظر مادة خراسان في معجم ياقوت الحموي . وفجر الاسلام ص ١٩٠ .

قلت إن الرافعي قبل أن يبدأ كتابة القصة كان يستوعب موضوعها درسا وفهما ، ثم يشرع بعد ذلك في ترتيبها وتنسيقها حسب موضوعها .

وهذا الرأي الذي أثبته قد تناوله العريان بطريقة مفصلة فقال : (وطريقة الرافعي في كتابة قصصه غريبة ، وغايته منها غير غاية القصاص . فالقصة عنده لاتعدو أن تكون مقالة من مقالاته ، في أسلوب جديد ، فهو لايفكر في الحادثة أول مايفكر ، ولكن في الحكمة والمغزى والحديث والمذهب الادبي ، ثم تأتي الحادثة من بعد . فكان إذا هم أن ينشىء قصة من القصص ، جعل همه الاول أن يفكر في الحكمة التي يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ ، على طريقته في إنشاء المقالات ، فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع ، وانتهى في تحديد الفكرة الى مايريد ، كان بذلك قد انتهى إلى موضوعه،فليس له إلا أن يفكر في أسلوب الاداء . وسواء عليه بعد ذلك أن يؤدي موضوعه على طريقة المقالة ، أو على طريقة القصة ، فكلاهما ينتهيان به الى هدف واحد ، فاذا اختار أن تكون قصة تناول كتابا من التراجم الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها مايتفق ، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ ، فيدرس تاريخه وبيئته وخلانه ومجالسه ، ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعده من قبل ، وانه ليلهمأحيانا ، ويوفق فيذلكتوفيقا عجيبا ، حتىتأتي القصة وكأنها بنت التاريخ ، وما للتاريخ فيها الا نادرة يرويها في سطور الرجال)[1] .

والمغزى التاريخي الذي يهدف اليه منهذهالقصص أن يرفع من قيمةالروح والأخلاق ويخفض مادونهما من المغريات الزائلة . وهذا ما وصف به سعيد بن المسيب وابنته اذ جعله ينطقلرسول عبد الملك بما ينبغي أن ينطق به كل ذي خلق كريم .

(قال الشيخ : أما اني مسئول عن ابنتي ، فما رغبت عن صاحبك الا لأني

---

١ ــ حياة الرافعي ص ٢٥٣ .

مسئول عن ابنتي • وقد علمت أنت أن الله يسألني عنها في يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما لايكونون فيه إلا وراء عبيدهما وأوباشهما[1] •

ويستمر في ذكر أسلوب الشيخ في الحياة ، وطريقته في الزواج ، إلى أن ينتهي إلى المفاجأة التي هي مغزى القصة •

(وصاح المؤذن ، فقطع الشيخ مجلسه وقام إلى الصلاة ، ثم خرج الى داره فتلقته ابنته وعلى وجهها مثل نوره • قالت : ياأبت كنت أتلو الساعة قوله تعالى « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » فما حسنة الدنيا ؟ قال يابنية : هي التي تصلح أن تذكر مع حسنة الآخرة،وما أراها للرجل الا الزوجة الصالحة ولا للمرأة •••

طرق الباب ، فذهب الشيخ يفتح فإذا الطارق عبد الله بن أبي وداعة • وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته ، ولكنه فقده أياما ، فدخل فجلس ، قال الشيخ : أين كنت ؟ قال : توفيت أهلي فاشتغلت بها • قال الشيخ : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ ثم أخذ يفيض في الكلام عن الدنيا والاخرة ، وشعر ابن ابي وداعة أن القبر مايزال في قلبه حتى في مجلس الشيخ ، فأراد أن يقوم فقال سعيد : هل استحدثت امرأة غيرها ؟

قال : يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ؟ ومن يزوجني وماأملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟

قال الشيخ أنا •

أنا • أنا • أنا • دوى الجو بهذه الكلمة في أذن طالب العلم الفقير ، كأن الملائكة تنشد نشيداً في تسبيح الله يطن لحنه أنا • أنا • أنا •

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين في وقت واحد ،

---

١ — وحي القلم ج ١ ص ١٢٩ .

وكأنها كلمة زوجته احدى الحور العين •

فلما أفاق من غشية أذنه قال : وتفعل ؟

قال سعيد نعم • وفسر نعم بأحسن تفسيرها وأبلغه ، فقال : قم فادع لي نفرا من الأنصار • فلما جاءوا حمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وزوجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشا) •

ثلاثة دراهم مهر الزوجة التي أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولي عهده بثقلها ذهبا[1]

وعلى ضوء ماقدمنا تتناول قصة عطاء بن أبي رباح ، وموضوعها « سمو الحب » وهي كسابقتها ، قصة تاريخية ، استوحاها الرافعي من بطون الكتب ، فهو يعرف عطاء بن أبي رباح ، من أنه فقيه مكة ، وأنه أسود البشرة ، ويعرف أسماء بعض معاصريه من الشبان والفتيات مثل عبد الرحمن بن عبد الله بن ابي عمار ، والمغنية الجميلة الفاتنة سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن • ويعرف أشياء أخرى تتصل بموضوعه ، وهي كلها مترابطة متشابكة عصرا وحياة •

وكان غرضه في هذه المرة أن يتحدث عن المجتمع المكي في هذا الجيل الاول الذي أخذ فيه شبان قريش يندفعون إلى حياة اللهو والمجون ، تاركين ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من الأخلاق والتقوى • ولذلك اختار قصة يوسف موضوعا لحديثه • وتناولها من جميع نواحيها وخاصة ما يتعلق باللغة •

ولكي يمهد لقصته اختار بيتين من الشعر ينطبقان تمام المطابقة على موضوعه، إذ قالهما شاعر على لسان مفتي مكة في جواز ضمة المشتاق • وقبل أن يذكر البيتين هيأ لهما جوا ملائما كما سنرى •

قال الرافعي : (صاح المنادي في موسم الحج : لا يفتي الناس إلا عطاء بن

---

١ ــ وحي القلم ج ١ ص ١٣٣ ــ ١٣٤ .

أبي رباح ، وكذلك كان يفعل خلفاء بني أمية ، يأمرون صائحهم في الموسم أن يدل الناس على مفتي مكة وإمامها وعالمها ، ليلقوه بمسائلهم في الدين ، ثم ليمسك غيره عن الفتوى ، إذ هو الحجة القاطعة لا ينبغي أن يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها • وليس للحجج إلا أن تظاهرها وتترادف على معناها •

وجلس عطاء يتحين الصلاة في المسجد الحرام ، فوقف عليه رجل وقال : يا أبا محمد ، أنت أفتيت كما قال الشاعر :

سل المفتي المكي : هل في تزاور   وضمة مشتاق الفؤاد جناح
فقال : معاذ الله أن يذهب التقى   تلاصق أكبـاد بهن جـراح

فرفع الشيخ رأسه وقال : والله ما قلت شيئا من هذا ، ولكن الشاعر هو نحلني هذا الرأي الذي نفثه الشيطان على لسانه ، وإني لأخاف أن تشيع القالة في الناس ، فاذا كان غد ، وجلست في حلقتي فاغد علي فإني قائل شيئا •

وذهب الخبر يؤج كما تؤج النار ، وتعالم الناس أن عطـاء سيتكلم في الحب ، وعجبوا كيف يدري الحب أو يحسن أن يقول فيه من غبر عشرين سنة فراشه المسجد ، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين ، وأبي هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عباس بحر العلم •

وقال جماعة منهم : هذا رجل صامت أكثر وقته ، وما تكلم إلا خيل إلى الناس أنه يؤيد بمثل الوحي ، فكأنما هو نجي ملائكة يسمع ويقول ، فلعـل السماء موحية إلى الأرض بلسانه وحيا في هذه الضلالة التي عمت وفتنتهم بالنساء والغناء •

ولما كان الغد جاء الناس إرسالا إلى المسجد حتى اجتمع منهم الجمـع الكثير •

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار : وكنت رجلا شابا من فتيان

المدينة ، وفي نفسي من الدنيا ومن هوى الشباب ، فغدوت مع الناس ، وجئت وقد تكلم أبو محمد وأفاض ، ولم أكن رأيته من قبل ، فنظرت إليه ، فإذا هو في مجلسه كأنه غراب أسود ــ إذ كان ابن أمة سوداء تسمى بركة ــ ورأيته مع سواده أعور أفطس أشل أعرج ، مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلا ، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سواده ــ والله ــ أن هذه قطعة ليل تسطع فيها النجوم ، وتصعد من حولها الملائكة وتنزل •

قال : وكان مجلسه في قصة يوسف عليه السلام ، ووافقته وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى : وراودته التي هو في بيتها ••)[1] •

بهذه التقدمة يكون الرافعي قد خلق جوا ملائما لحديثه • فلما استيقن بأنه ملك مشاعر القارىء شرع في تفسير الآية كلمة كلمة ، وجعل الحديث على لسان راوية كما يفعل المؤرخون الثقاة ، حتى نستشعر الحقيقة ، ثم تكون الرواية على طريقة الوعاظ في لفظها ونسقها وأسلوبها ، فيكثر فيها التعجب والاستفسار ، والانكار والعبرة •

قال الرافعي : (قال عبد الرحمن : فسمعت كلاما قدسيا تضع له الملائكة أجنحتها من رضى وإعجاب بفقيه الحجاز ، حفظت منه قوله :

عجبا للحب ؟ هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس ، ولكن أين ملكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة ؟ لم تزد الآية على أن قالت: « وراودته التي » و « التي » هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت ؛ فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة ، وزالت الملكة الأنثى •

وأعجب من هذا كلمة « راودته » ، وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها ، لون بعد لون ،

---

١ ــ وحي القلم ج ١ ص ١١٥ .

ذاهبة إلى فن ، راجعة من فن ، لأن الكلمة مأخوذة من دوران الابل في مشيتها، تذهب وتجيء في رفق . وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة واضطرابها في حبها، ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها ، كما يصور كبرياء الأنثى إذ تختـال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي ، كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها . فمهما تتهالك على من تحب ، وجب أن يكون لهذا الشيء الآخر مظهر امتناع، أو مظهر تحير ، أو مظهر اضطراب. وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة)[1] .

وعلى هذا النمط من التفسير ، يستمر في الشرح والتحليـل إلى أن يصل إلى كلمة «وغلقت الأبواب» ، فيستخرج من الصيغة معنى لغويا قل أن ينتبه إليه كاتب أو أديب فيقول : (ثم قال : وغلقت الأبواب ، ولم يقل أغلقت . وهـذا يشعر أنها لما يئست ورأت منه محاولة الانصراف ، أسـرعت في ثورة نفسهـا مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالا عدة ، وتجري من باب الى باب ، وتضطرب يدها في الاغلاق ، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط)[2] .

والذي يلاحظ في قصص الرافعي عنصـر التشويق ، فمن الكلمة الأولى يستولي على القارىء ، ولا يزال يستولي عليه إلى أن يملك عليه نفسه ومشاعره ووجدانه . والسبب في كل ذلك ، أن الرافعي يحسن اختيـار عناصر القصة ، ويتقن ترتيبها وتنسيقها .

ففي هذه القصة اختار المكان والزمان وبطل القصة ، وكذلك الكلمة الأولى التي استفتح بها قصته .

فالمكان مسجد ، لأنه الموئل الحقيقي في ذلك العصر لمثل هـذه الأحاديث الدينية . والزمن صدر الاسلام ، وبطل القصة تابعي مشهور . والكلمـة هي هذه التي تتردد على ألسنة رسل بني أمية في المواسم والأعيـاد ، وفي الأسواق

---

١ ــ وحي القلم ج ١ ص ١١٦ .
٢ ــ وحي القلم ج ١ ص ١١٦ .

والنوادي ، ليعلموا الناس أو يرشدوهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه .

فإذا وصلنا إلى البيتين وقفنا وقفة طويلة عندهما ، لأن الرافعي نفثهما على لسان شاعر نكرة ، وأخذ في سيره الحثيث ، لا يلوي على شيء ، ولا يلتفت إلى شيء ، وكأن أمر الشاعر لا يهمه سواء كان شاعرا مجهولا أو معلوما ، وهنا السر والحكمة .

غير أن الباحث يهمه أمر الشاعر كثيرا ، ولا يستريح أو تطمئن نفسه إلا بمعرفة هذا الشاعر ، أو على الأقل الراوية ، لأن بمعرفة قائلهما يعرف الزمن الذي قيلتا فيه ، ومعرفة الزمن يبين لنا ما إذا كانتا صالحتين للاستشهاد في مثل هذه الفترة التي يتحدث عنها الرافعي أم لا ؟ والصعوبة تأتي في العثور على البيتين، فإن الرافعي لم يذكر مصدرهما ، وهما قليلتا الدوران في الكتب القديمة.

وفي الجزء الأول من الكامل للمبرد نقرأ : (وأنشدني أبو العالية :

سل المفتي المكي هل في تزاور ... ونظرة مشتاق الفؤاد جناح) (١)

فقد لاحظنا شيئا من التغيير يسير وهو « نظرة » بدلا من « ضمة » ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المصدر الذي استقى منه الرافعي البيتين غير الكامل في اللغة . وهذا ليس بالشيء الجوهري أمام الباحث، إنما المهم هو معرفة الراوية أبي العالية .

إن المصادر لا تذكر إلا أنه راوية لبعض الشعراء الذين كانوا يعيشون معه في هذا العصر ، وقد توفي سنة ٩٠(٢) وهي الفترة التي كان فيها بطل القصة عطاء بن أبي رباح . فيكون الرافعي ـ وهي النتيجة التي نريد تحقيقها ـ قد أحسن اختيار البيتين أيضا لأنهما صالحتان للاستدلال ، إذ هما قيلتا في هذه الفترة من الزمن التي كان يعيش فيها كل هؤلاء أو قيلتا قبل هذه الفترة بقليل .

---

١ ـ الكامل في اللغة ج ١ ص ١٧٠ .
٢ ـ الحيوان ج ٥ ص ٣٠٧ تعليق رقم ١

ومثل القصتين السابقتين قصة «اليمامتان» ، لها أصل تاريخي، ومغزى ديني. يتحدث الرافعي في هذه القصة (عن الفتح الاسلامي ، وأخلاق العرب ، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية ، وافتتان القبط بسجايا العرب ومزايا الاسلام ، وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة في قصة خيالية افتعلها ليبلغ بها ما في نفسه من معاني الحب، ثم يجعل في خاتمتها « نشيد اليمامة » ، اليمامة التي تقول الرواية العربية أنها تحرمت في جوار عمرو بن العاص فمنعته أن يقوض فسطاطه)[1] .

وضع الرافعي لهذه القصة أبطالها كعادته في مثلها ، فاختار لهم من الأسماء ما يلائم مسمياتهم . فالراهب اسمه شطا ، والجارية اسمها مارية ، وأبقى على أسماء العرب ، لأنها كذلك وردت ، كما أبقى على اسم أرمانوسة ابنة المقوقس عظيم القبط لأنه كذلك ورد في التاريخ .

ابتدأ القصة بنص تاريخي نقله عن الواقدي وهو : (جاء في تاريخ الواقدي : ان المقوقس عظيم القبط في مصر ، زوج ابنته أرمانوسة من قسطنطين بن هرقل، وجهزها بأموالها وحشمها لتسير إليه ، حتى يبني عليها في مدينة قيسارية ، فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها . وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصارا شديدا ، وقاتل من بها ، وقتل منهم زهاء ألف فارس ، وانهزم من بقي إلى المقوقس ، وأخذت أرمانوسة وجميع مالها ، وأخذ كل ما كان للقبط في بلبيس ، فأحب عمرو ملاطفة المقوقس ، فسير إليه ابنته مكرمة في جميع مالها مع قيس بن أبي العاص السهمي ، فسر بقدومها) [2] .

يقول الرافعي : (هذا ما أثبته الواقدي في روايته ، ولم يكن معنيا إلا بأخبار المغازي والفتوح، فكان يقتصر عليها في الرواية ، أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن.

---

١ ـ حياة الرافعي ص ٢٨٠ .
٢ ـ وحي القلم ج ١ ص ١٧ .

كانت لارمانوسة وصيفة مولدة تسمى مارية ذات جمال يوناني أتمته مصر ومسحته بسحرها) .

ويستمر في توليد القصة بأسلوب خيالي جذاب ، حتى ليظن من لم يكن له علم بأصولها التاريخية أنها قصة حقيقية في جميعها . وقد جاء فيها من المعاني التي هي مغزى القصة قوله : (ورجعت بنت المقوقس إلى أبيها في صحبة قيس . فلما كانوا في الطريق وجبت الظهر ، فنزل قيس[1] يصلي بمن معه والفتاتان تنظران . فلما صاحوا « الله أكبر » ارتعش قلب مارية ، وسألت الراهب شطا : ماذا يقولون ؟ قال : إن هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون بها الزمن . إنهم الساعة في وقت ليس منه[2] ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر من الوجود . فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ، ونزاع الوقت ، وشهوات الوقت ، فذلك هو دخولهم في الصلاة ، كأنهم يمحون الدنيا من النفس ساعة أو بعض ساعة ، ومحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها . انظري ، ألا ترين هذه الكلمة قد سحرتهم سحرا ، فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء ، وقد شملتهم السكينة ، ورجعوا غير من كانوا وخشعوا خشوع أعظم الفلاسفة في تأملاتهم[3] .

قال محمد سعيد العريان : (كان لهذه القصة عند الرافعي وعند كثير من قراء الرسالة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المسيب . وقد افتتن بها القراء حتى كان منها أن اهتدى إلى الاسلام أستاذ مسيحي من أساتذة التاريخ في بلاد الجزائر ، فكتب إلى الرافعي رسالة يعلن فيها إليه إسلامه ، ويسأله الوسيلة الى دراسة هذا الدين والتفقه فيه ...)[4] .

---

١ ـ انظر الاصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ص ٢٤٣ ـ رقم ٧١٩٧ .
٢ ـ منه : الضمير راجع الى الزمن .
٣ ـ وحي القلم ج ١ ص ٢٥ .
٤ ـ يقول مالك بن نبي مؤلف مشكلات الحضارة : (ان الذي اعتنق الاسلام في هذه الآونة هو (اتيان ديني) ولكنه لم يكن استاذا في الجامعة .

(ومن اعتداد الرافعي بهذه القصة ، وبما بلغ فيها من التوفيق جعلها فاتحة الجزء الأول من كتابه وحي القلم)[1] .

إن الأسباب التي ساعدت الرافعي على أن يوفق في القصص التاريخي يرجع إلى ثقافته الواسعة ، فقد كان ملما بالأحداث التاريخية عصرا بعد عصر ، ثم طبعه وموهبته ، فله قدرة فذة في ربط الأحداث بعضها ببعض، وسبكها في قالب يتلاءم ونسق القصة .

وقد يكون هذا العنصر الأخير عاما ، يشمل القصص الانشائي أيضا ، وهو ما نلاحظه في الفترة الأخيرة عند ما أعاد نشر قصته الأولى التي أنشأها في سنة ١٩٠٥ بعنوان (الدرس الأول في علبة كبريت) ، فهي قصة مصرية ، بطلها طفل صغير سرق علبة كبريت ، فحكمت عليه المحكمة حكما قاسيا ، فكان ذلك سببا في انحراف الصبي .

وبعد ثلاثين سنة ، اضطر الرافعي إلى أن يسارع بمقال لمجلة الرسالة التي كان قد انفق معها على إنشاء مقال في كل أسبوع كما مر بنا[2] . وهداه تفكيره إلى نشر هذه القصة نفسها ، ولكن بعنوان جديد هو (السطر الأخير من القصة) وبعد أن يضفي عليها ما يجعلها جديدة أو كالجديدة ، وذات مغزى اجتماعي .

تخيل أن الطفل الذي عوقب بتلك العقوبة القاسية ، سيصبح بعد هذه السنين الطويلة ، مجرما أيّ مجرم ، مآله الاعدام .

قال محمد سعيد العريان في المعنيين : (فلما كان الأسبوع الثالث ، لم يجد في نفسه خفة إلى العمل ، فعاد إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن شيء يصلح للنشر ... فوقع على ورقات من مجلة المقتطف في سنة ١٩٠٥ كان قد

---

١ ـ حياة الرافعي ص ٢٨٠ .

٢ ـ راجع نشاطه الصحفي ص ٢٧ من هذه الصفحات .

نشر بها قصته الأولى[1] (الدرس الأول في علبة كبريت) فعاد الى قراءتها • فلما فرغ من القراءة التفت إلي قائلا : هذه قصة ينقصها السطر الأخير • قلت : وماذا يكون هذا السطر ؟ قال : اسمع ! هذا غلام سرق علبة كبريت منذ ثلاثين سنة ، فحوكم بها ، وحكم عليها • قلت نعم ـ قال : فما تظن هـذا الغلام الآن بعد هـذه الثلاثين ؟ قلت : أراه الآن رجلا يفلـح الأرض ، أو يعمل بالفأس في حجارة أبي زعبل[2] قال : هذه الأخيرة أمثـل به • لقد تلقى الدرس الأول في علبة كبريت ، فقاده إلى الحبس ، فهل تراه بعد هذه الثلاثين إلا قد أتم دروسه ووقف على عتبة المشنقة • اكتب ! اكتب !)[3] •

وقدم لها بهذه الكلمة (رجعت إلى أوراق لي قديمة يبلغ عمرها ثلاثين سنة ، أو لواذها ، تزيد قليلا ، أو تنقص قليلا ، وجعلت أفلي هـذه الأوراق واحـدة واحدة ، فإذا أنا على أطلال الأيام في مدينة قائمة من تاريخي القـديم ، قائمـة تحت ظلماتها التي كانت أنوار عهد مضى ، وإذا أنا منها كالذي اغترب ثلاثـين سنة عن وطنه ثم آب إليه ، فما يرى مـن شيء كان له به عهد في أيام حـدثانه ونشاطه إلا اتصل بينهما سر •••

في أوراقي تلك بحثت عن قصة عنوانها (الدرس الأول في علبـة كبريت) كتبتها سنة ١٩٠٥ وأنا لا أدري يومئذ أنها قصة يسبح في جوهـا قَدرٌ روائي عجيب سيأتي بعد ثلاثـين سنة فيكتب فيها السطر الأخـير الذي تتم به فلسفة معناها •

وهاءنذا أنشرها كما كتبتها ، وكان هذا القلم إذ ذاك غضا لم يصلب ، وكان كالغصن تميل به النسمة ، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل بلاغة فرحـه أو بلاغة حزنه •

---

١ ـ لم اعثر على هذه القصة في المرجع الذي ذكره العريان .
٢ ـ ابو زعبل سجن مشهور في القاهرة .
٣ ـ حياة الرافعي ص ٢٨٠ .

وهذه هي القصة : (عبد الرحمن عبد الرحيم غلام فلاح ، قد شهد من هذه الدنيا تسعة أعوام ... ويستمر في ذكر القصة كما نشرها قديما إلى أن يـأتي عليها ثم يضع لها (السطر الأخير) الذي أصبح عنوانهـا ، فيقول : (في سنة ١٩٣٤ قضت محكمة الجنايات بالموت شنقا على قاتل مجرم اسمه عبد الرحمن عبد الرحيم)[١] .

وفي الفترة الأخـيرة التي اتصل فيها بمجـلة الرسالة كتب كثيرا في الفـن القصصي ، وكان لا يجد أي صعـوبة إلا في الفكرة ، ومتى تهيـأت له بأسبابها وغايتها ، سهل عليه الأمر بعد ذلك ، إذ لا يحتاج إلا للعبارة والجمل البليغـة ، وهذه أصبحت من طبعه يسيرها ويتحكم فيها . فكما رأينا في القصة السابقة . فقد هم أن ينشر قصته القديمة كما هي ، ولكنه شعر بأن عمله على تلـك الحال قد يضربه . فما إن أخذ القلم وكتب عـن سببها وغايتها شيئا حتى أتى بشيء جديد . فإذا قصة داخلة في قصة كل واحدة تتم الأخرى ، بالاضافـة إلى ذلك الأسلوب وتلك المعاني .. مما يدل على أن الرافعي كان يجعل مـن الأسلوب والتعبير الفني سلاحا لكتابته ، وساعده على ذلك إلمامه باللغة وموهبته .

وإلى بعض هذه الخصال أشار الأستاذ العريان فقال : فقد كانت في الرافعي (طبيعة فنية خصبة في القصة ، يعرفها من يعرفه في أحاديثه الخاصة بينه وبـين أصحابه حين كان يتعمد العبث والتسلية ، فيطوي مـن الحديث وينشر ويكتم ويروي ، ويورد الخبر غير مورده ، ويهزل ولا يقول إلا الجد . ويطوي النادرة إلى آخر الحديث ، ويقول في آخر المقال ما كان ينبغي أن يكون في أوله)[٢] .

وتتجلى طبيعته الفنية في الأسلوب القصصي في جميع أجزاء القصة وخاصة الخاتمة ، فقد كان يراعي فيها ما يناسب جو القصة وهدفها . وقد يترك نتيجتها

---

١ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٩٧ وما بعدها .
٢ ـ حياة الرافعي ص ١٥٢ .

للقارىء حتى تكون أدعى للتفكير والتأمل ، وتذهب فيها الأفكار مذاهب شتى .

على أن الذي يعرف الرافعي وعقيدته وإيمانه وتدينه ، يدرك بالبداهة هدفه من وراء ذلك .

ونختم حديثنا عن القصة من هذا النوع الأخير الذي يترك فيه النتيجة للقارىء يستنتجها حسب ذوقه وفكره .

ومن أطرف هذا النوع قصته (رؤيا في السماء)[1] وقد تناول فيها مسألة النسل بطريقة دينية ، جعل بطلها رجلا صوفيا ماتت امرأته ، ثم جمع أمره على العبادة ، دون أن يتزوج ، ليخلص من (المرأة والولد والمعاناة لهما في مرمة المعاش ، والتلفيق بين رغيف ورغيف . ونام على هذه النية ، فإذا به يرى فيما يرى النائم : (كأن أبواب السماء قد فتحت ، وكأن رجالا ينزلون ويسيرون في الهواء ، يتبع بعضهم بعضا ، أجنحة وراء أجنحة . فكلما نزل واحد نظر إليّ وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم)[2] .

وسئل الرافعي عن نهاية القصة التي تركها الرافعي للقارىء هذا السؤال : (هل استحق هذا الشيخ نعته بالمشئوم لأنه ... آلى على نفسه أن(يحول المرأة التي في قلبه إلى صلاة) فأراد قتل تذكارها بالوفاء لله دون الوفاء لها في قبرها ، أم كان ذلك، لأنه قرر التبتل بعدها فلا يأخذ من بنات حواء من تقوم مقامها؟)[3] .

أجاب الرافعي سائله بقوله : (أما ما سألتم عنه فإن القصة يجب أن تنتهي نهاية فنية ، يترك فيها موضع يتممه القارىء .. فالكلام يحتمل ماذكرتم من الوجهين كليهما ، غير أن الحالة الاسلامية تخصص أحد المعنيين ، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن أخذ بسنتهم من العلماء ، يكره أحدهم أن

---

١ ــ ترجمت الى اللغة الفرنسية . انظر حياة الرافعي ص ٢٥٧ .
٢ ــ وحي القلم ج ١ ص ٢٥٩ .
٣ ــ رسالة المنبر ص ٣٢٧ .

يبيت عزبا ، حتى أن ابن عمر لما كان في الموت قـال : (زوجوني فإني أكره أن ألقى الله عزبا) ، ولا يخفى أن واجب الرجولة هو حمل نصيبها من الأنوثـة ، والتكفل بها وحمايتها ، فلما انطوت نية الشيخ أن يتعزب ، ووافق على ذلك ، محت نيته حسناته ، ونقلته من حال إلى حال ، وبطل معنى وفائه لزوجته الميتة، لأن حقيقة الوفاء أن يثيبها ببر واحدة من جنسها ، والاسلام لا يعرف الشخصية الفردة إلا في حدود ضيقة ، وإنما يعنى بالشخصية الاجتماعية الكبرى)[1] .

والهدف الذي ينشده الرافعي في قصصه ، أن يحقق معنى دينيا أو عبرة أو موعظة ، من ذلك أنه لما أنشأ قصة (عاصفة القدر) للمسابقة استهدف فيهـا النصيحة والتوجيه ، وكانت النتيجة أن أخفـق في المسابقة . وجـاء في تقرير اللجنة (أن الكاتب كان دائما ظاهرا فيها بنصائحه وخطبه)[2] .

المقالـة :

إن أول عمل يقوم به الرافعي في إنشاء المقالة هو اختيار الموضـوع ، أو اختيار العنوان ، مثل (الطماطم السياسي) (اللسان المرقع) (سـر القبعـة) (إبليس يعلم) .

تخطر له الفكرة في مثل هذه الموضوعات ، وبمثل هذه العناوين الجذابة ، فيجد في نفسه رغبة للحـديث فيها ، فيسارع إلى قلمه ، ويشـرع في الكتابة ، فإذا هو قد ملك على القـارىء أمر نفسه ومشاعره ، فينساق مـع الأسلوب والأحداث التي تطالعه حينا بعد حـين ، فينسى أو يـكاد الفكرة الأصليـة في الموضوع ، ومتى أتم القراءة رجع إلى العنـوان مرة أخرى ليقارن بينه وبـين ما قرأ ، فلا يتمالك من إعادة القراءة من جديد .

ولعل أحسن مثال لهذه الظاهرة مقاله (الطماطم السياسي) . إن القارىء

---

١ ـ رسالة المنبر

٢ ـ رسائل الرافعي ص ١٠٣ .

متى طالعه هذا العنوان انبهر له وأخـذ في قراءته ، وما يكاد يمضي فيـه قليلا حتى ينساق مع المعاني والأفكار الطارئة .

والموضوع وإن كان خياليا إلا أنه يمثل أخلاق السياسيين الجهلة في الأقطار العربية أيام الرافعي . إن الدهاء عند هؤلاء ، ليس هو الدهاء السياسي المحمود ، ذلك الدهاء الذي يصلح البـلاد ، ويرفع من شأنهـا ، إنما هو عندهم دهـاء اصطلاحي عقيم ، استحدثه قوم جهلة ليس في طبعهم ذرة من الوطنية أو الاخلاص ، ولذلك يمكن أن يتصف بمثل هذا الدهـاء كل من طبـع على المكر والنفـاق والخداع وحب الذات .

لنقرأ له شيئا في هذا الموضوع : و (كان « م » باشا ـ رحمه الله ـ داهية من دهاة السياسة المصرية ، يلتوي مرة في يدها التواء الحبل ، ويستوي في يدها مرة استواء السيف ، ولا يرى أبداً إلا منكمشا متحرزا ، كأن له عدوا لا يدري أين هو ، ولا متى يقتحم عليـه ؟ ولكنه كغيره مـن الرؤساء الذين كانوا آلات للكذب بين طالب حق ، وغاصب الحق ، يعرف أن عدوه كامن في أعماله).

وكان ذكيا أريبا ، غير أن ملابسته للسياسة الدائرة على محورها ، جعلت نصف ذكائه من الذكاء ، ونصفه من المكر . فكان في مراوغته كأن له ثلاثة عقول ، أحدها مصري ، والآخر انجليزي ، والثالث خارج من الحالين .

وبهذا تقدم وعاش أثـيرا عند الرؤساء مـن الانجليز ، واستمرت مجاريه مطردة لديهم ، حتى بلغوا به إلى الوزارة ، إذ كان حسن الفهم عنهم ، سـريع الاستجابة إليهم ، يفهم معنى ألفاظهم ، ومعنى النية التي تكون وراء ألفاظهم ، ومعنى آخر يتبرع به هو لألفاظهم . فكان هو وأمثاله في رأي تلك السياسة القديمة ، رجالا كالأفكار يوضع أحدهم في مكانه من الحكم كما توضع صيغة الشك لافساد اليقين ، أو صيغة الوهم لتوليد الخيال ، أو صيغة الهوى لايجاد

الفتنة)[1] .

إن هذا التحليل للمعنى السياسي الذي ذهب إليه الرافعي ، لا يعني شخصية سياسية بعينها في ذلك العصر[2] إنما يعنى أن الرافعي هذا الأديب المنزوي هناك في عالم الأدب يعرف أشياء كثيرة عن السياسة والسياسيين ، ويعرف أشياء كثيرة عن أساليبهم الملتوية التي وصلوا بها إلى منزلتهم تلك ، فأصبحوا ذوي سلطان وأموال .

إنه يتقن مناورات السياسيين ويستطيعها ، ولكنه لا يجد في نفسه رغبة فيها ، لأنها تتنافى وأخلاقه ومروءته ودينه . وقد أشرت إلى هذا المعنى النفسي في مناسبتين مختلفتين لأوضح في جلاء بعض النزعات النفسية الخفية في الرافعي .

وكأنه يقول لهؤلاء السياسيين : من أنتم ؟ وما حرفتكم ؟ إني أعرف الشيء الكثير عنها وعنكم ، ولو أردت أن أضع نفسي في الموضع الذي أنتم فيه ، لما سبقتموني إليه ، لأني أربأ بنفسي أن أنحط هذا الانحطاط الوضيع الذي يسلب مني ما سلب منكم من المعاني الشريفة التي كان ينبغي أن تتحلوا بها .

وقد يؤدي به التفكير المستمر للسياسة والسياسيين إلى أن ينشيء مقالات تحمل هذه المعاني السياسية ، ويصبغها بصبغة دينية حتى يجمع بين شعوره ، وعقيدته من ذلك مقاله الذي كتبه بعنوان (المعنى السياسي للعيد) .

قال: (ما أشد حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهما جديدا تتلقاها به ونأخذها من ناحيته ، فتجيء أيامنا سعيدة عاملة ، تنبه فينا أوصافها القوية ، وتجدد نفوسنا بمعانيها ، لا كما تجيء الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى ، أكبر عملها تجديد الثياب ، وتحديد الفراغ ، وزيادة ابتسامة على النفاق .

---

١ ــ وحي القلم ج ٢ ص ٢٨٤ .
٢ ــ انظر حياة الرافعي ص ٣٠٠ .

فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في اليــوم لا اليوم نفسه ، وكما يفهــم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم . وكان العيد في الاسلام هو عيد الفكرة العابرة ، فأصبح عيد الفكرة العابثة ، وكانت عبارة الفكرة جمعها الأمة في إرادة واحدة على حقيقة عملية ، فأصبح عبث الفكرة جمعهــا الأمة على تقليد بغــير حقيقة . له مظهر المنفعة وليس له معناها .

كان العيد إثبات الأمة وجودها الروحاني في أجمل معانيه ، فأصبح إثبات الأمة وجودها الحيواني في أكثر معانيه ، وكان يوم استرواح القوة من جدها ؛ فعاد يوم استراحة الضعيف من ذلة ، فكان يوم المبدأ ، فرجع يوم المادة)[1] .

وعلى هذا النمط من التحليل المقارن يستمر في ذكر معاني العيــد إلى أن يقول : (هذه المعاني السياسية القــوية هي التي من أجلها فرض العيــد ميراثا دهريا في الاسلام ليستخرج أهل كل زمن من معاني زمنهم ، فيضيفوا إلى المثال أمثلة مما يبدعه نشاط الأمة ، ويحققه خيالها ، وتقتضيه مصالحها .

وما أحسب الجمعة قد فرضت على المسلمين عيــدا أسبوعيا يشترط فيــه الخطيب والمنبر والمسجد الجامع إلا تهيئة لذلك المعنى ، وإعداد له . ففي كــل سبعة أيام مسلمة يوم يجيء ، فيشعر الناس معنى القائد الحربي للشعب كله .
ألا ليت المنابر الاسلامية لا يخطب عليها إلا رجال فيهم أرواح المدافــع ؛ لا رجال في أيديهم سيوف من خشب)[2] .

وقد لاحظنا في المقال نزعته الدينية . وهذه النزعة منبثة في جميع ما يكتب الرافعي ، وهي غايته التي ينشدها ، ونراها ماثلة حتى في بعض المقالات النقدية التي أساسها البحث والدراسة كما سنرى في موضوعنا الآتي .

---

١ ـ وحي القلم ج ١ ص ٣٥ .
٢ ـ المصدر السابق ص ٣٧ .

النقـد :

كان لنا أن نسمي الموضوع السابق مقالا إنشائيا ، وهذا الموضوع مقالا وصفيا ، فيكون لدينا مقال واحد ذو فرعين ، كل وسبيله في الكتـابة • فالأول منهجه صوغ العبارة وتزيين اللفظ ، وهذا أساسه الدرس والبحث والتحليل• غير أننا اخترنا هذا التقسيم على ذاك الاصلاح، ليكون أدعى للاستيعاب، ولتمييز فن من فن • ثم إن بعض الأبحاث لا تخلو من الجمل الانشائية كما سنوى •

عرفنا في النوعين السابقين غرض الرافعي ونزعته الدينية ، وسنعرف أيضا في هذا النوع ، أن تلك النزعة هي غرضه ، ولكنها لاتبرز إلا في مواطن خاصة •

وطريقة الرافعي في النقد طريقة الباحث الذي يستقصي الحقائق ويستجلي الغامض ، ذلك أنه يعمد إلى المقارنة والموازنة ، كأن يكتب مقـالا في موضوع خاص ، فإذا هو يقارنه بموضوع آخر من نوعه في المادة ، وإن لم يكن منه فـي الطريقة والمنهج ، من ذلك أنه كتب مقالا عن(شعر صبري)استعرض فيه منهجه وموهبته الشعرية ، وما كاد يستقصي المؤثرات التاريخية للشعر العربي عامة حتى تحدث عن البارودي أيضا ، فإذا المقال يشمل شاعرين بدلا من واحد •

وقال بعد أن ذكر اتجاهات كل منهما : (ظهر البارودي ونبغ في شعره قبل أن يقول صبري الشعر بسنوات ، ولكن الأدب الفارسي والجزالة العربية هما اللذان تحولا فيه • ثم نبغ صبري بعد ذلك بزمن ، فتحول فيه الأدب الافرنجي والرقة العربية • وهذا موضع التفاوت في شعر الرجلين اللذين اقتنصا الخيال الشعري من طرفي الأرض ، وكلاهما يذهب مذهبا ، ويرجع إلى طبع ، ويروض شعره على وجه • فالبارودي يستجزل ، ويجمع إلى سبكه الجيد قوة الفخامة ، وشدة الجزالة • ثم يعترض الخيال من حبث يهبط على النفس في ممر الوحي • وصبري يسترق ويضيف إلى صفاء لفظه جمال التخير ، وحلاوة الرقة ، ويعارض الفكر من حيث يتصـل بالقلب • والبارودي لا يرى إلا ميزان اللسان ، يقيم عليه حروفه وكلمـاته ، وصبري لا يرى إلا ميزان الذوق الذي هـو من وراء

اللسان . وقد يسرت لكليهما أسباب ناحيته في أحسن ما يتصرف فيه ، فجاء البارودي حافظا كأنه مجموعة من دواوين العرب والمولدين ، وجاء صبري مفكرا كأنه مجموعة أذواق وأفكار . وهما يشتركان معا في التلوم على صنعة الشعر ، والتأني في عمله ، وتقليبه على وجوه من التصفح ، وتمحيصه بالنقد والابتلاء لفظا ، وجملة جملة ، ثم مطاولة معانيه ومصابرتها ، كأنما ينتزعان محاسنها من أيدي الملائكة)[1] .

إن الخصال التي أثبتها الرافعي لكل من الشاعرين ، هي التي اتفق عليها الباحثون في تاريخ الأدب العربي ممن كتبوا عن صبري والبارودي بعد الرافعي.

فقد جاء في مقدمة ديوان صبري مقال للدكتور طه حسين ، ومقال لأحمد أمين ، أثبتا معاني الرقة في شعر صبري[2] ومثلهما الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي[3] .

وكتب الرافعي مقالا عن الشعر العربي في خمسين سنة ، قال فيه : (إذا اعتبرت الشعر العربي قبل خمسين سنة خلت ــ أي قبل إنشاء المقتطف ــ وتأملت حليته ومعرضه ، ونظرت في منهاجه وطريقته ، وتصفحت معانيه وأغراضه ، لم تر منه إلا شبيها بما تراه من بقايا الورق الأخضر في شجرة ثقل عليها الظل ، فهو جامد مستوخم ، وحم في ظلها شعاع الشمس ، فهو بارد يرتعد . فالحياة فيها ضعيفة متهالكة ، لا هي تموت كالموت ولا تحيا كالحياة . وما ثم إلا ماء ناشف ، ورونق عليل ، ومنظر من الشجرة الواهنة ، كأنه جسم الربيع المعتل بدت عروقه وعظامه .

كان ذلك الشعر فاسد السبك ، متخلف المنزلة ، قليل الطلاوة ، بين مديح قد أعيد كل معنى من معانيه في تاريخ هذه اللغة ، بما لا يحصيه إلا الملائكة

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٣٠٣ .
٢ ــ ديوان صبري المقدمة .
٣ ــ تاريخ الأدب العربي ص ٤٩٧ .

الموكلون بإحصاء الكذب ، وبين هجاء ساقط هو بعض المواد التي تشتعل بها نار اللوم تطلع على الأفئدة ، وبين غزل مسروق من القلوب التي كانت تحب وتعشق وبين وصف لا عيب لموصوفه سواه ، وشكوى من الدهر ، يشكو الدهر منها ، وحزن ويأس ، وندب ورثاء كقراءة القراء في جنازات الموتى ، لافيها عظة السكوت ولا فائدة النطق . وتعمر كلّ ذلك أنواع من الصناعة بينة التعسف ، ضعيفة التقليد ، لا ترى المتأخر فيها مع المتقدم إلا قريبا مما يكون عمل اللص في أخذ المال من عمل صاحب المال في جمعه .

والعجيب أنك إذا اعترضت الشعر من القرن العاشر للهجرة إلى القرن الثالث عشر ، رأيته نازلا من عصر إلى عصر بتدريج من الضعيف إلى الأضعف ، حتى كأنما ينحط بقوة طبيعية كقوة الجذب ، كلما هبطت شيئا ، أسرعت شيئا ، إلى أن تلصق بالأرض . وبعضهم يسمي هذه العصور بالعصور المظلمة)[1] .

ولما وصل إلى هذا الحد انتقل إلى الباحثين ، وقال : إنهم لم ينتبهوا (إلى أن في الأدب ناموسا كناموس رد الفعل ، يخرج أضعف الضعف من القوة ، وأن انحطاط الشعر في تلك العصور ــ على أنه لم يكن إلا صناعة بديعية ــ إنما سببه القوة الصناعية العجيبة التي كانت للشعر منذ القرن السادس الى العاشر ، بعد أن نشأ القاضي الفاضل المتوفى سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) وكان رجلا من الرجال الذين يخلقون حدوداً للحوادث تبدأ منها أزمنة ، وتنتهي عندها أزمنة. ففتن الناس بأدبه وصناعته، وصرف الشعر والكتابة إلى أساليب النكتة البديعية. وظهرت من بعد عصابته التي يسمونها العصابة الفاضلية ، وما منهم إلا إمام في الأدب وعلومه ، فكان منهم في مصر القاضي ابن سناء الملك)[2] .

والجدير بالملاحظة في هذا البحث هي الطريقة التي عالج الرافعي بها الموضوع. فقد بدأ حديثه بكلمة تمهيدية عن ضعف الشعر في العصور المظلمة قبل إنشاء

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٣٧٣ .
٢ ــ المصدر نفسه .

المقتطف ، فكان أسلوبه الى الوصف المجازي أقرب منه إلى سرد الحقائق ، إذ وصف ضعف الشعر وصفا إنشائيا من أنه يشبه (بقايا الورق الأخضر ، في شجرة ثقل عليها الظل ، فهو جامد مستوخم ، وحم في ظلها شعاع الشمس فهو بـارد يرتعـد ...) .

ومتى أتم كلمته التمهيدية بتلك المعـاني الانشائية ، تدرج شيئا فشيئا إلى سرد الحقائق الخالصة على نحو حديثه على القاضي الفاضل . فنلاحظ أسلوبا مركزا على الأحداث التاريخية ، وما فيها من معان وحقائق . فكل لفظة لهـا دلالتها ومرماها . فهذا القاضي الفاضل وهذه عصابته ، وأنها (تقابل في تاريخ الأدب العربي عصابة البديع الأولى : كمسلم ، وأبي تمام ، وابن المعتز وغيرهم . وكلتا الفئتين استبدت بالشعر وحرفته زمنا وأحدثت فيه انقلابا تاريخيا مميزا)[١] .

وبمثل هذه الطريقة التي بحث بها الشعر بحث النثر أيضا . يبدأ بأسلوب إنشائي ممزوج بالخيال والحقيقة ، وشيئا فشيئا يتدرج إلى الواقع ، فإذا كل جملة لها معناها الخاص . ولعل أحسن مثال يوضح هذا النوع مقاله عن كلمة (القتل أنفى للقتل) . فقد تناولها جمع من الأدباء . بعضهم يرى أن أصلهـا جاهلي نطق بها أول من نطق أكثم بن صيفي وبعضهم يرى أن أصلهـا فارسي ترجمت إلى العربية . ويرى الرافعي رأيا غير هذين .

والسبب في هذه الآراء أن كاتبا قارن في جريدة كوكب الشرق[٢] بين الآية الكريمة (ولكم في القصاص حياة) وبين قولهم (القتل أنفى للقتل) فخلص إلى نتيجة غريبة ، وهي أن الكلمة أدل على المعنى المراد من الآية ، وذكر أوجهـا ليستدل بها على رأيه . فلما اطلع الرافعي على هذا الرأي بحث واستقصى خبر الكلمة في بطون الكتب ، ليعرف ما إذا كان أصلها جاهليا سبق القرآن كمـا ذهب بعضهم ونسبه إلى أكثم بن صيفي كما مر بنا ، أم لا ؟

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٣٧٣ .
٢ ــ ٢٧ اكتوبر ١٩١٢ .

والعلة في هذا البحث أنه إذا لم تكن الكلمة جاهلية كانت بطبيعة الحال متأخرة عن القرآن ، ومن ثم تكون مقتبسة من الآية .

وقد رجع الرافعي الى الكتاب الكبار ، مثل الثعالبي والعسكري وابن الأثير ، وذكر أقوالهم كما رووها من اختلافهم في الكلمة وتاريخها ، فلم يرض إلا بالرأي القائل : إنها لم تعرف في العربية إلا في أواخر القرن الثالث من الهجرة ودليله : أن الجاحظ يقول في موضع من كتابه البيان والتبيين في شرح قول عدي كرم الله وجهه (بقية السيف أنمى عددا وأكثر ولدا) مانصه :ووجد الناس ذلك بالعيان للذي صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذر . وكرم النجل . قال الله تبارك وتعالى : (ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب) . وقال بعض الحكماء : قتل البعض إحياء للجميع[1] .

يقول الرافعي : (ولم يزد الجاحظ على هذا ، ولو كانت الكهلة معروفة يومئذ لما فاتته ، كما هو صنيعته في كتبه)[2]

ويختم حديثه عن هذه الكلمة بقولة : (وهؤلاء المتطرفون على القرآن الكريم ، إنما يريدون بما يصنعونه من مثل هذه الكلمة أن يوجدوا للعامة وأشباههم من الاحداث والأغرار وأهل الزيغ والضعفاء في العلم ، سبيلا إلى القول في نقض الاعجاز ، ومساغا إلى التهمة في أن القرآن تنزيل . والخطأ في مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ في البيان ، إلى معنى الكفر في الدين ، وذلك مايرمون إليه . وهذه بعينها هي طريقة المبشرين اليوم ، فكأن إبليس من عهد أولئك الزنادقة إلى عهد المبشرين ، لم يستطع أن يتغير ، ولا أن يكون ... أن يكون مجددا[3]

---

١ ـ انظر الجزء الثاني من الحيوان ص ٩٣ والجزء الثاني من البيان والتبيين ص ٣١٦ .
٢ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٤٧٧ .
٣ ـ المصدر السابق ص ٤٧٨ .

القيم الاسلامية :

تصطبغ كتب الرافعي جميعها بالصبغة الاسلامية ، وبصفة خاصة كتابه هذا وحي القلم ، ذلك أنه كان من وحي المناسبات الدينية والأخلاقية والوطنية • فقد كتب في أزمنة متباعدة ، وفي مناسبات موحية بالمعاني الاسلامية ، مثل المواسم والأعياد وما أشبهها • ومن هذه المناسبات كانت بعض الموضوعات تدل بظاهر لفظها على المعنى الديني مثل (اجتلاء العيد) و (المعنى السياسي في العيد) و (بين خروفين) و (السمو الروحي) و (قرآن الفجر) و (الاشراق الالهي) وغير هذه الموضوعات كثير ، مما يحمل المعاني الاسلامية إما تلميحا أو تصريحا •

وهذه النزعة الاسلامية تكاد تكون السمة البارزة في كتابة الرافعي وتفكيره ، ويراها واجبه على كل من يدين بالعقيدة الاسلامية • وكان كثيرا ما ينتقد الكتاب الذين يذكرون الرسول ولا يصلون عليه • من ذلك أن أحد أصدقائه بعث له رسالة على هذا النحو الذي يأباه ، فثار الرافعي ثورة عنيفة، وكتب إلى صديقه هذا ، وهو من في نفسه ، يقول له : (أنبهك إلى أنك كررت في كتابك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم دون أن تتبع اسمه الشريف بصيغة الصلاة عليه ، وهذا سوء أدب لاأقبله أنا من أحد ، ولاأقرأحداعليه ، وأنت حين تقول في كتابك : (إن الألفاظ ألفاظ محمد) لاتكاد تمتاز عن رجل مظلم القلب ، نعوذ بالله من هذه الظلمة ، فاتتبه الى ذلك ، واستغفر الله لنفسك)[١]

والطريقة التي ينتهجها في إبراز المعاني الاسلامية تتنوع حسب الموضوع ومناسبته فان كان مما يحمل هذه المعاني الاسلامية بطبيعته ، اكتفى بتلك المعاني نفسها ، وأبرزها في ثوب أنيق مثل ماكتبه عن (قصة زواج) و(فلسفة المهر) و(الأيدي المتوضئة) وإن لم يحمل هذه المعاني اختلق فكرة دينية ووضعها في كفة ليقابل بها الموضوع الاصلي •

---

١ ــ رسائل الرافعي ص ٥٩ .

وفي هذه الحالة يلجأ الى طريقة المقارنة ، يوازن بين الفكرة وما يقابلها، حتى ينتهي الى أن الخروج عن حدود الدين مما يشين ويسيء إلى سمعة المرء ووطنه ومجتمعه .

ويمثل هذا النوع مقاله الذي كتبه عن المحامية التي احترفت مهنة المحاماة بشيء غير الذي ألفه المحامون (وجاءت مبادرة ، ودخلت تمشي مشيتها ، وقد افتر ثغرها عن النور الذي يسطع في النفس ، وأومضت يمينا وشمالا ، فرفع الناس جميعا أبصارهم إليها ، وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ، وثارت في كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقة البشرية،فانتقضت طباع الموجودين في قاعة الجلسة، وأبطل قانون جمالها قانون المحكمة)[1] .

اذن فجمالها هو الذي يدافع عن قضاياها ، لاعلمها وثقافتها ، وآية ذلك أن سحرها هو الذي أثر في القلوب حتى قلوب القضاة ، إلى درجة أن سلبوا المهابة وأصبحوا (في أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط)[2] .

هذه النظرية الدينية في المرأة اعتنقها الرافعي قديما ، واستدل عليها مرة بالشعر ، ومرة بالنثر . فمن الشعر قوله :

كل بدر له سماء ولا يعرف للحسن كالبيوت سماء[3] .

ومن النثر قوله : (إن كل أدلة أعداء الحجاب التي يحتجون بها باطل في باطل وضلال في ضلال)[4] .

ودليله أن للنساء قلوبا ، وهذه القلوب انما هي في صدورهن ، ودائما في صدورهن ، ومن ثم يعسر على أحدنا أن ينتزعها من مكانها ويضع مكانها حجرا

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ١٦٦ .
٢ ــ المصدر السابق .
٣ ــ ديوان الرافعي ج ٢ ص ٤٧ .
٤ ــ نفس المصدر .

أو جلمدا[1] •

ودامت هذه الفكرة مع الرافعي ، ولكنها ضعفت قليلا ، وتطورت بتطور المجتمع • وليس معنى هذا أنه أباح السفور أو ارتضاه مذهبا ، أو كف عن مهاجمة دعاته ، إنما لانت فتاة الرافعي قليلا ، فأصبح ينظر إلى المرأة من عدة جوانب ، يدافع عنها من ناحية ، ويرسم لها طريقا من ناحية أخرى ، ويهاجم الذين يرون لها ما للرجال من حقوق ، لأنه يرى ذلك تقليدا للاوربيين ، وليس منه ما يتفق وأصول الدين الاسلامي الذي حدد لكل من الرجل والمرأة حقوقا وواجبات •

يقول : (إن ميراث البنت في الشريعة الاسلامية لم يقصد لذاته ، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها ، وهو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لاخراج نتيجة صحيحة من العملين معا •

فاذا وجب للمرأة أن تأخذ من ناحية ، وجب عليها أن تدع من ناحية تقابلها • وهذا الدين يقوم في أساسه على تربية أخلاقية عالية ، ينشىء بها طباعا ، ويعدل بها طباعا أخرى •

للمرأة حق واجب في مال زوجها ، وليس للرجل مثل هذا الحق في مال زوجه • والاسلام يحث على الزواج ، بل يفرضه ، فهو بهذا يضيف الى المرأة رجلا ، ويعطيها حقا جديدا ، فان هي سادت أخاها في الميراث مع هذه الميزة التي انفردت بها ، انعدمت المساواة في الحقيقة فتزيد وينقص ، إذ لها حق الميراث وحق النفقة ، وليس له إلا مثل حقها في الميراث إذا تساويا •

وبعد هذه الحقائق التي بينها ينتقل الى نظام الغرب ليبين مساويه فيقول: (فان قلت ••• ان في الحق أن تنفق المرأة على الرجل ، وأن تدفع له المهر ، ثم تساويه في الميراث قلنا : إذا تقرر هذا وأصبح أصلا يعمل عليه ، بطل زواج كل الفقيرات ، وهن سواد النسوة ، إذ لا يملكن ما يمهرن به ••• وهذا ما يتحاماه

---

١ ـ ديوان الرافعي

الاسلام ، لأن فيه الزواج للساعة واليوم ، وللوقت المحدود ولايجاد لقطاء الشوارع ، بدلا من أن يكون الزواج للعمروللواجبولتربية الرجل علىاحتمال المسئولية الاجتماعية ، بإيجاد الأسرة وإنشائها ، والقيام عليها والسعي في مصالحها)[1]

تشعبت أمام الرافعي مشاكلالمرأةوتعددتجوانبها.فبعد أنكانت محصورة في الحجاب والميراث ونحوهما إذا هي بمرور الأيام تتجاوزذلك الى أمور أخرى تتصل بأخلاقها وسلوكها . وبعد أن كان الرجل هو الذي يدافع عن مشاكلها ويرسم لها طرقا في الحياة ، إذا هي تتبنى كل ذلك وتدافع عن نفسها بنفسها . فاضطر الرافعي في هذه الحالة إلى أن ينوع الكتابة حتى يشمل جميع مايتصل بالمرأة ، فكتب في الزواج والمهر وفلسفة المهر ، وعن الفتاة الطائشة وفلسفتها في الحياة ... وكان دائما يحاول ان يضع منهاجا واضحا للمرأة المسلمة على ضوء ماسنه القرآن والأخلاق .

والقيم الاسلاميةالتي يدعو إليهاالرافعي في هذا الكتاب لم تقتصر على المرأة وحدها ، بل شملت جميع النواحي التي لها علاقة بالبلاد ، كالتنظيم السياسي والاجتماعي والوطن . على أن يكون ذلك كله مبنياً على أسس أخلاقية .

والأخلاق عند الرافعي هي الاسلام ، ودائماهي الاسلام،فمتىذكر الاسلام فهم منه الأخلاق ، ومتى ذكرت الاخلاق فهم منها الاسلام ، وهذه الفكرة اعتنقها قديما وآمن بها ، وبثها في جميع ماكتبه حتى المقالات الانشائية ، فنراه يقول : (لو أنني سئلت أن أجمل فلسفة الدين الاسلامي كلها في لفظين ، لقلت : إنها ثبات الأخلاق)[2]

ويستدل على رأيه بأن جميع المفكرين يوافقونه في النظرية إذ (لو سئل

---

٢ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٤٦٠ .
٣ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ .

أكبر فلاسفة الدنيا ان يوجز علاج الانسانية كلها في حرفين لما زاد على القول أنه ثبات الأخلاق . ولو اجتمع كل علماء أوربا ليدرسوا المدنية الاوربية ويحصروا ما يعوزها في كلمتين لقالوا : ثبات الأخلاق)[1] .

إذا كانت المدنيـة الاوربية في حاجة إلى ثبات الأخلاق ، وإذا كان عـلاج الانسانية بثبات الاخلاق ، أليس الاسلام هو الاخلاق ؟

ثم يقول : (فليس ينتظر العالم أنبياء ولا فلاسفة ولا مصلحين ولا علماء يبدعون له بدعا جديدا ، وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسر له الاسلام هذا التفسير ، ويثبت للدنيا أن كل العبادات الاسلامية هي وسائل عملية تمنع الاخلاق الانسانية أن تتبدل في الحي ، فيخلع منها ويلبس إذا تبدلت أحوال الحياة فصعدت بإنسانها أو نزلت ، وأن الاسلام يأبى على كل مسلم أن يكون انسان حالته التي هـو فيها من الثروة أو العدم ، ومن الارتفاع أو الضعة ، ومن خمول المنزلة أو نباهتها ، ويجب على كل مسلم أن يكون إنسان الدرجة التي انتهى إليها الكون في سموه وكماله ، وفي تقلبه على منازله بعد أن صفي في شريعة بعد شريعة ، وتجربة بعـد تجربة ، وعلم بعد علم)[2] .

القيم العربية :

إن هذه القيم بالنسبة للرافعي مندرجة تحت القيم الاسلامية ، ولا يرى أي مدلول خاص الا كمدلول الجزء من الكل أو الخاص من العام . وقد يتظاهر مرة بعد أخرى بأنه يساير الركب العربي الذي ينبذ النزعة الدينية ، ويعتنق المبدأ العام ، مبدأ العروبة ، ولكنه لا يكاد يمشي في هذه السبيل خطوة حتى يتعثر ، فينم عن عقيدته الاسلامية وإيمانه بها .

منذ أوائل هذا العصر أو قبله بقليل ترددت كلمة العروبة على ألسنة الكتاب والأدباء والشعراء ، وأخذت تنمو شيئا فشيئا إلى أن أصبحت في أيام الرافعي

---

١ ــ وحي القلم ج ٢ ص ٧٨ .
٢ ــ نفس المصدر .

الأخيرة ذات معالم واضحة ، وتبلورت أكثر في سنة ١٩٣٦ أيـام التكتل العربي حول قضية فلسطين ، وثورتها التي اندلعت ضد اليهود وضد الانجليز في جميع التراب الفلسطيني .

ففي هذه السنة انتضى كل كاتب وطني قلمه ليعبر عن مشاعره العربية نحو إخوته الفلسطينيين ، فكان منهم الرافعي .

فقد كتب مقالا بعنوان (يا شباب العرب) وجه فيه النداء الى الشبـاب العربي يحثهم على الكفاح والمقاومة . فقال : (ياشباب العرب ، لم يكن العسير يعسر على أسلافكم الأولين، كأن في أيديهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها)[1]

ويفسر هذا المعنى بقوله : (أتريدون معرفة السر ؟ السر أنهم ارتفعـوا فوق ضعف المخلوق فصاروا عملا من أعمال الخالق . غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر ، ومعنى الخوف والمعنى الارضي ، وعلمهم دينهم كيـف يعيشون بالذات السماوية التي وضعت في كل قلب عظمته وكبرياءه ، واخترعهم الايمان اختراعا نفسيا ، علامته المسجلة على كل منهم هذه الكلمة (لايذل)[2]

وللرافعي مقال شبيه بهذا كتبه عن نهضة الاقطار العربية ، تناول فيه وثبة العرب وماحققوه من تقدم سياسي ووطني منذ أن نفضوا عن أنفسهم غبـار العبودية ، وأخذوا يتحررون شعوريا وسياسيا لطرد الاستعمار ، وخاصة في السنوات التي تلت ثورة مصر عام ١٩١٩ ، حين أخذت الصحافـة العربية توجه الأقلام إلى مثل هذه الموضوعات الوطنية .

ابتدأ الرافعي حديثه بقوله : (لاريب في أن النهضة واقعة في الأقطار العربية، مستطيرة في أرجائها استطارة الشرر ، يضرم في كل جهة نارا حامية ، ويستمد من كل مايتصل به لعنصره الملتهب ولاريب في أن الشرق قد تفلت[3] من أوهام السياسة وخرافاتها ، وقد اختلف عن الغرب بعد أن طابقه زمنا ، وتابعه مدة ،

---

١ ـ وحي القلم ج ٢ ص ٢٥١ .
٢ ـ المصدر السابق ص ٢٥٢ .
٣ ـ تفلّت : تخلص .

وعرفه بمقدار مابلاه ، وكذبه بقدر ماصدقه ، ونفر منه بقدر مااطمأن إليـه، ولاريب في أن العقل الشرقي قد تطور وأدرك معنى نكث العهد، ونقض الشرط في السياسة الغربية)[1] .

ويستمر على هذا النحو في تحليل نوايا الغرب وموقف الشرق العربي من السياسيين الغزاة إلى أن يقول : (لست أقول أن نهضة الشرق العربي لاأساس لها ، فإن لها أساسا من حمية الشباب ، وعلم المتعلمين ، ومن جهل أوربا الذي كشفته الحرب ، ولكن هذا كله على قوته وكفايته في بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى ، واهتياج العواطف السياسية ، لايحمل ثقل الزمن الممتد ، ولايكفي لأن يكون أساسا وطيدا يقوم عليه بناء عدة قرون من الحضارة الشرقية العالية ، بل ما أسرعه الى الهدم والنقض لوصدمته الأساليب اللينة من الدهاء الأوربي على اختلافها)[2] .

كتب هذا المقال في سنة ١٩٢٣ ، وغرضه أن لايثبط العزائم ، ولايتشاءم أمام الزحف العربي ، ولكنه كان في قرارة نفسه يرى الطريق طويلا وشاقا . وهذا مانراه بعد ذلك بنحو خمس سنوات عند ماكتب رسالة يوضح فيها رأيه في السياسة بين مصر وانجلترا . فقال : (أما الأحوال الحاضرة فلا تتيجة لها الا وضع لون جديد على الواقع الموجود من زمن . وكل مشكلة بين الذئب والخروف لا يكون حلها أبدا الا من لحم الخروف ، ما لم يرسل الله راعيا أو يحدث حادثة تشغل الذئب بنفسه)[3] .

وقد صحت نبوة الرافعي ، فقد رأينا استمرار الوضع السياسي في جميع الشعوب العربية على ما كان عليه آنذاك إلى هذه السنوات الأخيرة ، كما صحت نبوته في السياسة التركية ، فقد تنبأ بأنها ستتقلص من جميع الأقطار التي تسيطر عليها وتنزوي في ترابها بعد الحرب العالمية الاولى ، وهو ماحدث فعلا[4]

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ١٩٨ ، وانظر الهلال يونيو ١٩٢٣ .
٢ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٢٠٠ .
٣ ــ رسائل الرافعي ص ١٤١ .
٤ ــ انظر رسائل الرافعي ص ٥٦ .

ثم يقول في مقاله عن نهضة العرب (والذي أراه أن نهضة الشرق العربي لاتعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان: الدين الاسلامي واللغة العربية • وماعداهما فعسى أن لاتكون له قيمة في حكم الزمن الذي لايقطع بحكمه على شيء الا •• بشاهدين من المبدأ والنهاية)[1] •

إن الركنين الأساسيين اللذين يشترطهما الرافعي ويعتنقهما ، هما في الحقيقة أساس الانتصار • أما الدين ، فأكبر شاهد عليه هذا الانتشار العام الذي ملأ الآفاق • وأما اللغة فنقرأ هذه الجملة لنتبين على ضوئها أهمية اللغة (سئل أحد الساسة الأتراك ؟ متى ابتدأت انكسارات الدولة العثمانية ؟ فأجاب : منذ أول انتصار • ثم فسر جوابه هذا بقوله : لأنها لم تفرض لغتها على المغلوبين)[2] •

لم يستطع الرافعي أن يخفي نزعته الاسلامية ، فقد كتب في أول المقال كلمة عربية خالصة ، وشيئا فشيئا برزت عقيدته كما هي ، وعبر عنها كما هي في نفسه•

وإلى هذا المعنى أشار محمد سعيد العريان بقوله : (إن الرافعي عند كثير من القراء في الأقطار العربية يعد أديب الامة العربية المسلمة ، يعبر بلسانها وينطق عن ذات نفسها)[3] •

ولو قدر لنا أن نضع الرافعي في ميزان نفسي لكان على هذا النحو :إسلاميا عربيا شرقيا • إسلامي العقيدة ، عربي التفكير ، شرقي الفضيلة : (أنا لاأعبأ بالمظاهر التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر • والقبلة التي اتجه اليها في الادب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها فلا أكتب إلا مايبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لاأمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ، ثم أنه يخيل إلي دائما أني رسول لغوي بعثت

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٢٠٠ •
٢ ــ بديع الزمان ــ نوابغ الفكر العربي ص ٥ •
٣ ــ وحي القلم ج ١ ص ٧ •

للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه)[1] .

ولشدة ولوع الرافعي بالمعاني الأسلامية والعربية في مقالاته ، وفي هـذا الكتاب بصفة خاصة ، رأى بعض الكتاب أن يلقبه بكاتب الاسلام والعروبة ، فقال عنه : في مقالات هذا الكتاب (وهو في مقالاته بوحي القلم يستلهم دائما مثله الاسلامية مستضيئا بها في كل ما يكتب ، كما يستلهم مثله العربية بحيث يمكن أن نلقبه (كاتب الاسلام والعروبة)[2] .

وفيما يتعلق بترتيب الموضوعات ، فقد نشرها الرافعي على غير ترتيبهـا الزمني (فجعل منها القصة والمقالة ، والحديث الديني ، وجعل كل نوع مـن هذه الثلاثة في بابه) [3] بل حتى هذا الترتيب كان مضطربا . وإنما نلاحظ أن الجزء الأول تكثر فيه القصة ، وتقل المقالة ، وتنعدم فيه المقالات النقدية .

وفي الجزء الثاني تكثر فيه المقالة وتقل القصة ، ولاتبدو فيه المقـــالات النقدية إلا شاحبة اللون ، حيرى ، باهتة ، لاتكاد تبين .

وفي الجزء الثالث ، وهو الذي قام بطبعه الاستاذ العريان بعد موت الرافعي، تكثر فيه المقالات النقدية وتقل المقالة ، ويليها في القلة فن القصة .

والكلمة الاخيرة في هذا الكتاب إقرار لما أثبته الأستاذ العريان في ترتيب كتب الرافعي على نحو يعين القارىء على فهمها وتذوقها (فإن وحي القلم في رأس هذا الثبت هو آخر ما أنشأ ولكنما أول ماينبغي أن يقرأ له وإن البدء به لحقيق أن يعود قارئه أسلوب الرافعي فيسلس له صعبه وينقاد)[4] .

---

١ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠٠ .
٢ ـ الأدب العربي المعاصر ص ٢٤٧ .
٣ ـ حياة الرافعي ص ٢٧٣ .
٤ ـ وحي القلم ج ١ ص ٨ .

الفصل الخامس

الرافعي زعيم المحافظين

نشأ الرافعي في عصر اجتمعت فيه نخبة كبيرة من ذوي الفكر ، وذوي الاتجاهات المختلفة في ميادين الحياة ، من اتجاهات سياسيةوأدبية وإصلاحية. فما من ناحية من هذه النواحي التي تتصل بالمجتمع إلا ولها من يمثلها . فهذا شاعر ، وهذا كاتب ، وهذا مصلح .. وكل ورأيه وأسلوبه في العمل أو الاتجاه .. فالبارودي في الشعر غير حافظ ، وهذا غير شوقي ، وقاسم أمين غير محمد عبده ، وهؤلاء جميعا غير مصطفى كامل ، أو أحمد لطفي السيد ، أو محمد فريد ، أو سعد زغلول .

عاصر الرافعي هؤلاء وعرف اتجاهاتهم المختلفة ، وطريقة تفكيرهم ، وأساليبهم في الحياة ، فاقتبس منهم ماأمكن ، فأضافه إلى مافي طبعه ومواهبه ، فإذا هو أديب وكاتب وباحث ، ثم نظر نظرة أخرى بعد أن تمكن من ناصية اللغة والادب ، فإذا هو أمام تيار جديد في الأدب ، يتزعمه قوم باسم التجديد، فقرأ هذا الجديد ، ثم قرأه فلم يستسغه ، فأعلن : أنه غير راض عن الركاكة ، وغير راض عن الابتذال ، فوجهت اليه تهمة المحافظة على القديم ، فلم ينكرها ومن ثم أصبح زعيم المحافظين في الادب العربي .

لم يصل الرافعي الى هذه الزعامة عن رغبة أو تفكير سابق ، فكل ماكان يخامر فكره أن يصبح في طليعة المثقفين . ونشط لهذه الغاية ، وسعى سعيه

لتحقيقها فكتب وألف وحبر المقالات • وكان في كل ذلك يعمل وفق ماتمليه عليه طبيعته • ومرة بعد أخرى يسمع همسا أو تصريحا عن أسلوبه ونهجه في الكتابة • وكانت أولى هذه الهمسات في سنة ١٩١٢ إثر صدور الجزء الاول من كتابه تاريخ آداب العرب وكتابه حديث القمر •[1]

والى جانب ماكان يسمعه من النقد الجارح ، كان يسمع كذلك تشجيعا وتأييدا له • وبمرور الأيام أدرك أن مؤيديه أكثر عددا ، وأقوى عدة من معارضيه • ثم إن أنصاره لهم نيات طيبة ودين ومروءة ، فاستمر يكتب على النحو الذي يمليه عليه طبعه ، إلى أن ظهرت جريدة السياسة التي يرأسها محمد حسنين هيكل ، ويعمل فيها الدكتور طه حسين في سنة ١٩٢٣ ، وهما من المجددين الثائرين على الاساليب العتيقة التي يتكلفها بعض الشيوخ ، من الانغماس في السجع المجتلب واللفظ الشاذ أو الغريب •

وفي هذه الاثناء ظهرت رسالة في العتب لصاحبنا الرافعي في الجريدة نفسها ، بأسلوب خاص ، وعلى نمط غير الذي عرف عن الرافعي • فماكاد القراء يقرأونها حتى انتضوا أقلامهم ، وأخذوا يكتبون عن نمط الرسالة وعن تفكير صاحبها • كل كاتب يكتب بما عن له ، وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين ، كتب يقول: (أما أنا فأعتذر للكاتب الاديب إذا أعلنت مضطرا ، أن هذا الأسلوب الذي ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة ، لايستطيع أن يروقنا في هذا العصر الذي تغير فيه الذوق الادبي ، ولا سيما في مصر ، تغيرا شديدا)[2] •

ويبدو أن تعليق الدكتور طه هذا ، كان شديد الوقع على الرافعي ومشاعره ، فإنه ماكاد يقرأه ويفهم مغزاه ، حتى كتب الى الجريدة نفسها كلمة بدأها بحديث متزن ، يذكر فيها أدلته وحججه ، من ان الادب ينبغي أن يكون متنوعا وذا أفانين ، وأن الرسالة التي كتبها على ذلك النمط الخاص ، إنما هي زينة ، جاءت

---

١ ــ انظر مجلة الزهور فبراير ١٩١٣ وحياة الرافعي ص ٦٧ .
٢ ــ السياسة ٣٠ مايو ١٩٢٣ .

لمناسبتها ، وأصابت موضعها ، وذاك هو الوجه في جمالها ورونقها وهو شرط أساسي لهذا النوع من الفن الادبي •

قال الرافعي : (علق الاستاذ طه حسين على رسالة العتاب التي نشرتها السياسة بقوله : (إنه يعلن مضطرا أن هذا الاسلوب الذي ربما راق أهل القرن الخامس والسادس لايستطيع أن يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تغير فيه الذوق الأدبي)

يقول الرافعي : (ولست أجادله في ذوقه إن كان الامر اليه أو الى ذوقه ، وهو أعلم حيث يجعل نفسه ، وليحملها على ماشاء ، وليحمل ماشاء عليها ولكني لأتبين مرجع الضمير في قوله : (لايستطيع أن يروقنا) فهل ترجع (نا) هذه اليه وحده ، أم الى أهل العصر الذي نحن فيه ؟ وهل هو حسبه ؟ أم هو أكثر من نفسه؟والا فمن سلطه ليتسلط بالنفي؟ومن قدر على النفي قدر على الاثبات، ومن تصرف في الجهتين لم يبق مع أمره أمر ، ولا بعد حكمه حكم • ولا أظن الاستاذ الفاضل يزعم هذا لنفسه ، أو يمكن لها فيه •

على ان الاسلوب الذي كتبت به الرسالة كان موضع الانفراد ، وكان الغاية التي تتقاصر دونها الاعناق ، منذ القرن الرابع الى اخر التاسع ، ولم يوحش منه تغير الذوق الادبي كما يقول الاستاذ ، بل ضعف الكتاب فيه ، وتقصيرهم عن حده ، وأنهم لا يوافقون به موضعه ، ولا يعدلون به الى جهاته في ألفاظه ومعانيه)[1]

وبعد هذا ينتقل الى ذكر بعض المبررات ، ووجهة نظره في تنوع الاساليب في مختلف الفنون الادبية فيقول : (لقد علم الكاتب أننا لا نزعم أن هذا الاسلوب هو الوجه في كل فنون الانشاء ، ومناحي التعبير ، بل قلنا انه شيء من الزخرف، وفن من التنسيق ، ونقول الآن : ان اكثر كتاب العصر ، ومنهم الاستاذ طه ،

---

١ ـ السياسة ٤ يونيو ١٩٢٣ .

لايجيدونه ، ولايستطيعونه مهما تكلفوا له ، وبالغوا في هذا التكلف ، وتحروا في هذه المبالغة • وهذا عندنا وجه من وجوه التأويل في معنى تغير الذوق الادبي وهب أن (كذا)[1] الذوق تغير وأتى على كل شيء في اللغة وأساليبها ، فأين معنى الطرفة والنادرة والملحة في مثل هذه الآثار الدقيقة ؟ وقد قامت الدنيا وركعت وسجدت لدقائق توت عنخ آمون ، مع أن الذوق الفني مات وبعث ، ثم مات وبعث في أكثر من ثلاثة آلاف سنة ؟ وننبه الاستاذ الى اننا نشترط في هذا الاسلوب أن يصيب موضعه ، والا يجاوز مقداره ، وان ينزل منزلةالزخرف لامنزلة البناء • ثم أننا نفرض أن هذا الفاضل اضطر أن يكتب في هذا المعنى الذي كتبنا فيه ، وأراد أن يأتي بصورة من جمال الادب ، فليكتب الان وليملأ الوجه الاخر من الصحيفة بما تتم به المقابلة بين ما يروق وما لا يروق • وليأتنا بالبلاغة التي عجزنا نحن عنها ، اذا كان هذا رأيه المستور الذي يرمي اليهبرأيه الظاهر في تلك الكلمات)[2] •

كان رد الدكتور طه في هذه المرة شبيها برده الاول ، فقال : (يرى الكاتب الاديب « أن أكثر كتاب العصر ــ وأنا منهم ــ لايجيدون هذا الاسلوب ، ولا يستطيعونه مهما تكلفوا له وبالغوا في هذا التكلف ، وتحروا في هذه المبالغة ، وهذا عندناوجهمن وجوه التأويلفي معنى تغير الذوق الادبي • » وأنا لا أتردد في اقرار الكاتب الاديب ، على اننا لا نجيد هذا الاسلوب ، وعلى أننا لا نريد أن نجيده ، لأن الذوق الادبي ولاسيما في مصر ، قد تغير ، وقد كنت أريد أن أناقش الكاتب ، ولكن له في نفسه رأيا لايسمح بمناقشته والتحدث اليه،فلندعه ورأيه ، ولنحيي الذوق الادبي الجديد الذي يلائم حاجات الناس وحياتهم) •

وبعد هذا الرد بيومين كتب الرافعي مرة أخرى كلمة الى الجريدة نفسها يستنكر بعض الاخطاء التي جاءت في كلمته التي رد بها على الدكتور طه ، ثم

---

١ ــ (كذا) من وضع الدكتور طه للتهكم على الرافعي .
٢ ــ السياسة ٤ يونيو ١٩٢٣ .

تعجب من التهكم الذي أبداه الدكتور طه حين وضع كلمة (كذا) بعد قول الرافعي (وهب أن)

قال الرافعي : (وتهكم عليها الشيخ بقوله : (كذا) فان العبارة (وهب أن) (كذا) الذوق تغير)[١] •

ان كلمة (كذا) تكررت مرة ثانية في جريدة السياسة لابد أن لها معنى ، ماهو ؟

أجاب عنه الدكتور طه بقوله : نعتذر الى الاستاذ من هذه الاغلاط الثلاث المطبعية ، وقد قرأنا كتاب الاستاذ على وجهه ، ولم نضع (كذا) بعد خطأ في القراءة ،ولهذا أعدنا وضعها ثانية)[١]

لقد فهم الرافعي في هذه المرة أن وراء تكرار (كذا) مغزى ، وأن خطأ لغويا وقع فيه ، وأن لامنجاة له منه الا ماقد يجده عند اللغويين الكبار ، أمثال الحريري وابن بري • وفعلا وجد مخرجا ، وبعث به الى الصحيفة لتنشره ،وكان له مأأراد ، ولكن مع تعقيب من الدكتور طه ، ونذكرهما على التوالي •

يقول الرافعي : (نزع الاستاذ طه حسين الى مسألة لغوية ، رأينا أن نبدأ بها في هذه الكلمة وهي تلك العبارة التي (كذ كذ) عليها في هذه الجملة (وهب ان الذوق الادبي تغير) قال : انه لم يضع (كذا) هنا خطأ ، وانه أعاد وضعها ثانية وهو يشير بذلك الى مافي بعض كتب اللغة كاللسان وغيره من أنه لا يقال : هب أني فعلته بل يقال : هبني فعلت بالحاق الضمير المتصل • وقد عدهاالحريري من أوهام الخواص ، غير أن أئمة النحاة الاولين لم ينصوا عليها في كتبهم ، اذ لارواية لهم فيها ، وانما نقل المتأخرون عن قوم ذهبوا مذهبا وتركوامذهباآخر •

يقول الرافعي : (قال ابن بري : اذا جعل هبني بمعنى أحسبني فلا يمتنع

---

١ ــ المصدر السابق ٦ يونيو ١٩٢٣ .
٢ ــ نفس المصدر .

أن تقول: هب أني فعلت ، لأنها بمعنى أحسب تسد أن ومعمولاها مسد المفعولين .
قال : وقد سمع أيضا فلا مانع منه قياسا واستعمالا .

يقول الرافعي : (يريد بالسماع قول القائل لعمر رضي الله عنه في المسألة المشهورة عند الفقهاء بالحمارية أو الحجرية (هب أن أبانا كان حجرا)

ويقول : نحن أجرينا الكلام على هذا الوجه ، وأمضينا الجملة على ما حكاه الشيخ من قوله : ان الذوق الادبي تغير . فقلنا : وهب أنه تغير ، وذلك عندنا أفصح ، لأن العبارة فيه تؤذن بما لا تدل عليه اذا حذفت (أن)[1]

وقد علق الدكتور طه على هذه الكلمة فقال : (فقد أعجبنا من الاستاذ دفاعه عن نفسه ، حين أخذناه بقوله : (وهب أن الذوق تغير) ففي هذا الدفاع بحث ، ولكننا لا نريد أن ننازع الاستاذ ، ولا أن نطيل جداله في مسألة لفظية ، وانما نلفته ان الذين يؤثرون الاسلوب القديم ويتكلفونه ويزدرون الاساليب الحديثة ويمقتونها أحرياء الا يتكلفوا هذه الاساليب الا مجيدين متجنبين مواضع الشبه ، مؤثرين فصيح القول على ركيكه ، مفضلين ما ليس فيه شك على ما وقع فيه الخلاف . وأنا اعتقد ان الاستاذ حين كتب عبارته ، كان يعتقد انها صحيحة فصيحة لا غبار عليها ، ولا خلاف فيها . فلما نبهناه الى هذا رجع الى اللسان ، والى الحريري ، فجعل الله له مخرجا من حيث لم يحتسب . فليهنىء الاستاذ حسن حظه بما قال ابن بري ، وليحرص منذ الان ، اذا تكلف القديم على أن يكون قديما حقا ، لا قديما من قوارير)[2]

وكادت المعركة تنتقل من الجوهر الى القشور ، كهذه التي تتعلق بالالفاظ وأقوال اللغويين فيها ، لولا أن حسم أمر ذلك الدكتور طه .

---

١ ــ السياسة ١٣ يونيو ١٩٢٣ وانظر درة الغواص في أوهام الخواص ص ١٥٣ ش .
٢ ــ السياسة ٢٠ يونيو ١٩٢٣ .

والجدير بالملاحظة في هذه المناقشة اللغوية أن الدكتور لم يستعمل (أن) بعد (هب) الا مرة واحدة ، وقبل هذه المعركة بنحو ثلاث سنوات ، وذلك في عبارة له جاءت في المقدمة التي كتبها لآلام فرتر الذي ترجمه الزيات • وهي قوله (هب أن الكتاب قد ساء أثره)[1] فواضح ان التركيب يشابه قول الرافعي (هب أن الذوق تغير)

ألا يكون الدكتور قد تلقى بعض الانتقادات في هذا الوضع اللغوي ، فاستفاد منه ، وأفادنا نحن بعد ذلك ؟

والرسالة التي دار حولها هذا النقاش الطويـــل ، المتشعب الجوانب ، هي بدورهاطويلةومتشعبةالجوانبأيضا،فلقد اشتملتعلىمزايا كثيرة تذكرنا ببعض العصور القديمة التي كان فيها الادبـــاء والكتاب من رجال الصناعة اللفظيـــة يتبارون فيما بينهم ليبرزوا مواهبهم وخصائصهم الفنية •

ويبدو ان الرافعي استشعر في هذه السنة ١٩٢٣ شيئين : أحدهما يتعلق بصاحبتهمي التي قاطعته في هذه السنة ، فأراد أن يدغدغها برسالة مرحة مـــن هذا النوع الذي يخفف عن النفس وينقلها من جو الى جو غيره ، حيث الالفاظ الساحرة ، والتراكيب الطريفة الممتعة ، ليلفت نظرها اليه ، والى بيانه ، وقدرته على التلوين والابداع •

والشيء الثاني يتعلق بماضينا البعيد ، فقد رأى ان الـــدهر ضرب بيننـــا وبين تلك العصور القديمة التي كان فيها الكتاب والادباء من رجال الصناعة اللفظية يتبارون فيما بينهم ، ليحققوا شهرة وذكرا يسير به الركبـــان ، فأراد الرافعي أن يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون ، أن يلفت نظر صاحبته ويترضاها ، وأن يلفتفي نفس الوقت نظر أدباء عصره ، ويتحداهم ، ولكنالذي

---

١ ــ مقدمة آلام فرتر ص • هـ •

حدث أن قامت ضجة ضده وتدخل في المعركة الادبية من لا يحسن كتابة سطر واحـــد •

وقد رأينا تقدمة الرسالة عند حديثنا عن كتابه رسائل الاحزان[1] أمــا الرسالــة فنرى أن ننقلها برمتها ، لأنا لانستطيع أن نستغني عن جملــة منها وتلخيصها يفقدها قيمتها الادبية والفنية • وهذا مادعا الدكتور طه أن ينقلها كما هي بعد موت الرافعي الى الجزء الثالث من كتابه حديث الاربعاء ، وليربط بين ماجاء فيها وماقال عنهما ، وماكان رد الرافعي بعد ذلك •

يقول الرافعي في رسالته التي نعتقد أنها موجهة للآنسة[2] مي باسم المذكر •

(سيدي ـ كتبت اليك من أيام يشفع لها قربك من نفسي ، فلا أقول أنها بعيدة ، وتمر قديمة ، ولكن مافي هذه النفس منها يجعلها دائما جديدة ، وكأنها تجري بي إلى الفناء ، فهي تطول إلى غير حد ، وتأخذ معنى اليأس من كل أمس، فتنسخ بــه معنى الامل في كل غد ، وأرى الايام تعد بالارقام ، أما هي فقــد جعلتها أنت تعد بأنها لاتعد •

وانتظرت رد خطابي ، وأن تلقي إلي ورقة من شجرة عتابي ، فما زالــت تنقطع الساعة من الساعة ، ويلتقي اليوم باليوم ، ويذهب اللوم الى العتاب ، ويجيء العتاب الى اللوم وكتابك على ذلك ، كأنه الذهول : نوم اليقظة أو السهد : يقظة النوم •

فسبحان من علم آدم الاسماء كلها ، لينطق بها ، وعلمك وحدك السكوت والسلام عليك في أزلية جفائك • أما أنا فأقول : (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت)

ما هذا ياسيدي ؟ وليس خيط العمر في يدك ، ولا امس الضائع بمعوض

---

١ ـ انظر هذه الصفحات ص ١٤٢ .

٢ ـ انظر المصدر السابق .

على من غدك ولا أنا أقل من أنا ، ولا أنت أكثر من أنتِ ، ولا أعلمتنا من قبل أنك من القدر تحركت ، ومع القدر سكنت • أتراك (ماخفت المحاكم في قتلي ، جعلت تقتل بهجرك أيامي ؟ ولما عرفت أنك من سروري ، أريد أن أعرف أنك من آلامي ؟ أم أنت في نورك وظلامك تفعل مايفعل الليل والنهار ؟ أم أغراك بنا ذلك الذي قال : (خلقته من طين ، وخلقتني من نار) ؟ أم تحسبنا خلقنا بهذه الرقة لنعرف كيف يتحجر قلبك ويجمد ، وأنبتنا الله في هذا العمر لتجيء أنت ياصاحب (المزرعة) فتحصد ؟ أم خلقت في يد الله ارادة ماضية ، وخلقنا عليك اتكالا ، وجئنا على الطاعة شكلا واحدا ، وجئت أنت من يد الله أشكالا ؟

فان كان قلبك شيئا غير القلوب ، فما نحن شيئا غير الناس ، وان كنت هندسة وحدها في بناء الحب ، فما خلقت أيامنا في طولها وقصرها للقياس • وهب قلبك في هذه الهندسة (مربعا) ، أفلا يسعنا ضلع من أضلاعه ، أو (مدورا) أفلا يمسكنا (محيطه) في انخفاضه وارتفاعه ، وهبه (مثلثا) فاجعلنا منه بقية في (الزاوية) أو (مستطيلا) فدعنا نمتد معه ولو الى ناحية •

مابال كتابنا ـ حفظك الله ـ يمضي سؤالا فيبقى عندك بلا (جواب) ، ونبنيه على حركة القلب ، فتجعله أنت على السكون (السكون) ولا محل له من (الاعراب) • وما بالنا نقطع في انتظار مسافة من هجرك ، لو طار فيها البريد لانتهى بكتب الحسنات والسيئآت الى السماء ، ولو جلس خلال الارض لتقدم حتى لايبقى أمام ، وتأخر حتى لايبقى وراء ؟ فان كنت تضن أن توجه الينا من عرشك خطابا ، أو تنزل علينا من سمائك كتابا ، فقد أقفل باب النبوة من قبلنا، فما هذا الباب ؟ واحتجب الوحي من زمن بعيد ، فما هذا الحجاب ؟

لعلك تخشى اذا جاءني كتابك الكريم ، أن يزعم الناس أن جبريل أصبح في الارض من سعاة البريد ، وأن السماء عادت تشرع لهذه الارض ، فجاءتها بكتاب جديد • لعلك تخاف أن تكتب بقلمك الاعلى أن يتعجل على الناس قدر لا يحتمل التأجيل ؟ وان انتهى الي كتابك قامت قيامة أوربا على مصر ، لأن عندي

صفحة ناقصة من الاناجيل .

لقد هممت أن أعاقب القلم الذي كتبت به إليك ، فأحطم سنه ، وأجعله من ناحيتي في (خبر كان) ، حتى لايبقى من ناحيتك في خبر (إنه) . وقلت : كيف، ويحك سودت وجه صحيفتي بما هو في سواده مداد مع المداد ، وفي نفسه سواد غيرالسواد ؟ فقال : وهل أنا في هذه النغمة إلا (عود) . وهل كنت الا حركة ألفاظك من قيام وقعود ؟ وسل الدواة من أمرها ، والصحيفة من أعدها . وسل أنا ملك ، كيف كانت تضغط علي كأنها تسلم سلاما ، ولا تخط كلاما . وسل نفسك كيف كانت في حركتي تضطرب ، وقلبك كيف كان من كلمة يبتعد ، وفي كلمة يقترب .

فما ندري ياسيدي ، وقد أحببناك ، أنعدك في ذنوب الزمان ، أم في أعذاره؟ ونأخذك في الحب من وقائعه أم في الجفاء من أخباره ؟ فان أبيت أن تكون منا الا سماء من أرضها ، وأن نكون منك الا سنة من فرضها، وأبيت وأنت مفرد الحسن الا أن نعدك مع كبريائك مثنى بألف ونون ، والا أن تكون كما أردت أن تكون، فإذا خطبناك قلنا : ياأيها الصديقان ، وياغضبانان ، وراضيان ، وأنشدنا . ولو كان هما واحدا ولكنه هم وثان . وان أبيت الا مانأبى ، ولم ترض مع صدقنا في حبك الا كذبا ، قلنا بلغة اليأس منك :

لشد ماأصاب الزمان فينا وأخطأ ، فليصب بك أو فليخطىء . وكثيرا ماأعطانا الدهر وأخذ فلنكن فيما يأخذ أو فيما يعطي . وقلنا مع الذكر نسيان ، وماعسى أن ينقص الناس بانسان .

ومن ظن(بصرفنا) عن نفسه أنه كبير ، جعلناه من (نحونا) في باب التصغير ومثلنا ــ أصلحك الله ــ لايتكلم الا بفائدة ، ولا يسكت إلا لفائدة ، فإن أخطأنا معك في واحدة أصلحنا بواحدة والسلام[1] .

---

١ ــ جريدة السياسة ٣٠ مايو ١٩٢٣ ــ وانظر حديث الاربعاء ج٣ص٥ ومابعدها .

من خلال هذه الألفاظ الاصطلاحية التي انبثت في الرسالة ، نستشعر روح المرح الذي كان يغمر مشاعر الرافعي حين كتابتها . فكأنه استوحاها من بعض رسائل الجاحظ ، كرسالة التربيع والتدوير التي أنشأها في أحمد بن عبدالوهاب[1] وصوره تصويرا ساخرا . أو رسالته لأبراهيم بن المدبر التي عبر له فيها عن محبته[2] وشوقه إليه حتى قال فيها أحد معاصريه : أنها رسالة عاشق ، أو استوحاها منهما معا ، ثم نفث فيها من طبعه وموهبته وفنه ، فإذا هي تجمع بين ثلاث خصال : الهزل ، المحبة ، الجد .

ويخيل إلي أن الرافعي كان قبل أن يحبر هذه الرسالة يفكر في الآنسة مي ويتساءل كيف لم تجبه عن رسالته التي بعث بها إليها .

واشتد به القلق والضجر فلم يجد وسيلة أحسن من أن يملأ هذا الفراغ ، ويقضي على ذلك القلق والضجر . وأمام عينيه شيخه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ليقلده في رسائله . فلما تم له ذلك ورأى في رسالته فنا جديدا في الأدب ، بدا له أن لايبعث بها إلى مقبرة كما فعل بالرسالة الأولى التي ماتت وقبرت بدون أن يسمع عنها من حبيبته كلمة واحدة ، وإنما يبعث بها إلى حيث الحياة والخلود . ومن يدري لعل الأدباء حين يقرأونها سينحنون إجلالا وتعظيما لهذا العبقري المعاصر .

وهكذا بدا له بعد ذلك أن (يقذف بها في معسكر الثائرين من أهل التجديد)[3] ليسمع منهم بعد أن استبان لهم الأمر ، ومتى نال عليها الثناء المرجو

---

١ ـ انظر تحليل الرسالة في كتاب الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ٧١ ومابعدها .

٢ ـ انظر ترجمته في الجزء الاول من معجم ياقوت ص ٢٢٦ لتدرك منزلته الادبية والاجتماعية .

٣ ـ الادب العربي المعاصر ص ١٩٠ .

يكون حقق نصرا آخر على صاحبته مي .

ومعنى هذا أن الرسالة لم تكن في أول الأمر إلا للتسلية واللهو ، ولقتل الفراغ ، ثم تطورت الفكرة شيئا فشيئا إلى أن بعث بها لتنشر في الجريدة .

وما كاد القراء يقرؤونها حتى تألبوا على الرافعي بأقلامهم ، ومنهم بعض الكتاب الناشئين ، وساعدتهم الجريدة ، ففتحت لهم صدرها ، فإذا جمع كبيرمن الشباب الناشيء ــ وقد وجدوها فرصة سانحة ــ يتجهون إلى الرافعي ويكتبون عنه مقالا تلو المقال في أسلوب ساخر ، ولكنه مر كالعلقم بالنسبة للرافعي ، فنراهم يأخذون عليه تلك الكلمات الاصطلاحية التي ذكرها في رسالته ، مثل بالأضلاع والزوايا ، فيكتبون على ذلك النحو لا ليناقضوه كما كان يفعل شعراء النقائض قديما ، وإنما لينالوا منه ومن أسلوبه ، مثل قول أحدهم : (في لحظة الوداع أيها الأستاذ « تتماثل » قلوبنا في شدة اهتزاز « أوتارها » وتكاد « أضلاعنا » أن « تنفرج » عن بعضها ، ولكن « النقطة » الوحيدة المخففة عنا هو أن ذكراك خالدة في « زوايا » نفوسنا)[1] .

وقال كاتب آخر (جميلة رائعة كل هذه المظاهر في نفسها . أو جميلة رائعة، لأن الجمال والروعة في نفسك ، لابل جميلة رائعة لأنك تحب)[2] .

ماذا يقول هذان الكاتبان ؟ إننا لانرى ما ينشده القراء من الكتاب والنقاد، وكل ما في الأمر ، كلام أشبه بكلام العوام ، إن لم يكن هو نفسه . وهذا مادعا الرافعي إلى أن يثور ، ويوجه اللوم إلى الدكتور طه الذي أفسح للكاتبين الناشئين المجال في جريدة السياسة ، فكتبا ما كتبا من الكلام الركيك باسم التجديد .

قال الرافعي : (فقد أرسل الذوق الأدبي الجديد عقاربه علينا ، فدب منها

---

١ ــ السياسة ٦ يونيو ١٩٢٣ .
٥ ــ نفس المصدر .

اثنان إلى رسالة العتاب بالسخف والأذى • وما أدري إن كان هذان العقربان في رأي الشيخ من أهل الأدب والنقد أم هما ينتحلان الأدب انتحالا ويدعيان على قدر ما يزين لهما ، ويجريان في ذلك مجرى الكثير من أدباء الجزء الرابع من كتاب النحو ، ولا يعلمان أن بين الذيل والناصية استحالة كاستحالة الجهة في الموضعين)[1] •

ويؤخذ على الرافعي في هذه الرسالة أنه غضب غضبا شديدا عندما تألبت عليه أقلام الكتاب الناشئين الذين فتحت لهم السياسة صدرها باسم التجديد، ووجدوها سانحة لأن ينشئوا كلمات ساخرة ينالون بها من الرافعي ورسالته •

وهذه الرسالة كانت سببا في أن يدخل إلى الميدان الأدبي جمع غفير من الكتاب والأدباء ، ومنهم سلامة موسى ، فقد كتب مقالا في مجلة الهلال بعد رسالة العتاب بشهور ، تحدث فيه عن المذهب القديم والمذهب الجديد ، ونحل الرافعي زعامة المذهب القديم، وسلبه كما سلب الأقدمين العلم والمعرفة ، فقال : (إن عناية العرب كانت تتجه في الأكثر الأغلب إلى الصناعة دون الفن • وقد بلغ الحال في عهد الانحطاط أن تغلبت الصنعة على الشعر والنثر ، فصار الأول نظما والثاني سجعا •

ونحن الآن بقوة ما ورثناه عن العرب كثيرا ما نعنى بالصنعة ، ونهمل الفن، فنتعلق بالقشور ، ونترك اللب ، وأكثرنا عناية بذلك هم أهل القديم أمثال الرافعي •••

ويقول : وأكثرنا إهمالا للعلم في مصر الآن هم أهل المذهب القديم ، لأن العلوم تتعارض ومعتقدات العرب ، فهم لذلك يرفضونها • وتكون النتيجة أنهم يدرسون أحوال الدولة العباسية ، أو الدولة الأموية ، أو بدعة القرامطة، ولا يبحثون عن بدعة الاشتراكية الراهنة ، أو علة الفقر في مصر أو سوريا ، إذ أن

---

١ ـ السياسة ١٣ يونيو ١٩٢٣ •

الماضي يستغرق نظرهم ، فليس لهم من الوقت أو الرغبة ما يدفعهم إلى درس الحاضر أو المستقبل .

ثم يقول : إن مصطفى صادق الرافعي «أديب مصـري الجنسية ، سوري الدم والأصل ، وهو يدافع عن المذهب القـديم ، ويقول بأفضليـة الأساليب العربية القديمة على أساليبنا الراهنة ، وهو أيضا يجيد الصنعة أيما إجـادة ، ولكن لا يعنى بالفن، فاذا كتب اتسعت عباراته ، وانتظمت ألفاظه ، فأتى بالعجب، ولكن الحقيقة أي الجمال لا تشغله في نظمه ونثره)[1] .

وقول سلامة موسى : إن العلوم تتعارض ومعتقدات العرب ، أوحى الى الرافعي بهذا المعنى ، فقال : (وظاهر أنه يعني بالعرب المسلمين لا غـيرهم ، فإن الجاهلية أصبحت من أكاذيب التاريخ، وبليت معتقداتها بلى أدخلها في قبور أهلها)[2] .

والرأي الذي ذهب إليه الرافعي قريب من الصحة ، ويؤيده من ناحية ثانية أن أهل الجاهلية لم يكونوا ذوي علم كاليونان ، وهـذا ما اتفق عليه جميـع النقاد . وكل ما أنتجوه فهـو محصور في بعض القصائد الشعرية والحـكم والخطب .. ومعنى هذا أن اتهام هؤلاء العرب الأقدمين بالقصور والعجز ، في مضمار المعرفة ، ليس بشيء جديد على الباحث ، ومن ثم فـلا معنى لكلام سلامة موسى إلا أن يكون قد قصد المسلمين خاصة .

لقد أجاب الرافعي عن مذهب الأقدمين ، فقال في رده على سلامة موسى : (زعم الكاتب فيما كتب، أن ما نقول به من احتذاء العرب في أساليبهم ، والارتياض بكلامهم ، والحرص على لغتهم ، وأن يكون الكاتب في هذه اللغة حسن البيان، رشيق المعرض ، رائع الخلابة ، يتثبت في ألفاظه ، وينظر في أعطـاف كلامه ،

---

١ ــ الهلال يناير ١٩٢٤ .
٢ ــ الهلال فبراير ١٩٢٤ ــ تحت راية القران ص ٩ .

ويفتن في أساليبه • كل هذا وما إليه مذهب قديم ، ووطنية أدبية ترجع العلة فيها إلى ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والأدب العربي)[1] •

ثم يفسر كلامه بقوله : (فالمذهب القديم إذن ، هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب في أصولها وفروعها ، وأن تكون هذه الأسفار القديمة التي تحويها ، لا تزال حية تنزل من كل زمن منزلة أمة العرب الفصحاء ، وأن يكون الدين العربي ، لا يزال هو كأنما نزل به الوحي أمس ، لا يفتننا فيه علم ولا رأي ، وأن يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء ، لا منفعة فيهما معا الا بقيامهما معا) •

ثم ينتقل إلى المذهب الجديد فيتساءل عنه كمن يجهل كنهه • أيكون هو المقابل للمذهب القديم ؟ أم هو أدق من أن يطلع عليه •

وبعد ذلك يتوجه إلى دعاة التجديد ليخبرهم بتطور اللغة والأدب عبر العصور ، وأن تجديدات حدثت في أكثر من حقبة ، ولم يسمع بشيء يقال عنه أنه مذهب جديد ، وأخيرا يعزي هذا الادعاء الى الضعف الذي أصيب به دعاة هذا المذهب الجديد ، فهم لا يقدرون على الأساليب البنانية الرصينة ، ولذلك عمدوا الى مثل هذا القول ليجدوا لأنفسهم مبررا ومجالا فسيحا للحديث[2] •

وهنا يتدخل الدكتور طه ، لكن في هذه المرة حكما لا خصما ، هذا ظاهر اللفظ ، أما باطنه فهو ما سنعلمه •

قال طه : (•••• الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة الهلال، وإذا كان لنا ألا نسرف في استقصاء التاريخ ، وألا نذهب بالقارىء إلى ما بعد به العهد ، فقد يكون لنا أن نذكر القارىء بأن مصدر هذه الخصومة في هذه الأيام الأخيرة إنما هي صحيفة الأدب في السياسة •

---

١ ــ الهلال فبراير ١٩٢٤ ــ تحت راية القرآن .
٧ ــ الهلال فبراير ١٩٢٤ ــ تحت راية القران ص ٩ ــ ١٠ .

ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها إلى السياسة تحت عنوان أسلوب في العتب ، وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء ، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب، وكانت حول هذا الانكار خصومة طويلة انتهت إلى الشتم والتنابذ .

ثم يقول : يخطىء من سأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الخصومة في الأدب العربي كما استمرت في الآداب الأخرى ، وكما استمرت في الأدب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي أنتجتها في كل زمان وكل مكان ، فينتصر جديد على قديم ، ثم يصبح هذا الجديد قديما ، وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ، ينتصر متى آن له الانتصار ، وسيظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة .

ثم يقول ليحقق هذه النتيجة : هذه الخصومة إذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن نافعة . فليس الأدب العربي بدعاً من الآداب ، وليس الأدب العصري بدعا من الآداب العربية المختلفة)[1] .

ثم ينتقل الدكتور إلى أهل المذهب القديم والجديد فيتحدث عنهم وكأنه لا يتحمس لأحد فيقول : (فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعي ... ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيما يختصمون ؟ وأن نطلب اليهم في رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا) .

وإلى الآن لم يزل الدكتور طه في منزلة الحكم ، ولكنه لم يلبث أن كشف عن ذات نفسه فقال : (فقد يظهر لنا الآن أن هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء

---

١ ــ الهلال مارس ١٩٢٤ ــ حديث الاربعاء ج ٣ ص ٢٣ وما بعدها .

لم يستطيعوا بعد أن يحددوها . وآية ذلك أنك تقرأ مقال الاستاذ الرافعي فتجده يسأل ما المذهب الجديد وما المذهب القديم ؟ ويحاول ان يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق ، ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع ، بينة الحدود ، لما كلف نفسه هذا السؤال ، ولما احتاج أن يكتب كل الفصل الطويل)[1] .

هل صحيح أن الرافعي تساءل لأنه يجهل خصائص المذهبين ؟ أم أنه تساءل ليضع المذهب الجديد في كفة ، والمذهب القديم في كفة مقابلة ، ثم يوازن بعد ذلك بين الكفتين ، أيهما أرجح ؟

إن الرافعي أثبت قبل هذا التساؤل خصائص المذهب القديم ، ومزاياه اللغوية والبيانية والمعنوية ، وتساءل بعد ذلك لا عن جهل كما يوهمنا كلام الدكتور طه، وإنما ليحدد خصائص كل مذهب على حدة . وآية ذلك قوله : أنأخذ بالمقابلة فنقول : (إذا كان الأبيض هـو القديم ، فالأسود هـو الجديد ، وإذا كانت الفصاحة ، وإذا كان الحرص على ميراث التاريخ... كل هذا قديم ، فان الركاكة وإهمال القومية التاريخية ، والتحلل من قيود الواجبات والانسلاخ من الجلد لأنها ليست أوربية ، كل هذا جديد ، لأن كل ذلك قديم ، أم هناك حقيقة ثابتة محدودة خفيت على عظمها وخطرها في هذه اللغة خفاء أمريكا في هول المحيط، حتى بعث الله لها في أيامنا هذه من يرميها ببصره فكشفها وسماها ، وكان منها المذهب الجديد وكانت هي إياه)[2] .

وقد تبين لنا أن ليس في سؤال الرافعي أي غموض أو ابهام ، إنما غرضه من السؤال أن يضعف من المذهب الجديد ودعاته ، وأن يرفع من قيمة المذهب القديم وأهله ، وهذا واضح من كلامه لا يحتاج إلى زيادة إيضاح . وما ذهب إليه الدكتور طه من ان المذهبين لا يزالان مبهمين ، لأن الرافعي تساءل في شأنهما،

---

١ ـ الهلال مارس ١٩٢٤ ـ حديث الاربعاء ج ٣ ص ٢٣ وما بعدها .
٢ ـ الهلال فبراير ١٩٢٤ ـ تحت راية القرآن ص ١٠

فقول بعيد عن الحقيقة • وآية ذلك ما نقرؤه للدكتور طه بعد ذلك حول تعريف للرافعي في الذوق الأدبي •

عرف الرافعي الذوق الأدبي بهذا التعريف فقال : (وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد هو الذوق والفهم جميعا)[1] •

يقول الدكتور طه في انتقاد هذا التعريف متظاهرا بأنه غير منتصر لأحد : (ويدور المختصمون جميعا حول الذوق دون أن يحددوا هذا الذوق ، أليس من حقنا أن نسألهم عن مذهب الذوق ما هو ؟ وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل: إن الاستاذ الرافعي قد أجاب عن هذا السؤال ، فنحن نعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه ، وأشد غموضا من أن نظهر عليه • وانظر إلى ما يقول في الذوق)•

وبعد أن يذكر تعريف الرافعي للذوق يعلق عليه بهذه العبارة (نعترف بأنا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعترف بأنا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم » •

ويستدل الدكتور طه على نظريته بقوله : (فإذا كان الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعا ؟ ذلك أن الجملة الاولى صريحة في أن الذوق هو الفهم ، وإذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شيء واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة) •

وهنا يصل الدكتور طه إلى النتيجة التي قررها من قبل وهي عدم فهمه لتعريف الرافعي ، فيقول (نعترف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ، ولم نذقها ، وإذن فنحن لا نستطيع أن ننتقدها ولا أن نحكم فيها ، لأن الذوق هو الفهم ، والفهم

---

١ ـ الهلال مارس ١٩٢٤ ـ حديث الاربعاء ج ٣ص٢٥ وانظر تحت راية القرآن ص ١١ .

هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معا ، وتستطيع أن تدور في ذلك ما شاء الله أن تدور)[1] .

شعر الرافعي بعد هذا النقد بأنه إزاء عملاق كبير في النقد والسخرية ، فهذا تعريفه يدور به الدكتور طه كما دار الجاحظ بصاحبه أحمد بن عبدالوهاب في رسالة التربيع والتدوير[2] . ووازن بين تعريفه وما قيل فيه من نقد ، فأدرك أن العبارة ينقصها حرف صغير هو « عن »[3] أولا لا ينقصها هذا الحرف إذا حملت على المجاز اللغوي .

وعلى النظرية الثانية رأى أن يدافع عن نفسه وعن تعريفه بما يملك من السلاح القوي في اللغة والبيان ، فقال : (زعم الأستاذ أنه لايفهم من كلامي هذه الجملة «وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه، وأن الحكم...» ثم دار بهذه الكلمات دورة العاصفة ، وجعلها مسألة كمسألة الدور والتسلسل المشهورة . فتراه يقول : ذوق هو الفهم ، وفهم هو الذوق ، وفهم ليس بالذوق، وذوق ليس بالفهم ، وهلم صاعدا ونازلا ...

إلى أن يقول : ومثل الأستاذ طه حسين لا يخفى عليه أن من يقول : إن الذوق في شيء إنما هو فهمه ، أو إنما هو عن فهمه أو إنما ينشأ عن فهمه ، فالعبارة في باب المجاز واحدة لا تختلف)[4] .

والحق أن الدكتور طه دار حول عبارة الرافعي في تعريف الذوق الأدبي مرتين بل ثلاثا ، وفي كل مرة يتناولها بطريقة غير الأخرى حسب ما تمليه عليه المناسبة ، من ذلك قوله (نعتقد أن الاستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم ،

---

١ ــ الهلال مارس ١٩٢٤ ــ حديث الاربعاء ج ٣ ص ٢٥ .
٢ ــ انظر الجاحظ سلسلة نوابغ الفكر ص ٢٦ ومابعدها وانظر الفن ومذاهبه ص ٧١ .
٣ ــ انظر تحت راية القرآن ص ١١ .
٤ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٤٥٢

ولعل إسرافه في هذا الحكم إن صحت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد • وهو إنما أخطأ الفهم لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق لأنه أخطأ الفهم • وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم أو حول الذوق الذي ليس هو الفهم ، والفهم الذي ليس هو الفهم ، حتى تتعبا فتسقطا معا ، وقد بلغ منكما الكلال والاعياء • ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال ، فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويذوق • وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحيانا فتخطئه الاصابة في الحكم)[1] •

إن ظاهرة التهكم واضحة في عبارات الدكتور طه ، لذا لا يمكن أن ينظر إليها على أنها مقياس صحيح أو أنها ناتجة عن صدق وإخلاص •

لقد استدل الدكتور طه على صحة نظريته بالموسيقى ، فقال : إننا نذوقها ولا نفهمها باستثناء الموسيقيين الأخصائيين • فرد عليه الرافعي بالنظرية نفسها فقال : (وأنا أفسر كلامي بهذا المثال نفسه أقتصر عليه ولا أعدوه • نأتي الآن بأستاذ قد برع في الموسيقى ، وخالطت أعصابه ولحمه ودمه ، وندفع اليه قطعة ملحنة ونقول له : اسمع وافهم واحكم وانتقد • يسمعها مرة بعقله أو لعقله ، يتبين ما يكون فيها صوابا وما يكون خطأ ، ثم يعلو عن الصواب من الاجادة والاتقان ، وما ينحط عن الخطإ من الاساءة والتخليط • فهذا هو الفهم • ويسمعها مرة ثانية بحسه أو لحسه فيرى أثر ما فهم ، ويديرها في ذوقه ليعرف كيف موقعها من الغرض الذي وضعت له ، فإنها لم توضع لتكون أصواتا بل لتخلق من الأصوات شيئا • فهذا هو الذوق ، وهو كما تراه بعد الفهم وناشيء عنه •

ثم إن أستاذ الموسيقى وقد سمع القطعة مرتين أو مرة كمرتين إن بلغ أن يكون له في كل أذن واحدة أذنان ، يستفتي ذوقه الفني ، ويحكم للقطعة أم عليها ، فهذا هو أثر الذوق •

---

١ ـ الهلال مارس ١٩٢٤ ـ حديث الاربعاء ج٣ص٢٦ •

الآن قد حكم الاستاذ وانتقد وجزم برأيه ، فندب له ، فلان يقول : أخطأت وأسأت ، وجهلت وغفلت ، أو تعصبت وحططت في هوى صاحب اللحن ، فمن أين جاء هذا الخلاف ؟ وكيف وقع هذا القول ؟ بل كيف ساغ للثاني أن يجهل الأول ويرى غير رأيه، ويحكم غيرحكمه إلا إذا كان قد فهم غير فهمه ، فأنشأ له الفهم ذوقا وأحدث له الذوق حكما ، وجاءت منهذه المقدمات تلك النتيجة التي نسميها النقد ، وما هي في الحقيقة إلا الذوق والفهم جميعا • فالذين يذوقون الموسيقى ويطربونلها ولا يفهمونهافقد فهموها على مقدار ما استقر فيﻧﻔﻮﺳﻬﻢ من أساليب النظريات ، وما فيهم من المطاوعة لهذه العاطفة • أو لا تراهم يقولون في أمثال هؤلاء : إن لهم آذانا موسيقية ؟ فهذه الأذن هي الفهم بعينه لأنها حاسة اجتمعت من مران طويل ، وقد تقوم في بعض الناس على جهله بالموسيقى مقام علم برأسه)[1] •

بمثل هذه الأدلة يجادل أحدهما الآخر ويناقشه ، حتى أن الباحث ليقف وقفة طويلة إزاء كل دليل ليستبين الحقيقة ، وقد ينساق مع أحدهما خطوة ، فإذا بالآخر يرده إلى الوراء خطوتين •

وزاد في تعقيد الأمر ما كان يلقاه أهل التجديد من التأييد والمناصرة ، بينما الرافعي وقف وحده فيالميدان ولا نكاد نجد له نصيراً إلا شكيبأرسلان ، فقد ناصره في عدة مواقف ، وكان يؤمن ببلاغة الرافعي واتجاهه الأدبي والفكري •

كتب الرافعي مرة مقالا يعبر فيه عن شعوره إزاء ما كتبته صحيفة عربية في أمريكا عنه وعن بلاغته وفصاحته ، جاء فيها : إن الرافعي لو ترك « الجملة القرآنية » والحديث الشريف ونزع الى غيرهما لكان ذلك أجدى عليه ولملأ الدهر ••• ولأصبح ذا مذهب في الأدب يعلو على أهل التجديد[2] •

---

١ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٤٥٣ .
٢ ـ تحت راية القرآن ص ٢٤ .

قال الرافعي (وقفت طويلا عند قولها : « الجملة القرآنية » فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من قبل ، حتى لكأنها الميكروسكوب وما يجهر به من بعض الجراثيم مما يكون خفيا فيستعلن ، ودقيقا فيستعظم ، وما يكون كأنه لاشيء ومع ذلك لا تعرف العلل الكبرى إلا به) .

يقول الرافعي : (وإذا أنا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها ، وسموها وقيامها في تربية الملكة ، وإرهاف المنطق وصقل الذوق ... أفتراني أتبع أسلوب الترجمة في الجملة الأنجليزية ، وأسف إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة ... وأكتب كتابة تميت أجدادي في الاسلام ميتة جديدة ، فتنقلب كلماتي على تاريخها ، كالدود يخرج من الميت ولا يأكل إلا الميت) .

ثم ينتقل إلى ذكر مثال شبيه بهذا فيقول : (كنت أعرف صاحبنا الكاتب البليغ المدقق الشيخ إبراهيم اليازجي ، لما أرادوه على تصحيح ترجمة الأناجيل، رغب إليهم أن يصرف قلمه في الترجمة فينزلها منزلتها من اللسان ، ويتخير ألفاظهما ، ويزيل عجمتها ، ويخلصها من فساد التركيب وسوء التأليف ، ويفرغ عليها جزالة ، ويجعل لها حلاوة ، فأبوا عليه كل ذلك ، ومنعوه منه ، وأقاموه فيها بسنزلة من يعرب آخر الكلمة ، فعليه أن يترك الكلمة إلا آخرها) .

ويقول : (كنت أعرف ذلك وما فطنت يوما إلى سببه حتى كانت قولة «الجملة القرآنية » كالمنبهة عليه ...)[1] .

وقد أجابه أمير البيان شكيب أرسلان على صفحة مجلة الزهراء بمقال عنوانه (ما وراء الأكمة) ، يقول فيه : (حضرة الأستاذ العبقري ، نابغة الأدب ، وحجة العرب ، السيد مصطفى صادق الرافعي نفع الله به .

أراك قد استغربت قول إحدى الجرائد العربية الصادرة في أمريكا ، أنك

---

١ ــ مجلة الزهراء ١٣٤٣ هـ ــ تحت راية القرآن ص ٢٤ .

لو تركت الجملة القرآنية والحديث الشريف لكنت الآن المرجع الذي لا ينازع، ولَبَذَّ مذهبك في البلاغة المذاهب كلها ، من قديم وحديث .

ويحق لك ولغيرك ـــ وأيم الله ـــ أن يستغربوا هذا التمني الدال على مرض روحي عند بعض الناس ... ولعمري إن الأمر كما قال ذلك الذي سأله سائل: هل يقال : « فأذاقه الله لباس الجوع »[1] فأجابه ويحك ؟ هبك تتهم محمداً بأنه لم يكن نبيا أتتهمه بأنه لم يكن عربيا ؟..

نعم إن وراء الأكمة ما وراءها ، إن هناك دسائس خفية ، تظهر بعض أطرافها في هذه الجملة ... إن هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الاسلامية ...)

ويستمر في الحديث عما يراد بالبلاغة العربية إلى أن يتطرق إلى أهل التجديد فيرى فيهم العقم وقلة المعرفة ، ولكنه لا يذكر أحدا باسمه فيقول : (فليس صواب الشيء وعدمه هو الحاكم عند هذه الفئة ، بل هو مصدر الشيء بدون نظر إلى أي اعتبار آخر ، فإن علموا كونه آتيا من طريق الدين ، أو ملائما لحكم وارد في الشرع ، استمرأوا مذاقه قبل أن يذوقوه . وليس هذا منحصرا في الترك وفي الفئة التورانية منهم ، بل عندنا نحن من هذا النخل ، فسيل في مصر والشام وغيرهما .

وياليتك ترى هذه الفرقة على شيء من التحقيق بالجديد فيما يلزم فيه الأخذ بالجديد ، من علم نافع أو فن مفيد ، أو صناعة دارة ، فإن العلم لا يجب أن يكون فيه قديم وجديد ، بل هو أصل يتفرع منه فروع)[1] .

وفي هذه الآونة شعر الرافعي بشخصيته وقدرته على مجابهة القوم ، فكان

---

١ ـــ سورة النحل الآية ١١٢ .
٢ ـــ مجلة الزهراء شعبان ١٣٤٣ هـ ـــ تحت راية القرآن ص ٣٨ .

يستند إلى الحجج ، كأن ينقل أمثلة عما قيل في آداب الآخرين ليحتج بها على آرائه. من ذلك أنه نقل كلمة في حق الكاتب الفرنسي أناتول فرانس الذي مات في ذلك العهد ، فقال الرافعي : إن قومه يعدونه كاتب العصر مع أنه يمثل المدرسة الاتباعية .

والمدرسة الاتباعية هي التي تمثل عصر البلاغة في فرنسا . قال الرافعي : (ولما هلك هذا الكاتب ، أراد أحد النقاد أن يوجز في وصفه بالبلاغة إيجازا معجزا ، فقال : إنه أعظم كتاب القرن الثامن عشر) .

ثم يقول : (تأمل كيف يقع هذا في أوربا ، ثم نحن إذا جئنا بمثل هذا أو نحو هذا ، قالوا : قديم وجديد ، وطبع وتكلف ، فهل ترى في الحماقة أحمق ممن يبخس شيئه لأنه شيئه ، حتى إذا رأى مثله لغيره قال : هذا هذا) .

ثم يقول مرة أخرى عن أناتول فرانس : (ولقد ذكروا أن أناتول فرانس كان من التوفر على التنقيح والتَّلَوّم على السبك ، والحوك في كتابته وأسلوبه، بحيث يكتب الجملة الواحدة مرة إلى مرتين إلى مرار ، إلى سبع مرات أو ثمان، ينقح في كل ذلك ويهذب ويتعمل . فهذا عندهم طلق مباح ، ولكن بعضه عندنا ، وإن جاء بالمعجزات ، يكفي أن تنقلب المعجزة إلى حيلة أو شعوذة)[1] .

وينتهي إلى السخرية بأهل التجديد فيقول : (أظن أن اللغة العربية لن ترتفع منزلتها عند هؤلاء الحمقى المجددين إلا إذا أصبحت لغة فرنسا وأنجلترا... ويومئذ يكون الجاحظ جاحظا بقوة الأسطول ، وعبد الحميد بقوة الجيش ، وابن المقفع بسلاح الطيران ، إذ هم وأمثالهم أسلحة التاريخ التي يقاتل بها مجد الأمة ليغلب وينتصر . هذا بعينه هو دليلنا على أن هؤلاء الخمسة أو الستة المجددين ، هم خمسة أو ستة مجانين في أمراض العقل الاجتماعي)[2] .

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ٣٦ .
٢ ـ تحت راية القرآن ص ٣٦ .

وقد وجد الرافعي في شكيب أرسلان نعم النصير في تأييد المذهب القديم ، وكان شكيب واسع الثقافة ، يحسن اللغة الفرنسية ، ويتقن حكمها وأمثالها السائرة ، فاستفاد من كل ذلك الشيء الكثير ، وأثبت بعضه في حججه التي كان يستدل بها على القوم مثل قوله : (إن أدباء أوربا في هـذا العصر يستهجنون اختراع إنشاء جديد ، وأسلوب غير مألـوف ، ويحسبونه مخالفا للذوق ، ويتمثلون بمعان غابرة لم يبق لها أثر . انظر هل بقي أثر القوس والنشاب في أوربا ؟ وهل يوجد أعرق في القدمة من القوس والنشاب . والى هذا اليوم يقولون : Il fait flèche de tout bois ترجمتها « يأخذ نشابا من كل خشب » ومرادهم بها أنه يستعين بأي قوة حصلت في يده .

أفتراهم وقد أرادوا مراعاة الأحوال العصرية يقولون : يعمل بندقية مـن كل حديد ؟ أو يصنع قنبلة من كل ديناميت ؟ كلا لا يقولون ذلك ، ولا يرون الخلط بين العلوم والآداب ، ولا يجدون التجدد في الفنون والصناعات داعيا إلى تغير أسلوب الكتابة ، بحجة أن هذه التعابير كانت يوم لم يكن تلغراف ، ولا تليفون ، ولا أشعة « رونتجن »[1] .

أفرأيت كاتبا أوربيا يقول : حلقت بمنطاد الفكر في سماء الموضوع ؟ كلا ، ولا ما أشبه ذلك)[2] .

وهكذا وجد الرافعي في أمير البيان نصيرا كبيرا يشد من عضده في الملمات ، ويرفع من معنوياته في مثل هذه المواقف الحرجة التي أحيط بها .

إذا كان الدكتور طه وسلامة موسى وغيرهما من أهل التجديد يحسنون إلى جانب لغتهم الأصلية لغة أوربية ، يستندون إليها ، ويعززون بها أفكارهم

---

١ ـ رونتجن ١٨٤٥ ـ ١٩٢٣ ـ عالم ألماني اكتشف الاشعة المجهولة التي بواسطتها تصور الاشياء من وراء الاجسام الكثيفة .

٢ ـ مجلة الزهراء شعبان ١٣٤٣ هـ ـ تحت راية القرآن ص ٣٥ .

ونظرياتهم ، فهاهو ذا أمير البيان شكيب أرسلان يحسن مثلهم لسان القوم ، وربما فاقهم فيه لأنه يحسن أكثر من لغة من هذه اللغات الغربية ، ثم هو يفوقهم جميعا في اللغة العربية ، ويكفي أنه لقب في ذلك العصر بأمير البيان دون سواهم . ثم إنه لم يكن من المجددين ، وإنما من أنصار القديم ، يقف في صف الرافعي ، ويستدل على فساد رأي أهل التجديد بالأمثلة القديمة التي لاتزال سائرة في هذا العصر ، مع أنها قديمة قدم القوس والنشاب .

وإزاء هذا النصر الذي حققه الرافعي في ميدان النقد ، وما وجده من التشجيع من صاحبه شكيب ، شعر بأنه أصبح مسؤولا عن وجهة نظره في اللغة أو ما يسمى بالمذهب القديم عند القوم . شعر بهذا الواجب ، وأدرك قيمته ووزنه ، فقد أصبح وحده الهدف لنقد النقاد من أهل التجديد ، أو وحده الزعيم للمذهب القديم . فعليه أن يقف في وجوه المعترضين واحدا واحدا .

وقبل هذه الفترة ، لم يكن الرافعي ينادي بالزعامة لنفسه في المذهب القديم ، إنما كان يكتب منمقا مزخرفا ، لأنه يرى في جمال الأسلوب ، ورونق العبارة ، الدلالة على قدرة الكاتب وكفاءته . فلما شاع أمره ، وبرزت طريقته في الكتابة ، وراسله كبار الكتاب ورؤساء الصحف ، وبعض رجال السياسة ورجال الدين ، تحمس أكثر من ذي قبل ، وأخذ في الهجوم والنقد ، ويصيح بملء فيه في وجوه القوم ، وقد كان ذا صوت خافت لا يملك إلا أن يقاوم ، ويقاوم في ضعف كما رأينا دفاعه عن نفسه في المسألة الموسيقية التي دارت بينه وبين الدكتور طه حسين[1] .

وكان الرافعي غاية في الذكاء ، فقد رأى سلاح القوم ، فتبين فيه أمرين مختلفين ، أو متناقضين ، احدهما قوي ، وهو ما يتعلق بالأفكار والمعاني ، وثانيهما ضعيف ، وهو ما يتعلق باللغة والبيان .

---

١ ــ انظر المناقشة في الصفحات السابقة .

إن هؤلاء المجددين يمتازون بخصلتين هامتين : الأولى تبدو في قوة التفكير، والثانية في غزارة المعاني . ولكنهم بصفة عامة كانوا ضعافا في اللغة العربية، باستثناء الدكتور طه ، فقد كان قويا في اللغة العربية ، إلا أنه كان من ذوي الألفاظ لا المعاني ، فنراه يعمد إلى فكرة واحدة ويدور معها كثيرا ، وهذا ما جعل الرافعي يقول له : (لم تكرر الكلام دائما في غير حاجة إلى التكرار ، مع أن أصحابك يرون هذا من أقبح العيوب ، ويقولون : إن المذهب الجديد قائم على الأسلوب التلغرافي . فإذا كتبت فقدر أنك سترسل المقالة بالتلغراف وتدفع أجرة إرسالها .

لقد كنت أفلست من زمن بعيد يادكتور لو حققوا معك هذه القاعدة وأرسلوا مقالاتك بالتلغراف ، ولكن لم تلتزم هذه الطريقة ، حتى أصبح كالشعوذة المطبعية أن تكتب، ستة أنهر وهي ثلاثة بعد حذف المكرر والحشو)[1] .

وبعد هذ يستدل على ضعفك أسلوب الدكتور طه ، وإسرافه في التكرار بقوله (كنت أقرأ مقالة افتتاحية في السياسة ، ومعي أديب ، فدفعتها إليه وقلت: لمن ترى هذه المقالة ؟ فنظر فلم يجد عليها توقيعا ـ فقلت له : لا يجب أن يكون التوقيع في ذيل المقالة ، بل قد يكون في أثنائها . قال : فأين هو ؟ قلت اسمع : هذا هو التوقيع . (فعلوا هذا ، نعم فعلوه ، فعلوه ، أقسم لقد فعلوه ، فعلوه ..)[2] .

إني لم أعثر في المقالات الافتتاحية في جريدة السياسة على هذه الكلمات التي ذكرها الرافعي . على أني أعترف بأن للدكتور طه ما يشبهها مثل قصة المعلمين ، ولكني استسيغها رغم تكرار الألفاظ فيها .

قال الدكتور طه : (نعم قصة المعلمين ، فللمعلمين قصة ، وللمعلمين قضية .

---

١ ـ تحت راية القرآن ص ١٠٨ .
٢ ـ السياسة ٢٧ يونيه ١٩٢٣ ـ وانظر تحت راية القرآن ص ٩٩ .

وكنا نحب ألا تكون للمعلمين قصة ، وألا تكون للمعلمين قضية ، لأننا نربأ بمقام المعلمين عن أن تكون لهم قصة أو قضية ، ولكن أراد الله ولا مرد لما أراد الله ، أن يتورط المعلمون في قصة ، وأن يتورط المعلمون في قضية . ليست قضيتهم أمام المحاكم ، وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تصل إلى المحاكم ، وليست قصتهم مفزعة مهلعة ، وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تكون مفزعة مهلعة) .

قال الرافعي في تعليقه على هذا التكرار (فهذه عشرة أسطر صغيرة دار المعلمون فيها عدد أيام الحسوم ، وحكيت القصة ست مرات وكان للقضية ست جلسات ..)[1] .

أدرك الرافعي مزايا القوم في المعاني والتفكير ، وأدرك ضعفهم في اللغة أو في أساليبها ، فراح يصوب سهامه إلى خصومه في المنافذ التي يرى أنها قاتلة أو على الأقل جارحة . وفي نفس الوقت أخذ يضيف إلى ثروته اللغوية ، وموهبته الفنية ، مزايا جديدة يراها صالحة لأن يجابه بها القوم ، ويخاصمهم أو يجادلهم بها ، وهذه المزايا هي التفكير من ناحية ، وتوضيح المعاني بقدر الامكان من ناحية ثانية . وما هي إلا مقالات قليلة من هذا النوع ، وعلى هذا المنوال ، حتى شعر المجددون بأنهم إزاء جبار عنيد في الأدب لا يستطيعونه ، ولا يقدرون عليه ، فخفتت أصواتهم قليلا بعد أن كانت تدوي دويا عظيما ، يسمع صداها من بعيد .

وهكذا أصبح الرافعي يخاصم المجددين بلغة يفهمونها ، ويفهمها أهل القديم أيضا ، لأنها تجمع بين القوة والوضوح .

والمتتبع لتطور الفكر والأسلوب عند الرافعي يلاحظ هذه الظاهرة ، ظاهرة الجمع بين جزالة اللفظ ووضوح المعاني ، ويلاحظ أيضا مسألة أخرى لا تقل

---

١ ـ المصدران السابقان .

أهمية عن اللغة والأسلوب ، هي تحمسه في مهاجمة القوم ، فقد كان يتربص بهم الدوائر ، ويتتبع كل ما يكتبون أو ما ينشرون من كتب ، سواء عن طريق القراءة أو عن طريق السمع • فإذا قرأ موضوعا اشتم منه رائحة الانحراف عن الجادة المعروفة في الدين ، كتب هو نفسه مقالا بنفس العنوان أو ما يشبهه ، وعرض بصاحبه دون أن يذكر اسمه •

كتب الدكتور زكي مبارك كلمة بعنوان (عند ما يوافيني الموت) ذهب فيها مذهب الشجعان الذين لا يخشون الموت ولا يخشون ما بعد الموت قال : (هذا موضوع مزعج ولكنه طريف ، والموت نفسه طريف ، لأننا لا نراه إلا مرة واحدة ، نحن الشجعان • أما الجبناء فيرونه في كل يوم مرات •••

وما بعد الموت أهون هو أيضا مما تظنون ، لأن الله أعظم من أن ينصب الموازين لمن ترون من المخلوقات • ومن أنتم يابني آدم حتى ينصب لكم ميزان؟ من أنتم وقد عجزتم عن إقامة العدل ، فشهدتم على أنفسكم بالضياع ؟ من أنتم حتى تفتح لكم أبواب الجنة ، أو أبواب الجحيم ؟ لقد عرفناكم وعتبنا على الله يوم جعلنا منكم ، وليته يتفضل فيذهبكم ويأتي بخلق جديد ••••

لن يذهب من الوجود غير هذا الهيكل الذي يذرع الارض من سنتريس الى باريس • أما زكي مبارك الكاتب والشاعر فلن يذهب أبدا ، ستبقى أفكاري لتعين الشيطان على إضلال الناس •

سأعيش ألوفا من السنين ، وسأغزو خلق الله بغير رفق ، فأثير فيهم معاني الشر والاثم والطغيان • ففي رسائلي وأشعاري ومؤلفاتي أقباس من الضلال ، هي وحدها خليقة بأن تغمس هذا العالم في أوحال الرجس ، وتلقيه فوق أشواك الارتياب •

فإن ارتاح إنسان يوم الموت ، لأنه كان رجل خير ، فسأرتاح لأنني كنت رجل شر • وما يسرني أن أكون ملكا ، لأن الملائكة لطاف ظراف ، وإنما يسرني

أن أكون شيطانا ، لأن للشياطين وجوها بشعة ترتعد منها الفرائص وتنخلع القلوب •

ومن يدريكم ؟ لعلي أجد وظيفة في جهنم بعد أن أموت • أتظنون أن الأمر استقر في دار العذاب ؟ سأجعل هذا من همي ، فأبحث عن وظيفة عند الرجل الشهم الذي اسمه مالك ، ولن أفكر في صحبة الرجل الظريف الذي اسمه رضوان •

فإن وصلت إلى وظيفة في جهنم ، فسترون وستعلمون ، سترون يابني آدم كيف أكبكم على وجوهكم في النار ، وكيف أعاقب اللصوص في عالم الشعر والنثر والتأليف)[1] •

ومع أن هذه المقالة التي كتبها الدكتور زكي مبارك ساخرة مرحة ، أنشأها ليملأ بها الفراغ ، ويسلي بها القراء ، فإن الرافعي بعد أن قرأها بمدة قصيرة كتب مقالة بعنوان (بعد الموت ماذا أريد أن يقال عني) ذهب فيها مذهبا دينيا صرفا •

وبمقارنة المقالتين نشعر بأن الرافعي لم يكتب كلمته إلا ليناقض الدكتور زكي مبارك فيما ذهب إليه ، وإن لم يكن صرح باسمه •

والذي يلاحظ في موقف الرافعي إزاء خصومه ، عدم اتباعه منهجا معينا في مقاومتهم ، إنما كان يسلك معهم سبلا مختلفة يمكن حصرها في ثلاث ، لأن الخصوم أنواع ثلاثة ، نوع منهم عدو لنفسه ، لأنه يتحدث بأشياء وعن أشياء لا يضر بها إلا نفسه ، ونوع عدو للغة أو لمبادئها السائدة ، ونوع ثالث خصم للرافعي نفسه •

يهاجم الرافعي الصنف الأول دون أن يذكر اسمه ، ويقف ضد الصنف الثاني

---

١ ـ الهلال ديسمبر ١٩٣٦

موقفا حازما ، يجادل ويناقش ، ويأتي بالبراهين تلو البراهين • أما الصنف الثالث فقد يشتد وراءه ويعدو ، فإذا رأى أن الأمر قد بلغ غايته ، تناول سفوده ليضع فيه خصمه كما فعل بالعقاد ، وكما همّ أن يفعل بزكي مبارك •

(وقد بالغ زكي مبارك في التخريف ، ولا بد من ضربه ضربة قوية في السفود)[1] • ولكن الله أدرك زكي مبارك بلطفه فلم يوضع في سفود •

وفي الحق أن جهاد الرافعي الأدبي ضد المنحرفين عن الجادة القويمة لم يبتدىء في هذه الفترة ١٩٢٣ التي نحن فيها وما بعدها ، بل ظهر جهاده قبل هذه الفترة بنحو عشر سنين أو أكثر قليلا ، وذلك في سنة ١٩١٢ حين قال بعض المفكرين القوميين : إن أحسن وسيلة للنهوض بالشعب المصري والانطلاق به في الآفاق هي في أن يثقف باللغة العامية ، لأنها أسهل من اللغة الفصحى ، وأقرب إلى أذواق عامة الشعب •

ونادى بهذه الفكرة محمد حسين هيكل فقال : (إنما ينفعنا أن يكون عندنا أدب مصري خاص ، مكتوب بلغة يفهمها أكثر المصريين[2] •

والغريب أننا نجد أستاذا جليلا له منزلته الاجتماعية والأدبية مثل أحمد لطفي السيد مدير الجامعة المصرية يسمع الى دعاة الهزيمة ويسايرهم أشواطا • ويكاد أن يلتحق بهم ، ويقول مثل قولهم[3] •

وبمرور الأيام ، ومقاومة الرافعي لهذه الأفكار ، استطاع أن يقضي عليها وعلى دعاتها • وقد أشار أبو رية إلى هذه الفكرة وموقف الرافعي منها فقال : (في أوائل هذا القرن ظهرت في مصر « بدعة لغوية » نادى بها ودعا إليها نفر من كتابنا • وكانت هذه البدعة تدعو إلى تمصير اللغة العربية بأن تدخل فيها من

---

١ ــ انظر رسائل الرافعي ص ٢٠٥ .
٢ ــ الجريدة ٢٠ . مارس ١٩١٢ . عدد ١٥٢٧ .
٣ ــ انظر مجلة الهلال نوفمبر ١٩٢٤ .

الألفاظ السوقية ، وتمزج تراكيبها بالمصطلحات العامية ، حتى تخرج لغةالكتابة في أسلوب يجمع كل اللهجات المصرية ، فيفهمها الناس جميعا • وكان يؤيد هذا الرأي الاستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بما ينشر في الجريدة التي كان يتولى تحريرها • وما لبثت هذه البدعة أن أنجبت مولودا اسمه « الجديد » ، ومعناه أن تكون لنا عربية جديدة لا تجري في بيانها على أساليب العرب الفصحاء ، وأن لاتتقيد فيما نكتب بأصول البلاغة العربية ، وجعلوا الميراث الأدبي البليغ « قديما » يجب أن يذهب بذهاب أهله ، ولأن هؤلاء الدعاة لم يجدوا أمامهم من يذود عن هذا الميراث ويدافع عن لغة القرآن أقوى من الرافعي ، فقد نحلوه زعامة هذا المذهب الذي أصبح في رأيهم قديما ، ونشبت بينه وبينهم معارك كان ينازلهم فيها وحده « تحت راية القرآن » ، في حين أنهم كانوا جمعا كبيرا ذا قوة وجاه وسلطان ، ولم يزل يكافحهم بشباة[1] قلمه البليغ حتى قضى على تلك البدعة وما نحلت ، وكتب الله النصر للغة كتابه)[2] •

ويتعجب أبو رية من أمر (بعض من كانوا يدعون إلى هذه البدع ، كيف أصبحوا من أشد الناس تعصبا لأساليب العربية في بيانها ولغتها)[3]

وقد يزول هذا التعجب لو تتبعنا هؤلاء الدعاة في آرائهم خطوة خطوة إلى أن أصبحوا آخر الأمر من دعاة الفصحى ، ذلك أنهم نظروا في أول الأمر إلى المنفعة السريعة ، التي تقتضيهاالضرورة ، فلما تقدمت السنون ، ومر علىالفكرة بعض الوقت ، رأوا خطر ما نادوا به ، إذ تبين لهم أن قوما تبنوا فكرة اللغة العامية لأغراض غير سامية[4] ، مما جعل ذوي النيات الحسنة يعرضون عما كانوا ينادون به •

---

١ ـ شباة القلم : سنه .
٢ ـ مجلة الرسالة مايو ١٩٥٢ . عدد ٩٨٥ .
٣ ـ المصدر السابق .
٤ ـ انظر مجلة الزهرة آذار ـ نيسان عدد ١١ ـ ١٢ سنة ١٩٢٥ وانظر كتاب اللغة العربية بين حماتها وخصومها أنور الجندي .

واذا قلنا : إن الرافعي كان من المحافظين ، ومن أعداء التجديد ، ليس معنى هذا أنه من أنصار المذهب التوقيفي الذين يقولون : إن اللغة توقيف[1] ، إنما هو من أنصار المذهب الاصطلاحي الذين يقولون : إن اللغة اصطلاح ، ويتجلى مذهبه هذا في كل ما كتب ، قديمه وحديثه .

ففي القديم وضع الرافعي بعض الألفاظ المستحدثة في كتابه حديث القمر الذي نشره سنة ١٩١٢ . وإثر ذلك انتقده أحد الكتاب ، فرد عليه الرافعي بهذا النص : (كأننا لا نزال نحتاج في استعمال كل حرف ، ووضع كل كلمة إلى نصوص هؤلاء « أصحاب الصحاح واللسان والقاموس » . وكأن هذه اللغة لا تجري على قواعد يمكن أن تنزل منزلة السنن الطبيعية في الحياة ، بحيث لا تأبى في عصر من العصور أن يضاف إليها شيء من المستحدثات الزمنية ، وإلا فكيف وضعها العرب إذن ؟ وكيف تبسطوا فيها حتى بلغت بهم من السعة؟ وكيف جاء القرآن الكريم من ألفاظهم نفسها ، وأجراه فيما لم يستعملوه ، ولا لهم به عهد ، وهو معجزة القوم ؟ وكيف فصحت الألفاظ المولدة ، وأسماء المستخدمات العلمية حتى ألحقت بمادة اللغة ؟

إن القول بأن هذه فصيحة ، وهذه مولدة ، قد مضى زمنه ، فإنما كان الباعث عليه قرب عهد الرواة من فصحاء الأعراب في الصدر الأول ، ثم تقليد علماء اللغة من المتأخرين لأولئك الرواة تحقيقا بشروط هذا العلم الذي يحملونه وبآدابه التاريخية .

إذا كنا في كل كلمة نقول : نصّ الجوهري ، وابن مكرم ... ونغفل عما وراء ذلك ، مما تنص عليه طبيعة اللغة من أوزانها وقواعدها ، وطرق الوضع والاستعمال فيها ، فما نحن بأهل هذه اللغة ، ولا بالقائمين عليها ، ولا هي لغة عصرنا ، إنما هي لغة الجوهري وابن مكرم ...

---

١ ــ انظر المزهرج ١ ص ١٧ ومابعدها .

لست أتردد في القول بأن سبب الضعف الذي طرأ على هذا اللسان ، إنما هو في هذه العقول الضعيفة التي تقوم عليه أسوأ القيام ، لا بالنظر ، ولكن بالتقليد الأعمى . فلا نزال نرجع بكل لفظة إلى حدود البادية ، كأن هذه البادية العربية هي جغرافية اللغة ..)[1] .

وفي الحديث نراه يخطو خطوة جريئة تدل على أنه أصبح يثق في نفسه ثقة من بلغ درجة الامامة في اللغة ، ذلك أنه لم يقتصر على الألفاظ المستحدثة التي سبق إليها ، وإنما أخذ هو بدوره يضع ألفاظا جديدة للغة ، ويسعى أن تجد مكانها لما وضعت له في اللغة ، مثل كلمة (مجمعة) . فقد وضعها ترجمة لكلمة (الانسيكلوبيدية) وهي دائرة العلوم والفنون[2] أو هي دائرة المعارف كما اشتهرت عندنا ــ نحن العرب ــ بعد ذلك .

ومثل كلمة (تَصَنْدَقَ) فقد وضعها على قياس تَحَتْقَبَ ، لأنه كان يكتب هذه العبارة (حتى لتجد عقول نوابغ القارات الخمس تحتقب في حقيبة من الكتب أو تصندق في صندوق من الأسفار)[3] .

والذي نلاحظه في صياغة اللفظ على النحو الذي رأيناه ، مراعاة الرافعي لموسيقى العبارة : تحتقب، تصندق، فالكلمة الثانية من جنس الأولى في الجرس، ومن جنسها في المعنى أيضا .

---

١ ــ الزهور فبراير ١٩١٣ .
٢ ــ أول من أنشأ الانسكلوبيدية هو : ديدرو الفرنسي في القرن الثامن عشر ، وفيها التعاليم الفلسفية التي ساعدت كثيرا على اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ . ومن ثم اطلق هذا الاسم الاصطلاحي : الانسكلوبيدية على كل دائرة علوم وفنون . واشهر هذه الدوائر في الوقت الحاضر ، دائرة المعارف الانكليزية والايطالية ، والالمانية والفرنسية ، ودائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني، ودائرة المعارف الاسلامية التي نشرها باللغة الفرنسية والانكليزية والالمانية جماعة من المستشرقين ، ويقوم جماعة من أدباء مصر بتعريبها .
٣ ــ مجلة الزهراء ربيع الاول ١٣٤٧ هـ .

وهذا الجرس الذي نلمسه في الكلمتين تحتقب وتصندق ، وإن لم يناد به الرافعي شرطا ، إلا أنه ينبىء عن تفكيره ، وشدة حرصه على ملازمة السنن اللغوية المعروفة بقدر الاستطاعة ، وأن لا يتساهل فيها إلا بالقدر الذي لا يخدش مقاييسها المقررة •

وللرافعي كلمات أخرى وضعها في اللغة وأخذت تسري ، مثل الدخينة للسيجارة[1] ومثل مجلس السلام لما يسمى قاعة الاستقبال •

والقارىء لا يشعر بأي غرابة في مثل هذا الوضع ، ذلك أن الرافعي يراعي دائما سياق العبارة وما يلائمها من اللفظ • ففي هذا المثال الأخير نقرأ (ومشيت إلى تلك العريشة بعينها ، فلما أحتوتنا قلت : هذا مجلس السلام في هذا البيت)[2] •

فقد حدد المعنى باللفظ ، إنه مشى إلى العريشة حيث صاحبته • فلما احتوتهما قال لها : هذا مجلس السلام ، وأضاف قوله في (هذا البيت) • ومعنى هذا أن الرافعي يتخذ طرقا مختلفة ، ولكنها ملائمة لاحياء اللغة ، فهو لم يسرف في الاقدام إلى حد الاسراف ، فيعيث فيها بالألفاظ المبتذلة أو ألفاظ السوقة وأشباه السوقة • ولم يجبن كما جبن غيره من الذين يزعمون أن اللغة توقيف يجب أن تبقى كما كانت •

وأحسن مثال يبين طريقة الرافعي في إحياء اللغة عبارة كتبها ، ثم علق عليها • ونحن نذكرهما على التوالي ، قال : (لكدت ــ والله ــ يا حبيبتي ، أتخيل هذا الرق الموضوع أمامي يبرق بصورتك ويشرق بوجهك)[3] •

علق على كلمة (الرق) بقوله : (كلمة استعملناها لهذا الورق المقوى الذي

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ١١٧ .
٢ ــ رسائل الاحزان ص ١٣١ .
٣ ــ أوراق الورد ص ٤٧ .

تكون عليه الصورة الفوتغرافية) .

والمتأمل في الكلمة وما أراده لها الرافعي من الاصطلاح ، يدرك تمام الادراك مدى محافظته على أصول اللغة ، ومدى اهتمامه باحيائها أيضا .

إن الرق جلد كان للأولين ، كالورق عندنا اليوم ، والشبه بين الرق والورق المقوى موجود في أشياء عديدة ، ولكن هذا الشبه ليس هو المعنيّ عند الرافعي، إنما المعنيّ عنده حقا : أن الكلمة كادت تموت لقلة الاستعمال ، وإحياؤها ينبغي أن يكون لها معنى جديدا ، ثم يأتي بعد ذلك الشبه الذي يربط المعنيين كما يتخيله السامع والمتكلم .

وبعد الذي قدمت في جهاد الرافعي اللغوي ، ومحافظته على سنن اللسان العربي ، أعتقد أن اللغة العربية لو قدر لها أن ترزق بنفر قليل من ذوي المواهب اللغوية مثل الرافعي ، لازدهرت وبارزت اللغات الأخرى ، سواء في الناحية الأدبية أو الناحية العلمية ، لأن مقاييس اللغة العربية كثيرة ومتعددة ، ثم هي مضبوطة ومحصورة ، لذلك يمكن أن يصاغ عليها كثير من الألفاظ الحديثة دون أن يخشى عليها شيء .

وقد أدرك الرافعي هذه المزية للغة العربية ، فراح يشتق الألفاظ ويولد المعاني ، مع ملازمته لأصولها ، ومحافظته على قواعدها . وقد يذهب به الأمر إلى أن يتصرف في الألفاظ تصرفا يدعو إلى الاعجاب والدهشة ، مع أنه لا يتيه هو ولا يتعجب من نفسه بقدر ما يتعجب من لغته العربية . فمثلا كتب عن زجاجة العطر التي أهداها لحبيبته هذه العبارة : (أنت عندي أجمل انثى في الطيب)(١) . علق على كلمة الطيب فقال : (من أعجب وأغرب ما في اللغة العربية ، أنهم يقولون « ذكور الطيب » لما يصلح للرجال دون النساء من أنواع الطيب كالمسك والغالية ، فاستخرجنا نحن منها « إناث الطيب » لما يهدى إلى الحبيبة خاصة ،

---

١ ــ أوراق الورد ٤٣ .

وذلك كله من دقة اللغة العربية) .

وستتضح مثل هذه المعاني في الفصل الآتي عند حديثنا عن خصائصه الأسلوبية . ومع هذه القوة التي تملكها اللغة العربية نرى بعض المجددين يقولون : إن اللغة العربية أضيق من أن تعبر عن جميع الأشياء ، لذلك نادوا بالعامية في اللغة ، والعلمية في الأسلوب. وتصدى لهم كثير من الأدباء يناصرون الرافعي في دعوته ، نذكر منهم الزيات في هذا المقال الذي يفسر لنا نوايا القوم كما يفسر أيضا معنى دعوتهم فقال : (إن من أشد البلايا على الأدب الحاضر بليتين : العامية في اللغة ، والعلمية في الأسلوب ،

أما العامية في اللغة ، فلو كان الغرض منها إمداد الفصحى بما تزخر به لغة العامة ، من مصطلحات الحضارة ، وألفاظ الحياة العامة ، لقلنا نعم... ولكن الغرض الذي ترمي إليه الثقافة الضحلة والدراسة السهلة ، هي أن يكتب الكاتب كما يشاء لا يتقيد بقاعدة من نحو ، ولا قياس من صرف ، ولا نظام من بلاغة ...

وأما العلمية في الأسلوب ، فلو كان الغرض منها اقتباس الروح العلمي في تحديد الفكرة ، وتصحيح القياس ، وتدقيق العبارة ، ونبذ الفضول ، وتوخي الفائدة لقلنا نعم... ولكنهم يقصدون بالعلمية بَخْس القيمة الجمالية للأسلوب ، وخَفْض المستوى الرفيع للبلاغة ، فيكون الكلام جاريا على نهج العلماء في تأدية المعنى المراد في اللفظ السهل ، أو على سنن التجار في ضغط المعنى المحدد في اللفظ المختزل . ولا عليهم بعد ذلك من الروح الذي يبعث الحياة في المعاني فتؤثر ، ولا من الفن الذي يلقي الألوان على الصور فتمتع ، ولا من الشعور الذي يشيع الهمس في الجمل فتوحى)[1] .

إن الذي يخشاه الزيات على اللغة هو نفسه الذي ينفر منه الرافعي .

---

١ - وحي الرسالة ج١ - ص ٢٢٣ .

ولا أظن أحدا يستسيغ لسلامة موسى ـ وهو من المجددين ـ هذا التعبير الذي كرر فيه لفظ الذي مرات عديدة وهو قوله (لكل أمة أو طائفة من الناس نظام يقتضي ضروبا من الرئاسة • فعندنا في مصر مثلا ، عـدد كبير من الرؤساء ، منهم المعلم الذي يرأس تلاميذه ، والضابط الذي يرأس شرطته ، والمدير الذي يشرف على موظفي المديرية ، والكاهن الذي يرأس شعبه في الكنيسة ، والوزير الذي يشرف على أعمال الدولة)(١) •

ففي جمل قصيرة أعاد لفظ الذي خمس مرات بالاضافة الى الكلمات النابية الأخرى ، مما جعل الأسلوب هزيلا ضعيفا ، بل أكاد أقول ركيكا ، أو هو ركيك بالفعل •

وليس لي أن أنقل الأساليب الضعيفة التي كان يستعملها بعض المجددين، ولكني أحيل من يهمه الأمر إلى جريدة السياسة وخاصة سنة ١٩٢٣ •

وقد اتهم الرافعي بتقليد الأقدمين في أساليبهم ، ولكنه لم يتهم بالضعف في اللغة ، بل شهد له كل المعاصرين بأنه يلم باللغة إلمامـا عميقا ، ويستوي في هذه الشهادة أنصاره وخصومه على السواء •

فمما قاله الدكتور طه وهو خصمه العنيد (الحق ان الذين يعلمون هـذه اللغة كما يعلمها الأستاذ الرافعي قليلون جدا ، وأحسبهم يحصون • والحق أن الذين يظهرون على أسرار هذه اللغة ودقائقها كما يظهر عليها الأستاذ الرافعي قليلون جدا وأحسبهم يحصون أيضا)(٢) •

وكان الرافعي لا يؤمن بما يلصق به في دعوى التكلف أو تأثر الأقدمين في أساليبهم التأثر العقيم ، ويرى هذه التهمة ضربا من الأنانية التي تأصلت فـي نفوس خصومه • وفي بعض الأحيان يفهم من كلامه أنـه يفسر تقولاتهـم

---

١ ـ الهلال يونيو ١٩٢٦ .

٢ ـ حديث الاربعاء ج ٣ ص ١٢٢ .

بالحسد • ونستنتج هذا الفهم من موقفه إزاءهم ، فقد كان يجادلهم بالبلاغة ويصاولهم بالبيان ويقرعهم بالتحدي أن يأتوا بمثل بلاغته وبيانه إن كانوا حقا قادرين •

وفي الحقيقة أن الباحث الذي ألم بكتب الرافعي ومقالاته التي أنشأها في مختلف الموضوعات ، لا يقر مزاعم أهل التجديد من أنه مقلد ، أو متكلف ، أو بعيد عن العصر الذي هو فيه •

إن الرافعي لم يقلد أحدا من الأقدمين ، وطبعه يأنف التقليد • وكل ما في الأمر ، أنه احتذى أساليب الأقدمين في النسق اللغوي ، فلم يخرج عن قاعدة ، ولم يشذ عن أصل ، ولم يسخر من القومية التاريخية للغته ، وإنما كان يدافع عنها ، ويدعو إليها ، ويتمنى أن يشاركه أهل الأقلام كافة في إحيائها وبعثها بعثا قويا يتلاءم مع الحياة • وقد رأينا أمثلة من وضعه وتوليده •

ومعنى هذا : أن الرافعي يجمع بين خصلتين : المحافظة على اللغة ونسقها الأصيل • ثم التجديد في ألفاظها وأساليبها بما يساعدها على النمو والازدهار، ويناسب التطور والذوق العربي المعاصر •

وهذا الرأي الذي أثبته للرافعي أدركه بعض الكتاب الناشئين ، وصرحوا به في بعض ما كتبوه • وذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك فقال : إن أفكار الرافعي (أكثر تقدمية من أفكار بعض الذين كانوا يرمونه في حياته بالرجعية)[1] •

وفي هذه المعاني قال الرافعي : (وليس يكون الأدب أدبا إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يعرفه النوابغ من أهله ، فيؤرخ بهم ، فيقال : أدب فلان ، وطريقة فلان ، ومذهب فلان ، إذ لا يجري الأمر فيما علا وتوسط ونزل إلا على إبداع غير تقليد ، وتقليد غير اتباع ، واتباع غير تسليم • فلا بد من

---

١ ـ جريدة المساء القاهرية ٢١ اغسطس ١٩٥٩ •

الرأي، ونبوغ الرأي، واستقلال الرأي، حتى يكون في الكتابة إنسان جالس هو كاتبها ... فيخرج ضرب من الآداب ، كأنه نوع من التحول في الوجود الانساني، يرجع بالحياة الى ذوات معانيها ، ثم يرسم من هذه المعاني مثل ما أبدعت ذرات الخليقة في تركيب من تركيب ، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المقلد الالهي)[1].

ويقول بعض من كتب عنه (على أن الرأي حين نبحث فيه ونعرض آثاره على الدرس ، نجده يحاول التجديد . فقد حاول في مقالاته وكتبه أن يعبر عن معان حديثة في العواطف وفي الجمال والحب والبغض)[2] .

وقد أذهب إلى أبعد من هذا الرأي ، فأزعم أن الرافعي بلغ الغاية القصوى في تصوير الخلجات النفسية ، وأبدع الابداع كله في وصف المرأة ، ظاهرها وباطنها ، ثم هو بعد ذلك قطع مراحل عديدة في الأدب العربي ، فقد بدأه من النقطة الأولى التي كان عليها في عصره ، ثم أخذ يتدرج معه شيئا فشيئا إلى أن أصبح آخر الأمر من الكتاب الذين يحرصون على المعنى أكثر من اللفظ .

ولعل أحسن مثال لهذه النظرية كتابه الأخير وحي القلم ، فهو مؤلف من ثلاثة أجزاء كما سبق أن ذكرنا . فالجزء الأول تكثر فيه أنواع القصص ، والثاني تغلب فيه المقالات الانشائية ، والثالث تبرز فيه الأبحاث والمقالات النقدية ، مما يدل على أن الرافعي تطور تطورا ملحوظا في الأدب ، فلو امتد به الأجل لأصبح من دعاة الأبحاث والدراسات الصرفة .

نرى هذه الظاهرة تخالجه منذ سنة ١٩٢٧ حين تمنى أن تكون لقومه مجمعة عربية كبرى كالتي للفرنسيين ، ليكون بذلك سعيدا . وهذا نص كلامه : (لو أحياني الله حتى أرى لقومي مجمعة عربية كبرى تبلغ في السعة والوضع ، وحسن الترتيب ، وشدة التبيين ، وقوة الاستيعاب مابلغته المجمعة الفرنسية ،

---

١ — وحي القلم ج ٣ ص ٢٤٠ .
٢ — الادب العربي المعاصر ص ١٩٤ .

لكنت سعيدا)[1] •

هذه أمنيته منذ ذلك الحين ، ولكن للظروف قوانين وللضرورات أحكام • ولو ذهبنا بعيدا نستقصي آثاره الأدبية عبر السنوات الطوال ، ووقفنا عند مفترق الطرق ، أو فترة الانتقال ، حين نفض يده من الشعر سنة ١٩٠٨ ،ووقف وقفة قصيرة ، هم فيها أن ينشىء كتابا مدرسيا في تربية ملكات الانشاء[2] ، لرأينا بوضوح هذا التطور الفكري الذي طرأ على الرافعي في أسلوبه واتجاهه • فقد كان في بداية الأمر يتكلف كثيرا إلى درجة أن الجملة لاترتبط بأختها ، والمعنى لايبدو إلا تحت الألفاظ المقتسرة ، وقد رأينا بعض الفقرات من هذا الكتاب الذي أهمل طبعه لشعوره بأنه لايلائم العصر الذي هو فيه • بينما في أواخر أيامه أصبح يهتم كثيرا بالدراسات والأبحاث ، وما كتبه عن شوقي وحافظ وغيرهما يدل دلالة قاطعة على تطوره •

وظاهرة عجيبة تبدو في الأدباء الذين عاصرهم الرافعي ، فهم جميعا يختلفون فيما بينهم في طريقة الكتابة والتفكير، كما يختلفون في الأسلوب والنزعة الذاتية ، حتى أصبح كل واحد منهم مدرسة قائمة بذاتها ، إن لم تتبلور اليوم لقرب العهد بهم ، سوف تتضح غدا بعد أن تتناولها يد النقاد بالبحث والتحليل•

وكان الرافعي لايعجب بأحد من هؤلاء الأدباء ، لأن كل واحد منهم اتجه ناحية وترك الناحية الأخرى • فهذا اشتهر بالصقل والتهذيب والجري وراء الألفاظ الرنانة ، والجرس الموسيقي ، وذاك امتاز بالاغراق في الدوران حول فكرة واحدة بألفاظ متعددة ، والآخر عرف بضرب من الأخلاق والفضائل والحزن العميق ، والرابع والخامس •••

لم يعجب الرافعي بأي واحد من هؤلاء جميعا لأنه اعتنق مذهب الأدب

---

١ ـ الهلال يناير ١٩٢٧ .
٢ ـ انظر حياة الرافعي ص ٦٤ .

الحي ، فهو يرى أن الأديب لايسمى أديبا حقا إلا إذا بلغ بأسلوبه وتفكيره ومنزعه مبلغا يبعث اللغة من مرقدها ، ويجعلها حية تزخر بالحياة والقوة .

وهذه الصفة لا تتأتى لأحد إلا إذا جمع بين مايرضي الوجدان والقلب ، ويرضي في نفس الوقت العقل والفكر . وأحسن مثال يبين لنا هذا المنزع ماكتبه عن المنفلوطي . قال : (إن المنفلوطي لا يكتب عن بحث ولا روية ، وإنما هي كلمات يصور بها نفسه ... والخلاصة أن المنفلوطي يحسن أن يكتب ولكن الكتابة غير الدرس)[1] .

وتتجلى هذه الفكرة بوضوح في حادثة أدبية وقعت للرافعي سنة ١٩١٣ مع مجلة الزهور ، وهو آنذاك شاب صغير وأديب ناشيء وباحث أخذ نجمه يتلألأ في الآفاق . فقد نشرت المجلة بيتين من الشعر وجعلت جائزة مالية لمن يدل على ناظمها ، فكان الرافعي الفائز في ذلك.ثم هو لم يكتف بذكرمصدرهما فحسب،بل راح ينقب ويستكشف ، ثم حكم بأن البيتين فيهماتقديم وتأخير[2] .

إن هذا الاستقصاء في البحث هو الذي جعله يصدر أحكامه على كتاب عصره . وأن مارتآه في المنفلوطي قد نادى به الأقدمون واهتموا به كثيرا . ومن أمثلته مادار من حديث حول الحريري صاحب المقامات ، فقد اتهم بالعجز التام في الفنون الأدبية الأخرى . وسئل صاحب المثل السائر عن العلة في ذلك فقال كلاما قد يصح بعضه أو أكثره في عصرنا الحاضر ، مع تباعد الأزمنة[3] .

وهذا المذهب الذي اعتنقه الرافعي وآمن به وصار يطبق مبادئه على الكتاب والأدباء ، قال عنه خصومه : إنه مذهب قديم . ووقف الرافعي حائرا أوكالحائر في أمر هؤلاء الخصوم ، وما يقولون ، فإذا صوت آخر يرتفع عاليا ويقول :

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٣٠ .
٢ ـ انظر مجلة الزهور يناير ١٩١٣ .
٣ ـ انظر المثل السائر ج ص ٨ ومابعدها .

بل إن الرافعي من المجددين الحقيقيين • فازداد الرافعي حيرة وارتيابا حتى شك في أمر نفسه ونهجه • وتساءل عن المذهب القديم ، والمذهب الجديد ، وكان في تساؤله شيء غير قليل من الألم والانكار ، وشيء غير قليل من الاستهزاء والسخرية بعقول المجددين أو من يزعمون أنهم من أهل التجديد • وساق أمثلة حية لكلمذهب وترك هؤلاء الخصوم وهؤلاء الأنصار يقولون عنه وفي تساؤله وأمثلته[1] ، مايحلو لهم أن يقولوا ، وذهب في مذهبه الذي آمن به واعتقده لايلوي على شيء ، يسمع الذم من الخصوم فيثور في وجوههم كما يثور الحر للدفاع عن شرف المبدأ ، ويسمع المدح من الأنصار فيغتبط ويستبشر خيرا ، ويتهلل وجهه فرحا وسرورا ، ولسان حاله يردد هذه الآية الكريمة (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)[2] ، أو هذه الآيةالشريفة (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)[3] •

يردد لسان حال الرافعي هاتين الآيتين أو يردد ما في معناهما ، لأن الحق دائما هو الحق ، ودائما المنتصر في النهاية ، وخاصة بعد موت صاحبه •

وقد أدرك الرافعي هذه الظاهرة العجيبة وذكرها في مناسبتين : إحداهما في حديثه عن المنفلوطي بعد وفاته ، والثانية عن أمين الرافعي بعد وفاته أيضا • وكأنه في حديثه عنهما لايعبر إلا عن نفسه خاصة •

قال عن الأول : (فإن حياة الرجل كانت كلها موت له ، فصار موته كأنه حياة ، تبعث على الرغبة في قراءة ما كتب)[4] •

---

١ ـ انظر تحت راية القرآن ص ١٠ •
٢ ـ الانبياء آية ١٨ •
٣ ـ الاسراء آية ٨١ ولاننسى أن الرافعي من أسرة آل الرافعي المشهورة بالدين والتقوى . انظر ذكرى فقيد الوطن ص ٥٥ .
٤ ـ رسائل الرافعي ص ٩١ •

وقال عن الثاني موجها كلامه إلى مصر أو إلى شعبه الذي غض عنه الطرف وتركه يقاسي الآلام[1] في سبيل رسالته الثقافية ما يعجز عن وصفه القلم : (ويحك يامصر ! أفيك نوع من الموت هو أشد الموت فلا ينقذك إلا من أصدقائك خاصة •

أمن سحرك أنك لاتظهرين للشعب عظيما إلا بموت ميت •• أو بناء قبر كالهرم الأكبر ؟•

أمن عظمتك أنك تنشئين النبي من أنبياء الوطنية ليؤدي رسالته ثم تصلبيه ؟
أمن قوتك أن لاينتصر فيك الحي إلا بعلامة واحدة هي أنه أهلك نفسه بك•

أمن جبروتك أنك لاتدركين حقيقة أبنائك إلا حين لاتستطيعين أن تناديهم ياأبنائي ؟•

أمن عجائبك أن لايعرف خصومك وأنصارك الذين هم كخصومك رجلا••• إلا أن يرغمهم هو على الاقرار حين يجعله الموت جزءا من ضميرهم الانساني)؟[2]

وبعد موت الرافعي كثر أنصاره وأخذ ساعدهم يشتد يوما فيوما ، وكانوا يتصدون لكل من ينبري للنيل من الرافعي بعد موته • وفي سنة ١٩٣٨ ظهرت مقالات نقدية للسيد قطب في مجلة الرسالة يؤاخذ الرافعي في جوانب عديدة من أدبه • وكان السيد قطب آنذاك شابا صغيرا ، وحرا طليقا ، كالبلبل الصداح يطير من غصن الى غصن ، وفي كل ذلك يغرد ثم يغرد ، ولكن بعض تغريده كان في الجزائر كنعيق الغراب ، لايرسله إلا في مكان قفر • ولذلك تصدى لعالم جليل من كتاب الجزائر يبين له الطريق السوي ، ويبصره في أمور الأدب وفنونه المتنوعة المختلفة ، وفي أن الرافعي كان إماما في اللغة والبيان والطريقة ،

---

١ ــ الرافعي كما نعلم كان كاتبا صغيرا في محكمة طنطا الاهلية . انظر حياة الرافعي ص ٣٤ .
٢ ــ ذكرى فقيد الوطن ص ٢٢٦ .

وما أحوج لغتنا العربية إلى مثل الرافعي وأسلوبه وفنه ، وينتهي آخر الأمر ، إلى أن (الرافعي كاتب مجدد آتاه الله مقدرة زائدة على التصرف في القول ، والغوص على المعاني البعيدة ، يخضعها لقلمه البليغ وفكره الوقاد ، يولدان منها كل رائع جميل مبتكر ، والتجديد عند الرافعي ليس معناهعقوق القديم لقدمه ، والاقبال على الجديد لجدته ، ولكن معناه شيء يتجلى في تهذيب القديم وتقديمه لجيل اليوم في أجمل صورة ، وإحكام الصلة بينه وبين ماوصل اليه التقدم العقلي في العصر الحاضر .

فالرافعي فيهذا المعنى مجدد يسير حثيثا بثقافتنا في طريقها الأولى، ويفسح لها في الأفق على ضوء أشعتها . وعلى هذه الطريقة سار ـ رحمه الله ـ في بناء حياته الأدبية التي حببته إلى الفريقين من أنصار القديم والحديث معا ، إلا من قل ممن أشرنا إليهم في هذا المقال .

وبهذه الطريقة الجامعة رفع أدبه إلى الذروة ، وأدخل عليه من عناصر الجمال والخيال الملهم مالو تذوقته ارتاحت إليه نفسك ، وانتعشت به روحك ، وطلبت منه المزيد ، وأدركت أن الرافعي حكيم يمزج الأدب بالحكمة ، وأن له من عمق التفكير ودقة التعبير ، وصدق الحس وصفاء الوجدان ورقة الشعور ، آيات بينات ، ترفعه إلى أعلى مقام في عالم الخلود)[1] .

وفي الحق أن الرافعي كان يحافظ على الميراث العربي[2] ، ولكن بمايلائم العصر ، ويبعث اللغة قدما نحو التطور والازدهار . وآية ذلك آراؤه في الناحية العملية ، فلا نراه متزمتا أو متحجرا كما يصفه خصومه أهل التجديد .

ففي عصره كثر الحديث حول لابس القبعة ، وذهب العلماء والمفكرون في تحريمها وتحليلها كل مذهب . ولما سئل الرافعي عن رأيه في ذلك ، كتب مقالا

---

١ ـ مجلة الشهاب سبتمبر ١٩٣٨ ص ٦١ .
٢ ـ انظر الزهراء ١٥ ربيع الاول ١٣٤٣ وتحت راية القرآن ص ١٩ .

في مجلة الهلال استفتحه بقوله : (لاتسأل ما الطربوش ولكن من لابسه ، ولا ما القبعة ولكن من حاملها ، فإنما القبعة والطربوش كلاهما كسائر العروض التجارية لاقيمة لها لكائن ما كان منها إلا أن يمضي منفعة ويرجع مالا)[1] .

ولا نظن في رجل يدلي بمثل هذا الرأي في القبعة في ذلك العصر أن يكون جامدا أو متعصبا للقديم لقدمه ، إنما الرافعي ينظر إلى الجوهر لا إلى القشور. ومدار الأمر عنده ماتكنه النفوس بين جوانبها ، لا المظهر الخارجي . وعلى هذه النظرية سار في أدبه كتابة أو نقدا أو رأيا .

على أننا نلاحظ ملاحظة لابد منها ، وهي أن قوة الأسلوب ، وبلاغة العبارة ، وتماسك الألفاظ ، وعمق المعنى ، كل ذلك سمة بارزة في كتابة الرافعي، وآية ذلك أنه (كتب كلمة في تقريظ كتاب الجمعيات الوطنية للأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعي ولم يوقع على ماكتب ، ولكن أسلوبه نم عليه)[2] .

فلما كاتبه أحد أصدقائه في ذلك اعترف وقال : (فإن الكلمة التي قرأتها في المقطم عن الجمعيات الوطنية هي كما ظننت ، والعجيب أن كثيرين عرفوها ، مع أني حاولت إخفاءها ببعض الاهمال في كتابتها ، فكتبتها هنا في المحكمة) .

إن الباحثين أجمعوا على أن الرافعي يجيد العربية ، ويفقه أسرارها ، إلا أنهم اتهموه بالتشبث بالجملة القرآنية، ومن هنا ألصقت به تهمة التقليد والمحافظة. غير أن هذا لايضيره عند أكثر أهل الفكر والأدب ، ومنهم الأستاذ الزيات ، فقد كتب مقالا بعد موت الرافعي جاء فيه : (على أنك لا تعدو الصواب إذا قلت : إن حرية أدبه أشبه بعبودية فكرة ، لأن مصدرهما وموردهما واحد ، هو القرآن . والقرآن من جهة الأدب غاية الجمال ، ومن جهة الفضيلة غاية الخير ، ومن جهة الفلسفة غاية الحق ، لذلك كان قوله في القديم والجديد ،

---

١ ــ الهلال نوفمبر ١٩٢٧ .
٢ ــ رسائل الرافعي ص ٨٣ .

قول العربي الذي يؤمن من أن لغته التي تكلم بها الله نامية بذاتها لأنها حية ، ومتطورة بطبعها لأنها قوية)[1] .

وبعد الذي قدمناه عن مكانة الرافعي الأدبية ، ومحافظته على القومية التاريخية للغة العربية ، وما عرفنا من خصومه أهل التجديد ، ومواقفهم ضده، نلاحظ أن زعيم المجددين الذي هو الدكتور طه ، وزعيم المحافظين الذي هو الرافعي ، كلاهما يدعو إلى إحياء اللغة العربية ، وتجديد أساليبها ، وكلاهما ينفر من التقليد العقيم ، وكلاهما يكتب بأسلوب بليغ ، والفرق بينهما ، أن الرافعي يجهد نفسه ، ويتعهد ألفاظه بالصقل والتهذيب ، بينما طه يهتم بالمعاني أكثر من اهتمامه باللفظ ، إلا في بعض الأحيان عندما يحلو له أن يعبث بالألفاظ كما رأيناه في قصة المعلمين .

فإذا عرفنا أن الأديبين الكبيرين متفقان أو كالمتفقين في الغاية ، وهي إحياء اللغة ، شعرنا بأن وراء اختلافهما الظاهري سرا . ما هو ؟

يخيل إلي أن للشهرة دخلا كبيرا في هذا الاختلاف ، وآية ذلك أن لغة طه سليمة ، وهي السائدة الآن في الأدب العربي ، وكذلك لغة الرافعي ، إلا أنها أعمق بكثير من لغة طه ، ومع عمقها محبذة لطائفة من الأدباء ، أو هي محبذة لهذا العمق نفسه .

وعمق العبارة ليس معناه التقليد للقديم ، أو البعد عن المذهب الجديد ، إنما معناه ، أن خصائص العمق من مميزات الرافعي ، وأنه يُعنى بأسلوبه عناية شديدة .

وفي السنوات الأخيرة كف الرافعي عن تسديد الضربات القوية إلى

---

١ ــ وحي الرسالة ج١ ص ٤٥٠ .

المجددين ، لأنهم آمنوا بقوميتهم وكفروا بمدنية الغرب ، قال في سنة ١٩٣٣ (ومما يحسن ذكره أن كل المجددين رجعوا الآن عن رأيهم في المدنية الأوربية وأقروا أنها مدنية زائفة)[١] .

• • •

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٢٦٨ .

الفصل السادس

خصائص الرافعي الفنية

خصائصه العقلية - خصائصه الاسلوبية - تعقيب

خصائصه العقلية :

للرافعي طريقتان في إبراز المعاني ، طريقة يمكن أن تسمى شكلية لأنها تتعلق بالألفاظ أكثر مما تتعلق بالمعاني ، والثانية جوهرية لشدة تعلقها بالمعـاني ، وخاصة المعاني التي تعبر عن خلجات النفس وخباياها .

١ ـ تتجلى الطريقة الأولى في المعاني المشتركة التي سبق إليها ، إذ يعمد إلى معنى منها ينقله من أصله الأول ، ويعبر عنه بلفظ خاص ، فإذا هو أجمل مما كان ، وكأنه خلق خلقا جديدا ، كهذا المعنى الذي أخذه من قول الحجاج لأهل العراق (إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها)[١] .

قال الرافعي :(وكأني ... بهذا الرأس مجتزا في يد « أبي الزعيزعة » جلاد أمير المؤمنين يلقيه من سفيه رمى الغصن بالثمرة قد ثقلت عليه)[٢] .

إننا لانشك في أن الرافعي أخذه من قول الحجاج . وما نشك أيضا فيأنه

---

١ ـ الكامل في اللغة ج ١ ص ٢٢٤ .
٢ ـ وحي القلم ج ١ ص ١٢٦ .

أحسن صياغته ، حتى بدا كأنه من ابتكاره •

وقد عرف هذا الضرب من التعبير الفني عند الأقدمين ، إلا أن الباحثين جعلوا له مصطلحات مزعجة ليقرعوا بها أهل السطو والاغارة[1] •

وللرافعي من مثل هذا التوليد والتصرف كثير ، ومن أحسنه قوله لحبيبته (بل لا أراك تجمعين ضميري معا في كلمة إلا أحسست أنه لقاء بيننا في لفظ)•

وفسر التقاء الضميرين في الكلمة بهذا التعليق (كقولها : « يعذبني بك » فجمعت ضميرها ــ وهو الياء ــ بضميره وهو الكاف) •

ثم قال : (ولا غرو أن يكون هذا في جنون الحب لقاء أو وصالا ، وهذا المعنى دقيق جدا كما ترى)[2] •

وفعلا إن هذا المعنى دقيق جدا ، وقد اعترف بدقته الأستاذ إبراهيم سلامة عند حديث عن مثال يشبهه ، وهو قول ابراهيم بن المهدي يخاطب به المأمون : (البر بي منك ، وطأة العذر عندك لي)[3] •

إن التصرف في العبارة أشار إليها الرافعي مرة ، وأوضحها لأحد أصدقائه على هذا النحو • فقال له : (إقرأ القطعة من الكلام مرارا كثيرة، ثم تدبرها وقلب تراكيبها ، ثم أحذف منها عبارة أو كلمة ، وضع من عندك ما يسد سدها ، ولا يقصر عنها ، واجتهد في ذلك ، فإن استقام لك الأمر ، فترق إلى درجة أخرى ، وهي أن تعارض القطعة نفسها بقطعة تكتبها في معناها ، وبمثل أسلوبها ، فإن جاءت قطعتك ضعيفة فخذ في غيرها ، ثم غيرها ، حتى تأتي قريبا من الأصل أو مثله)[4] •

---

١ ــ انظر الجامع الكبير ص ٢٤٢ . وما بعدها .
٢ ــ أوراق الورد ص ٥٣ .
٣ ــ انظر بلاغة أرسطو ص ١٣١
٤ ــ رسائل الرافعي ص ٤١ .

والطريقة الثانية تبدو في المعاني النفسية ، فله قدرة عجيبة على نقلها إلى الآخرين ، حتى أن القارىء ليشعر وهو يقرأها كأنها لشدة عمقها وتأثيرها في النفس تعبير صادق عن شعوره هو .

وهذه الطريقة طريقة الغوص إلى أعماق النفس ، كانت من لوازمه منذ الصغر ، ونمت معه شيئا فشيئا إلى أن أصبحت عنصرا أساسيا في أدبه . فمتى ذكر الرافعي تبادر إلى الذهن عمق تفكيره وبعد معانيه .

وكثيرا ما كان يولد الموضوع برمته من فكرة صغيرة ، أو جملة قصيرة ، فنراه يحيط بها من كل جانب حتى يستوعب معناها ، فتبدو للناقد أنها السبب في كل ما كتب من الصفحات مثل هذه العبارة (لا أذاقك الله طعم نفسك) ، وسوف نراها . فقد استخرج منها كثيرا من المعاني ، وجعل منها قصة كاملة لها مغزاها ومرماها ، كما لها أيضا دوافعها وأسبابها .

وأول عمل يقوم به عندما تخطر له مثل هذه الفكرة ، أن يقرأ كل ما يتصل بالموضوع من عصر وبيئة ، وحوادث بارزة ومشاهير الرجال ... ثم يأخذ في التنسيق والترتيب .

ففي قصتنا هذه تعرف على عصر ابن طولون ، وعلى أشهر علمائه ، وخاصة رجال الفقه والدين ، ووضع للقصة أبطالها ، بعضهم من بغداد ، وبعضهم من مصر ، ليجعل للقصة قيمةتاريخية فنية ، لأنالحادث إذا سار بينالأقطار وانتشر خبره في الآفاق ، كان أكثر وقعا في النفس ، ثم إن بغداد في ذلك العصر كانت مرتبطة ارتباطا دينيا وقوميا بمصر ، فما يحدث في أحد البلدين يؤثر في الآخر ، وسرعان ما يسير به الركبان ، من هنا أو هناك .

يستقدم الرافعي بطله من بغداد إلى مصر ، ليضع على لسانه قصة أسدابن طولون التي استوحاها من حياة العصر في ذلك الوقت . فهذا سلطان طائش لا يعرف للعقوبة حدودا ولا قوانين ، يتصرف في رقاب العباد وأرزاقهم كما

يشاء دون أن يرعوي أو يخشى ملامة .

وكان ابن طولون مستقلا بمصر استقلالا يكاد يكون تاما ، إذ لم يربطه بالخلافة إلا الرباط العام[1] ، وهو رباط اسمي ليس له آي مدلول الا اسم الخليفة يردد على المنابر في المساجد .

وبجانب الجور والطيش والغطرسة ، يوجد ورع وتقوى ودين ، يتمثل في رجال الدين ، وخاصة الزهاد وذوي النفوس الشريفة .

والقصة شيقة جدا ، ولا يمكن فهمها وفهم الرافعي فيها إلا بقراءتها كاملة، وهذا لا يتسنى لنا ، لذلك نقتطف بعض العناصر التي تساعدنا على إدراك قدرة الرافعي الفنية في إبراز خوالج نفسه ، ونقلها إلى الآخرين كما هي في ذهنه .

ولو أردنا أن نستقصي أخبار هذه القصة في بطون الكتب لنرى مدى صدقها ومطابقتها للتاريخ ، لوجدناها حقا معبرة عن هذه الفترة من التاريخ ، وهو ما يرمي اليه الرافعي ، إذ أراد أن ينقل لنا صورة واضحة عن عصر ابن طولون ، في قصة جذابة ممتعة ، تألفها النفس ، وتستسيغها العاطفة .

ابتدأ القصة بقوله : (جلس أبو علي أحمد بن محمد الروذبادي البغدادي[2] في مجلس وعظه بمصر ، بعد وفاة شيخه أبي الحسن بنان الحمال الزاهد الواسطي شيخ الديار المصرية[3] ، وكان يضرب المثل بعبادته وزهده . وقد خرج أكثر أهل مصر في جنازته ، فكان يومه يوما كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا ، ما بقي أحد إلا اقتنع أنه في شهوات الحياة وأباطلها كالأعمى في سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق ...)[4] .

---

١ ــ انظر وفيات الاعيان ج ٢ ص ٦٨ ومابعدها .
٢ ــ توفي سنة ٢٢٢ هـ .
٣ ــ توفي ٢١٦ .
٤ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٥١ .

عندما أجلس الرافعي الشيخ في مجلس الوعظ ، ماذا كنا ننتظر ؟ أن نسمع كلمة من الشيخ • وهل فاه بشيء ؟ إن الذي لا يزال يتحدث هــو الرافعي • يتحدث عن أهواء الناس وأغراضهم ، وطريقة تفكيرهم أو سلوكهم في الحياة• وهذه خاصة من خصائص الرافعي الأسلوبية ، ظاهرها لفظي لأنها تتعلق بمنهجه في الكتابة ، وباطنها نفسي لما يستشعره من المعاني المستبطنة وأجزائهــا المتفرقة جزءا جزءا) ثم يأخذ في ربطها بما يناسبها ، حتى أن القارىء لا يشعر بخلل أو عنصر غريب •

يبدأ الكلام بعبارة شيقة ساحرة ، ثم سرعان ما يأخذ في مجرى حديث آخر غير الذي بدأ به الكلام ، ولا يزال يتحدث عن الفكرة الثانية التي طرأت عليه إلى أن يتمها ثم يرجع إلى حيث المعنى الأول ليستأنف الكلام عنــه ، فما إن تعترضه فكرة نفسية حتى يأخذ فيها مرة ثانية ، وهكذا بدأوا انصرافا ، ثــم رجوعا إلى ما بدأ به حتى ينتهي من القصــة أو المقالة ، وقد تخللها أكثر مــن عنصر •

قال الرافعي : (وتكلم أبو علي فقال : كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد[1] في بغداد ، فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن ـــ شيخ الري والجبال في وقته يقول فيه : لا أذاقك الله طعم نفسك ؟ فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيرا أبدا• قال : فجعلت أفكر في طعم النفس ما هو ؟ وجاءني مالم أرضه من الرأي ، حتى سمعت بخبر بنان ـــ رحمه الله ـــ مع أحمد بن طولون أمير مصر ، فهو الذي كان سبب قدومي إلى هنا لأرى الشيخ وأصحبه وانتفع به •

والبلد الذي ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح ، والنفس الكامــلة ، والأخلاق الالهية ، هو في الجهل كالبلد الذي ليس فيه كتاب من الكتب البتة ، وإن كان كل أهله علماء ، وإن كان في كل محلة منه مدرسة•••)[2] •

---

١ ـــ توفي سنة ٢٩٨ هـ •

٢ ـــ وحي القلم ج ٣ ص ٥١ •

ها هو ذا ينتقل مرة أخرى إلى موضوع آخر لاصلة له به الا ما جاء على لسان ابي علي من ذكر الشيخ ومنفعته • ولكن الشيخ الذي يعنيه الرافعي لـه منزلة أي منزلة ، فهو بمثابة المرشد الروحي لمن يريد الهداية •

لنستمع إلى الرافعي ماذا يقول عن الشيخ ووظيفته في الحيـاة الصوفية : (أما التصوف ، فقد أجمع أهله على أنه لا يمكن أن يفلح من لا واسطة له • وأنا ألتجيء دائما إلى الاستمداد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه واسطة الجميع ، ولا أدري إن كان في استعداد للتلقي عن هذه الغاية البعيدة أم لا ؟ غير أني لما عدمت الواسطة القريبة (الشيخ) لم أر بدأ من الالتجاء إلى حضرته صلى الله عليه وسلم ، قبلت أو لم أقبل ، فإنه أصل كل فتـوح • ولا تطفل على مائدة الكريم ، فكيف بكرمه عليه الصلاة والسلام)[1] •

وقد اتضح أن الشيخ الروحي له قيمته عند الرافعي، ولذلك أخذ في الحديث عنه إلى أن استوفاه استيفاء تاما ، ثم رجع ليستأنف كلامه بعد صفحة كامـلة فيقول : (قال أبو علي : وقدمت إلى مصر لأرى أبا الحسن ، وآخذ عنـه ، وأحقق ما سمعت من خبره مع ابن طولون • فلما لقيته لقيت رجـلا من تلاميذ شيخنا الجنيد ، يتلألأ فيه نوره ، ويعمل فيه سره • وهما كالشمعة : والشمعة في الضوء ، وإن صغرت واحدة وكبرت واحدة •••) •

إلى الآن لم يزد الرافعي في القصة إلا حبكا وتعقيـدا ، فكلما رجع إلى استئناف الحديث عنها ، وسار بها قليلا ، اعتراه معنى يتصل بها ، فيتناوله من جديد ، وهكذا الى أن يأتي عليها ، فإذا عصر ابن طولون وحوادثه وما جرى فيه تتمثله ، ونقف على دقائقه في قصة أدبية جامعـة ، حتى أننا نعرف أشيـاء كثيرة دقيقة عن ابن طولون نفسه ، فهو ابن جارية تركية ، وأبوه مملوك حمله نوح بن أسد •

---

١ ـ رسائل الرافعي ص ٥٢ .

استطاع الرافعي أن يصفه لنا في نسبه كما استطاع أن يصف لنا تصرفاته مع الرعية ، (فقد أحصي من قتلهم صبرا ، أو ماتوا في سجنه ، فكانوا ثمانية عشر ألفا)[1] . بهذه الطريقة حملنا الرافعي على قراءة القصة دون أن نعاني مشقة أو جهدا .

وفي هذه القصة يصف الأسد بصفات جسمية عظيمة اختارها لمناسبتها وموضوعها ، مما يدل على أن الرافعي ليس من الذين يرمون الكلام على عواهنه ، إنما كان يراعي ما يتطلبه الموضوع من الألفاظ ، فنقرأ كلمات جزلة ضخمة فخمة مثل : هراس وفراس ، وعارم الوحشية ، وأهرت الشدق ، كما نقرأ جملا مركبة تركيبا منسقا يتلاءم وجو الأسد وما ينتظر منه كما سنرى .

(وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم ، جسيما ضاريا عارم الوحشية ، متزيل العضل ، شديد عصب الخلق ، هراسا فراسا ، أهرت الشدق ، يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ، ينبىء أن جوفه مقبرة ، ويظهر وجهه خارجا من لبدته ، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله[2] .

ونسارع الى ختام القصة لنعرف الرافعي في جميع أطواره النفسية مع الفكرة التي استوحاها من أولها إلى آخرها . كيف خطرت له ، وكيف ولدها ، ثم كيف أحسن نهايتها .

قال وقد جعل الحديث في هذه المرة على لسان شاهد عيان ، يرى ما يحدث للشيخ أبي الحسن بنان مع أسد ابن طولون الذي ألقي إليه ليلتهمه كعادته مع من يلقى إليه : (وأجلسوا الشيخ في قاعة وأشرفوا عليه ينظرون ، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه ، فجذبوه فارتفع ، وهجهجوا بالأسد يزجرونه ، فانطلق يزمجر

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٥٠ ومابعدها .
٢ ــ وصف بعضهم الاسد شعرا ونثرا ولكنهم لم يبلغوا مبلغ الرافعي . انظر ديوان المتنبي ج ٣ ص ٢٣٧ وفحول الشعراء ص ٥٠٦ ومقامات بديع الزمان ص ٢٩ .

ويزأر زئيرا تنشق له المرائر ، ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة •

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعر ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة ، فما بقي من أجل الشيخ إلا طرفة عين ، ورأيناه على ذلك ساكنا مطرقا ، لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به • وما منا إلا من كاد ينتهك حجاب قلبه من الفزع والرعب ، والاشفاق على الرجل •

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته ، فأقعى على ذنبه ، ثم لصق بالأرض هنيهة يفرش ذراعيه ، ثم نهض نهضة أخرى ، كأنه غير الأسد ، فمشى مترفقا ثقيل الخطو ، تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته ، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به ، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاولة بين الرجل التقي والأسد ، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وارادة الله •

••• ونسي الشيخ نفسه ، فكأنما رآه الأسد ميتا ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلها ، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة واختلجت في نفسه خالجة من الشك ، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد ، فتمزق في أنيابه ومخالبه •

وختم الرافعي القصة بفقرة وضعها على لسان أحد الحاضرين قال : (وانصرفنا من النظر في السبع إلى النظر في وجه الشيخ ، فإذا هو ساهم مفكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظنا في تفكيره ، فمن قائل أنه الخوف أذهله عن نفسه ، وقائل أنه الانصراف بعقله إلى الموت ، وثالث يقول : إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، ويزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد ، وأكثرنا في ذلك ، وتجارينا فيه ، حتى سأله ابن طولون : ما الذي كان في قلبك ؟ وفيم كنت تفكر ؟

فقال الشيخ : لم يكن علي من بأس ، وإنما كنت أفكر في لعاب الأسد ،

أهو طاهر أم نجس)[1] .

هكذا ختم القصة بما يلائم جوها ومعناها ، وقد رأينا كيف بدأها وكيف استطاع أن يهيء النفوس لها .

وقد مر بنا كثير من المعاني الدقيقة التي لا يتنبه لها إلا من أوتي حظا وافرا من الذوق البياني مثل قوله : (ولم يرعنا الا ذهول الأسد عن وحشيته ، فأقعى على ذنبه) . وبعد أن وصف الأسد على هذه الحالة من أنه أقعى على ذنبه ولصق بالأرض ... جعله مرة أخرى ينهض ويمشي ..

لماذا جعله ينهض مرة ثانية وقد كان جالسا ذاهلا ؟

إن الرافعي لاحظ معنى دقيقا جدا ، لو تركه على الحالة الأولى لتوهم أحدنا أن الأسد قد أصيب بمرض أو اعتراه شيء غير طبيعي . ومن ثم تنتفي المعاني التي يريد أن يثبتها للقوة الخارقة التي هي دائما في جانب من طهرت نفسه ، وسمت أفكاره ... أما وقد نهض الأسد نهضة ، ومشى مترفقا يسمع لمفاصله قعقعة لشدته وجسامته ، فلم يبق إلا أن في الأمر سرا يفوق العقل ، وهو ما فسره بعد ذلك في احتكاك الأسد بالشيخ واستئناسه به .

ونلاحظ أيضا أن الرافعي أبهم الأمر في تفكير الشيخ في أول حديثه ، ثم أخذ يحلله بتساؤلات مختلفة وضعها على ألسنة الحاضرين ، إلى أن وضحه أخيرا توضيحا يدعو إلى الاعجاب والتأمل .

إن هذه الدقائق التي يلاحظها ويحسها ، ما كان ليدركها لولا صممه الذي ابتلي به . وفي هذه المعنى يقول الدكتور شوقي ضيف : (والرافعي حقا من كتابنا القلائل الذين عاشوا معيشة داخلية في حقائق دنيانا ، متجاوزا ظاهرها الحسي الى قواها الروحية الباطنة . وقد أعانه على ذلك صممه المبكر الذي جعله

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٥٠ ومابعدها .

يحيى بين الناس وكأنه غريب عنهم ، ويتحدث إليهم وهــو لا يسمعهم ، فكان طبيعيا ان يفضي الى ذات نفسه ، وأن يعيش هذه المعيشة الداخلية التيعكفـفيها على عقله ، وانطلق به متجولا في باطن الحقائق الظـاهرة ، مسلطا عليهـا من إشعاعاته العقلية ما جعل معانيها الخفية تتألق أمام عينيه) .

ـــوقال : (إقرأ له في وحي القلم أي مقالة ، فستراه يحول أي موضوع ـــ اجتماعي أو سياسي أو تاريخي ، وأي مشهد في الطبيعة أو في حياة الناس ، وأي خبر من أخبار العرب أو الاسلام ـــ الى ما يشبه ينبوعا ، لا تزال تتفجر منــه المعاني الخفية التي تروع بدلالاتها وبما أخرجها فيها من صيغة عربية بديعة . فتملكه لزمام اللغة لا يقل عن بصره بالقوة الكامنة في حقائق الأشياء)[١] .

وهذه المعاني التي أثبتها الدكتور شوقي ضيف للرافعي ، هي نفسها التي أثبتتها الآنسة مي للموسيقي الألماني بيتهوفن ، وهي تنطبق على الرافعي تمـام الانطباق ، لأن العلة واحدة في الاثنين وهي الصمم ، إلا أن الخلاف بينهما جد بسيط ، هو أن الرافعي أصيب بالصمم في صغره ، بينما بيتهوفن أصيب به في كبره .

قالت الآنسة مي في بيتهوفن (عن طريق التأثرات والانفعـالات النفسية ، والغموم البكماء ، اتصل بجوهر الحياة الشاملة . وفي محراب اللهفة والأسى راض فنه حتى امتلك منه الأعنة وجنى من غوره ... غاية)[٢] .

وقال الزيات في تفكير الرافعي وطريقة كتابته : (كان يحمل الفكرة في ذهنه أياما يعاودها في خلالها الساعة بعد الساعة ، بالتقليب والملاحظة والتأمل ، حتى تتشعب في خياله وتتكاثر في خاطره ، ويكون هو لكثرة النظر والاجالة قد سما

---

١ ـــ الادب العربي المعاصر ص ٢٤٧ .

٢ ـــ المقتطف مارس ١٩٢٧ وانظر ملحق الاهرام ١٤ / ٩ / ١٩٦٢ وتراجم مصرية وغربية ص ٢١٩ .

في فهمها على الذكاء المألوف. فإذا أراد أن يعطيها الصورة، ويكسوها اللفظ، جلاها على الوضع الماثل في ذهنه، وأداها بالايجاز الغالب على فنه، فتأتي في بعض المواضع غامضة ملتوية، وهو يحسبها واضحة في نفسك وضوحها في نفسه)[1] .

ومثل هذا ما أثبته الأستاذ العريان، فقال : (وإذ كان في أذني الرافعي ذلك الوقر الذي يقطعه عن دنيا الناس، فإن أسلوبه في الكتابة، كان بعيدا عن فهم الكثير من ناشئة القراء . فلما اصطفاني بالود، أخذت على نفسي أن أكون أذنه التي يسمع بها ما يقال عنه، وما يرى القراء في أسلوبه فكنت إذا جلست إليه نيملي علي، حاورته فيما يدق على الأفهام من أسلوبه وما تنبو عنه أسماع القراء، ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع. وكان ينكر ذلك علي أول أمره، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء . وكان أحيانا يوشك أن يغضب، وأنا أتلطف له وأحتال عليه، ثم لم يلبث أن رضي ذلك مني)[2]

وقول العريان : ان الرافعي في بعض الاحيان يوشك أن يغضب بما يقترحه عليه من تغيير العبارة ليدل على أن الرافعي يعتقد أن ما يكتبه كان أصح مما يطلب منه . ولما اتصل بالقراء بواسطة مجلة الرسالة وعرف منهم هذا الرأي الذي ارتآه العريان رضي بذلك وأخذ في تطبيقه . ويتجلى بوضوح في أسلوب وحي القلم لأن هذا الكتاب هو آخر ما أنشأ الرافعي في الأدب .

ومع هذه القدرة الفائقة في إبراز المعاني، وتوليد الأفكار، لم يكن الرافعي يتقن أي لغة أجنبية، ولكنه رزق بصيرة وذكاء حادا، مما جعله ينوع الأفكار ويولدها . وفي هذا المعنى يقول شوقي ضيف عند حديثه عن وحي القلم (ولم يتقن لغة أجنبية إلا أطرافا من الفرنسية ليس فيها غناء، ولكنه وجد في موارده

---

١ ـ وحي الرسالة ج ١ ص ٤٤٨ .
٢ ـ حياة الرافعي ص ٢٠٩ .

الداخلية ما يعوض هذا النقص ، بل ما جعله يتقدم بطرائف فكره كثيرين ممن تعمقوا الآداب الغربية وأفادوا من كنوزها المعنوية .

وحقا قد يجري الغموض والالتواء في جوانب من كتابته ، وهما طبيعيان لمثل هذا الكاتب الذي كان يسرف في التعمق والتغلغل في معانيه إسرافا تنوء به اللغة ، فلا تنهض بما يريد أحيانا . غير أنها حين تواتيه يجتمع لتعبيره جلال الادراك العقلي ، وجمال الأسلوب اللفظي ، إذ كان له ذوق مهذب مصفى ، وحس دقيق مرهف وعقل يقتدر على التجريد والتوليد والنفوذ إلى العلاقات والدلالات البعيدة)[1] . وفي الذوق المهذب والنفس الصافية أوضح الرافعي مادة الأدب . فقال : (وأشواق النفس هي مادة الأدب فليس يكون أدبا إلا إذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى ، أو كان متصلا بسر هذه تغييرا يجيء طبقا لغرضها ، وأشواقها . فإنه كما يرحل الانسان من جو غيره ، ينقله الأدب من حياته التي لا تختلف إلى حياة أخرى ، فيها شعورها ولذتها ، وإن لم يكن لها مكان ولا زمان . حياة كملت فيها أشواق النفس لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف . ولعمري ما جاءت الجنة والنار في الأديان عبثا ، فإن خالق النفس بما ركبه فيها من العجائب لا يحكم العقل أنه قد أتم خلقها إلا بخلق الجنة والنار معا ، إذ هما الصورتان الدائمتان والمتكافئتان لاشواقها الخالدة ، إن هي استقامت مسددة ، أو انعكست حائلة) .

وبعدهذا ينتقل إلى ذكر حالاتها وطرق اتصالها بمادتها والانفصال عن زمانها . فيقول : (وقد صح عندي أن النفس لا تتحقق من حريتها ، ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة ، فتمس وحدة الشعور ووحدة الكمال الأسمى ، إلا في ساعات وفترات تنسل من زمنها ، وعيشها ، ونقائضها ، واضطرابها ، إلى (منطقة حياد) خارجة وراء الزمان والمكان ، فاذا هبطتها النفس ، فكأنما انتقلت إلى الجنة واستروحت الخلد . وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا في أربعة .

---

١ ــ الادب العربي المعاصر ص ٢٤٧ .

حبيب فاتن معشوق أعطي قوة سحر النفس ، فهي تنسى به •
وصديق محبوب وفي أوتي قوة جذب النفس ، فهي تنسى عنده •
وقطعة أدبية آخذة ، فهي ساحرة كالحبيب ، أو جاذبة كالصديق •
ومنظر فني رائع ، فيه من كل شيء شيء)[1]

وفي الأجواء البعيدة التي تعيش فيها النفس ، وخاصة ما يتعلق بالحبيب قالت الآنسة مي : (هناك وجوه ، هي أجمل الوجوه وأصوات هي أوقع الأصوات ، وأسماء هي أعز الأسماء : وهي الوجوه التي أحدثت فينا تأثيرا لم تحدثه الوجوه الأخرى • وهي الأصوات التي ناجتنا أصداؤها بما تتلفظ به الشفاه • وهي الأسماء التي نبهتنا موسيقاها الى أهمية اختيار الأسماء • أولئك أشخاص نراهم بارعي الجمال وإن لم يكونوا كذلك في نظر سوانا ، لأننا في ملامحهم ، ومعانيهم ، وحركاتهم ، ونغمة أصواتهم ، واتجاه آرائهم وتكيف أفكارهم ، وعمق عواطفهم ، عثرنا على ما يطلبه شيء غامض فينا • كأنما هم الوسيلة الوحيدة التي نرتفع بها فوق المستوى العادي إلى فلك فيه تجدد قوانا فتتسع نفوسنا شاعرة بالعواطف الكريمة مستنيرة بالمعاني السامية تائقة الى الاعجاب والنبل والصلاح والاقدام)[2] •

ويجمل الرافعي كل المعاني المتقدمة في الفقرة الآتية (وهذه كلها تنسي المرء زمنه مدة تطول وتقصر ، وذلك فيها دليل على أن النفس الانسانية تصيبها أساليب روحية لاتصالها هنيهة بالروح الأزلي في لحظات من الشعور ، كأنها ليست من هذه الدنيا ، وكأنها من الأزلية ، ومن ثم نستطيع أن نقرر : أن أساس الفن على الاطلاق هو ثورة الخالد في الانسان على الفاني فيه ، وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير وهو معنى

---

١ — وحي القلم ج ٣ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .
٢ — رسائل غرام ص ١١ .

الأدب وأسلوبه)[1] .

والغريب أن بعض الكتاب لم يفهم الرافعي ، ولم يدرك مشاعره على حقيقتها فانتقص من قيمته الشعورية ، ونفى ان تكون له تجربة شعورية ، فقال : (وعندي ان موطن الضعف في أدب الرافعي هو أن محصوله اللغوي والتاريخي من موهبته وذهنه أقوى وأثرى من عاطفته . فأنت تجد الرافعي يقدم لك صورا غائمة أو غامضة ، لاتهدف إلى إبراز تجربة خاصة ، ولا تعالج أزمة وجدانية فتحدد معالمها وتعطيها من الألوان ما يجدد سماتها ، ويظهر قسماتها ، حتى تستطيع أن تنفعل بأنسانيتها ، وأن تشارك في أزمتها وأن تخطو معه خطوات نحو المشكلة . وتتعلق أنفاسك في انتظار حل المشكلة)[2] .

ان الخطوط التي وضعها هذا الكاتب لابراز مشاعر النفس هي في تلك التي يتناولها كل من يحسن كتابة الجمل ، كأن يكتب قصة خيالية أو واقعية على النمط المألوف فيجعل لقصته عقدة ، وحبكة ، وربما حدد الزمان والمكان ، ثم يأخذ في التشعب بها إلى أن يرتفع بذهن القارىء إلى أعلى السموات فما يدعه ينزل إلى أرضه حتى يعرض عليه من أمره ما يود أن يعرف عنه .

هذه الطريقة قد سار عليها أكثر الكتاب ، ولكن الرافعي لا يريد أن يلتزم ما ألفه الناس ، لذلك خرج عن سننهم ، فألف كتبه الغرامية الأربعة على طريقة خاصة ، وكل كتاب يخالف الآخر في المنهج ، والموضوع . وقد عرفنا ذلك في موضعه .

وشبيه برأي هذا الكاتب ما قررته نعمات أحمد فؤاد في كتابها الذي أشرت إليه في المقدمة (دراسة في أدب الرافعي) قالت : (لشد ما يذكر في أسلوب الرافعي بمشهد من مشاهد الطفولة ، حين تلتف جموع الأطفال حول الساحر يحدثهم عن قدراته ، ويهول عليهم ، ويستعين على هذا بما في جعبته من أدوات وأشياء ، وألوان . وهم لا يفهمون عنه شيئا ، حتى إذا كبروا وعلموا ، أدركوا

---

١ ــ وحي القلم ج ٣ ص ٢٤٩ .
٢ ــ دراسات في الادب المعاصر ص ٢٤٩ .

أنهم كانوا إنما يضيعون الوقت سدى .

كذلك الرافعي يهول عليك بخيال ملفق صناع في التلفيق ، حتى إذا فرغت منه أيقنت أنك لا تعرف بعد ماذا يريد أن يقول على وجه التحقيق . وأسفت بعد الأوان على الوقت المهدر)[1] .

إني لا أناقش الباحثة في أسلوبها . فذلك لها ، وللقراء أن يقولوا كلمتهم. فماذا عسى أن أقول في هذا التركيب (أدركوا ، أنهم ، كانوا ، إنما) . أي شيء هذا الكلام ؟ أكانت الباحثة حين أخذت في كتابته تصعد عقبة وليس بيدها عصا تتوكأ عليها ، حتى جاءت الكلمات متقطعة تقطع الأنفاس المتصاعدة من شدة التعب والعياء ؟

إن نعمات تعتبر المعاني الدقيقة التي يعيشها الرافعي ويصورها بقلمه ألغازا مثل قوله في وصف جمال صاحبته ، بأنه سر لا يستطيع أن يعبر عنه في كلمة واحدة . (سر عجيب فكرت فيه طويلا كيف أسميه ، فلم يستولي . وقد جل أن يقع معناه في كلمة ولكني أسميه المعنى المتفرق المجتمع ، إذ هو بجملته ظاهر في الوجه كله ، وهو بجملته أيضا ظاهر على مقدار ذلك في كل موضع من قسمات وجهك ومعارفه ، كأنه لا أجزاء له ، ولا جملة ، كأنه شيء أبدي ، كأنه في وجهك تأله الحب)[2] .

يبدو أن الباحثة لم تطلع على الأدب العربي كما ينبغي . وإلا فكيف خفي عليها ما ورد عن الأولين في مثل هذا المعنى . ألم تقرأ ما روى الأصمعي عن جارية كانت تنشد شعرا غزليا وهي متعلقة بأستار الكعبة . فلما قيل لها : أهذا موضع ذا ؟ ثارت ونفرت . فلما قيل لها : ما الحب ؟ قالت : (هيهات ؟ جل ــ والله ــ عن أن يحصى ، وخفي عن أن يرى . فهو كامن كمون النار في حجرها ، إن

---

١ ــ دراسة في أدب الرافعي ص ٥٥ .
٢ ــ أوراق الورد ص ٤٩ ــ دراسة في أدب الرافعي ص ٥٣ .

قدحته ورى ، وإن تركته توارى)[1] •

يخيل إلي أن الباحثة لا تقتنع بقول هذه الجارية العربية التي مضى عهدها • إنما تقتنع بآراء المفكرين أمثال شوبنهاور ، وكانهاو هيجل •

إذا سلمنا أن الحسن من بـاب الفنون الجميلة مثـل النحت والرسم ، والموسيقى فبين يدي الآن دليل يمكن الاستشهاد به •

يقول شوبنهاور (إن في الموسيقى شيئا أليفا لا يمكن التعبير عنـه • فهي تبدو لنا أشبه بصورة لفردوس مألوف لنا ، غـير أننا لا ندركه أبـدا ، فهي بالنسبة لنا معقولة جدا ، وإن كان لا يمكن بأية حال تفسيرها)[2] •

إن الرافعي جمع بين قول الجارية العربية وبـين نظرية الفيلسوف الألماني شوبنهاور • فجمال صاحبته موجود ، ويرى ، ولكن ما كنهه حتى يطلق عليه تعبيرا ملائما ؟ وأين هو حتى يتسنى له معرفته على حقيقته ؟ إنه هنا • بل هاهنا، بل في كل شيء فيها ، بل فيما وراء ذلك كله ، إنه أجل أن يقع معناه في كلمة ، لأنه كامن كمون النار في الحجر ، أو لأنه كالفردوس المألوف لنـا ، تتخيله في واقع نفوسنا دون أن نعرف له تفسيرا •

ان الطريقة التي اتخذها الرافعي للتعبير عن جمال حبيبته لتدعو إلى الاعجاب والدهشة • فقد بدأ بالحديث عن الفكرة أول ما خطرت له • كيف عجز عـن التعبير عنها وهذا ما يسمى في العرف الأدبي بصدق الشعور ، ثم أخذ يتتبعها جزئية جزئية إلى أن استقصاها • فإذا هي صورة كاملة ، تكاد تكون مجسمة في خطوطها المتداخلة المترابطة بأسلوب مسلسل ، وتفكير واضح المعالم •

خصائصه الاسلوبية :

خصائص الرافعي الأسلوبية كثيرة ولكنها ترجع كلها الى رونق العبارة ،

---

١ ـ الزهرة ص ٦٧ .
٢ ـ علم الجمال ص ٥٠ .

وجزالة اللفظ ، ذلك أنه كثير الاعتناء بأسلوبه ، فهو يجمع اللفظة الى اختها بما يجانسها ويلائمها ،إما في جرسهاأو في حروفها ، بالاضافة إلى الصقل والتهذيب، ولا يزال يقلبها وينسقها ، حتى تخرج قوية رصينة ، حتى في هذه المعاني التي تتعلق بالحب •

١ ــ جلس مرة مع صاحبته في مكان ما من الامكنة العزيزة التي يعيش فيها الأدباء والشعراء وأخذ يستشعر المعاني تلو المعاني ، ثم قصها علينا كما حدثت له في ذلك الجو الشاعري فإذا نحن نصطدم بكلمات حادة صارمة كتلك الاصوات التي ألف الجنود سماعها من مدافعهم ، وقنابلهم ، مثل قوله (ولما تصرمت تلك الوهلة التي اعترتها ، مزقت بنفسي ذلك الصمت الذي كان يغرز أنفاسي في قلبي ، كأن في كل نفس إبرة نافذة وأردت الكلام فجعلت أجمجم في عذري)[1]

إنه أراد أن يقول : انكشفت الحيرة فقال : تصرمت الوهلة • وأراد :اعتذر من غير تصريح • فقال : أجمجم • وأراد : تحدثت • فقال : مزقت •

فلما اختار هذه الالفاظ الصاخبة وهو يتحدث عن الحب ؟

قد نجد له عذرا في كلمة مزقت لأنه كان وحبيبته، يعيشان معا في جو صامت، لاهو يتحدث ، ولا هي تتكلم • فاستشعر فراغا أو حائلا بينه وبين حبيبته ، فأراد أن يملأ هذا الفراغ ، أو يكسر ذلك الحاجز فقال : مزقت •

قد يكون هذا تأويلا صحيحا ، ولكن أي تأويل يمكن أن يقال في لفظة تصرمت ، وأجمجم ، وغرز الانفاس في القلب •

ليس لهذه الالفاظ أي تأويل صحيح الا طبع الرافعي نفسه • فقد كان ذا طبع صارم لايرضى بالالفاظ اللينة ولو كانت معبرة ، ولو كانت في موضوع

---

١ ــ رسائل الاحزان ص ١٣٨ .

الحب كهذا ، لأن طبعه قوي وصلب .

فقد أراد مرة أن يصف أثر الحب في قلبه فلم يرض من الالفاظ الا بهذه المدوية الصاخبة مثل الدمدمة .

(يدوم الحب على قلبه ـ كأنه في نفسه ينهدم

برجفة حاملها لم يزل ممزقا في القلب لا يلتئم)[1] .

علق الرافعي على كلمة الدمدمة فقال ان أصلها : (الغضب . ودمدم عليه إذا كلمه مغضبا والمراد هنا عنف الحب في هز القلب من اهتياجه وشدته . كأنه مسلط عليه يهدمه) .

أنكرت الباحثة نعمات فؤاد على الرافعي هذين البيتين فقالت (هل هذا شعر ؟ وهل يدمدم لفظ شعري ؟ ولفظ يرد في شعر الغزل ؟)[2] .

ونجد للرافعي هذه الظاهرة اللفظية الصاخبة في مقال نقدي كتبه سنة ١٩٠٥ يهاجم فيه شعراء عصره ، وهو صغير في الخامسة والعشرين من عمره . ومما جاء فيه قوله : (فليظنني القارىء ما ضرب على رأسه الظن)[3] .

ألم يجد كلمة يضعها مكان الضرب ؟ وهل الظن يضرب على الرأس ؟

عللت نعمات فؤاد السبب الذي يدفع الرافعي الى هذا اللون من التعبير تعليلا غير الذي ذهبت اليه فقالت : (إن الرجل ممن يتفاصحون بالألفاظ . وإذا جانبه التوفيق في اختيار اللائق منها في موضعه فإن وراء هذا سرا . فما هو ؟

إني أحسبه يكمن في الصمم الذي أصيب به الرجل ، فهو بمنأى عن موسيقى الألفاظ غير قادر على تذوق جرس كل منها وترتيبه على حدة في مكانه من

---

١ ـ أوراق الورد ص ١٠٥ .
٢ ـ دراسة في أدب الرافعي ص ٩٧ .
٣ ـ الثريا يناير ١٩٠٥ .

العبارة كلها • فاذا كان صوت اللفظ مهموسا رقيقا كالهفهفة،ضل الرافعي طريقه إليه لانه فقد وسيلته إليه)[١] •

مرة أخرى لاأناقش الباحثة في معاني المفردات اللغوية ولا في الأسلوب - لن أناقشها في هذه اللفظة (جانبه) هل تقصد حالفه كما تنص المعاجم اللغوية، ويكون معناها عندئذ أن الرافعي حالفه التوفيق ولم يحالفه التوفيق ؟ أم أنها تقصد من اللفظة غير الذي جاء في المعاجم اللغوية ، وعندئذ يستقيم كلامها ؟ أما تكرار لفظ اليه في ربع سطر (طريقه إليه ، لأنه فقد وسيلته إليه) فذلك شيء لاسبيل الى مناقشته اطلاقا • ان الذي أريدمناقشته هو قولها بعد ذلك : (وقد رأينا الرافعي في مكان آخر من هذا المقال[٢] يشبه الحب وطيف الحبيب بألفاظ منها المدفع والزلزال والعاصفة ، وما إليها ، مما يزعج الحب . ويكدر صفاه • ولكن الرافعي لا ينفذ الى سمعه إلا هذه الاصوات المدوية)[٣] •

والذي أعتقده في سبب هذه الالفاظ المدوية لايرجع الى صمم الرافعي كما ذهبت إلى ذلك نعمات ، إنما يرجع إلى طبعه وتفكيره ، كما أثبت سابقا • لقد كان الرافعي ذا طبع صارم ، ونفس ثائرة ، فلا يجد وسيلة للتعبير عما يجيش في نفسه الا هذه الالفاظ القوية ، ثم هو يرى فيها ضربا من الافتخار ، لأنها قوية ، والقوة عنوان الفحولة والرجولية •

وهذا مانستنتجه من بعض آرائه التي نجدها منبثة في كتبه وأبحاثه ، كهذا الذي كتب عن شوقي • فقد قارن بين لغته ولغة البارودي في الشعر فقال : إن شوقي (لا يطيقها ولا تتهيأ في أسبابه، وخاصة في أول عهده ، وكأن لغة البارودي فيها من لقبه ، أي فيها البارود)[٤] •

---

١ – دراسة في أدب الرافعي ص ٨٩ .
٢ – نفس المصدر .
٣ – نفس المصدر .
٤ – وحي القلم ج٣ ص ٣٥٢ .

وما نظن أحدا يقول إن الحجاج بن يوسف ، وزياد بن أبيه في النثر ، والمتنبي وابن هانىء في الشعر كانوا صما ، لأن ألفاظهم كالرعد أو كقعقعة الرحى على حد تعبير المعري في الاخير منهم[1] .

ولو كان الرأي ما ذهبت اليه نعمات لكان لبيتهوفن نوعين من الموسيقى . أحدهما مهموس ، والاخر صاخب . فالاول يمثل حياته الفنية قبل أن يصاب بالصمم ، والثاني يمثلها بعد الصمم .

وأغلب الظن أن الباحثة لاتفرق بين الالفاظ التي هي للشدة والتي للين . وآية ذلك ، أنها ترى في لفظة (تمس) الرقة وفي (تضرب) القوة . وذلك في قول الرافعي (فماألقيت كلمة بين حبيبين إلا جاءت وهي تتنهد أو تبتلى أو تضحك أو تتوجع ، أو تنظر الى معنى من المعاني بينهما ، اذ لابد أن تضرب على القلبين أحدهما أو كليهما)[2] .

قالت : (أما كان يحسن به أن يقول (تمس) بدلا من (تضرب)[3] بينما الحقيقة عكس هذه النظرية التي تراها الباحثة نعمات . فان كلمة تمس أقوى من كلمة تضرب ، لان الكلمة الاولى تشتمل على حرف مضعف في آخرها ، وهو السين . (ولهذا يقال مثلا : ان الصوت اذا وقع مشددا في الاخر كان أقوى ما يكون نطقا)[4] .

والقوة الصوتية هي المعنية عند نعمات بدليل قولها : (ولكن الرافعي لا ينفذ الى سمعه الا هذه الاصوات المدوية .

هذا خطأ في اللفظ ، وهناك خطأ في الذوق أيضا ، وفي نفس الكلمتين .

---

١ ــ تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانىء ص ٢٨ .
٢ ــ أوراق الورد ص ٥٤ .
٣ ــ دراسة في أدب الرافعي ص ٨٨ .
٤ ــ مناهج البحث في اللغة ص ١٥٣ .

لقد فضلت ــ وهي تتحدث عن الحب ــ كلمة (تمس) على لفظة (تضرب) • ولو أنها تعمقت فقه اللغة العربية ، وأدركت أسرارها ، لكانت قد اختارت لفظة (لمس) بدلا من (تمس) لأن اللفظة الاولى أدل على المعنى المقصود من اللفظة الثانية : فهي لخفتها ورشاقتها تنبىء عن فراغ القلب ، وخلوه من أي حب • فاذا كان القلب فارغامن الحب غضا طريا،فأدنى نسمة حب تؤثر فيه ، وتجعل صاحبه يهيم على وجهه من أثر العشق الذي تمكن من قلبه •

أما اللفظة الثانية فهي لشدتهاوصلابتها وقوتهالاتدل على المعنى الذي ينشد في الحب ، فلو صيغت له ، لشعرنا بحكم الذوق اللغوي ، أنها صيغت لقلب قد مر بتجارب عديدة في ميدان الحب ، ولذلك لا يستدعي أي شفقة أو عطف • وعكسه صاحب القلب الغض الطري الخالي من كل حب •

ولكي أثبت هذه النظريةأضرب مثلا بيدين لرجلين مختلفي الحرفة•أحدهما يستعمل يده في الاعمال الخشنة كالحدادة ، والنجارة ، والاحتطاب ، ونحو ذلك ، والآخر لايستعملها أصلا أو يستعملها في هذه الامور اللينة كالكتابة ونحوها • فالأول تكون يده صلبة في مثل الحديد ، لا يؤثر في جلدتها شيءحتى رؤوس الابر ، بينما يد الثاني تتأثر بأدنى شيء لرقتها ونعومتها • والقلب في حالتيه كهذه اليد أو تلك •

وهذا الذيأثبته في إدراك المعاني واسرارها يعتمد على الذوق اللغوي • ولغتنا العربية مبنية على الذوق حتى في الالفاظ التي لم يسمع بها أصلا • (فقد رووا عن أبي حاتم أنه سأل أم الهيثم الاعرابية عن نوع الحب يسمى (اسفيوش): ما اسمه بالعربية ؟ فقالت أرني منه حبات • فأراها • فأفكرت ساعة ثم قالت : هذه البحدق • ولم يسمع ذلك من غيرها)[1]

والذوق يستسيغ هذه اللفظة لمثل هذا النوع من الحب ، لأن لها نظائر في

---

١ ــ المزهرج ١ ص ٢٥٢ ــ تاريخ العرب ج ١ ص ١٣١ .

اللغة العربية ، إما دخيلا كالفستق ، أو أصيلا كالبندق :

والمتصفح للسان العربي فيما رواه الاقدمون عن فحول الشعراء أيام النضج يجد هذه الظاهرة النفسية التي يستشعرها الشاعر بحكم ذوقه العربي الصافي ، فيعبر عنها حسب مناسباتها • وما يلائمها في أحوالها الظاهرة والباطنة •

فمثلا كان الشاعر العربي القديم لا يكثر من ذكر الحصان • مع أنه كان يعيش مع الخيل ، ويفتخر بها ويكثر فيها من قول الشعر ، لأن الميادين التي يخوض فيها معاركه لا تتطلب منه إلا السرعة والخفة ، لذلك كان يسمى مركوبه بالجواد ، أو الهطال ، أو السبوح أو ماشابه هذه الاوصاف التي تفيد الكر والفر ، والاقدام والاحجام • والسرعة في كل ذلك وقلما نجد لفظة الحصان • فإذا عثرنا عليها فهي للاقتحام والصبر على المهالك ، أو ما يسمى بالمغامرة أو بعملية انتحار ، كما هو شائع هذا التعبير في أيامنا هذه •

ويتجلى هذا المعنى في قول عنترة بن شداد ، يخاطب أبا عبلة الذي فر بابنته الى بني شيبان ليحتمي بهم

فلا تحسبوا أن الجيوش تردني ... اذا جلت في أكنافهم بحصاني
دعوا الموت يأتيني على أي صورة ... أتى لأريه موقفي وطعاني[1]

وقد فصلت الدكتورة سهير القلماوي هذا المعنى النفسي الذي أساسه الذوق اللغوي فقالت • (••• هذا المتنبي مثلا يقول لكافور عندما أصابته الحمى في مصر وقد يئس من أن يفي له كافور بشيء مما وعد •

وما في طبه أني جواد ... أضر بجسمه طول الجمام[2]

---

١ ـ ديوان عنترة بن شداد ص ١٧٤ انظر حلية الفرسان وشعار الشجعان
٢ ـ ديوان المتنبي ج٤ ـ ص ١٤٨ ـ الجمام : أن يترك الفرس فلا يركب .

قالت الدكتورة : (ماضر لو استعمل كلمة حصان بدل جواد ؟ ان الوزن نفسه لم يكن ليتغير أو يتأثر • ولكنه استعمل لفظ جواد ، أي حصان ممتاز ، قد عني به صاحبه ورفهه وادخره لكل ما يريد من متع الركوب)[1] •

وكانت هذه المعاني النفسية تخالج الرافعي أثناء كتابته ، وفي سبحاتـه ، فيعيها بشعوره الباطن ، ثم لايلبث أن يبرزها كما أحسها ، وشعر بها • وكان يملك الوسائل اللغوية ، والاسلوبية للتعبير عنها • وساعده على ذلك أن في طبعه نزعة التفوق • هذه النزعة التي توحي بأنه لم يخلق للأدب واللغة ليكون فيهما كبعض الادباء اللغويين ، بل ليكون فيهما الامام والرائد ، بل ربما حدثته نفسه أن يكون صاحب مدرسة خاصة • فقد شاع في عصره هذا الاصطلاح الجديد ، فقالوا المدرسة الاتباعية ، والمدرسة الخيالية ، وقالوا مدرسة أبي تمام، ومدرسة البحتري • وكذلك حاولوا أن يجعلوا للمتأخرين مدارس خاصة بهم، فمدرسة للبارودي ، ومدرسة لشوقي ، ومدرسة لشعراء أبولو •

وفي هذا المعنى قال : (والامام ينبت في آداب عصره فكرا ورأيا ، ويزيد فيها قوة وابداعا ، ويزيد ماضيها بأنه في نهايته ، ومستقبلها بأنه في بدايته ، فيكـون كالتعديل بين الازمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهة أخرى • لأن هذا الامام إنما يختار لاظهار قوة الوجود الانساني من بعض وجوهها وإثبات شمولهـا وإحاطتها ، كأنه آية من آيات الجنس ، يأنس الجنس فيها الى كماله البعيد ، ويتلقى منه حكم التمام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم المأمول على الوقع ، ويجد فيه قومه كما يجدون في الحقيقة التي لايكابر عندها متنطع بتأويل)[2] •

ولعل هذه المعاني التي ذكرها الرافعي وأشعرنا بأنها من خصائصه هي التي حفزته الى ان يقول في موضع آخر ، وهو يتحدث عن الادب : والاديب (هـو

---

١ ـ العالم بين دفتي كتاب ص ٤٦ •
٢ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٤٤٤ •

إنسان يدله الجمال على نفسه ليدل غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى ، وأضيف اليه في إحساسه قوة إنشاء الاحساس في غيره . فأساس عمله دائما أن يزيد على كل فكرة صورة لها ، ويزيد على كل صورة فكرة فيها . فهو يبدع المعاني للأشكال الجامدة ، فيوجد الحياة فيها . ويبدع الاشكال للمعاني المجردة فيوجدها في الحياة ، فكأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني)[1]

ان طبع الرافعي القوي هو الذي يسيطر على تفكيره وشعوره ، حتى أصبح لا يعبر عن نفسه الا بالالفاظ التي يرى فيها الترجمان الحقيقي له .

فقد أراد في بعض سبحاته الفكرية أن يشبه العقل بأقوى سرعة ممكنة فلم يجد الا ضربة الجناح . قال : (وجعلت أتأمل على يقين الخبرة وأشهد على حق النظر ، عجيبة هذا العقل بوثبة أسرع من ضربة الجناح)[2] .

ولا أظن الرافعي سها عن سرعة البرق ، ولمح البصر ، وانما أراد أن يجمع بين السرعة والقوة .

٢ ـ ومن خصائصه الاسلوبية خاصة التفلسف ، لقد حاول غير مرة أيام كان ينظم الشعر ، وهو شاب صغير ، أن ينظم أبياتا في الفلسفة مثل (فلسفة العذاب)[3] و (السريرة وفلسفتها)[4] وكذلك فعل حين عدل عن الشعر الى النثر . فقد كتب في موضوعات فلسفية كثيرة مثل (فلسفة القصة)[5] و(فلسفة الصيام)[6] ونسمعه يقول (استوحينا فلسفة المسجد في مقالات كثيرة)[7]

---

١ ـ وحي القلم ج٣ص ٢٥٠ .
٢ ـ السحاب الاحمر ص ٩٧ .
٣ ـ ديوان النظرات ص ٢٥٠ .
٤ ـ ديوان النظرات ص ٧٩ .
٥ ـ وحي القلم ج٣ ص ٣٠٠ .
٦ ـ وحي القلم ج ٢ ص ٧١ .
٧ ـ وحي القلم ج ٣ ص ١٦٤ .

ويقول وهو يتحدث عن العصبية (سنبسط فلسفة هذا المعنى في الفصل التالي)[1]

وقد تجاوز ذلك الى أن شرع في تأليف الكتب والمقالات الادبية في المعاني الفلسفية فقال : (أسرار الاعجاز أولا وقبل كل شيء ، فهذا بحث فلسفي هائل ، وهو أشق وألذ ما أكتب فيه)[2]

وقال : (وسأكتب ان شاء الله مقالا آخر عن المعنى الفلسفي للأدب)[3]

ان هذه المعاني الفلسفية التي أكثر الرافعي من ترددادها تنبىء عما كان يخالج نفسه من حب التفوق على جميع أدباء عصره بما فيهم من عرف بالتفكير الفلسفي كالعقاد ، حتى يجمع بين خاصتي الاديب والفيلسوف •

وقد فطن الدكتور طه حسين الى هذه الفكرة التي تخالج الرافعي ، فعبر عنها في مقارنة عقدها بين العقاد والرافعي بكلمة قال فيها : (ومن غريب الامر أن لدينا في مصر رجلين : أحدهما فيلسوف الجمال والحب، والآخر أديب الجمال والحب • فأما الاول فهو العقاد ••• وأما الثاني فهو الرافعي • وأنت تظن أن الفلسفة أشد عسرا على الفهم من الادب ، وأنك تستطيع أن تفهم الاديب في يسر ، بل يجب أن تفهمه في يسر ، وأنك تعذر الفيلسوف اذا وجدت مشقة في فهم فلسفته ، ولكن الله أراد أن تنعكس الاية هذه المرة فتفهم فلسفة العقاد في الجمال والحب ، أو مايسميه العقاد فلسفة الجمال والحب ، ولاتفهم أدب الرافعي في الجمال والحب • وإذا أراد الله شيئا فلا مرد له[4]

إني لست في معرض مناقشة الآراء ، إنما أريد أن أثبت أن الطبقة المثقفة فطنت لخلجات الرافعي وأمانيه ، من أنه يحاول أن يكون أديبا فيلسوفا ، فقارنوه بمن اشتهر بالفلسفة والادب •

---

١ ــ اعجاز القرآن ص ٩٢ .
٢ ــ رسائل الرافعي ص ٢٠٣ .
٣ ــ رسائل الرافعي ص ٢٠٣ .
٤ ــ حديث الاربعاء ج٣ ص١٢٣ .

قال الزيات عن هذه الخاصة الاسلوبية التي اشتهر بها الرافعي : (والرافعي كان يقتصد في أسلوبه لانه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه مايجعله أشبه بومضات الروح ونبضات القلب ، ونفحات العافية ، فهو يفصل اللفظ على قدر المعنى تفصيل (المودة) الفاشية اليوم ، يقصر ولايطول ، ويضيق ولا يتسع ، ولكنه على ضيقه وقصره يظهر الجسم الجميل على أتم مايكون حسنا وأناقة .

وهو بعد ذلك أسلوب جيد التقسيم ، سليم المنطق ، إلا انه بعيد الاشارة ، يتستر جماله على القارىء العجلان ، والفهم البطيء . فإذا روى فيه الناقد المتذوق انكشف له في كل كلمة سر ، وطالعته في كل فقرة آية . ولعل النفس الشاعرة لاتجد فيه من أنوثة العاطفة ماتجده النفس المنطقية من فحولة الفكرة . ومرجع ذلك في الرافعي غلبة الفكر على الشعور وسطوةالفن على الطبيعة)[1] .

٣ ـ والسمة البارزة في أسلوب الرافعي الجرس الموسيقي . فقد كان يعنى بالنغمة كثيرا . من ذلك هذه الفقرات التي تنقلنا الى حيث عباد الله الصالحون وهم يرتلون دعاءهم وصلواتهم . كقوله في قصة (بنته الصغيرة) التي نحلها مالك بن دينار والحسن البصري وموضوعها الزواج وفضله على المرأة . قال : (ذاك يوم امتد فيه الموت وكبر ، وانكمشت فيه الحياة وصغرت ، وتحاقرت الدنيا عن أهلها حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التي يلقى فيها الملوك والصعاليك والأخلاط بين هؤلاء وأولئك ، لا يصغر عنها الصغير ، ولا يكبر عنها الكبير . لابل دون ذلك ، حتى رجعت الدنيا على قدر جيفة حيوان بالعراء ، تنكشف للأبصار عن شوهاء نجسة قد أرمت لا تطاق على النظر ، ولا على الشم ، ولا على اللمس . وماتنفجر إلا عن آفة ، ومايتفجر إلا لعوام الارض)[2]

إن هذه الفقرة (وخاصة آخرها تشعرنا بأن الرافعي كان يتقفى الآية القرآنية

---

١ ــ وحي الرسالة ج ١ ص ٤٤٩ .
٢ ــ وحي القلم ج ١ ص ٢٦٢ .

هذه (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار • وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء • وإن منها لما يهبط من خشية الله)[1] •

وقد لاحظ هذه الميزة كثير من الكتاب والنقاد ، كما لاحظوا عمق تفكيره •

ومن الباحثين الذين جمعوا بين الميزتين الدكتور شوقي ضيف • فقال عن الميزة الاولى : إن الرافعي كان : (يتأثر في نثره العبارة القرآنية في بلاغتها وسموها)[2] •

وقال عن الثانية (وكان يحس كل ماحوله من طبيعة وغير طبيعة • وقد استطاع أن يمتلك ناصية اللغة ، وأن يصرف ألفاظها في يده كما يشاء • وأعانته على ذلك كله عزلة ضربها الصمم من حوله ، فاذا هو يخلص لعالمه الباطني ، يغوص فيه على المعاني الدقيقة فيبرزها • وكان لايزال يتعمقها حتى يحدث فيها ضربا من الفلسفة المنطقية ، وكان ذلك من أهم الاسباب في غموضه والتوائه أحيانا •

والذي لاشك فيه أنه كان يكتب في حذر شديد ، فهو لايكتب كل مايفد على ذهنه بل مازال ينتخب ويختار ، ينتخب المعاني ، ويختار الالفاظ محتاطا في ذلك أشد الاحتياط ، وكأنه لم يكن يريد أن يكون أديبا فحسب ، بل كان يريد أن يكون أديبا ممتازا بفكره العميق وعبارته الدقيقة • ومن ثم آثر في أدبه ومقالاته الجهد العنيف والعناء الشاق ، حتى أصبح حقا راضة المعاني وصاغة الكلام)[3] •

وقال محمد سعيد العريان : (لقد كان ــ رحمه الله ــ بما فيه من اعتداد بالنفس يكتب المقال المصنوع فيقيس لفظه بمعناه ، ويربط أوله بآخره ، ويجمع

---

١ ــ سورة البقرة آية ٧٤ .
٢ ــ الادب العربي المعاصر ص ٢٤٣ .
٣ ــ المصدر السابق ص ٢٥١ .

بين أطرافه كل ماينبض به قلبه من معاني السرور ، والألم ،والرجاء ، واليأس ، والرغبة والحرمان • فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ، ويعيده على سمعه الباطن ، ثم لايلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلا : (أسمعت هذا الشعر ؟ أرأيت شاعرا في العربية يملك من قوة البيان مايجمع به كل هذه المعانــي في قصيدة منظومة)[1] •

٤ ــ وأسلوب الرافعي يكاد يخلومن النكت الطريفة ، ذلك أنه كانصاحب عمل وجد •

والأستاذ العريان ، يصور لنا الرافعي على حالة غير التي ذهبت إليها • إذ يقول : إن الرافعي كان (دائما باسما منبسط الوجه ، يقنع نفسه في كل يوم بأنه في أسعد أيامه)[2] وأن مرحه يعدي الآخرين[3] وخاصة النساء في مجالسهن • إذ كان (له عليهن سحر وفتنة • وهو في هذه المجالس فكه مداعب ، رائق النكتة لا تملك السيدة الرزان في مجلسه الا أن تخرج عن وقارها)[4] •

قد يكون ماذهب اليه العريان صحيحا حين يكون الرافعي مع غيره ، وخاصة النساء لانه مع غيره يستشعر أنه في وقت التسلية ونفض غبار العمل والجد ، أما إذا خلا إلى نفسه فيشعر بالضيق والقلق ، وربما شعر بالكآبة أيضا • ومعنى ذلك أنه كان يبدو في المجتمع مرحا وصاحب نكتة وظرف ، بينما كان عندما يخلو إلى نفسه يشعر بغير قليل من الضيق والسآمة •

ففي رسائله نلاحظ هذه السآمة وهذا الضيق ، لأن رسائله كان يكتبها في صدق كما يشعر بها ، وهي لذلك تصور مشاعره أحسن تصوير • فمثلا نراه

---

١ ــ حياة الرافعي ص ٧٢ .
٢ ــ المصدر السابق ص ٢٣٤ .
٣ ــ المصدر السابق ص ٢٦٤ .
٤ ــ حياة الرافعي ص ٩٨ .

يتبرم بالمجتمع ، ويرى نفسه مظلوما أو غير منصف في زمانه ، وقد يستقبح الزمن الذي هو فيه .

وفي أدبه لانكاد نجد له إلا نكتتين أو ثلاثا ، ولكنها لاتبعث على شيء مما ألفه الناس في أدبائهم من الضحك أو الابتسام . وكل ماهنالك ، يشعر قارئ هذه النكت بأنها محاولة تعبر عن صاحبها .

فمثلا : علق على حافظ ابراهيم في مثل هذه المناسبة بقوله : (ولست أدري أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الاخرى أم لا ؟ فقد عرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها أنت بكر أم أيش ؟

فقالت : أنا (أم أيش) يا أمير المؤمنين ...)[1]

ما عسى يكون شعورنا لو قرأنا هذه النادره في كتب الجاحظ عن الجاحظ أو في كتب المازني عن المازني ؟

إن الروح وإن استغلق أمره وخفي كنهه فله اتصال وثيق بالمشاعر والقلب . فالمرء يرى ممثلا أمامه قد قام بحركة ما ، فإذا هو في نظره المبدع الموهوب . ويرى آخر يقوم بمثل الحركة نفسها ، ولكنه لا يبلغ مبلغ الأول ، وما ذلك إلا لصفة كامنة في الأول ، دون الثاني ، تدركها جوارحنا ، وأرواحنا ، ولكنا لا نجد لها تفسيرا عقليا ، أو تعليلا منطقيا .

ولعل أحسن مثال يبين لنا منزلة الرافعي الوجدانية والفكرية هذا البيت الذي قاله حافظ .

(أنا لم أرزق محبتها   إنما للعبد مارزقا)

قال الرافعي إن حافظ أخذ يعجبه (من بلاغة قوله : (لم أرزق) وأنها مع

---

١ ـ وحي القلم ج ٣ ص ٣٣٨ .

ذلك ضعيفة مبتذلة تجري في منطق كل عامي)[1] •

بينما الذي له طبع مرح حقيقة سواء في السراء أو الضراء • وسواء مع نفسه أو مع غيره ، فإنه ليعجب بالبيت أشد الاعجاب • وقد لا يتمالك عن ابتسامة أو ضحكة • ولكن الابتسامة لا تمضي إلا قليلا حتى تقف شاحبة مرة • أما الضحكة فقد تصبح قهقهة صاخبة ، وذلك حسب شعور القارىء وذوقه • لأنه في الحالة الأولى وهو يبتسم تلك الابتسامة قد أعجب بالبيت أيما إعجاب • ولما انفرجت شفتاه لتعبرا عن شعوره وإحساسه أدرك فجأة بأن وراء المعنى اللغوي للبيت معنى آخر يتصل بحياة الشاعر نفسه • فوقف يتأمل ، ووقفت معه ابتسامته وقفتها تلك لتعبر عما يخالج وجدانه ومشاعره ، ذلك أن حافظا كان ذا حظ عاثر في هذه الحياة ، قليل المال ، قليل العناية بنفسه ، كثير الفوضى في حياته ، لم يستطع أن ينظم نفسه في حياته ليجتاز ما يعتريه من العقبات ، ولم يرسم منهجا صالحا يسير عليه ، مع أنه كان يجد من قومه وبني عشيرته كل حفاوة وتشجيع ومؤازرة[2] • فبقي طول حياته يتأرجح بين الفاقة أو ما يشبه الفاقة بالنسبة لعظيم مثله ، وبين الاهمال وعدم الاكتراث بالنظم وقوانين الحياة• وقد عبر عن هذا المعنى في إحدى قصائده فقال :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى •••[3] •

رجل هذه صفاته يطمع فيما يطمع فيه الآخرون • وكأن الحب لا شروطه، وكأن الفانيات الفاتنات الساحرات لا حواجز دونهن ولا عقبات • بلى إن للحب شروطه ، وان للفتيات شروطهن أيضا •

سار حافظ في الشطر الاول من البيت على الشعور الأول ، ثم سرعان

---

١ — وحي القلم ٣٢٦ .
٢ — انظر مجلة سركيس العددان ١٢ — ١٣ سنة ١٩١٢ .
٣ — ديوان حافظ ج١ ص ٢٢١ .

ما اصطدم بالحقيقة فعبر في الشطر الثاني من البيت عن واقعه كما هو •

أما الذي لا يعرف شيئا عن حالة حافظ الخاصة ، فإنه يسير في ضحكته تلك لأنه يتخيل المعنى من الناحية المجازية لا الواقعية •

فهذا شاعر طمع في شيء ، فلما أخفق فيه تخيل عبدا هو ذاك الذي قال فيه الفقهاء ما قالوا • فإذا شاعرنا ينتهي الى نتيجة طبيعية واقعية (إنما للعبد مارزقا) •

أما أن يستضعف الرافعي البيت أو كلمة الرزق ، فذلك يرجع فيما أعتقد إلى طبع الرافعي المفعم بالإيمان من جهة ، وإلى المعنى اللغوي من جهة ثانية •

قد يرتضي الرافعي كلمة دينية مثل الحظ أو التوفيق ليرتفع الشاعر عن الألفاظ المستعملة • وليحقق المعنى اللغوي للحب من جهة أخرى ، لأن الحب ليس رزقا يرزق أو يسترزق ، إنما هو أمر معنوي ، فسبيله الألفاظ المعنوية لا المادية •

قد يقال : إن للرافعي نكت لطيفة كثيرة تثير الاعجاب • ويستدل بأمثلة عديدة مما هو منبث في كتب الرافعي ومقالاته •

إننا لا ننكر شيئا من ذلك، ولكن الذي ننكره أن تكون نكت الرافعي شديدة التأثير في النفس •

غير أننا نلاحظ شيئا لا بد منه لنضع الحق في نصابه ، وهو أن الرافعي إذا تحدث عن المرأة أو تحدث عن المنحرفين ، وساق لذلك أمثلة جدية للبرهنة على صحة نظريته • فهنا تأتي نكته وتبلغ القمة ، وهو لا يقصد إلا الجد والاستدلال على صحة رأيه ، أما إذا أراد أن يسوق نكتة كما يفعل غيره فلا نشعر بأثر هذه النكتة بقدر ما نشعر بصاحبها من ورائها ، يسوقها سوقا ، ومن حيث هي ، جامدة جافة لا تحرك ساكنا •

جالس الرافعي امرأة وأخذ يحاورها وتحاوره في أمور • ويقول لها وتقول له:

(كــلا ؟ ما تبلغ بي الغفلة هذا المبلغ . ولقد درست وبحثت . وفي هذا الرأس ما في رأس رجل عالم ، فلا تظن غيره)[1] .

إن امرأة تتحدث عن نفسها هذا الحديث، وربما تخيلها القارىء على صورة من الصور المألوفة عن المرأة ، ترفع يدها مشيرة إلى رأسها وهي تقول : (وفي هذا الرأس ما في رأس رجل عالم فلا تظن غيره) ثم كلمة فلا تظن غيره لها دلالتها . ان الرافعي لم يأت بها إلا لدلالتها . وما هي ؟

أدركت هذه المرأة ــ وهي ربيطة ــ أن الرافعي ينظر إليها نظرة ارتياب وشك ، فأجابته بما يزيل شكه أو يقلل منه على الأقل (فلا تظن غيره) .

ونكتة من النوع الثاني قوله : (ولكنك مع ذلك واجد في الأرض من يتسكع ويحمل الشمعة ليفتش في ضوئها عن النجم العظيم)[2] .

يقول هذا الكلام في الذين يجهلون (حركة الفكر الأعظم القائم بالارادة الأزلية) .

ولعل أحسن مثال للنكتة المتعمدة عند الرافعي هي هذه التي شبه فيهـا السياسة الملتوية في اتجاهها بأنف الثعلب في اتجاهه دائما الى رائحة الدجاج .

قال وهو يتحدث عن شوقي وشعره (وعندي أن كل ما في هذا الرجل من المتناقضات فمرجعه إلى آثار السياسة الملتــوية التي ردت بطبيعة القوة عــن وجوهها ، مهتدية في كل مجاهلها بإبرة مغناطيسية عجيبة ، لا يشبهها في الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجه دائما الى رائحة الدجاج)[3] .

ومع ذلك فإننا لا نجد فيها ما نجده عند غيره ممن اشتهروا بالمرح والابداع

---

١ ــ السحاب الاحمر ص ٧٥ .
٢ ــ رسائل الاحزان ص ١١٠ .
٣ ــ وحي القلم ج٣ ص ٣٤٩ .

في هذا النوع من الأسلوب الضاحك .

٥ ــ وفي هذا المثال لاحظنا كلمة السياسة ، والثعلب وأنفه . فما السبب في هذه السياسة أو هذا الثعلب ؟

إن الرافعي يتحدث عن شوقي الشاعر ، وما دخل السياسة والثعلب في الموضوع ؟ لقد مر بنا في عدة مناسبات مختلفة[1] أن الرافعي كان يشعر في قرارة نفسه بأنه جمع بين الأدب والسياسة ، وأنه لا يقل عن أحد من هؤلاء الحكام الذين تبوأوا مقاعد الحكم . بل يشعر بأنه أعلى منهم ثقافة وأحسن كفاءة ، لذلك أكثر من ترداد كلمة السياسة وتحليلها بألفاظ تدعو إلى التأمل والتفكير في أمر الرافعي وموقفه من هؤلاء المنعمين بالمناصب السياسية .

وما كل ذلك إلا ليعبر عن نفسه ، وليشعر قراءه أيضا بأنه فوق الحكام وفوق السياسيين وإن رمى به الزمن هذه الرمية ، وتركه على حالة هي هذه التي هو عليها ، موظف صغير في محكمة نائية ، وأجر ضئيل .

إن هذا الشعور هو الذي جعله يخلق المناسبات ليعبر عما يجيش في نفسه حول السياسة والسياسيين .

وكان قادرا أن يقول كلمة في السياسة وهو يتحدث عن شوقي ، ولكنه لماذا أقحم الثعلب وأنفه ؟ وما هذه الابرة المغناطيسية ؟ ان هذه الألفاظ كلها مقتسرة اقحمها الرافعي ليبرز ما تكنه نفسه .

لقد تحدثت عن هذه الظاهرة النفسية في ثلاث مناسبات سابقة ، وأكررها هنا مرة أخرى ، لأني أريد أن أوضح نزعات الرافعي ومشاعره حتى تبدو جلية واضحة . والغريب في الأمر أن الرافعي إذا تحدث عن غير السياسة، تحدث بأسلوب يشبه سائر الأساليب المختلفة الأخرى . أما إذا تحدث عن السياسة ، فترى له أسلوبا

---

١ ــ انظر ص ١١ و ١٨٥ من هذا البحث .

عجيبا ينم عن نفسه ومشاعره، لأنه يجهد نفسه ، ويحاول أن يتعمق المعنى ويجلو الغامض من لفظ السياسة ، وكأنها أمر من الأمور الغامضة التي لا يدرك كنهها إلا من أوتي حظا وافرا من الدهاء والعلم .

ويتجلى هذا بوضوح في تعليق له على بيتين قالهما شوقي في قصيدته المشهورة التي أنشأها بمناسبة مشروع ٢٨ فبراير المتعلق بالحماية المصرية وهما :

قالوا الحماية زالت، قلت لا عجب   قد كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت   كنانة الله حزما يقطع الذنبا[١]

قال الرافعي : (قلنا : فإذا قطع رأس الحماية ، وبقيت منها بقية ما ، ذنب أو يد أو رجل ، فإن هذه البقية في لغة السياسة التي تنقد الألفاظ وحروفها ونقط حروفها ، لن تكون ذنبا ولا يدا ولا رجلا ، بل هي « رأس الحماية » بعينه)[٢] .

إن المرء ليتساءل : أي شيء تركه الشاعر شوقي ، وقد أجمل المعنى كله في قطع رأس الحماية وذنبها ، حتى يتدخل الرافعي ويوهمنا بأن الشاعر خفي عليه أمر من أمور السياسة، هو في هذه الجزئيات الدقيقة، والتي لها خطرها وعواقبها، إن لم يتفادى أمرها .

لم تغب عن الشاعر هذه المعاني التي ذكرها الرافعي ، فقد أجملها واستوعبها، ولكن الرافعي أراد أن يخبرنا عن نفسه وعن فهمه لهذه المعاني السياسية التي كانت في عصره مدعاة للافتخار ، وميدانا للتنافس على الحكم .

٦ ــ وميزة أخرى تبدو في أسلوب الرافعي ، وهي قدرته على الاستفادة من الكلمات الاصطلاحية والعلمية مثل قوله (والعجيب أنك إذا اعترضت الشعر

---

١ ــ الشوقيات ج١ ص ٨٢ .
٢ ــ وحي القلم ج٣ ص ٣٥٩ .

العربي من القرن العاشر للهجرة إلى القرن الثالث عشر ••• رأيته نازلا من عصر إلى عصر بتدريج من الضعيف إلى الأضعف ، حتى كأنما ينحط بقـوة طبيعية كقوة الجذب ، كلما هبطت شيئا أسرعت شيئا إلى أن تلصق بالأرض)[١] •

وقوله : (إن في نفس هذا الانسان أعماقا بعيدة تنحدر أغوارها من مهوى إلى مهوى إلى مالا نعلم ، لأن النفس ما برحت جزءا من الأزل ، كبعض النور من النور ينفصل عنه وهو مستقر فيه)[٢] •

وقوله (وكل خلل في النظام الاجتماعي ، فإنما مرده إلى طغيان بعض الأفراد وجنوحهم ، إلى أن تكون شخصية الواحد منهم مـن الكبر والعظمة ، بحيث توازن المجموع كله ، أو أكثر المجموع • بيد أن هذه الموازنة الفردية متى اتفقت كانت إخلالا بالموازنة الاجتماعية ، لأنها تجعل كل حركة من هذا الفرد ، زلزلة في المجموع ، كالثقل في إحدى كفتي الميزان ، إن خف سقطت الكفة الأخرى ، وإن ثقل شالت ، وهو السقوط إلى فوق)[٣] •

وما نشك في أن الرافعي استوحى هذا المعنى من تفاحة نيوتون[٤] الذي تساءل إثر سقوط التفاحة إلى الأرض ، لماذا لا تسقط إلى فوق نحو القمر •

وقوله في سر الجمال : (لا أرى سر الجمال إلا أنه شيء حقيقي ، من تلك القوة السماوية التي نسميها الجاذبية ، فكأن الله حين يبدع الجميل يرسل في دمه مع الذرة الانسانية ذرة من مادة الكواكب ، هي سر عشقه وجاذبيته ، وهي بعينها معنى تلك القوة التي لا يزال الجميل يخضع بها ، كما يخضع الفلك المدار ،

---

١ – وحي القلم ج٣ ص ٣٧٢ •
٢ – رسائل الاحزان ص ١١١ •
٣ – المساكين ص ٧٢ •
٤ – عالم انكليزي في الحساب والفيزيا والفلك والجاذبية ١٦٤٢–١٧٢٧ كان جالسا تحت شجرة تفاح فسقطت تفاحة عند رجليه فتساءل : لماذا لاتسقط هذه التفاحة الى اعلى نحو القمر ؟ ومن هذا الحادث البسيط استطاع بعد ذلك أن يكتشف أشياء جديدة في الجاذبية وتحليل النور •

ويتسلط على عاشقه كما تتسلط الأقدار ، ويبث في الدم الانساني مع مادة الدم مادة من النار)[1] •

في هذه الفقرة الصغيرة قرأنا أشياء كثيرة فيما يتعلق بالمصطلحات العلمية ، قرأنا الذرة ، الجاذبية ، الكواكب المدارة ، ومادة الدم ، ومادة النار ، وعلاقة كل لفظة بأختها وتأثير احداها في الأخرى •

وتحدث في موضوع آخر عن المادة حديثا يدعو إلى التأمل والاعجاب ، فقد أقحم فيها كلمة الكمياء بصريح اللفظ ، ومع ذلك لا نستشعر ثقلا ، ولا ركاكة في الأسلوب ، لأنه وضعها حيث مكانها ، فجاءت سلسة لينة ومعبرة أحسن تعبير ، حتى أننا لا نكاد نشعر بها ونحن نقرأها (وقلما لصق الشيطان بقلب ، مالم تكن في هذا القلب مادة من اللذة أو الكآبة ، فكلتاهما كمياء الخطيئة والمعصية والشك)[2] •

٧ ــ وتكثر في أسلوب الرافعي المعاني الدينية ، يتناولها بطريقة تحليلية شاملة كقوله : (جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين ، ونذهب غير مخيرين ، إن طوعا ، وإن كرها ، فمد يدك بالرضا والمتابعة للاقدار ، أو انزعها إن شئت ، فإنك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضا ما أنت على الغضب ، ولن تعرف في مذاهب القدر إذا أنت أقبلت أو أدبرت أي وجهيك هو الوجه • فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك ، أو مدبرا والمنفعة أمامك • والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيهما شاء)[3] •

إنها معاني دينية في أسلوب أدبي ، يقرأها من يقرأها فيستفيد فائدتين الى جانب الفوائد الأخرى من لغة وأسلوب •••

---

١ ــ رسائل الاحزان ص ١١٣ .
٢ ــ السحاب الاحمر ص ٧٠ .
٣ ــ رسائل الاحزان ص ١٧

٨ ـ وإلى جانب كل ما قدمت من خصائصه الأسلوبية ، توجد أيضا كثير من هذه الخصائص مثل التهويل ، والاكثار من التشبيهات والاستعارات ، والاقتباسات ، وإدخال الحكم والأمثال في بيانه ، وغير هذه وتلك كثير مما لا مجال لاستيعابه في مثل هذه الرسالة المحددة الجوانب ، لذلك سأكتفي بالاشارة إلى أهم ميزة في الرافعي ، وهي شخصيته في أسلوبه .

إن الرافعي إذا كتب في اللغة برز إماما في اللغة ، وإذا كتب في النقد رأيت الرافعي ناقدا ، أو كتب في الأدب أو في الحب أو في المعاني الفلسفية ، رأيته يتقمص شخصية ما يكتب . فهو أديب حين يكتب الأدب ، وفيلسوف حين يتعمق المعاني الفلسفية ، وعاشق حين يتناول معاني الحب ...

واكتفى بمثال واحد للبرهنة على ما قدمت ، وليكن هذا المثال في القصص التاريخية كالتي مرت بنا في وحي القلم . سنرى الرافعي وهو يتحدث عن الأئمة الأولين كأنه عاش بينهم دهرا من الزمن ، ثم بقي بعدهم ـ وقد انقرضوا ـ ليخبر الأجيال الناشئة عما كان عليه السابقون الأولون من عادات وأخبار وحوادث .

يتناول قصة من هذه القصص بحديث شيق جذاب ، يبدأه بطريقة خاصة ، وما يكاد يخطو خطوة قصيرة حتى يتشعب الحديث ، وكلما سار شوطا ازداد الحديث تشعبا . فاذا القارىء قد نسي نفسه ، ونسي الرافعي الأديب ، وعاش بين أقوام هي هذه حالهم وأخبارهم ، وهذه عاداتهم وتقاليدهم . وما ينفك يعيش معهم حتى يرجع به الرافعي القاص وقد انتهى من قصته وألم بها من جميع أطرافها .

وهنا تعتري القارىء استغراقة عميقة في هذا الرافعي ، فيتساءل : هل هذا الرافعي أديب أم قاص ؟ وإذا كان قاصا أكان شيخا من بقايا الدهور الغابرة كان مع أولئك الذين انقرضوا ، وغفلت عنه الايام لينقل إلينا أخبار الأولين كما شاهدها ؟ أم أن هذا الرافعي شيء آخر يفوق العقل ؟

لنقرأ له قصة (زوجة إمام) ، وهي من القصص التي أنشأها في أمـور الزواج • يقول : (جلس جماعة أصحاب الحديث في مسجد الكوفة يتَنَظَّرون قدوم شيخهم الامـام (أبي محمد سليمان الأعمش[1]) ليسمعوا منه الحديث فأبطأ عليهم • فقال منهم قائل : هلموا نتحدث عن الشيخ فنكون معه وليس معنا• فقال أبو معاوية الضرير : إلى أن يكون معنا ولسنا معه• فخطرت ابتسامة ضعيفة تهتز على أفواه الجماعة ، لم تبلغ الضحك ، ومرت لم تسمـع ، وكأنها لم تر ، وانطلقت من المباح المعفو عنه • ولكن أكبرهـا أبو عتاب منصور بن المعتمر ، فقال : ويلك يا أبا معاوية ؟ أتتندر بالشيخ وهو منذ الستين سنة لم تفته التكبيرة الأولى في هذا المسجد ، وعلى أنه محدث الكوفة وعالمها•••)[2] •

قبل أن نسير في هذه القصة خطوة أخرى ، نلاحظ الطريقة التي بـدأ بها القصة • ثم كيف تشعب بها من أول وهلة • ثم ما تخللها من بعض الألفاظ التي لا يتنبه إليها إلا القليلون ، مثل الابتسامة التي لم تبلغ الضحك •

إن الرافعي يعرف حياة الأولين ، ويعرف أسماء الأئمة وأمكنتهم وأزمانهم، وأشهر رواتهم ، ويعرف ما كان يدور بينهم من الحـديث ، وطريقة كلامهـم وحوارهم ، فهؤلاء جماعة من أصحاب الحـديث جلسوا في مسجـد الكوفة ينتظرون شيخهم أبا محمد الأعمش ليسمعوا منه الحديث • ولكن هذا الامام قد أبطأ عليهم ، وفي هذه الحالة ماذا يكون أمر الجماعة؟ أيبقون صامتين خاشعين كالملائكة أم يتحدثون قليلا كالعباد ؟ كانوا عبادا ولكن من عباد الله المتقـين ، فتحدث أحدهم ، فأجابه آخر وكان أعمى • فما إن سمع هؤلاء المتقون كلمة الضرير حتى (خطرت ابتسامة ضعيفة على أفواه الجماعة لم تبلغ الضحك ومرت لم تسمع ، وكأنها لم تر ، وانطلقت من المباح المعفو عنه) •

وما هو السبب الذي دعا الرافعي الى أن يجعل الابتسامة على هذه الصورة،

---

١ ــ ولد ٦١ وتوفي ١٤٨ هـ .
٢ ــ وحي القلم جـ١ ص ١٤٩ .

ضعيفة لم تبلغ الضحك ولم تسمع •• ألأن الجماعة في المسجد ، والمسجد له حرمته ؟ أم أن هناك سرا آخر غير هذا ؟

إن الذي أثار الابتسامة ضرير فلو بلغت هذه الابتسامة درجة الضحك لسمعها ولعرف أنه مصدر الضحك أعني أنه محل الاستهزاء والتندر •

والذي عرف عن أغلب العميان ، سرعة التأثر ، والشك في نوايا الآخرين ، وهو ما لاحظه الرافعي وأشار إليه في بقية القصة ، ولذلك حدد الابتسامة بتلك الحدود الأخلاقية النبيلة •

وملاحظة أخرى قد يمر بها القارىء العجلان دون أن ينتبه لها ، لأن الرافعي أثارها إثارة خفيفة ، ، ثم أسدل عليها ستارا يحجبها ويحول بينها وبين رؤيتها وتبينها ، إلا من أوتي بصيرة وقادة يستشف بها ما وراء الستار •

قال الرافعي : (فقال منهم قائل : هلموا نتحدث عن الشيخ ، فنكون معه وليس معنا ، فقال أبو معاوية الضرير : إلى أن يكون معنا ولسنا معه) •

ثم قال الرافعي : (فخطرت ابتسامة •••) وأخذ في تحليل الابتسامة وتحديدها وترك أمرا هاما ، وهو قول الضرير «إلى أن يكون معنا ولسنا معه» •

فلم أثار الرافعي هذه الظاهرة ؟ ولم تركها بعد ذلك ، وانتقل منها إلى الابتسامة ؟ ثم مامعنى قول الضرير الى أن يكون الشيخ معهم وليسوا معه ؟

إذا كان أغلب العميان يشكون ويظنون الظنون ، ويتأثرون بما يسمعون ، فإنهم إلى جانب ذلك ، يعتقدون أن كثيرا من المبصرين الذين تضمهم المساجد وحلقات الدروس ليسوا إلا هياكل بشرية تسمع ولا تعي ، وهو ما لاحظه الرافعي ، ولكنه أسرع إلى تركه لسبب واحد ، هو أن الرافعي يحترم الأقدمين ويجلهم ، فإذا ذكر تلك الملاحظة الدقيقة ، ذلك أنه أديب غلبت عليه موهبته

الأدبية أولا ، ثم انتصر عليها بالعقل ثانيا ، فتركها وانتقل منها مسرعا إلى تلك الابتسامة .

ويبدو لي أني سأترك بقية القصة ، وأكتفي بهذه الاشارة العابرة لأنتقل الى مسألة شائكة ، وهي تعقيدات الرافعي الأسلوبية فأقول : هل يوجد تعقيد في أسلوب الرافعي ؟

قد يبدو هذا السؤال غريبا ، وهو في الحقيقة غريب . وسنرى ...

إني لازلت أذكر ما قمت به من جمع الفقرات العديدة عن تعقيدات الرافعي في بداية إعداد هذه الرسالة ، ولكن الذي حدث ، أني بعد أن عشت مع الرافعي زمنا ، وانتهيت من الرسالة أو كدت ، لم أجد فيما اخترت من النصوص أي ابهام أو غموض ، فكل كلام الرافعي أصبح عندي واضحا جليا ، لاغموض فيه ولا إبهام .

وإذن ، فكيف السبيل وقد قال النقاد كلمتهم ، وأصدروا حكمهم في أن أسلوب الرافعي معقد . إما للفصل بين المبتدأ والخبر ، أو بسبب التقديم والتأخير ، أو بسبب الحصر ، أوما شاكل ذلك من أنواع التعقيد ؟

رأيت أن أحسن وسيلة للخروج من هذا المأزق ، أن أستدل بأصعب جملة أثبتها النقاد في تعقيدات الرافعي وهي قوله : (من لم تعزه نفسه فلا يصلح إلا أن يكون رجلا لا يصلح)[1] .

قالت الباحثة نعمات فؤاد التي استدلت بهذه الجملة على تعقيدات الرافعي : إنه «يريد أن يقول : من لم تعزه نفسه فلا يصلح أن يكون رجلا» [2] .

إن كلام الباحثة في نظر الرافعي كلام ردده العوام كثيرا ، لذلك ينبغي أن

١ ـ رسائل الاحزان : ص ١٥٣ .
٢ ـ دراسة في ادب الرافعي : ص ٩٣ .

يصاغ في قالب جديد أرقى مما كان عليه عند السوقة • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن الباحثة سلبت للرجل معنى هو من خصائصه، بل من أعز خصائصه، إذا لم يكن الرجل صالحا أن يكون رجلا ؟ فماذا بقي له في الحياة ؟ وفي أي شيء سيصلح وقد فقد خاصته ؟

إن الرافعي ترك الرجل على حاله كما هو ، وما سلبه إلا صفة الصلاح وحدها • لأنه يدرك تمام الادراك معنى سلب الخصائص المميزة للرجل •

تعقيب (١)

وبعد الذي قدمت ، أقول كلمتين • الأولى أن لا تعقيد في أسلوب الرافعي إطلاقا • والثانية أن هذه الرسالة محددة المنهج والموضوع ، ليس لها أن تفي جميع خصائص الرافعي ونزعاته وميادينه الفسيحة التي طرقها ، وكان في بعضها إماما ، وفي بعضها رائدا ، وفي بعضها الآخر فارسا مغوارا •

وأنى لهذه الرسالة المحددة أن تفي بكل ذلك ، والرافعي هو من هو في كل فن وعلم ، فهو إنساني في أدبه ، أخلاقي في سلوكه وعقيدته وأدبه أيضا • ثم اتباعي مرة ، وإبداعي مرة أخرى ، وواقعي أو التزامي مرة ثالثة ، وفيلسوف تارة ، ومصلح تارة ثانية ، وهو في كل ذلك جندي وضع نفسه تحت السلاح ليدافع عن اللغة أو ليحارب أعداء اللغة •

ولو قورن الرافعي بأكبر أديب أو كاتب عالمي لكان الرافعي في القمة وغيره في سفح الجبل • ومن جمع من الأدباء العالميين ما جمع الرافعي من خصائص ومميزات ؟ فاذا اشتهر أحدهم بميزة اشتهر غيره بميزة أخرى غير التي اشتهر بها الأول ، والثالث ، والرابع ••• أما الرافعي فقد اشتهر بجميع الخصائص الأدبية والفنية واللغوية والفلسفية •••

---

١ — هذا التعقيب لا يوجد في الاصل الذي قدم للمناقشة ، والعلة ستتضح أثناء قراءته .

وظاهرة أخرى تلاحظ فيما يكتبه ، فهـو يتقمص شخصية موضوعه إن فلسفة أو لغة أو نقدا أو قصة ، ثم هو لا يكتفي بالتحليل والتعليل ، كشأن هذا الأديب أو ذاك الفيلسوف ، ولا يقتصر على إبداء الرأي والملاحظة كفعل هذا المفكر أو ذاك المصلح ، إنما كان يجمع بين كل ذلك ، يعلل ويحلل أولا ، ثـم يدلي بالرأي والنصيحة ثانيا .

وإذن ، لا تزال أمام الباحثين والمؤلفين جوانب عديدة في علم الرافعي وأدبه وخصائصه ونهجه ونزعاته ، لم تطرق إلا طرقا يسيرا ، فهي في حاجة إلى مجهود عظيم لتخرج في موسوعات عديدة ضخمة ، تكشف ما انطـوى من الأسرار في أدب الرافعي ونفس الرافعي وعقل الرافعي .

إن الرافعي ــ رحمه الله ــ كان إماما في اللغة ، وإماما في البيـان ، وإماما في فلسفة الحب والجمال . خدم اللغة العربية خدمة المخلصين المجتهدين القادرين لا العاجزين ، فرفع منارها ، وكشف أسرارها ، وبعثها حية قوية تزخر بالحياة ، وجعلها تقف متعالية شامخة في وجه أي لغة من لغات الدنيا ، ثم قضى رحمه الله .

وكان في حياته يسمع من قومه كلمات قاسية تنال من اسمه وسمعته ، لأنها تمسه في أعز شيء لديه وهو أدبه وأسلوبه . وكان يثور ويغضب ويدافـع عن نفسه وعن أدبه وفنه ، لأنه كان يؤمن بما يكتب وبما يبدع .

قال بعضهم : إن الرافعي من أدباء الألفاظ لا المعاني[1] . وقال أحـدهم : إن أدب الرافعي لا يلائم العصر[2] ثم هو خطر على الشباب[3] وأضاف بعـد أن مات الرافعي ما يوهم أن الرافعي غير وطني ، لأنه كان يمدح ملك مصر[4] .

---

١ ــ الهلال . ابريل ١٩٢٥ .
٢ ــ السياسة ٦ يونيو ١٩٢٣ .
٣ ــ حديث الاربعاء ج٣ ص ١٢٢ .
٤ ــ الجمهورية القاهرية ١٢ مايو ١٩٥٩ .

وفي الحق أن الرافعي مدح الملك[1] ومدح الخليفة العثماني ، والشعراء والأدباء والمصلحين[2] كما مدح في نثره مجنونا[3] وراقصة[4] وزبالا[5] ، ولكنه لم يمدح قط أجنبيا دخيلا ، إنما مدح ملكا[6] مسلما ، كان في ذلك العصر ممن يمدح ، وقد مدحه غير واحد من أساطين الشعر[7] .

كيف يحاسب الرافعي هذا الحساب العسير ، وتطبق عليه مقاييس ما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بينما غيره ممن مدح القصر ومدح الدخلاء الأجانب لا تطبق عليهم هذه المقاييس ، ويكتب عن وطنيتهم وإخلاصهم وتفانيهم في حب الوطن ؟ ألأنهم نظموا قصيدة في سعد زغلول ، أو عن دانشواي ، أو نظموا أناشيد وطنية ؟

إذا كان هؤلاء النقاد حريصين حقا على المبادىء الأساسية للفكر العربي ، ولشرف العلم والأدب ، فلماذا يغضون الطرف عمن يخرج عن هذه المبادىء ؟

ألم يطلعوا على مقال كتبه أحد النابغين في الأدب فقال : إن المهدي المنتظر هو هذا ، ثم بعد مدة من الحكم قال : بل هو هذا ، لأن ذاك غاب سعده ، وأفل نجمه ، ودالت دولته ، وزال حكمه ، واختفى من الميدان السياسي . ولم يغير من

---

١ ــ حياة الرافعي ص ١٦٨ .
٢ ــ ديوان الرافعي .
٣ ــ وحي القلم ج٢ ص ٣٤٠ .
٤ ــ وحي القلم ج٣ ص ١١٩ .
٥ ــ وحي القلم ج١ ص ١٠٧ .
٦ ــ قلت ملكا مسلما ولم اقل ملكا عربيا لان العربي الحقيقي الاصيل هو الذي يؤمن بالمبادىء العربية والاهداف الوطنية ويتفانى في تحقيقها أما ملوك العرب ان هم الا مسلمون جغرافيون .
٧ ــ حياة الرافعي ص ١٦٨ .

المقال الذي نقله من المجلة الى الكتاب إلا اسما باسم[1] .

هذا واحد ، وهناك آخر وآخرون ممن يحملون الأوسمة الفرنسية ، فلماذا لا يرمون بها في وجه فرنسا ، وقد رأوا مجزرتها في شمفريقيا وخاصة الجزائر.

وهل كان الرافعي يرضى بهذه الأوسمة ، لو منحها من دولة سفاحة ؟ وهو الذي قال بعد أن وضع عن كتفيه نعش فقيد الوطن أمين الرافعي (لا أزال أحِسُّ ضغط النعش على فرعي المنكبين . فو الذي لا ينساه الناسي إلا بنوع من ذكره ما أحب ، أن لي بهذه الغمزات أوسمة الدول) .

وعلل رأيه هذا بقوله : (إن آلاما تذكر بالله خير من نعم لا تذكر إلا بالناس)[2] .

ثم بعد هذا هل كان الرافعي يركن إلى الراحة والدعة وإلى الأدب السلمي دون أن يحبر مقالات عن كفاح المكافحين واعتداء المعتدين ، كما فعل عن فلسطين سنة ١٩٣٦[3] .

إننا سمعنا اليوم[4] إذاعات الدنيا تردد خبرا مفاده ، أن الكاتب الوجودي الفرنسي جان بول سارتر منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٦٤ ، ولكنه رفضها صونا لمبادئه التي اعتنقها . وقال : لو منحتها عن قضية الجزائر التي كنت بجانبها بقلمي ولساني أيام حربها ضد بلادي[5] لكان يمكن أن أقبل هذه الجائزة .

---

١ ـ قارن بين ما جاء في مجلة الرسالة ٤ اغسطس ١٩٥٢ وبين ما جاء في وحي الرسالة ج٤ ص ١٧١ السطر الخامس .
٢ ـ ذكرى فقيد الوطن ص ٢٢٦ .
٣ ـ وحي القلم ج٢ ص ٢٤٩ ـ ٢٦٠ .
٤ ـ ٢٣ اكتوبر ١٩٦٤ .
٥ ـ انظر الاداب نيسان ١٩٥٨ ص ٣ .

إني أعتقد أن في إمكان كتابنا العرب أن يرفعوا من منزلتهم التي هم عليها الآن • وفي إمكانهم أن يضعوا أنفسهم حيث يرضى العلم وشرف العلم ، وذلك بأن ينصفوا أنفسهم ، وإنصافهم لأنفسهم ، في أن يكفوا عن تملق الساسة ، وينظروا إلى العصر الذي نحن فيه ــ إننا في النصف الثاني من القرن العشرين ــ وأن يستشعروا العزة ، والنبل ، والمروءة ، والتعامي عمن دونهم من السياسيين الجهلة ، كما فعل جان بول سارتر حين وقف بقلمه وأفكاره ضد بلاده في حرب الجزائر ، وحين رفض الجائزة العالمية لأنها لاتعبر عن مبادئه كما يجب[1] •

وإذا كانت المقاييس الوطنية عند هؤلاء النقاد ، أن يكتب الكاتب كلمة في زعيم وطني ، أو في حادثة قومية ، أو في مناسبة وطنية • فإن الرافعي كتب عن سعد زغلول[2] وعن حادثة دانشواي[3] وعن نسور مصر[4] • وألف أناشيد وطنية كثيرة ، وهي كما نعرف ، السيف القاطع لدابر الدخلاء ، أو كما قال أحد كتاب الأنكليز : من وضع لحنا وطنيا لقومه ، فقد وضع لهم قانونا جديدا في حياتهم[5] •

يخيل إلي أن الرافعي ظلم في حياته ، وظلم بعد مماته • وزاد في فداحة هذا الظلم أن تناوله بالأقلام بعض من لا يحسن تركيب الجمل كما ينبغي ، وفي مقدمتهم نعمات أحمد فؤاد في كتابها (دراسة في أدب الرافعي) •

فقد أعلنت في جرأة أي جرأة : أن الرافعي ليس بشيء في كل شيء •

قالت ذلك مدفوعة بغريزة الثأر ، تثأر من الرافعي الذي توارى في الثراء

---

١ ــ جريدة الشعب الجزائرية ٢٤ /١٠/ ١٩٦٤ •
٢ ــ وحي القلم ج٢ ص ٣٢٧ •
٣ ــ ديوان الرافعي ج٣ ص ٢٠ •
٤ ــ وحي القلم ج٢ ص ٢٧٤ • و ٢٧٨ •
٥ ــ الزهور ديسمبر ١٩١٣ ص ٤١٤ •

لترضي نابغة من نوابغ الفكر العربي ، كان خصما للرافعي ، وندا له في النقد اللاذع[1] . وقد قال لها بعد الثأر بسنوات : اعلمي يانعمات أن (ليس في العلم والأدب مثلك دكتور ولا دكتورة)[2] مع أن نعمات هذه لا تفقه شيئا عن أبنية الكلمة ، ولا عن آداب التأليف . قالت : (والأستاذ سعيد يوافقني)[3] . وكأن الأستاذ سعيد مؤلف حياة الرافعي سنة ١٩٣٩ هو الذي ألف بعدها ليوافقها في الرأي بينما هي لم تؤلف كتابها إلا سنة ١٩٥٣ .

وأغرب من كل ذلك ، فقد خيل إليها أنها بكتابها هذا ستقضي على بعض كتب الرافعي التي تضمها المكتبة العربية ، لأنها غير صالحة للخلود أو للحياة على حد تعبيرها[4] .

ما هكذا يا سعد ترعى الابل ! وما هكذا يا أختاه تؤكل الكتف !



١ ــ قارن : العقاد دراسة وتحية ص ١٧٦ ورسائل الرافعي ص ١٦٠ .

٢ ــ الاهرام ملحق ٢٠ / ١٠ / ١٩٦١ .

٣ ــ دراسة في أدب الرافعي ص ٦٥ .

٤ ــ المصدر السابق ص ٤٧ .

الخاتمة

خلاصـــة :

كان منهجي في هذه الدراسة منهجا موضوعيا ، أملاه علي البحث ومراعاة النسق بين أجزاء المواد ، ولذلك جانبت المنهج التاريخي في أكثر من موضوع •

وكانت المصادر التي اعتمدت عليها كثيرة وكلها عربية ، أهمها كتب الرافعي بأنواعها ، ثم كتاب حيـاة الرافعي ورسائله ، وكتب أخرى هامـة ذكرتها في مواضعها إلى جانب الصحف والمجلات •

وقد قسمت البحث إلى ستة فصول ، تحدثت في الفصل الأول عن حيـاة الرافعي منذ نشأته إلى مماته ، فذكرت ثقافته وأسرته وشيئا من تاريخ هـذه الأسرة ، وأنها نزحت من الشام إلىمصر سنة ١٢٤٣ للهجرة ، لتتولى فيهامنصب القضاء بأمر من السلطان العثماني ، واستشهدت ببعض الحوادث التاريخيةالتي حدثت لبعض أفراد هذه الأسرة فيما يخص نزعتهم الدينية ، وهي النزعة التي ورثها الرافعي عنهم ، وأصبح بها معروفا • ثم تطرقت إلى صممه المبكر الذي ابتلي به وهو في السابعة عشرة من عمره ولم ينل من الشهادات إلا الابتدائية، ثم عكف في داره يدرس الشعر واللغة ، حتى تمكن من إصدار أول جزء مـن ديوانه وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، ثم أتبعه بجزء ثان وثالث ، فإذااسمه يتلألأ في الآفاق ، فكتبت عنه الأقلام وأطنبت ، واستبشر الناس خيرا بمولود جديد في الشعر ، إذ كان الشعر في ذلك الوقت مقدما على النثر ، والشاعر ينظر إليه نظرة إعجاب ، وهذا ماشجع الرافعي على أن ينظم الشعر آنذاك • وبعـد

أن أتم الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، توقف قليلا ، وكأنه يريد أن يرسم لنفسه منهجا جديدا في الأدب يسير عليه في المستقبل • هل يتابع الشعر ؟ أو النثر ؟ وأي نوع من الشعر ؟ وأي نوع من النثر ؟ •

حاول في هذه الفترة أن ينشىء نوعا جديدا من الشعر ، قل أن يتطرق إليه شاعر معاصر ، فنظم الموشحات في ديوان النظرات ، ولقي بعض التشجيع من الصحف[1] ولكنه تشجيع تقليدي أدركه الرافعي نفسه في وجوه القراء ، ولذلك وقف مرة ثانية لينظر إلىما عساه أن يفعل• ولم تطل وقفته في هذهالمرة، إذ حدث حادث عظيم وجهه وجهة هي هذه التي عرف بها بعد ذلك في النثر •

والحادث هو إنشاء الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٨ • وهنا نراه يهتم بما يجري فيها ، ثم ما لبث أن كتب مقالا في الصحف ينادي فيه بمذهب خاص في تدريس الأدب العربي ، وأحدث مقاله ضجة كبرى في الأوساط الأدبية وفي ادارة الجامعة أيضا • فما هي إلا أن دعت الجامعة الأدباء إلى تأليف كتاب في أدبيات اللغة العربية ، وضربت لذلك أجلا •

وفي هذه الأثناء كان داء الصمم قد بلغ أشده ، وعالجه الرافعي بمختلف الطرق ، ولكن بدون جدوى ، على أن هذا الداء لم يحل بينه وبين متابعةالدرس والمطالعة ، بل كان أكبر حافز له على مواصلة النشاط والإكثار من الحفظ إلى أن بلغ درجة كبيرة في التحصيل •

ترك الرافعي المدرسة منذ أن ألم به الداء ، وقد حصل على الشهادة الابتدائية ، وشرع يعمل كاتبا في إحدى المحاكم بمحافظة الدقهلية • ونشط في المطالعة وكثرة الحفظ ، فما هي إلا فترة وجيزة حتى أصبح ينشر المقالات في الصحف ، ويكتب القصص للمسابقة[2] ، وهذا ما أوحى له مرة أن يحترف

---

١ ــ راجع المقتطف ابريل ١٩٠٥ .

٢ ــ راجع حياة الرافعي ص ٢٥١ .

الصحافة ، إلا أن أباه وجهه إلى الأدب[1] وبقي يتصل بالصحافة ، فمرة ينشط كما في أيام إنشاء الجامعة وبعدها بقليل ، ومرة يقل • ويظهر نشاطه الصحفي أكثر في سنة ١٩١٢ في مقالات كان يكتبها في مجلة الزهور والجريدة ، ويقل قليلا بعد ذلك إلى سنة ١٩٢٣ حين كتب (رسالة في العتاب) بأسلوب قديم بعث بها إلى جريدة السياسة لتنشرها • وهنا حدثت معركة صحفية بينه وبين جمع كبير من أهل التجديد ، وفي مقدمتهم سلامة موسى وطه حسين ، وتستمر هذه المعركة مدة طويلة يكتب فيها الطرفان المتخاصمان ، وسرعان ما يتدخل فيها غير واحد من كل فريق ، فإذا الرافعي يحظى بلقب(زعيم الأقدمين) ، وهو لقب إن يحمل في نظر خصومه الانتقاص منه ، فإن الرافعي اعتبره لقبا يعتزبه • ولعله السبب الذي جعله يصمد في أكثر من معركة ضد المجددين ، وخاصة الدكتور طه حسين في آرائه عن الشعر الجاهلي[2] •

ومن سنة ١٩٢٣ إلى ١٩٢٦ كتب الرافعي كثيرا في الصحف ، واستمر يكتب في كل مناسبة إلى أن دعته مجلة الرسالة الى العمل فيها سنة ١٩٣٤ • وبقي يعمل في هذه المجلة إلى أن وافته منيته في شهر مايو سنة ١٩٣٧ •

وانتقلت إلى الفصل الثاني والثالث فتكلمت فيها عن الرافعي المؤلف الناقد ، وابتدأت بالرافعي المؤلف عندما أخرج للناس الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب ، وكان سببه دعوة الجامعة كما أومأنا إلى ذلك ، وموضوعه الألفاظ العربية في تركيبها وتطوراتها والرواية الأدبية •

وبعد سنة واحدة أتم الجزء الثاني الذي أصبح في طبعته الثانية سنة ١٩٢٩ (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ، وموضوعه الصيغ اللفظية والمجازات اللغوية من بلاغة وإبداع •

---

١ ــ راجع وحي القلم ج٣ ص ١١٤ وص ٢٤ من هذه الرسالة .

٢ ــ راجع ص ٦٣ من هذه الرسالة .

أما الجزء الثالث فقد تركه الرافعي ورقات مبعثرة ، فجمعها الأستاذ محمد سعيد العريان وأخرجها كتابا متمما للجزأين السابقين .

وقد عرف الرافعي بسبب هذا الكتاب في الأوساط الأدبية ، وقرظه غير واحد من مشاهير الكتاب ، منهم أحمد لطفي السيد ، وشكيب أرسلان وسعد زغلول ...

وألف الرافعي في النقد كتابين هما : (تحت راية القرآن) و (على السفود) . أما الأول فيعتبر نقدا ذهنيا ، وأما الثاني فنقد لغوي ، ولكل منهما سببه وغايته . وقد استوحى الأول من المعركة التي دارت بينه وبين أهل التجديد من ناحية ، وبين صاحب كتاب (في الشعر الجاهلي) من ناحية ثانية . والكتاب مجموع مقالات بعضها قديم نشره إبان ظهور الجامعة ، والبعض الآخر جديد أنشأه في السنوات الأخيرة بعد ظهور كتاب (في الشعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦ وطبعه في السنة نفسها .

والفكرة التي يدور حولها موضوع الكتاب هي الدفاع عن اللغة العربية وأساليبها البيانية ، ومقاومة كل جديد يرمي إلى هدم القومية التاريخية .

وفي هذا الكتاب يتجلى روح الرافعي الديني وعقيدته الاسلامية ، وقد انتصر له من أدباء العصر المشهورين أمير البيان شكيب أرسلان . واستمر الرافعي يدافع ويدافع ويقاوم إلى أن كتب له النصر ، وصودر كتاب (في الشعر الجاهلي) .

وفي هذه الفترة اشتدت حمية الرافعي ومقاومته لأهل التجديد ، فكان يتصدى لكل واحد منهم بأسلوب خاص . أما سلامة موسى فرماه بالضعف في اللغة والزيغ في العقيدة . وأما غيره فرماهم بأنهم مستغربون أو مقلدون آداب الغرب .

وفي سنة ١٩٢٩ خالجت الرافعي فكرة جديدة هي : أن يدخل في ميدان الخصومة خصما جديدا هو العقاد ، فكتب عنه سبع مقالات نقدية في مجلة العصور دون أن يذكر اسمه ، وهاجمه فيها مهاجمة أليمة . وكان السبب الذي دعاه إلى أن يخفي اسمه ، أن العقاد كان يتمتع بشهرة عظيمة في الأوساط الشعبية ، إذ كان كاتب الوفد ، وحزب الوفد هو الأمة في نظر الشعب . وأخيرا جمع الرافعي هذه المقالات ونشرها في كتاب سماه (على السفود) ، وقدم له بمقدمتين أو ثلاث إحداها له ، والأخرى لصاحب المجلة ، والثالثة للعقاد نفسه ، إن صح أن تكون كلمة العقاد مقدمة .

ومقدمة العقاد التي اختارها الرافعي تعطي للكتاب قيمة إذ فيها بعض الملاحظات الهامة ، كان الرافعي يبثها في كلام العقاد بين معنى ومعنى ، ليدل بذلك على ما يخالج نفسه من مشاعر ، وكانت هذه الطريقة آية في الروعة[1] .

وجاء في مقدمة صاحب المجلة : أن الغرض من إنشاء مثل هذا النقد ، أن يكون مدرسة تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الغرور من الأدباء ؟ غير أن الحقيقة عكس ذلك ، فالنقد وإن كان ظاهره لغويا . فإنه ينال من العقاد ويمسه في أكثر من جانب ، ولذلك يعتبر هذا النقد في واقع الأمر نقدا عاطفيا . ويؤيد هذا الرأي أن كثيرا من أصدقاء الرافعي أنفسهم نقموا عليه هذه الطريقة ، وودوا لو أن صديقهم الرافعي حذف ما يجب حذفه وطبعه ثانية .

وانتقلت الى الفصل الرابع فتحدثت عن الرافعي الأديب في أدبه الانشائي ، وفي مقالاته ، وبدأت بالأدب الانشائي ، فتحدثت عن أول كتاب ألفه وهو (حديث القمر) وقد أنشأه سنة ١٩١٢ بعد أن رجع من لبنان إلى مصر . وكان قد تعرف في إحدى ربى لبنان بشاعرة لبنانية فأوحت إليه هذا الكتاب . وقد وجه الرافعي فيه حديثه إلى القمر ، يستلهمه الوحي في معاني الطبيعة وأسرار

---

١ — راجع ص ٩٣ من هذه الرسالة .

الحياة ، ذلك أن الرافعي كان كما مربنا ينظم الشعر منـذ صغره وبقيت نفسه مفعمة بالمعاني الشعرية ، فكان أن نثرها في هذا الكتاب نثرا •

والكتاب يتحدث عن الحب وتأثيره في النفوس ، كما يتحدث عن الطبيعة وجمالها ، وكان قد أتم تأليفه بعد الجزء الثاني من كتابه (تاريخ آداب العرب)• وأسلوب الرافعي في حديث القمر أسلوب متين ، اختاره ليكون نموذجا للطلبة الناشئين •

وبعد هذا الكتاب بنحو خمس سنوات ــ والحرب العالمية قائمة ــ ألف كتابه المساكين ، وذلك في سنة ١٩١٧ ، استوحى معانيه من الأحداث المؤلمة التي كانت تعيش فيها الانسانية من جوع وقحط وإزهاق للأرواح • وعلى الرغم من أن مصر كانت بعيدة عن ميادين القتال ، إلا أن تأثير الحرب ظهر في حالتها الاقتصادية والسياسية ، وشعر به الرافعي وتألم ، فكان هذا الكتاب •

وقد عمد الرافعي الى فكرة صوفية أخلاقية استوحاها من رجل من بلدة (منية جناج) يدعى (عليا) كان يعيش على الطبيعة ، لا يعرف للدرهم معنى • يجوع فيهبط على أول دار تلقاه ، ويتناول ما يسد رمقه ، ثم يأخذ طريقه إلى حيث لايدري • أعجب الرافعي بهذا الرجل فأطلق عليه لقب (الرجل الالهي) •

والكتاب معارضة لكتاب فكتور هيجو (البؤساء) الذي كان قد ترجمه حافظ إبراهيم ، وموضوعه فلسفة الاجتماع والحب ، والدعوة الى التآخي على أسس إنسانية أخلاقية ، ونبذ النفاق والحرص المقيت •

وألف الرافعي كتاب (رسائل الاحزان) في فلسفة الجمال والحب ، يعارض فيه كتاب (آلام فرتر) الذي ألفه (جوت) الشاعر الالماني ولم يعلن الرافعي عن هذه المعارضة في الكتاب، إنما صرح بها في موضوعات أخرى من رسائله[1]•

---

١ ــ راجع ص ١٢٧ من هذه الرسالة وما بعدها .

والمقارنة الأدبية بين آلام فرتر ورسائل الأحزان تدل في أكثر من جانب على المعارضة[1] وكان الرافعي ــ كما جاء في الكتاب ــ ينتظر من الأدبـاء الذين لهم إلمام باللغة الفرنسية واطـلاع على آداب الغرب ــ وخاصة على قصة آلام فرتر ــ أن يقولوا كلمة طيبة في كتابه ليرتفع إلى مصاف الغربيين ، ولكن الذي حدث أن اتهموا أسلوبه بالعقم والتحجر ، وهو ما أغضب الرافعي وجعله يتحداهم أن يأتوا بمثله .

وشاع عند بعض الأدباء ، أن سبب هذا الكتاب هو حب الرافعي للآنسة (مي) ، وقد عبر الرافعي عن حبه لها بطريقة رمزية كالتي سلكها جـوت في آلام فرتر .

وأسلوب الكتاب أسلوب سلس ، مفعم بالشعـور والاحساس ، حتى أن قارئه يعيد بعض فقراته على سمعه مرة بعد أخرى ، وكأنها موسيقى وجدانية يلتذ بها القلب وينتعش ..

وبعد رسائل الأحزان مباشرة ألف (السحاب الأحمر) وهـو بدوره في الآنسة مي، وموضوعه فلسفة الغضب وطيش المرأة ، وكأنه تعبير نفسي لمشاعره، مما دعا أحد الأدباء أن يتساءل عن سبب ثـورة الرافعي وغضبه ، إذ شك أن يكون قد سمع من صاحبته مي كلمة ، بعد أن قرأت كتابه رسائل الأحـزان ، فهاجته وأثارت مشاعره ، فكتب يقول لها : (يا هذه لا أدري ما تقولين ، ولكن الذي أعرفه ، أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون وهيهات)[3] أو يقول : (يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم ، أن تعلمها أيضا كيف تسكت عن بعض كلامها)[3] .

وفي الكتاب بجانب ذلك حديث عن الأخلاق وعن صاحبته الأولى التي عرفها

---

١ ــ راجع ص ١٢٧ من هذه الرسالة وما بعدها .
٢ ــ راجع ص ١٤٨ من هذه الرسالة وما بعدها .
٣ ــ نفس المصدر .

في لبنان ، تلك التي أوحت إليه بحديث القمر ، وفيه أيضا بعض الفصـول في سمو الحب وفي النفاق الاجتماعي •

وهذا الكتاب يعد جزءا ثانيا لرسائل الأحزان ، لأنه يتصل بنفس موضوعه وهو علاقة الرافعي بمي • وقد ختمها بكتاب (أوراق الورد) وهو يتصل بنفس موضوعهما ، إذ تحدث فيه عن صاحبته مي ، وقـال عنه الرافعي نفسه (إنه تكملة على كتابين وهما السحاب الأحمر ورسائل الأحزان[1] • وقال في أغراضه : إن الهدف منه هو تطهير الحب وتهذيب معناه في نفوس الشباب ، ثم إبراز اللغة العربية على حقيقتها حتى تبدو في ثوب جميـل تبهر الغربيين الذين يتهمونها بالعجز عن تصوير المعاني النفسية)• وجاء في الكتاب بعض المعـاني الشعرية التي تناسب الموضوع ، وجميعها تصوير لخلجات النفس •

ومن أهم كتب الرافعي الأدبية (وحي القلم) وهو يتألف من ثلاثة أجزاء، أتم المؤلف الجزئين الأولين وقام بطبع الثالث الأستاذ محمد سعيد العريان بعد وفاة الرافعي •

والكتاب مجموع مقالات مختلفة ، بعضها في أدب القصة وفلسفتها ، وبعضها في البحوث الأدبية والنقدية ، والقسم الاخير منها مقالات اجتماعية أو وطنية، وكلها تتسم بالقيم الاسلامية العربية • وكان قد نشر أغلبها في مجلة الرسالة بين سنة ١٩٣٤ و ١٩٣٧ •

وأسلوب الكتاب رصين مصقول ، ولم يتعرض له أحد بالنقد على نحو ما تعرض النقاد لكتبه الأخرى ، مما دعا محمد سعيد العريان إلى أن يقول : (إن هذا الكتاب هو آخر ما ألف الرافعي في الأدب ، وهو ما ينبغي أن يقرأ أولا ، لأنه المفتاح إلى تذوق أدب الرافعي وفهمه[2] •

---

١ ــ اوراق الورد ص ١٢ و ص ١٥٨ من هذه الرسالة .

٢ ــ وحي القلم ج١ ص ٧ .

والكتاب في جميع مقالاته المختلفة يحمل بين ثناياه روحا إسلاميا عربيا ، وإن كانت هذه النزعة عامة في جميع كتبه ومقالاته ، إلا أنها في هذا الكتاب أكثر انتشارا واحتداما .

وخرجت من الفصل الرابع إلى الخامس والسادس ، فتحدثت عن مكانة الرافعي الأدبية وخصائصه الفنية ، وبدأت بالحديث عن محافظته . وقد تبين لي أن محافظته على القديم ليس معناه التقليد العقيم ، بل معناها بشهادته هو نفسه : أن الأدب ينبغي أن يبنى على أصوله الأولى في النحو والصرف والبلاغة.. مع التجديد في الأساليب البيانية بما يلائم العصر ، مثله كمثل سائر الفنون الاخرى التي تخضع للتطور والتجديد . ونفى أن يكون في الأدب شيء اسمه (مذهب جديد) أو (مذهب قديم) ، واستدل على ذلك بأن الأدب قد مر عبر العصور الطويلة بمراحل كثيرة ، وتطور أثناءها تطورا ملحوظا، ولكنه لم يسمع مثل هذا الاسم الذي أطلقه عليه دعاة التجديد . وقال : إن الذي ثبت وجاء عن القدماء إنما هو (الطريقة) طريقة الكاتب أو الشاعر ، كالطريقة الفاضلية نسبة الى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي ، أو طريقة أبي تمام . وعلى هذا النحو يرى أن طرق أهل التجديد في الأدب طرق هزيلة ، وما ينادون به تحت اسم التجديد أملاه عليهم ضعفهم اللغوي .

وعلى هذه الفكرة قامت معركة بينه وبينهم ، وكان سببها الرئيسي (رسالة العتاب) التي ألمحنا إليها ، وقد بعث بها إلى جريدة السياسة معقل التجديد ، فأثارت عاصفة من النقد ، وتدخل في المعركة بعض الشبان ، فكتبوا مقالات ينالون فيها من الرافعي وأسلوبه[1] . وكانت هذه الرسالة السبب في أن يلقب الرافعي بزعيم الأقدمين . وكان هذا اللقب بدوره مدعاة في أن ينشط أكثر من ذي قبل في الدفاع عن اللغة وآدابها ، وبقي صامدا في المعركة لايسانده إلا

---

١ ـ راجع جريدة السياسة ٤ / ٦ / ١٣ يونيو ١٩٢٣ .

شكيب أرسلان ، مع أن خصومه كانوا كثيرين •

والغريب في الأمــر أن هؤلاء الخصوم لم يكونوا متفقين فيما بينهم في الاتجاهات الأدبية ، ولكنهم جميعا اتفقوا على محاربة الرافعي ، كل واحد منهم يحاربه بسلاح غير سلاح الآخر ، مع اعترافهم الصريح بأن الرافعي يتقن اللغة العربية ويدرك خفاياها ، وينكرون عليه غموض المعاني •

وما قاله النقاد في أسلوب الرافعي ليس على حقيقته ، فكل مافي الأمر أن أسلوبه جزل ومعانيه عميقة،وذلك أن الرافعي ــ كما أثبت في خصائصه العقلية ــ كان يعيش مع نفسه بعيدا عن عالم الضجيج ، مما جعله يتعمق المعنى كثيرا الى أن يبتعد فيه عن الأذهان •

ولعلي بما قدمت أكون قد أوضحت خصائص الرافعي في نثره ، ووقفت القارىء على انتاجه النثري من جميع جوانبه • ولا أزعم أني قلت في ذلك كله الكلمة الأخيرة ، وإنما هي محاولة جهد طاقتي ، وعسى أن تتبعها محاولات • وعلى الله قصد السبيل •

الاعـــلام

الوارد ذكرها في الكتاب مرتبة حسب الاحرف الابجدية

أ

ب

س

سعد زغلول ـ سعيد بن المسيب ـ سقراط ـ سلامة (جارية) ـ سلامة موسى ـ سهير القلماوي ـ سهيل بن عبد الرحمن ـ السيد قطب ـ السيوطي.

ش

شبلي شميل ـ شطا ـ شكسبير ـ شكيب ارسلان ـ شوبنهار ـ شوقي أحمد ـ شوقي ضيف .

ص

الصاحب بن عباد ـ صادق عنبر ـ صوفي عبد الله ـ صلاح الدين الايوبي ـ الاصمعي .

ط

طاووس ـ الطبري ـ طـه حسين .

ع

عـــاد ـ عبد الحميـد الكاتب ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمار ـ عبـد الرحمن بدوي ـ عبد الرحمن عبـد الرحيم ـ عبـد الرحمن الرافعي ـ عبد القادر الرافعي ـ عبدالله بن أبي وداعة ـ عبدالله بن عمر ـ عبدالله حبيب ـ عبد الله عفيفي ـ عبد الملك بن مروان ـ عطاء بن أبي رباح ـ عباس محمودالعقاد. علي بن أبي طالب ـ عـلي الجارم ـ علي الجناجي ـ علي عبـد الرزاق ـ عمر ابن الخطاب ـ عمر الدسوقي ـ عمر بن العاص ـ عنترة بن شداد ـ عائشة .

غ

غليـوم .

ف

فخر الرازي ـ فرتر ـ فرديناند ـ فكتور هيجو .

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

المجلات والجرائد والكتب
الوارد ذكرها في الكتاب مرتبة حسب الاحرف الابجدية

المجلات

الآداب ـ البلاغ الاسبوعي ـ الثريا ـ الدنيا المصورة ـ الرسالة ـ الزهراء ـ الزهرة ـ الزهور ـ سركيس ـ الشهاب ـ الضياء ـ العصور ـ المقتطف ـ المجلة الجديدة ـ الهلال .

الجرائد

الاخبار ـ الاهرام ـ البصائر ـ الجريدة ـ الجمهورية القاهرية ـ السياسة ـ الشعب الجزائرية ـ المقطم ـ كوكب الشرق ـ المؤيد ـ المساء القاهرية ـ مصر .

الكتب

اثنى عشر عاما ـ آلام فرتر ـ آداب العصر في الشام والعراق ومصر ـ في الأدب الجاهلي ـ في الأدب الحديث ج٢ ـ الأدب العربي المعاصر ـ الأدب والنصوص ـ أدب اللغة والنصوص ـ أدب المقالة الصحافية ـ ارسطو طاليس (فن الشعر) ـ الاصابة في تمييز الصحابة ـ أمير الشعراء ـ الانجيل ـ البؤساء ـ بديع الزمان ـ بلاغة أرسطو ـ البيان والتبيين ج٣ ـ تاريخ أبي خلدون ـ تاريخ آداب العرب ج١ ـ تاريخ آداب العرب ج٢ (إعجاز القرآن) ـ تاريخ آداب العرب ج٣ ـ تاريخ الأدب العربي ـ تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانىء ـ تحت راية القرآن ـ تراجم مصرية وغربية ـ تراجم مصرية وغربية ـ التيارات

المعاصرة ـ الجاحظ (نوابغ الفكر) ـ الجامع الكبير ـ حديث الاربعاء ـ حديث القمر ـ الحيوان ج١ و ج٢ ـ الحيوان ج٥ ـ حياة الرافعي ـ دراسة في أدب الرافعي ـ دراسة وتحية ـ دراسات في الأدب المعاصر ـ درة الغواص في أوهام الخواص ـ دعاء الكروان ـ الديوان ـ ديوان حافظ ـ ديوان البارودي ـ ديوان الرافعي ج١ و ج٢ و ج٣ ـ ديوان صبري ـ ديوان عنترة ـ ديوان الكاظمي ـ ديوان المتنبي ـ ديوان مجنون ليلى ـ ديوان النظرات ج١ ـ ذكرى فقيد الوطن ـ ذكرى مي ـ الرافعي وطه ـ رسالة المنبر ـ رسائل الاحزان ـ رسائل مي ـ رسائل الرافعي ـ رسائل غرام ـ زعماء الاصلاح ـ الزهرة ـ السحاب الاحمر ـ على السفود ـ شوبنهاور (سلسلة) ـ شوبنهاور (سلسلة) ـ الشوقيات ـ أضواء على شوبنهاور ـ طب النفس ـ ظلمات وأشعة ـ الظاهرة القرآنية ـ في ظلال القرآن ـ العالم بين دفتي كتاب ـ العقاد دراسة وتحية ـ علم الجمال ـ العمدة ـ عيار الشعر ـ الاغاني ج٢ ـ غاية الحياة ـ فجر الاسلام ـ فحول الشعراء ـ الفكر الاسلامي الحديث ـ فلسفة الجمال ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ـ فوات الوفيات ـ الكامل في اللغة ـ اللغة العربية ـ اللغة العربية بين حماتها وخصومها ـ ليلى المريضة في العراق ـ أمالي المرتضى ـ المثل السائر ـ المجددون في الاسلام ـ محمد العيد آل خليفة ـ مراجعات في الأدب والفنون ـ المزهر ج١ ـ المساكين ـ مصادر الشعر الجاهلي ـ معجم الادباء ج١٨ ـ مقامات بديع الزمان ـ مناهج البحث في اللغة ـ من بعيد ـ موسيقى الشعر ـ مي في حياتها المضطربة ـ مي وجبران ـ النثر العربي المعاصر ـ نقد النثر ـ وحي الرسالة ج١ و ج٤ ـ وحي القلم ج١ و ج٢ و ج٣ ـ أوراق الورد ـ وفيات الاعيان ج٢ ـ **LA LITTERATURE ARABE**

البــــلدان
الوارد ذكرهــا في الكتــاب
مرتبــة حسب الاحرف الابجديــة

آستــانة ــ المانيــا ــ أسيــوط ــ امريــكا ــ انجلترا ــ أندلس ــ ايتاي البارود ــ ايطاليا ــ باريس ــ بغداد ــ بلبيس ــ بهتيم ــ الجزائر ــ خراسان ــ دقهلية ــ دمنهور ــ رنــدة ــ سانتريس ــ سوريا ــ الشام ــ طرابلس الشام ــ طلخــا ــ طنطا ــ العراق ــ فلسطين ــ القاهرة ــ قليوبية ــ قيسارية ــ لبنان ــ مصــر ــ المنصورة ــ منية الجناح .

فهـرس المراجـع

الكتـاب	المـؤلف	المطبعة	السنة	المكان
آلام فرتر	جوت ترجمة احمد حسن الزيات	الهلال	١٩٢٠	مصر
اثني عشر عاما في صحبة	احمد ابو العز	مصر	١٩٣٢	مصر
آداب العصر				مصر
في الشام والعراق ومصر	سعيد ميخائيل	العمران		مصر
في الادب الجاهلي	د . طه حسين	الاعتماد	١٩٢٧	مصر
في الادب الحديث	عمر الدسوقي	الرسالة	١٩٥٤	مصر
الادب العربي المعاصر	د . شوقي ضيف	المعارف	١٩٦١	مصر
الادب والنصوص	اساتذة	كوستاتوماس		مصر
أدب اللغة والنصوص	محمد محمد خليفة	الكتاب العربي	١٩٦٢	مصر
أدب المقالة	د . عبد اللطيف حمزة	الفكر العربي		مصر
ارسطوطاليس	د . عبد الرحمن بدوي	النهضة	١٩٥٣	مصر
الاصابة	ابن حجر الكناني	مصطفى محمد	١٩٣٩	مصر
أمير الشعراء	محمد صالح سمك	العلوم	١٩٣٢	مصر
الانجيل		الكثوليكية	١٩٥١	مصر
البؤساء	فكتور هيجو ترجمة حافظ ابراهيم	الفكرة		
بديع الزمان	مارون عبود	المعارف	١٩٦٣	مصر
بلاغة ارسطو	ابراهيم سلامه	مخيمر	١٩٥٢	مصر
البيان والتبيين	الجاحظ	لجنة التاليف	١٩٤٩	مصر
تاريخ آداب العرب	الرافعي	الاستقامة	١٩٥٣	مصر
تاريخ الادب العربي	الزيات	نهضة مصر		مصر
تبيين المعاني				
شرح ديوان ابن هانيء	د . زاهد علي	المعارف	١٩٥٢هـ	مصر
تحت راية القرآن	الرافعي	الاستقامة	١٩٥٦	مصر

الكتاب	المؤلف	المطبعة	السنة	المكان
التيارات المعاصرة	د . بدوي طبانة	لجنة البيان	١٩٦٣	مصر
تراجم مصرية	محمد حسين هيكل	نهضة مصر		مصر
الجاحظ (نوابغ الفكر)	حنا الفاخوري	المعارف	١٩٥٣	مصر
الجامع الكبير	ابن الاثير	المجمع العلمي	١٩٥٦	العراق
حديث الاربعاء	د . طه حسين	المعارف	١٩٥٧	مصر
حديث القمر	الرافعي	الاستقامة	١٩٥٣	مصر
الحيوان	الجاحظ	الحلبي	١٩٤٣	مصر
حياة الرافعي	محمد سعيد العريان	الاستقامة	١٩٤٧	مصر
دراسة في أدب الرافعي	نعمات احمد فؤاد	الفكر العربي	١٩٥٣	مصر
دراسة وتحية	طائفة من الادباء	الجيل		مصر
دراسة في الادب المعاصر	محمد عبد الحليم أبو زيد	الفيوم	١٩٥٨	الفيوم
درة الغواص في أوهام الخواص	الحريري	الجوائب	١٩١٨	الاستانة
دعاء الكروان	د . طه حسين	المعارف	١٩٤٦	مصر
الديوان	العقاد والمازني	ط ٢	١٩٢١	مصر
ديوان البارودي	البارودي	الاميرية	١٩٥٣	مصر
ديوان الرافعي ج٢	الرافعي	الجامعة	١٣٢٢هـ	الاسكندرية
ديوان الرافعي ج٣	الرافعي	الاخبـــار	١٩٢٣	مصر
ديوان صبري	اسماعيل صبري	لجنة التاليف	١٩٣٨	مصر
ديوان عنترة	عنترة بن شداد	فن الطباعة		مصر
ديوان الكاظمي	عبد المحسن الكاظمي	الحلبي		مصر
ديوان المتنبي	ابو الطيب المتنبي	الحلبي	١٩٥٦	مصر
ديوان مجنون ليلى	عبد الستار فراج	مصر		مصر
ديوان النظرات ج١	الرافعي	الجريدة	١٩٠٨	مصر
ذكرى فقيد الوطن	محمد صادق عنبر	النهضة	١٩٣٧	مصر

الكتــاب	المـؤلف	المطبعة	السنة	المكان
ذكرى مي	الاتحاد النسائي المصري	العصرية	١٩٤٢	مصر
الرافعي وطه	محمد عبد القادر العماوي	الفكر الحديث	١٩٥٨	مصر
رسالة المنبر	فليكس فارس	المستقبل	١٩٣٦	مصر
رسائل الاحزان	الرافعي	الاستقامة	١٩٥٥	مصر
رسائل الرافعي	محمود ابو رية	الحلبي	١٩٥٠	مصر
رسائل غرام	سليم عبد الاحد	العصرية		مصر
زعماء الاصلاح	احمد امين	النهضة	١٩٥٨	مصر
الزهرة	أبو بكر الاصبهاني	اليسوعيين	١٩٣٢	بيروت
السحاب الاحمر	الرافعي	الاستقامة	١٩٥٥	مصر
على السفود		العصور	١٩٣٠	مصر
شوبنهاور	أندريه كريسون ترجمة احمد كوى	بيروت	١٩٥٨	بيروت
شوبنهاور (سلسلة)	د . عبد الرحمن بدوي	النهضة	١٩٤٢	مصر
الشوقيات	شوقي	الاستقامة	١٩٥٠	مصر
اضواء على شوبنهاور	د . احمد معوض	العربية	١٩٦٠	مصر
طب النفس	د . محمد كمال قاسم	فن الطباعة		
ظلمات وأشعة	مي	بيروت	١٩٥٢	بيروت
الظاهرة القرآنية	مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور	الجهــاد	١٩٥٨	مصر
في ظلال القرآن	السيد قطب	الحلبي	١٩٥٣	مصر
العالم بين دفتي كتاب	دكتورة سهير القلماوي	النهضة		
العقاد ـ دراسة وتحية	رواد الفكر	الجيل		مصر
علم الجمال	دنيس هويسمان ترجمة اميرة حلمي	الحلبي	١٩٥٩	مصر
العمــدة	ابن رشيق القيرواني	السعادة	١٩٥٥	مصر
عيار الشعر	ابن طباطبا	فن الطباعة	١٩٥٦	مصر
الاغاني ج٢	ابو الفرج الاصبهاني	الفكر	١٩٥٥	بيروت

الكتــاب	المـؤلف	المطبعة	السنة	المكان
فجر الاسلام	احمد امين	لجنة التاليف	١٩٣٥	مصر
فحول الشعراء	ابن سلام	المعارف	١٩٥٢	مصر
الفكر الاسلامي	د . محمد البهي	مخيمر	١٩٥٩	مصر
فلسفة الجمال	جاريت ترجمة د. عبد الحميد يونس واستاذين	الفكر العربي		مصر
الفن ومذاهبه في النثرالعربي	د . شوقي ضيف	النهضة		مصر
فوات الوفيات	ابن شاكر الكتبي	النهضة	١٩٥١	مصر
الكامل في اللغة	المبرد	الاستقامة	١٣٦٥هـ	مصر
اللغة العربية بين حماتها	انور الجندي	الرسالة		مصر
ليلى المريضة في العراق	زكي مبارك			
امالي المرتضى	الشريف المرتضى	الحلبي	١٩٥٤	مصر
المثل السائر	ابن الاثير	الحلبي	١٩٣٩	مصر
المجددون في الاسلام	عبد المتعال الصعيدي	النموذجية		
محمد العيد آل خليفة	ابو القاسم سعد الله	المعارف	١٩٦١	مصر
مراجعات في الادب	العقاد	العصرية	١٩٢٦	مصر
المزهر	السيوطي	الحلبي	١٩٥٨	مصر
المساكن	الرافعي	الاستقامة	١٩٥٣	مصر
مصادر الشعر الجاهلي	د . ناصر الدين الاسد	المعارف	١٩٦٢	مصر
معجم الادباء	ياقوت الحموي الرومي	المامون		مصر
مقامات	بديع الزمان	الكاثوليكية	١٩٥٨	بيروت
من بعيد	د . طه حسين	العربيــة	١٩٥٨	مصر
مناهج البحث في اللغة	د . تمام حسان	الرسالة	١٩٥٥	مصر
موسيقى الشعر	د . ابراهيم أنيس			
ميى في حياتها المضطربة	جميل جبر		١٩٥٣	بيروت

الكتــاب	المـؤلف	المطبعة	السنة	المكان
ميى وجبران	جميل جبر		١٩٥٠	بيروت
النثر العربي المعاصر	انور الجندي		١٩٦١	مصر
نقد النثر	قدامة بن جعفر	مصـر	١٩٣٩	مصر
وحي الرسالة ج١ و ج٤	احمد حسن الزيات		١٩٥٦	مصر
وحي القلم ثلاثة اجزاء	الرافعي	الاستقامة	١٩٥٤	مصر
اوراق الورد	الرافعي	السعادة	١٩٦١	مصر
وفيات الاعيان	ابن خلكان	الحلبي		مصر

المجـلات

الآداب
البلاغ
الثريـا
الدنيـا المصورة
الرسالة
الزهراء
الزهرة
الزهور
سركيس عدد ١٢ ـ ١٣ سنة ١٩١٢
الشهاب سبتامبر ١٩٣٨
الضياء
العصور
المقتطف
المجلة الجديدة
الهـلال

الجرائـد

الأخبـار
الأهـرام
البصـائر
الجريـدة
الجمهورية القاهرية
الحـال
السياسة
الشعب الجزائرية
المقطـم
كوكب الشرق
المؤيـد
المساء القاهرية
مصـر

فهرس الموضوعات

المؤلف

ولــد في ١٠ مايــو ١٩١٦ بقرية نــارة ، عمالة اوراس ، الجزائر . تخرج في كلية الآداب، جامعة القاهرة ، قسم اللغــة العربيــة .